بيجين

سيرة حياته

اريك سيلفر

المحتــــــويات

شكر وعرفان

يسعدني أن أعرب عن امتناني لاسرة مناحم بيجين ، ورفاقه فى السلاح ، وزملائه ، والعاملين معه ، ومستشاريه لمشاركتهم لى بذكرياتهم ومعلوماتهم عن هذه الشخصية المعقدة . وأخص بالذكر شقيقته « راشيل هالبرين » التى ساعدت كثيرا فى الكشف عن خلفيته فى السنين الأولى من حياته .

ولقد قدمت لى كل من « سوزان هانيس رولف » و « يسرائيل ميداد » مساعدة قيمة فى البحث فى المصادر العبرية ، وقد تكرما مشكورين بمراجعة المخطوط قبل الطباعة وتصحيح أى انحراف من جانبى عن الحقيقة . كما قدم « نرومان روز » ، من الجامعة العبرية ، و « ديفيد لاندو » من صحيفة الجيروسالم بوست اقتراحات بناءة فى تعديل نصوص الكتاب .

وقد قام كل من « شارون بارنيت » و « رالف مانديل » بترجمة المقالات من الصحف والمطبوعات العبرية الاخرى . بينما قامت كل من « استرفالينشيا » و « باربرابيبرنو » بتفريغ شرائط التسجيل ونسخ المخطوط على الالة الكاتبة على التوالى .

وانتهز هذه الفرصة لاشكر المديرين والعاملين بسجلات دولة اسرائيل ، ومعهد جابوتنسكى ، وادارة الملفات بصحيفة الجيروسالم بوست ، ومجموعة كويسيل من قصاصات الصحف العبرية بمركز أوكسفورد للدراسات العبرية العليا ، والمركز الصحفى للحكومة الاسرائيلية .

واخيرا اقدم شكرى الى رئيس تحرير صحيفة « الجارديان » لمنحه اياى اجازة حتى استطيع انجاز هذا الكتاب ، والى عميد وأعضاء كلية سانت كاترين بجامعة أوكسفورد لكرم استضافتهم لى اثناء المراحل الاولى من اعداد هذا الكتاب .

« اريك سيلفر »

الفصـــل الاول

وليـــد لصـــهيون

ان مناحم بيجين هو أكثر الرجال ثباتا على المبدأ .. ســـواء من حيث العقيدة أو الاهداف أو الايمان بأساطيره الخاصة . وبالرغم من أنه أمضى الجـــزء الاكبر من حياته فى اسرائيل ، فان جذور نزعته القومية اليهـــودية العنيدة الثابتة ترجع الى مسقط رأسه فى « بريست — ليتوفيسك » حيث ولد فى ١٦ أغسطس ١٩١٣ ، كان الطفل الثالث والاخير لكل من « زئيف دوف » ، و « هاسيا بيجين » . ولطالما قدم الرجـــل الذى أصبح فيما بعـــد رئيســـا للوزراء فـــروض الولاء والاحترام لفلاديمير زئيف جابوتينســـــكى بصفته « معلمه وأستاذه » ، بيد أن معظم ذكرياته عن النلس ، فضـــلا عن معظـــم اشاراته الى مشاعر الكبرياء والاعمال البطولية التى ظل يستشهد بهـــا حتى بعد نصف قرن من الزمان ، يمكن اسنادها الى « زئيف دوف » معلم بيجـــين ومثله الاعلى . أما « جابوتينسكى » فقـــد أضـــاف الى ما ســـبق اطـــارا أيديولوجيا وتنظيميا ، وأدى فكره المستنير الى اشـــارة حـــب الاستطلاع فى بيجين وأصبح بالنسبة له نموذجا يقتدى به فى اسلوبه الخطابى ، وبطـــلا معبـــودا .

وكانت مدينة « بريست — ليتوفيسك » ، التى تعرف ايضا بـاســـم « بريسك » ، واحدة من مدن الحـــدود الموجـــودة فى أوروبا الشرقية والتى لم يكن من المعـــروف بالضبط ما هى الدولة التى تتبعهـــا . فقـــد كانـــت فى العصور الوسطى تقع فى صميم دوقية « ليتوانيا » . وخضعت ابان القـــرن العشرين لحكم روسيا وبولندا والمانيا . واليوم تعتبر المدينة عاصـــمة لاقليم « بريست » بجمهورية بيلوروسيا السوفيتية الاشتراكية . وقد نزحت أول جماعة يهودية الى المدينة واستقرت بها خلال القرن الرابع عشر وقامـــت بدور قيادى فى تنميتها وتطويرها لتصبح مركزا للتجـــارة والمواصلات . وعلى الرغم من أن اليهود مروا بفترات مختلفة تخللها حصولهم على امتيـــازات وتعرضهم للاضطهاد ، الا أنهم برزوا كمستوردين ومصدرين وملاك للاراضى ومقاولين وكرجال علم ودين .

وكانوا يتصفون بالايمان المعميق ولكن ايمانهم كان ذا صبغة دنيـــوية وكانت « بريســـت » معقـــلا لجماعـــة المتناجم الذين كانـــوا يرفضـــون التطرف وعندما طرد جميع اليهود الذين رفضـــوا التحـــول عن دينهـــم من ليتوانيا لم يشذ عن القاعدة سوى تاجر واحد فقط اعتنق المسيحية . وقد سمح لباقى اليهـــود بالعودة الى المدينة بعد ثمانى سنوات من ذلك التاريخ ،

عندما أعاد الدوق النظر فى الموضــوع . وأصبح اليهـــود ، عنـدما ولد « مناحم بيجين » ، يشكلون ٧٠٪ من سكان المدينة . وبلغ عددهم عام ١٩٣٩ عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، حوالى ٣٠ ألف نسمة . وقد وجـد بمدينة « بريســت » عندما تم تحـريرها من قبضـة النــازية ، ما يقل عن ١٠ فقط من اليهود . وتفيد دائرة المعارف اليهودية بأن « عدد السكان اليهود (بالمدينة) بلغ عام ١٩٧٠ حوالى الفى نسمة . ولا يوجد بها معبد حيث تم تحويل آخرها فى عام ١٩٥٩ الى دار لعرض الأفلام » .

وكانت مدينة « بريست » ، التى عاش « مناحم بيجين » شبابه فيها ، مدينة يهـودية مزدهرة بالفعل ــ حتى لو أخذنا فى الاعتبـار اللون الوردى الذى قد تضفيه الذاكرة خلال خريف العمر على الذكريات الخاصة بمرحـلة الشباب ــ فهو يذكر أن المدينة : « كانت مليئة بالمعـابد والمعاهد الدينية . وكانت هناك مدارس يهودية تستخدم فيها اللغــة العبرية للتعليم . وكانت توجد بها حركات شبابية عظيمة تضم آلاف الاعضاء . وكنا نخرج فى عيــد « لاج باعومر » (عيـد لليهـود ــ ١٨ آيار) الى الشـوارع فى استعراضات تضم آلاف الاشخاص الذين يحملون الاعلام الزرقاء والبيضاء والذين يتفاخرون بيهوديتهم . وكانت الحياة الثقافية لليهـود غنية ، بما تذخر به من صـحف ومسارح ، فقد كانت لنا حياتنا المستقلة » .

ويمكن القول بأن مناحم بيجين « كان منذ ولادته صهيونيا بمعنى الكلمة وكانت الحكيمة التى أشرفت على ولادته هى جدة « اريل شارون » ، الذى أصبح فيما بعد جنرالا اسرائيليا ووزيرا للدفاع .وقد بعث الصـــهيونيون المحليون بكعكة على هيئة باقـة من الورد فى مناسـبة الاحتفال بختانه بعـد ثمانية أيام من مولده . وكان « زئيف دوف بيجين » و « ثيودور شينرمان » جد شارون من بين الرواد الاوائل للحركة الصـهيونية فى « بريست » عندما كانت تلك الحـركة مازالت فى مرحلة النضـــال من أجل اثبات الـذات ، وقـد قـام « زئيف دوف » و « شـيزمان » بكسر بـــاب المعبـــد الرئيسى فى بريســـت بالفـأس ، بعـد وفـــاة « ثيـودور هيرتـزل » مؤسس الصـــهيونية السياسية فى عام ١٩٠٤ ، عندما رفض الحـــاخام « حاييك سولوفيشك » السماح لهما باقامة الصلاة على روحه ، وأخـذا معهما مفتاح المعبد . لقد كان الحاخام يعتبر « هيرتزل » مفرطا فى العلمانية اكثر مما يجب ، ولكن الصهيونيين نجحوا فى اقامة القداس حتى بالرغم من أن ثلاثة أشخاص فقط هم الذين حضروه .

ولقد كان « زئيف دوف » عصاميا ، ولم يتعـد مرحلة التعليم الاساسى وهى مرحلة الدراسة الاولية فى احدى المدارس الدينية التقليدية الخاصـــة بأطفال اليهود ، والتى التحق بها فى سن الثالثة وتركها بعد أربعة عشر عاما وهو يحمل دبلوم الدراسات الدينية . وقد أمضى حياته ملتزما باليهـــودية

ولكن دون تطرف . وتذكر ابنته «راشيل هالبيرين» انه كان يرتدى «التيفيلين» (وهى اربطة جلدية شعائرية يرتديها اليهود المتدينون كل صباح حول سواعدهم وجباههم ، ولكنه كان يفعل ذلك عادة داخل المنزل أكثر مما كان يفعله فى المعبد . ولم يكن يتلو كل صلوات الصبح والعصر والمساء . ولم يكن يرتدى قبعة داخل المنزل الا عند مباركته للطعام . وكانت لحيته مشذبة كما كان يطلب من اطفاله أن يغسلوا أسنانهم أثناء صيام « يوم كيبور » — على عكس التقليد الارثوذكسى المتشدد — ولكن على شرط ان يحترسوا من ابتلاع الماء . فكان يقول لهم « انكم اليوم ستكلمون الرب » ، ولذلك يجب أن يكون فمكم نظيفا » . وعندما اضطرت « راشيل » ، التى تكبر « مناحم » بخمسة أعوام ، الى التوقيع يوم السبت على بعض الاوراق الخاصة بجامعة وارسو ، قال لها والدها انه يمكنها أن تفعل ذلك دون أن يكون فى ذلك اعتداء على السبت « مؤكدا لها أن المعرفة تعتبر بمثابة مسألة حياة أو موت ، ولذلك فعليك أن توقعى » .

ولقد اطلع — زئيف دوف — لاول مرة على الحضارة الاوربية بعد مغادرته للمدرسة الدينية بوقت وجيز ليعمل فى تجارة الاخشاب مع والده . فقد لمس كاتب حسابات المانى الجنسية يعمل مع والده ما لديه من قدرات ، وشجعه على الهرب للدراسة فى برلين . ولكن سرعان ما ادركه والداه واعاداه اليهما وقاما بتزويجه على غير ارادته . ولم يدم زواجه اكثر من عام انتهى بطلاق « زئيف دوف » زوجته على الرغم من انه رزق منها بابنة . ومضى خمسة وعشرون عاما تقريبا قبل أن يفكر فى الزواج مرة ثانية . وكانت عروسه « هاسيا كروموفسكى » هى ابنة أسرة « ربانية » بولندية . وكان قد بلغ من العمر ثلاثة واربعين عاما بينما كانت هى فى العشرين من عمرها . ولم تكن تتكلم الا باللغة اليدية ، (وهى لهجة المانية قديمة تتخللها كلمات عبرية وسلافية) ، ولكن ذلك لم يحد من تعطشها للمعرفة ، وتقول ابنتها « راشيل » لقد قرأت أعمال جميع الكتاب العالميين العظام « باليدية » ، وكانت تتمتع بفضول عميق وذكاء حاد وشخصية قوية . وكانت تواقة طوال الوقت للمعرفة ولا شىء غير المعرفة(٤) .

وكثيرا ما كانت تجارة الاخشاب تقود « زئيف دوف » للسفر الى الخارج ، وبصفة خاصة الى برلين . وتؤكد مسز « هالبرين » : « انه كان من أكثر المحبين للالمان » . وتقول : « أننى أذكر عندما كنت فى السادسة من عمرى ، فى بداية الحرب العالمية الأولى انه كان يصطحبنى فى نزهات سيرا على الاقدام ويقول لى « الا تعلمين أن الالمان قادمون ، أن لهم حضارة مختلفة عن الحضارة الروسية » . وكان يتحدث اللغة اليدية والعبرية والروسية فضلا عن الالمانية . وعندما تعلم أبناؤه اللاتينية فى مرحلة الدراسة الثانوية التقطها منهم . وكان « زئيف دوف » ، مثل أصغر ابنائه ، يحب التشدق بعبارات لاتينية أمام البسطاء . فقد ردد مثلا فى احدى المناسبات عندما طلب منه بعض

اليهود السذج أن يتوسط فى خلاف ما عبارة باللاتينية معناها « ان القانون قاس ، ولكنه القانون » ، الامر الذى أصاب اليهود بالذعر .

وكان « زئيف دوف » فى يهوديته ، يؤمن بمذهب الفعالية . (وهو مذهب يؤكد على ضرورة اتخاذ الاجراءات الفعالة أو العنيفة لتحقيق الاغراض السياسية) وكان يرى أن العقيدة اليهودية والقومية اليهودية شىء واحد . وقد غرس فى أبنائه الشعور بالفخر ازاء انتمائهم لليهودية . وكانوا أثناء تعليمهم الجامعى يذكرون دائما أن لغتهم الاصلية هى العبرية ، عندما يطلب منهم تحديد لغتهم . وكان أكبر ابناء « بيجين » يرفض التحدث البولندية التى كان يحتقرها بصفتها لغة معادية للسامية (ويرفض «مناحم» أيضا حتى يومنا هذا استخدام تلك اللغة ، بالرغم من أنه تلقى تعليمه فى مدرسة ثانوية بولندية ثم فى جامعة وارسو) .

وكان « زئيف دوف » يردد دائما على أسماعهم ، ويغرس فى عقولهم « المغزى الحقيقى » من قضية « بيليس » التى دار حولها « حملة تشهير دموية » والتى وقعت بمدينة « كييف » ، ابان خريف عام ١٩١٣ ، اى عام مولد « مناحم » كان « مينديل بيليس » ، وهو يهودى روسى يبلغ من العمر ٣٧ عاما ، قد قدم للمحاكمة بتهمة قتل ولد مسيحى يبلغ من العمر اثنى عشر عاما ، تنفيذا لبعض الطقوس الدينية . وتمت تبرئة « بيليس » بعد أن أمضى عامين فى السجن فضلا عن شهر استغرقته المحاكمة ، بيد أن حملة التشهير استمرت تغذى الحملات المعادية للسامية فى جميع انحاء اوروبا .

وتقول مسز هالبرين : « ان والدنا كان يردد علينا ماقاله محامى « بيليس » لموكله اثناء المحاكمة : اذا حكم عليك بالسجن لمدة ٢٥ عاما فى سيبيريا ، مع الاشغال الشاقة ، فعليك الذهاب بشجاعة . فان يهود أسبانيا ذهبوا الى حيث اعدموا حرقا وهم ينشدون « اشهدك يا اسرائيل » (وهى ترنيمة دينية تتضمن أركان الدين اليهودى) . وعندئذ قال المحلفون : « لقد شاهدنا اليهود » . وكان والدنا يروى لنا هذه القصة بتوكيد شديد » .

وثمة محاكمة اخرى كان زئيف دوف ، يشير اليها مرارا . وهى محاكمة الكابتن « الفريد درايفوس » ، اليهودى الفرنسى الذى ادين بالباطل بتهمة الخيانة فى سنة ١٨٩٤ . وكان والد بيجين يحمل عصا يعلوها مقبض من الفضة فى شكل راس « اميل زولا » الذى ناصر «درايفوس» وتحته نص من كتاب زولا : « انى أتهم» . وكان « زئيف دوف » يسير بصحبة احد الاحبار فى احد الايام عندما حاول عسكرى بولندى برتبة رقيب ، أن يحلق ذقن الحبر — الامر الذى كان يعتبر بمثابة « رياضة » محببة منتشرة بين المعادين للسامية — ويقول « مناحم بيجين » فى هذا الصدد :

« لم يتردد والدى فى أن يضربه بعصاه على يده • وكانت عملية ضرب اى رقيب بولندى فى تلك الايام تعتبر ايذانا ببدء مذبحة • واعتقـــل الحبـــر ووالدى ، وسيقا الى النهر حيث هددهما بالقائهما فيه ، وضربا حتى سالت دماؤهما • وعاد والدى الى المنزل فى حالة سيئة ، ولكنه كان سعيدا • وقال انه دافع عن شرف الشعب اليهودى وعن شرف الحبر • ولذلك فقد انطبـــع فى ذهنى منذ الطفـولة شيئان همـا : تعرض اليهـود للاضطهاد ، وشجاعـة اليهود » (٧) • لقد قدم مناحم بيجين أقصى ماعنده من اجلال وتقدير وعرفان لوالده عندما قال : « لم اعرف قط رجلا اكثر شجاعة منه • ولقد عملت طوال حياتى بين اشخاص يتميزون بالشجاعة ، وربما كان هذا قدرا مكتوبا • ومع ذلك فاننى لن انسى ابدا كيف قاتل والدى دفاعا عن الشرف اليهودى » •

وكثيرا ما عانت أسرة بيجين من العوز • وقد عمل « زئيف دوف » فى فترة ما بأحد البنوك ، ولكنه فقد وظيفته عندما كشف لصحيفة تصدر باللغة الييدية « عن فضيحة مالية » بيد ان الاسرة لم تشهد أياما عصيبة مثل تلك التى مرت بها ابان الحـــرب العالميـــة الأولى وفى اعقابهـــا فقد كانت مدينة « بريست » تعتبر مدينة عسكرية ، وكان حكامها الروس يخشون غزو المانيا لها • ونفى « زئيف دوف » الذى كان يتباهى بميوله نحو ألمانيا ، الى سان بطرس بورج ثم الى وارسو ، تاركا وراءه زوجته وابناءه بدون عائل • وعندما تقدم الالمان نحو مدينة « بريست » قام الروس باجلاء جميع السكان عنهـــا واحرقوها عن آخرها • واصطحبت « هاسيا بيجين » ابنتها وولديها للاقامة عند احد الاعمام فى قرية « دوركيتشين » بالقرب من مينسك بروسيا البيضاء •

وكان المنزل صغيرا • يكاد يشبه الكوخ • أقامت أسرة « بيجين » فى غرفة واحدة ، وكثيرا ما كانوا يضطرون الى توفير مكان بها لمبيت العمـــات والاعمام القادمين من المدينة • وكان « مناحم » لا يزال طفلا صغيرا آنذاك ، ولكن شقيقته « راشيل » تذكر احداث تلك الفترة بوضوح • فقد تعرضت القرية بعد اشهر قليلة لنفس مصير مدينة « بريست » حيث احرقت عن اخرها عند تقدم الجيش الالمانى نحوها واجبر الفلاحون المحليون على مغادرة القرية ، وتعرض اليهود للتهديد بالذبح على أيدى جنود الفرسان الروس •

وتقول راشيل عن تلك الفترة :

« لقد سمعنا بكاء القرويين • وقام الروس بطرد جميع المزارعين حتى لا يعملوا فى خدمة الالمان ، والا يزودوهم بالاغذية • واذكر حتى يومنا هـــذا صوت نحيب الفلاحين وفجأة اقترب أحد جنود القوزاق من النافذة المغلقة والمسدل عليها الستائر والخاصة بحجرتنا • وكان ارتفاع النافذة لا يزيد

عن ارتفاع أرجل حصانه ولذلك فلم نستطع رؤيته ، ولكنه طرق بعنف على الباب وقال صائحا : « من يقيم هنا ؟ زيدى ؟ أم روسى » . وكانت كلمة « زيدى » هى صفة يطلقها الروس على اليهود تحقيرا لهم . وكان عمنا يتكلم باللهجة الروسية ، فاقترب من النافذة ورد عليه قائلا : « روسى » ولا أعرف كيف اسعفته البديهة ، لكن لولا ذلك لقضى القوزاقى علينا » .

ثم تستطرد « راشيل » ..

« وفى احدى الليالى ، صدرت الينا التعليمات بالاتجاه الى الحقول لان القوزاق كانوا يشعلون النار فى قريتنا . وشاهدت بعينى أحد جنود القوزاق وهو يصب البترول ويشعل فيه النار . واتجهنا جميعا الى حقل كبير ، وكان البعض قد بدأوا فعلا فى حفر الخنادق — وكان كل اليهود تقريبا موجودين هناك . وساد الصمت التام ، ولم يسمح لنا بالتفوه بكلمة واحدة . وكان الالمان قد اقتربوا بالفعل ، فقد كانت طلقات مدافعهم على مرمى سمعنا . وعدنا فى الصباح الى منزل عمنا ، فوجدناه قد احترق تماما . فاتجهنا الى منزل آخر . ووصل الالمان فى الصباح الباكر . كم كانت فرحة اليهود كبيرة برؤية الالمان . لقد كنا جميعا نفترش الارض ، وكنا اعدادا غفيرة . وقبل وصول الالمان كنا مضطرين الى دفع اتاوات لجنود القوزاق حتى لا يقضوا علينا . ولكن الالمان عاملوا اليهود معاملة رائعة » .

وبعد فترة قصيرة من ذلك الحين ، تمكن « زئيف » من شق طريقه الى القرية التى يقيم فيها أخوه . وتم لم شمل اسرة « بيجين » فى اعقاب تقدم الالمان وعندما مرت الاسرة ، مرة اخرى ، بأوقات عصيبة ، انتقلت الى قرية أخرى ثم الى مدينة كوبرين . وكان « زئيف دوف » يكسب عيشه عن طريق نسخ الالتماسات باللغة الالمانية للامبراطور . وتستعيد مسز « هالبرين » ذكرياتها عن تلك الايام العصيبة التى مرت بها الاسرة ، فتقول :

« لقد كنا نتضور جوعا ، ونتمنى كسرة عيش » وكنا نحن الخمسة نقيم جميعا فى غرفة واحدة . وكان الالمان — الذين كانت تربطنا بهم علاقات ودية للغاية — يصطحبون أمى كل شهر وبرفقتها الصغير « مناحم » فى عربة يجرها الخيل الى القرية حيث كانت تقوم هى وعمى بقطع الاشجار ، واحضار الاخشاب لنا للتدفئة . وكان والدى يبقى مع الاطفال . وكنت قد أصبحت فتاة كبيرة ، فتوليت رعايتهم . وكنا نحتفل بعودة أمى بعد غيابها الذى كان يمتد لبضعة أيام . اذ كان كل شىء معدا لذلك : لقد كان لدينا الخشب والبطاطس للطهى ، ويرجع الفضل لامى فى استمرارنا على قيد الحياة ابان تلك الحرب . لقد كانت ذات طبيعة رومانسية ، ولكنها كانت فى الوقت ذاته قوية وتتمتع بشخصية فى غاية القوة » .

وبقيت « بريست » تخضع للحكم الالمانى بعد الحرب ، ولكن لم يسمح للسكان بالعودة حتى عام ١٩١٩ . وكان « زئيف دوف » واحدا من أول اليهود العائدين ، تاركا أسرته فى « كوبرين » . ومرة أخرى عاد الى نسخ الالتماسات بالالمانية كوسيلة لكسب العيش . وكانت «راشيل » وباقى الأطفال يرتقبون زياراته الأسبوعية لهن فى عطلة السبت بفارغ الصبر .

كما تقول مسز « هالبرين » عن تلك الايام

« كان والدى يمتلك قبعة سوداء عالية ، من النوع الذى يرتدى فى المناسبات الرسمية .وفى احدى المرات ، خرج مناحم الصغير من المنزل ورأى احدى قريباتنا تجلس على الدرجات ، ومسحة من الحزن تعلو وجهها . فسألها : « لماذا أنت حزينة ياعمة ؟ أليس معك نقود ؟ نحن أيضا لم يكن لدينا نقود ، الا أن ابى اصبحت لديه الآن قبعة عالية مليئة بالنقود » . فقد كانت أمى تحتفظ بالنقود فى القبعة . لقد كانت ظروفنا قبل ذلك صعبة جدا ، وقد اعتادت أمى أن تضع الولدين بعد ظهر كل خميس فى السرير حتى تستطيع أن تغسل ملابسهما ، ثم تقوم يوم الجمعة بكيها ليرتدياها بعد الظهر ويخرجا بها قائلين انهما اصبحا يمتلكان بدلا جديدة لقد كانت أمى قوية جدا ، ولكنها قالت لى انها بكت فى احدى المرات وكان ذلك عندما قام جار غنى بشراء كعكة من المخبز ، ولم يكن فى وسعنا شراء الكعك ، واتجه أخى الصغير اليه وقال : « أرجو أن تسمح لى بشمها ؟ وعندئذ لم تملك أمى منع نفسها من البكاء » .

وتحسنت الاحوال عندما انضمت أسرة « بيجين » الى « زئيف دوف » فى « بريست » وعين الأب فى منصب سكرتير عام الرابطة اليهودية الامر الذى ضمن له دخلا ثابتا وان لم يكن كبيرا . وعندما بدأ الأطفال الثلاثة يشبون ، ساهموا فى زيادة دخل الأسرة عن طريق اعطاء دروس خصوصية . لقد كان ذلك فى وقت ملىء باعادة التشييد والبناء والمؤسسات وشغل « زئيف دوف » فى وقت ما منصب رئيس مجالس ادارة سبع منظمات مختلفة فى وقت واحد . ولكن عندما عاد البولنديون ليحلوا محل الألمان فى حكم المدينة ، اتهموا جميع اليهود بانهم شيوعيون خطرون . ولقد كان بعضهم كذلك بالفعل . وساعد « زئيف دوف » سبعة عشر عضوا من الحزب الشيوعى على التخفى كطلبة فى المعاهد التلمودية وبعثهم الى بلدة « فيلنا » الأكثر أمنا نسبيا . وظل شيوعيو « بريست » لسنوات طويلة بعد ذلك يطفئون سجائرهم كلما شاهدوه يتمشى أثناء عطلة السبت ، كرمز على تقديرهم له .

وقد حقق « مناحم » الشاب تفوقا فى العلوم الانسانية اثناء دراسته الثانوية فى مدرسة بولندية . وتمسك خلال تلك المرحلة ايضا بيهوديته ، فكان يرفض باصرار الكتابة فى أيام السبت . وقد رد مدرس اللغة اللاتينية على

ذلك بأن أعطاه تقديرا بمرتبة ضعيف . وقال « مناحم بيجين » فى حديث أدلى به لشاب اسرائيلى ، بعد أربعة عقود من ذلك التاريخ : « لقد قلت للمدرس ان هذه هى معتقداتى ولن أغيرها ، ولن اكتب فى عطلة السبت تحت أى ظرف من الظروف . وبعد فترة هدأ ومنحنى الدرجات المرتفعة التى اعتدت الحصول عليها » .

وظل « مناحم بيجين » أرثوذكسيا فى معتقداته ، وان لم يبق ملتزما بمعتقداته المتزمتة . فكان يصر مثلا أثناء رحلاته كرئيس وزراء على تناول الطعام الشرعى اليهودى ، بينما اشترك فى السير فى جنازة أنور السادات التى جاءت يوم السبت . كما انه لم يعد يذهب الى المعبد كل يوم أو حتى كل سبت . وهو لا يخفى انه كان يستمع الى الاذاعة أيام السبت (سواء اذاعة صوت اسرائيل أو اذاعة بى . بى . سى العالمية) ومن المعروف انه علم بمذبحة بيروت فى سبتمبر ١٩٨٢ من خلال الاذاعة . وكان التزامه الدينى ينطوى على بعض التظاهر ، لا دراكه انه يمثل الحركة التى ينتمى اليها فضلا عن اسرائيل . فقد صام بمناسبة يوم الغفران ، اثناء اعتقال البوليس السرى السوفيتى له . كما انه عندما كان زعيما للمعارضة سنة ١٩٥٣ ، وصل الى جوهانسبرج فى وقت متأخر من يوم الجمعة ، نظرا لعطل أصاب الطائرة التى اقلته . واصيب خمسة آلاف صهيونى من مؤيديه الذين حضروا لاستقباله بالفزع عندما امتنع عن استخدام السيارة الليموزين التى تنتظره ، وامضى الليلة فى فندق المطار .

وعانى « مناحم » اثناء دراسته بجامعة وارسو ، من هجمات المعادين للسامية له كما عانى من فقره النسبى ، وقد أرسلت الحكومة البولندية له ، بعد توليه رئاسة الوزراء ، « البوما » يحتوى على المستندات الخاصة به والتى كانت محفوظة فى سجلات الجامعة .وحيث انه لم تكن هناك علاقات دبلوماسية قائمة بين بولندا الشيوعية واسرائيل الصهيونية ، فان الهدية وصلته بلا مقدمات من خلال السفارة البولندية فى لندن ومجلس نواب اليهود البريطانيين وقدم « بيجين » جزيل شكره الى البولنديين ، ولكن بالانجليزية . وكانت هناك من بين الخطابات والصور الموضوعة داخل ثلاثة وعشرين مظروفا ، مكاتبة تحتوى على التبرير الذى تقدم به طالب الحقوق لعدم استطاعته دفع المصروفات الدراسية فى موعدها ، وتفيد بأن أسرته لاتستطيع اعالته وأنه مضطر لأن يعمل اثناء دراسته ، ووافقت السلطات على طلبه بدفع المصروفات على أقساط .

ويمكن القول ان « زئيف دوف بيجين » كان يتصف دائما بالتهور فى رفضه الخضوع للسلطات الحاكمة ، أيا كانت تلك السلطات . ومن حسن حظه انه نجا سنة ١٩١٤ من السجن أو الموت على أيدى الروس نتيجة لموالاته الصريحة للالمان . وتعتقد ابنته أن السبب الوحيد لصفح الروس عنه هو انه

كان يسب الشطرنج مع الضباط (وهى هواية أخرى ورثها ابنه عنه) . فمثلا ، كان قد التمس فى سنة ١٩٢١ ، بصفته مسئولا يهوديا ، من « جوزيف بيلصا دسكى » المدير البولنــدى ، أن يصرف تموين طوارىء للطائفـــة اليهودية . ورد عليه بيلصا دسكى قائلا انه سيرسل الطعام الى اليهود ، فى حالة واحدة فقط وهى قيام زئيف دوف ، بافشاء أسماء وعناوين اليهود المتلاعبين بالاسعار . ورمى « بيجين » الطلب فى وجه الماريشال قائلا له « ان اليهود ليسوا بمخبرين ، وانه يستطيع ان يطلب من بوليسه السرى اداء اعماله القذرة . وعندما وصل النازيون الى « بريست » سنة ١٩٣٩ ، امر مرة أخرى على حقه فى التكلم نيابة عن اليهود . وسرعان ما أدرك « زئيف دوف » ــ الذى كان قد بلغ العقد الثامن من عمره ــ أن هؤلاء الالمان كانوا نمطا مختلفا عن اولئك الذين أعجب بهم ابان شبابه .

ولم ينج من الحرب ، من بين أفراد أسرة « بيجين » ، ســوى مناحم وزوجته « اليزا » ، وشقيقته راشــيل وزوجهـــا المحامى ، « ياهوشـــوا » وهلك والداه وشقيقه « هيرتزل » الذى كان من علماء الرياضيات النابغين . وكذلك هلك طفل « راشـــيل » الصغير الذى تركته فى رعاية أمهـــا . ومن المعروف أن « هيرتزل » الذى كان يكبر بيجين بثلاث ســنوات ، قد تعرض فى سبتمبر ١٩٤٩ لحيلة قاســية لعبها الالمــان ضده ، اذ انه كان واحـــدا من مجموعة من الشباب اليهــود الذين أجبروا على الوقوف صفا واحـــدا ووجهه الى الحائط فى ساحة الســـوق . وقد وصف « هيرتزل » « لديفيــد جوتان » ، أحـــد زملاء « مناحم » فى قيـــادة منظمة « بيطـــار » ــ وهى جماعة الشبيبة فى حركة جابوتينسكى ــ تفاصيل الواقعة وروى لـــه كيف أحاط الجنود بهم وهم يحملون مدافعهم الرشاشة ، ولكن عنـــدما صـــدرت اليهم الاوامر باطلاق النار ، اطلقوا الرصاص فى الهـــواء . وعندما ســئل « هيرتزل » عمـــا كان يراوده أثناء ترقبـــه المـــوت ، رد قـــائلا « انـــه ركز تفكيره فى حـــل مســـألة جبر . ولــم يتمكن من حلهـــا حتى انقضـــت فترة الانتظـــــار .

وتتضارب الروايات عن نهاية « زئيف دوف » ويفضـــل مناحـــم الرواية الاكثر دراميــــة :

« لقد قيل لنا انه غرق فى نهر باج مع خمســـة آلاف يهودى، آخـــرين حيث أخذوا الى النهر وفتحت عليهـــم نيران المدافـــع الرشـــاشة من كـــلا الجانبين . وقال الناجون « ان النهر صبغ فعـــلا باللون الأحمـــر من الدماء المراقة . وكان والدى ، بصفته سكرتير الطائفة اليهـــودية ، أول الهالكين . وقيل لنا أن اليهود بدأوا ــ بمبادرة منه ــ ينشـــدون نشـــيد « هيتاكفا »

(وهو النشيد القومى الصهيونى) وكذلك انشـــدوا « انى مؤمن » . وهكذا مـــات والـــدى » .

وتستعيد راشيل هالبرين هذه الرواية على انها من الاساطير الشعبية :

« ان ما أعرفـــه ، وهو ما ذكره لى اصدقائى فى بريســـك ، أن الألمان أصدروا قانـــونا يحرم على اليهـــود دفن موتاهم . وذهب والدى لدفن أحـــد اليهـــود فى المدافن . واقترب منه أحـــد الالمان وسأله عما يفعـــل . فقـــال بالالمانية انه يدفن أحـــد الموتى ، فقتله الجنـــدى على الفـــور . وأنا لا أعرف شيئا عن باقى أسرتى . لقد هلكوا مع جميع اليهـــود الاخرين . ولكننى أعرف كل التفاصيل بشأن أبى . وأنا أعرف اسم اليهـــودى المتـــوفى وانه قـــد دفـــن بالفعـــل .

ومهما كانت الحقيقة ، فان الروايتين كلتيهما تنطـــويان على نمـــط من البطولة تتفق وشخصية « زئيف دوف » ، فهو لم يكن من نوع الرجـــال الذين يساقون فى هدوء الى غرفة الغـــاز . ويرى « بيجين » أن الدرس الذى خرج به اليهود من تجربة « الهلوكست » — أو الابادة الجماعية بالحرق — يتلخص فى التحذير الذى وجهه « جابوتنسكى » الى يهود أوروبا : « اذا لم تضعوا حـــدا لشتاتكم فان الشتات — أو الدياسبورا — ستضع حدا لوجودكم ؟ . وقال « بيجين » ، بصفته رئيسا للوزراء ، ان « الهلوكست » كان المحـــرك الرئيسى وراء كل ما عمله هو وجيله .

« كانت المحنة الحقيقية لحياتنا كيهود هى عدم قدرتنا على الدفـــاع عن انفسنا ، على مدى قرون عديدة ، وابان جيلنا بصفة أساسية . ولا يجب أن يتكرر هذا مرة أخرى ابدا . ولذلك فقـــد قررنا أن نحمـــل السلاح وان نقاتل من اجـــل التحرير ، حتى يكون لدينـــا دولة وجيش — اى تـــكون لدينـــا وسيلة للدفاع القومى . ان هذا هو الدافـــع الاول لجميع تصرفاتنا . وان نضمن أمن الدولة اليهـــودية وان نضمن حرمة وحصـــانة حدودها ، وهو المحرك الثانى لسلوكنا ، سواء كان ذلك عنـــدما كنا فى المعارضة أو الان ونحـــن فى الحكم » .

ولا يوجد فرد واحد من صهاينة ما بعد الحرب ، يفكر فى مناقشـــة هذه النظرية . والامر الذى ينحصر فيه اعتراض البعض هو أسلوب « بيجين » فى تطبيقها ، وتشبيه جميع اعداء اسرائيل بالنازيين ، واعادة « الهلوكست » الى الاذهـــان كتبرير لحرمان عرب فلسطين من تحقيق طموحاتهم الوطنية ، وارهاب الساسة الاجانب والضغط عليهم . لقد خاطر « بيجين » فى بعض الاحيـــان بالتقليل من شأن المأســـاة اليهودية ، الامر الذى أعطى منتقدى

اسرائيل ذريعة لانتهاك المحظور والقذف بفكرة « الحل النهائى » فى وجهه :

لقد ختمت مذبحة ٦ ملايين يهودى أوروبى على قلب « بيجين » بكراهية ابدية لكل ما هو المانى . ولقد قاوم ، بصفته زعيما للمعارضة خلال الخمسينيات والستينيات ، بمرارة وأحيانا بعنف ، فكرة اجراء أى اتصال بين اسرائيل والمانيا الاتحادية ، حتى تحت حكم « كونراد أديناور » ، المناهض للنازية . وقد حافظ ، أثناء توليه رئاسة الوزراء ، على العلاقات الطيبة مع الساسة والدبلوماسيين الالمان ، فى أضيق الحدود ، وقاد حملة ثأرية ، لا داعى لها ، ضد المستشار هلموت شميت ، كما رفض الادلاء بأحاديث للصحفيين الالمان أو التحدث بلغتهم . وتعتبر مشاعر العداء هذه ازاء الالمان أمرا شائعا بين اليهود البولنديين الذين نجوا من الحرب ، ولكن لا يسع المرء الا أن يتساءل : هل كانت مشاعر « بيجين » ستصبح بمثل هذا العنف لو أن « زئيف دوف » لم يعلق كل تلك الامال على المانيا ؟ هل كان الابن يقوم بتخليد الشعور المؤلم بالاحباط الذى أصيب به والده ؟

بيد أن أخته ، التى كانت فى سن تمكنها من تذكر الجنود الالمان الذين كانوا يغيثون اللاجئين اليهود فى الريف ابان حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، تسيطر عليها مشاعر متضاربة . فهى تعترف انها لا تستطيع حتى يومنا هذا أن تشعر بالكراهية ، التى « من المفروض أن تسيطر على أى يهودى ازاء الالمان » . فأنا أذكر الالمان الاخرين . لقد كانوا يمنحون كل الاطفال الحلوى والبسكويت . لقد كانوا نوعا مختلفا من الالمان ، وكان الزمن مختلفا » .

الفصـــل الثـــانى

عنــــد أقــــدام المعـــلم

كان من المفروض أن تصبح حركة الشباب التى أسسها « جابوتنسكى » والمعروفة باسم « بيطار » والتى يسيطر عليها التيار الصهيونى الذين يدين بالقوة ، هى الحـــركة التى من الطبيعى أن تستهوى « مناحم بيجين » فى بريست ـــ ليتوفسك . فبعد أن انتهى مناحم من دراسته الابتدائية فى مدرسة مزراحى اليهودية ، التحق بمدرسة ثانوية بولندية ثم بجامعة وارســـو حيث حصـــل على ليسانس فى القانون وان لم يعمل اطلاقا فى هذا المجـــال . وكان « بيجين » الصغير الحجم يقـــود اى معركة تقع فى المدرسة أو الجامعـــة ضد زملائه فى الفصـــل الذين كانوا يمارســـــون العداء للسامية ، بأسلوبهم الخاص ، والذى كثيرا ما كان يتسم بالقســـوة . بل بلغ بهم الحـــال انهـــم حاولوا فى احدى المناسبات تلطيخ شفتيه بدهن الخنزير .

يقول « مناحم بيجين » عن تلك الذكريات :

« عندما كنا نتعرض للهجوم ، كنا ندافع عن أنفســـنا . ولم يحـــدث مطلقا ان خضعنا لهم ولذنا بالفرار . وكنا نعـــود الى البيت ملطخين بالدماء ومضروبين ، ولكن يسيطر علينا الشعور باننا حافظنا على كرامتنا . وسرعان ما أدركنـــا ان هؤلاء البلطجية يتصرفون بأسلوب مهذب اذا ما رددنا على ضرباتهم بالمثـــل » .

ومع ذلك فان مما يدعو الى الدهشة ان أبنـــاء « بيجـــين » الثلاثة ـــ مناحم وشقيقه هيرتزل وشقيقته راشيل ـــ انضموا الى منظمة « هاشـــومار هاتزيار » التى أصبحت فيما بعد حركة الشباب التابعة لحـــزب « المـــابام » اليســـارى . وكان « زئيف دوف بيجين » أحـــد الكبـــار الذين تبنـــوا تلك الحركة . ولكن عندما انحرفت حركة هاشومار عن أهدافها كمنظمة كشفية ، واتجهت نحو الماركسية انســـحب أبنـــاء بيجين منهـــا . وقال زئيف دوف لابنائه : « يجب عليكم أن تناضلوا أولا من أجـــل حريتكم الشخصية ، ويمكنكم أن تدافعوا عن حرية العالم بعد أن تصبحوا أحرارا » .

وقد ظل مناحم عضوا فى منظمة هاشومار لمـــدة ثلاث سنوات . وذلك منـــذ ان كان فى سن العاشرة حتى الثالثة عشرة . ثم انضم الى « حـــركة بيطـــار » عندما بلغ الخامسة عشرة . ويقـــول بيجـــين : « لقـــد انبهرت بالصهيونية الشاملة لمنظمة « بيطـــار » ، وبهـــدفها الاسمى الخاص باقامة دولة يهودية معاصرة على أرض اسرائيل التاريخية . ولقد كانت حـــركة

« بيطار » تعبر عن كل المبادىء التى تعلمتها من قراءاتى ومن استماعى للآخرين والتى آمنت بصدقها ، ولم يراودنى أدنى شك فى أن هذه هى الحركة التى أريد أن أخدم الشعب اليهودى من خلالها طوال حياتى .

وبعد عامين من التحاقه بتلك المنظمة ، أى فى عام ١٩٣٠ ، استمع بيجين لاول مرة الى خطاب « لجابوتنسكى » ، وقد تأثر به تماما . ويقول « بيجين » :

ان « جابوتنسكى » كان له اكبر تأثير على حياتى . ولقد أخذت بآرائه ، وتلقيت عنه تعاليم الصهيونية . لقد تأثرت حياتى كلها به . ولقد تأثر عملى أثناء انضمامى الى المنظمات السرية وكذلك عملى فى المجال السياسى : فقد أخذت عنه ارادة النضال من اجل تحرير الوطن وكذلك التحليل المنطقى للحقائق فيما يتعلق بالامور السياسية .

بل ان « بيجين » ذهب الى أبعد من هذا . لقد كان « جابوتنسكى » يحظى لديه بما يرقى الى مرتبة التقديس ، وكان زعيما دوليا ، ومع ذلك كان اقرب ما يكون الى صورة الخطيب الصهيونى الناشىء والقادم من الاقاليم . ويذكر بيجين :

« ان زئيف جابوتنسكى » كان يتمتع بنمط الفكر الشامل الذى لا يظهر الا مرة واحدة على مدى أجيال . لقد كان بمثابة أرسطو أو ليوناردو دافينشى أو ما يمونيدس معاصر (وهو فيلسوف يهودى اسبانى قديم) وبمعنى آخر أن هؤلاء كانوا يتفوقون فى عدة مجالات وليس فى مجال واحد فقط . لقد كان جابوتنسكى خطيبا وكاتبا وفيلسوفا وكان رجل سياسة وجنديا بارزا كما كان ضليعا فى اللغات . ولقد تفوق فى كل هذه المجالات ، ولكنه لم يكن بالنسبة لنا — نحن تلاميذه — مجرد معلم بل انه كان ايضا رمزا لآمالنا » .

لقد اعترف حتى الد أعداء « جابوتنسكى » السياسيين — وكانوا كثيرين — بجاذبيته الجماهيرية . وكذلك الحال فيما يتعلق باصالته الفكرية وغزارة كتاباته . بيد أن من المبالغة ان نقارن مستوى عبقريته وعبقرية ليوناردو دافينشى . كان كسياسى يتمتع بالقدرة على كسب تأييد لآرائه حتى أولئك الذين ينتمون الى احزاب صهيونية أخرى . ومع ذلك فلم يحقق اثناء حياته سوى أهداف قليلة . كان ينقصه الصبر الذى يمكنه من كسب الحلفاء ، كما كانت تنقصه أيضا القدرة على التوصل الى الحلول الوسطى . وكان « جابوتنسكى » يرى أن التدرج بمثابة الكفر ... فكان يريد قيام دولة يهودية ، على أن يكون ذلك فى الحال ، بل انه كان يرفض التفاوض على أقل من ذلك ، حتى لو كان ذلك على سبيل التكتيك .

ان حركة التصحيح التى أسسها جابوتنسكى والتى تعتبر أصل حزب حيروت الذى تزعمه بيجين فيما بعد ، تميل الى تصويره فى صورة الليبرالى الطيب على النمط الاوروبى القديم وعلى النحو الشائع ابان القرن التاسع عشر ، والذى يسمو فوق مستوى اعضاء جماعة « ارجون زفاى ليومى » الذين يتصفون بالفظاظة ، أى فى صورة المفكر المهذب . ولقد حظيت وجهة النظر هذه ، على عكس المتوقع ، بتأييد المستعمرين البريطانيين الذين كانوا قد سجنوه فى بادىء الامر ثم قاموا بنفيه من (الأرض الموعودة) . وقد قابله « هارولد بيلى » مساعد « ايرنست بيفين » لشئون الشرق الاوسط ابان أحلك أيام النضال الصهيونى — قابل جابوتنسكى — فى لندن عام ١٩٤٠ وذلك قبل بضعة أشهر من وفاة زعيم حركة التصحيح . يقول بيلى :

لقد قمت بزيارته فى المكتب المتواضع للمنظمة الصهيونية الجديدة ، واذكر انى شعرت بنفور بصفة خاصة ازاء اتباعه من البريطانيين . أما جابوتنسكى نفسه فقد ترك فى نفسى ، على العكس من ذلك ، انطباعا بأنه قوة يجب أن يأخذها المرء فى الحسبان ، فوجهت له الدعوة للحضور الى أوكسفورد ليلقى كلمة فى أعضاء منظمة « تشاثام هاوس » الموجودة هناك . ولقد تاثروا بلا ادنى شك بطلاقته ، بصرف النظر عن رأيهم فى آرائه . وقد بدا لى انه من نوع الجيل الثورى الذى كان موجودا عام ١٨٤٨ — أو انه كان شخصية تشبه الى حد بعيد « ميتزين » لكن فى عصر متأخر .

ولو أن « جابوتنسكى » سمع تلك المقارنة لاستساغها كثيرا خاصة وانه كان من المعجبين المخلصين بايطاليا وبنهضتها القومية . بيد أن صفة الليبرالى لا تنطبق عليه تماما . فقد كانت فلسفته تنطوى على جانب مظلم : الدم والنار والحديد والتسلط ، والانضباط والتمسك بالرسميات . واستغلال الجماهير ، والتمييز العنصرى بصفته جوهر الامة .

وقد كتب « جابوتنسكى » فى أحد مقالاته الاولى تحت عنوان : « ان الانسان عدو للانسان » يقول :

« اننا نبنى أحيانا آمالا براقة حول الاكذوبة التى تقول بأن شعبا معينا قد عانى الكثير ولذا فانه سيتعاطف مع آلام شعب آخر ويشعر بها . وأن ضميره لن يسمح له بأن يبتلى الشعب الاضعف بما ابتلى به من قبل .. ولكن الواقع يؤكد أن هذه مجرد كلمات منمقة جوفاء .. والكتاب المقدس فقط هو الذى يقول لنا « أن الحاق الظلم بالغريب يعتبر اثما فانكم تعرفون شعور الغربة حيث انكم كنتم غرباء فى أرض مصر .. ان مثل هذه المثل الانسانية الطفولية لا محل لها فى الاخلاقيات المعاصرة » .

وبالمثل ، يمكن القول أن الليبرالية المعاصرة لا تتسع لمثل هذه الواقعية الصارخة ، حتى وان كان « جابوتنسكى » يصدر حكمه بناء على العالم الذى يراه حوله . وما قولنا فى تأكيده « ليست هناك قيمة فى العالم أعلى من الامة والوطن » ، أو قوله « ان أسمى مايمكن أن يحققه جمهور من البشر الأحرار هو أن يستطيعوا العمل معا فى دقة وتناسق مطلق مثل الآلة » ، وانه « بدون الطقوس والشكليات لا توجد حرية » ، ما قولنا فى هذه الافكار ؟ ربما كانت نظرة « جابوتنسكى » المتشائمة ازاء الجنس البشرى لها ما يبررها (وقد استطاع أن يتكهن من خلالها بوقوع الهلوكوست) ولكنها على أى الحال تعتبر أبعد ما يكون عن الليبرالية . وهذا ينطبق بالمثل على موقفه من العرب الفلسطينيين ، حتى على الرغم من انه لم يسع الى طردهم .

لقد كتب سنة ١٩٢٣ يقول :

« من المستحيل أن نتصور امكانية التوصل الى اتفاق تلقائى بيننا وبين عرب أرض اسرائيل .. سواء كان ذلك الآن أو فى المستقبل المنظور .. ان كل أمة سواء كانت متحضرة أو بدائية تؤمن بأن أرضها هى وطنها القومى ، الذى تريد أن تبقى مهيمنة عليه الى الابد . ولا يمكن ان تفكر مثل هذه الامة أو تقبل بوجود سيد جديد أو حتى بوجود شريك لها .. وكل قوم يقاتلون المستوطنين طالما كان هناك بارقة أمل فى التخلص من خطر الاستيطان الاجنبى . وهكذا يفعلون ، وهكذا سيفعل العرب المقيمون فى « أرض اسرائيل » ، طالما كانت لديهم بارقة أمل فى أن يتمكنوا من منع تحويل فلسطين الى « دولة اسرائيل » لقد كان « جابوتنسكى » أكثر صراحة من معظم الصهاينة المعاصرين له . لقد أعلن صراحة عن مضمون افعالهم وسياساتهم ولكنه رد على المقاومة العربية بواسطة اقامة « جدار حديدى من الحراب اليهودية » لاجبار الفلسطينيين على الاعتراف بالمحتوم . وكان يرى أن « الاسلوب الوحيد للتوصل الى اتفاق فى المستقبل هو التخلى تماما عن اى محاولة حالية للاتفاق » . وقد قام مناحم « بيجين » فى حديث أدلى به بعد أن أصبح رئيسا للوزراء ، بصقل هذا المفهوم ، فقال « ان المقصود بالجدار الحديدى أنه لا يمكن تحقيق الصهيونية ما لم يقم بيننا وبين العرب حاجز من القوة . وسيحاول العرب منع هذا حتى لو أدى الامر الى اراقة الدماء . ولابد من وجود قوة دفاعية لمنع اراقة الدماء . لقد أعلن « جابوتنسكى » ايمانه بمنهج العدالة ، ولكننا اكتشفنا انه لابد من الدفاع عن العدالة ، بيد أنها كانت عدالة فى أدنى مستوياتها فى دولة يهودية متطرفة لا تترك بارقة أمل فى أن يتمتع العرب بالسيادة على أى من ضفتى نهر الاردن .

وعندما اشترك بيجين فى معسكر صيف اقامته منظمة « بيطار » بالقرب من نيويورك ، بعد انقضاء أكثر من أربعة عقود على وفاة جابوتنسكى ، كان

من الواضح انه ظل على اخلاصه لاستاذه ، وتكريسه لمذاهبه ، وتخليده لاسلوبه الخطابى ، ابتداء من استخدام نبرات صوته لاثارة الشفقة وانتهاء بخفضها كختام كلامه . وكان يتمسك بما وصفه كاتب سيرة حياة «جابوتنسكى» ــ والذى كان يقيم معه فى منزله ــ « بتقديسه للاتيكيت » ممثلا فى الانحناء وتقبيل يد السيدات وارتداء البذلة وربطة العنق والحذاء اللامع ، وذلك فى وسط بلد الرواد الذين يرتدون القمصان المفتوحة عند الرقبة وينتعلون الصنادل . بل انه استحضر روح غاريبالدى ، البطل الذى كان « جابوتنسكى » يبجله ، بالقاء محاضرة على جماعة من أعضاء البرلمان الايطالى الزائرين لاسرائيل ، عن زعيم حركة تحرير وطنهم . وقام « بيجين » ، عندما تخلى عن المعارضة لاول مرة لينضم الى حكومة الوحدة الوطنية على أبواب حرب سنة ١٩٦٧ ، بزيارة مقبرة « جابوتنسكى » على جبل هيرتزل بالقدس . وكان مثل جابوتنسكى مستعدا قبول عرب فلسطين ، على شرط الا يتجاوزوا حدود مكانتهم ، وان كان قد اعترف بأن الضفة الشرقية للاردن لم تعد هدفا عمليا بالنسبة للدولة الصهيونية (لم ترفع جماعة « البيطار » خريطة جابوتنسكى التى تضم « كلتا الضفتين » من شعارها الا فى عام ١٩٨٠) . وربما لم يكن بيجين يتمتع ببريق جابوتنسكى وقدرته الاصيلة على اشعال الحماس ، بيد انه كان أكثر مهارة منه فى فن الممارسات السياسية العملية . وقد استطاع التلميذ أن يغير مسار الصهيونية ويعدله لخدمة اسرائيل الحديثة ، وتحويلها الى مجتمع كان « الاستاذ » سيتعرف عليه بلاشك كمجتمع أحلامه .

ولم يكن « جابوتنسكى » بالشريك السهل على الاطلاق . وكثيرا ما كانت الشخصيات الصهيونية الاخرى البارزة يجدونه متغطرسا . ولم يكن يرحمهم سواء فى كلماتهم المنطوقة أو المطبوعة . وكان متسلطا وقادرا على اثارة السخط ، ولكن بحلول عام ١٩٢٠ لم يكن هناك من يستطيع النيل من مكانته فى قيادة الحركة . وقد اكد الدور الذى لعبه كمؤسس للفيلق اليهودى فى الحرب العالمية الأولى وكأحد قادته ، انه رجل أفعال تماما كما انه رجل أفكار ، وكرائد للدفاع اليهودى عن النفس فضلا عن كونه واعظا بارزا ، ان الامر الذى قاد « جابوتنسكى » لدخول متاهة الصهيونية هو مطلبه باقامة دولة يهودية الامر الذى كرس من أجله كل جهوده ، فقد كان ذا فلسفة (وحدانية) مما كان يستحوذ على اعجاب الشاب « بيجين » . وقد كان الاخرون مستعدين لتقديم تنازلات ، على الاقل بالنسبة لمواقفهم الدبلوماسية ومناهجهم قصيرة الاجل ، وان لم يكن بالنسبة لاهدافهم بعيدة المدى . وكان « جابوتنسكى » يرى أن مثل هذه التنازلات لا تنطوى على الخيانة فحسب بل على سوء التقدير أيضا . فقد كان يؤمن بأن قوة اليهود تكمن فى قوة قضيتهم المعنوية ، ومن ثم فلا يجب عليهم تمييعها ابدا ، خاصة وأن أحدا لن ينخدع بذلك على أى الحالات .

وجاءت الخطوة الاولى فى يناير ١٩٢٣ عندما استقال « جابوتنسكى » من اللجنة التنفيذية العليا للحركة الصهيونية احتجاجا على ما اعتبره عدم مقاومة « حاييم وايزمان » لعملية « انكماش » التعهد البريطانى المتمثل فى وعد بلفور لعام ١٩١٧ . ولقد أسر لبعضهم بعد حديث دار والزعيم الصهيونى ان (وايزمان يعتقد أن منهجى هو منهج الخيالى العنيد ، بينما أنا أشعر أن أسلوبه هو بمثابة التخلى عن الحق أو التخلى غير المتعمد عن المبادىء) .

وأسفرت تلك الخطوة عن تأسيس « حركة التصحيح » الملتزمة صراحة باقامة دولة يهودية تتمتع باغلبية يهودية على ضفتى نهر الاردن كلتيهما، تملك جيشا يهوديا للدفاع عنها . وظلت « حركة التصحيح » جزء لا يتجزأ من الحركة الصهيونية الى أن انعقد المؤتمر الصهيونى السابع عشر فى يوليو ١٩٣١ ببازل ، حيث جاوز « وايزمان » كل الحدود ــ ليس فقط من وجهة نظر « جابوتنسكى » وحده ــ بقوله ان فكرة الدولة لم تكن مطلقا هدفا فى حد ذاته بل مجرد وسيلة الى غاية . وقد كلف هذا « وايزمان » زعامته للحركة الصهيونية ، غير أن « جابوتنسكى » لم ينجح فى أن يستصدر بيانا واضحا يتضمن برنامجا سياسيا محددا . وعندما لم يعتن المؤتمر حتى بطرح القرار الذى تقدمت به حركة « التصحيح » للاقتراع ، اعتلى « جابوتنسكى » مقعدا وصاح قائلا « ان هذا لم يعد يشكل مؤتمرا صهيونيا » ومزق بطاقة عضويته .

وخرج « التصحيحيون » ، ولكنهم لم يكونوا قد أصبحوا بعد منبوذين . ولكن بعد ثلاث سنوات من خروجهم وقعت الصدمة التى ظل « مناحم بيجين » يحاول ، حتى بعد مرور نصف قرن من الزمان ، تطهير الحركة من آثارها ، ففى ١٦ يونيه ١٩٣٣ ، تناول حاييم آرلوسورف رئيس الادارة السياسية بالوكالة اليهودية ، والنجم الصاعد فى الحركة العمالية الصهيونية طعام العشاء وزوجته « سيما » بأحد فنادق تل ابيب . وقاما بعد ذلك بالسير على شاطىء البحر . ولاحظت مسز « آرلوسوروف « أن رجلين يتعقبانهما . وقد شهدت فيما بعد أن احدهما كان اشقر طويل القامة يميل للضخامة ويتمايل فى مشيته مثل البطة . أما الآخر فكان قصيرا ونحيفا وله ملامح شرقية . وقالت ان الرجلين تصديا لهما . وقام الرجل الضخم بانارة مصباح فى وجه « آرلوسوروف » وسأله عن الساعة . فطلب منه « آرلوسوروف » بالكف عن مضايقتهما . فسحب الرجل الضئيل مسدسا وأطلق عليه النار فاصابه فى بطنه وتوفى « آرلوسوروف » فى المستشفى بعد خمس ساعات . وذكرت « سيما » ان الرجل الذى هاجمهما كان يتكلم العبرية بدون أى لهجة اجنبية .

وقام البوليس البريطانى بنشر أوصاف الرجلين فى جميع انحاء فلسطين الخاضعة للانتداب البريطانى . وأدت التحريات الى اتهام « ابراهام ستافسكى»

عضو منظمة « بريت هابيريونيم » الدموية المتطرفة التى تعمل على هدى حركة « جابوتنسكى » الدموية بفلسطين . وكانت منظمة « بريت هابيريونيم » قد أدانت « آرلوسوروف » كمتواطىء مع الاعداء لمحاولته ايجاد منفذ لليهود الألمان - الذين بدأوا يتعرضون لتهديد النازية الصاعدة - يستطيعون من خلال هذا المنفذ تصفية ممتلكاتهم والهجرة الى فلسطين دون التضحية بكل شيء . وكانت الفكرة التى تفتق عنها ذهنه هى أن يقوموا بشراء سلع ألمانية ويصدرونها ، ثم يحصلون ثمنها من البلد الآخر . وقد عاد « آرلوسورف » الى تل ابيب فى ١٤ يونيو ، بعد قيامه بعدة رحلات ذهابا وايابا بين برلين ولندن . وفى الوقت ذاته ، كان « جابوتنسكى » و « التصحيحيون » يشنون حملة على نطاق عالمى تدعو اليهود لمقاطعة السلع الالمانية . وقد نشرت مجلة « بريت هابيريونيم » ، يوم الجريمة ، مقالا تتهم فيه « آرلوسوروف » بالتحالف مع « هتلر » و « ستالين » . وقال المقال انه باع شرف شعبه .

واعتقل « ستافسكى » بعد ثلاثة أيام من وقوع الجريمة . وتعرفت « سيما آرلوسوروف » على صورته ، بصفته الرجل الذى كان يتمايل فى مشيته والذى أضاء المصباح فى وجه « آرلوسوروف » ، واتهمت عضوا متطرفا آخر فى « حركة التصحيح » وهو « زفى روزنبلات » ، بجذب الزناد . كما اتهم « ابا اهيمابير » ، فيلسوف جماعة « بريت هابيريونيم » ، بالتواطؤ ، ولم يكن تعرف مسز « آرلوسوروف » على « روزنبلات » قاطعا بنفس درجة تعرفها على « ستافسكى » . وبعد انتهاء اجراءات الاتهام أمام قاضى المحكمة الجزئية ، احيلت القضية الى محكمة الجنايات العليا ، أمام أربعة قضاة : اثنان بريطانيان، وواحد يهودى ، والرابع عربى . وقد تمت تبرئة « اهيمابير » فى منتصف المحاكمة . وصدر حكم بتبرئة « روزنبلات » على أساس عدم وجود شهود آخرين يؤيدون أدلة « سيما » . وأدين « ستافسكى » وحكم عليه بالاعدام ، فاستأنف الحكم أمام محكمة أعلى ، قضت بنقض الحكم وأطلقت سراحه . فبموجب القانون التركى الذى كان معمولا به فى فلسطين حتى عام ١٩٣٧ ، لم تكن شهادة شاهد واحد كافية لصدور حكم بالادانة . وقد جادل الصهاينة من أعضاء « حركة العمل » ، بأن « ستافسكى » أدين بحكم الحقائق وتمت تبرئته بموجب نقطة قانونية . أما « التصحيحيون » فقد عبروا عن اغتباطهم لسيادة القانون . فالحكم بالبراءة أمر لا يمكن الرجوع فيه . وظل الطرفان على مدى عقود عديدة تالية يقدمون الادلة والادلة المضادة فى معركة حامية تصم الآذان .. واعترف اثنان من العرب اختفيا بعد ذلك ، وترددت وجهات نظر ووجهات نظر مضادة ، من فوق منابر بارزة ، وعلى لسان شخصيات عامة وهى على فراش الموت . واعتبرت حركة « العمل » أن « التصحيحيين » هم الذين قتلوا « آرلوسوروف » ، أما « التصحيحون » فقد اعتبروا أن الطرف الآخر قد أثار اليهودى ضد اليهودى فى حملة تشهير دموية .

وقد فتحت قضية « آرلوسوروف » جرحا داميا ظل ينزف فى اوروبا وفلسطين ، حتى بعد أن طوى النسيان أحداثها الاصلية بمدة طويلة . ولقد أصيب « مناحم بيجين » بذعر حقيقى ازاء نشر كتاب جديد ، بقلم الصحفى الإسرائيلى « شابتاى تفيث » ، يعرض فيه وجهة نظر غير متعاطفة ، لدرجة أنه قام فى مارس ١٩٨٢ بتشكيل لجنة تحقيق لتقصى الحقائق . وقال رئيس الوزراء لزملائه فى المجلس :

« ان القول بأن تسعة وأربعين عاما قد مرت على تلك الاحداث . وأصبح من الصعب اعادة التحقيق فيها الآن ، يعتبر من سبيل عدم الادراك وتضليلا للجمهور ، وتشويها للحقيقة ، واستمرارا لترويج حملة التشهير الدموية ضد حركة صهيونية عظيمة وضد أفراد أبرياء ، واستمرارا لظلم لم يسبق له مثيل فى التاريخ اليهودى فيما عدا ظلم غير اليهود لهم » .

وأمر « بيجين » ، الذى أكد شعوره بمسئوليته التاريخية ، بنشر المحاضر الكاملة للمناقشة التى دارت داخل مجلس الوزراء . وتناول بيجين المسألة وهو « يرتجف من الرهبة » . وتأجلت جلسات لجنة الاستماع لمدة عام آخر نتيجة لحرب لبنان . وجدير بالذكر أنه لم يتبق على قيد الحياة من الشخصيات التى لها صلة مباشرة بقضية القتل سوى « زفى روزنبلات » . فقد قتل « ستافسكى » على ظهر السفينة « التالينا » ، التى كانت جماعة «ارجون زفاى ليومى » تنقل الاسلحة عليها ، وذلك عندما قصفها الجيش الاسرائيلى من فوق نفس شاطىء تل أبيب الذى شهد الحادث .

وكان « بيجين » البالغ من العمر عشرين عاما ، قد دافع بذاته ، وبصفته من العناصر النشطة فى جماعة « بيطار » ، عن « جابوتنسكى » عندما تعرض لهجوم من بعض اليهود الذين قاموا بالقاء الحجارة عليه . وقد سئلت أمه فى « بريست ــ ليتوفسك » ، أثناء وجودها فى أحد محال البقالة : « لماذا يختلط ابنك ، وهو الولد الطيب ، بأولئك القتلة ؟ » وكان « ستافسكى » صديق طفولة وجار « لبيجين » ، الذى أخذ مسألة براءته كقضية مسلمة . وقد قام « بيجين » بمواساة والدته « هاسيابيجين » ، بقوله « لا تبتأسى ، فأنت تعلمين أن « ابراشا » لم يقتل أحدا . ولابد للحقيقة أن تظهر » واصطحب « بيجين » والدة « ستافسكى » لمقابلة « جابوتنسكى » .

وقد كتب فى عام ١٩٨٢ يقول : « مازالت صرخاتها ورجواتها من « جابوتنسكى » لانقاذ ولدها ، ترن فى أذنى حتى اليوم . وقد قبل « جابوتنسكى » يدها ، وانهمرت الدموع من عينى الام . ولن تنمحى ابدا تلك الدموع من ذاكرتى » .

وقد تعرضت الاقلية من حركة التصحيح فى فلسطين لنفس عملية الرفض الحادة التى تعرضت لها فى اوروبا ــ وان كانت قد أسفرت عن عواقب

أكثر تأثيرا على الحياة اليومية . فقد خسر مثلا « يعقوب مريدور » وظيفته ومنزله نتيجة لذلك وكان (مريدور) الذى أصبح فيها بعد يشغل منصب نائب « بيجين » فى القيادة العليا لجماعة « أرجون » - يعمل آنذاك عاملا فى فى منطقة تل أبيب . وقد وصف تلك التجربة أمام مجلس الوزراء عام ١٩٨٢ ، عندما كان يشغل منصب وزير التنسيق الاقتصادى بقوله :

جاءنى صاحب الدار الذى كان عضوا عاملا فى نقابة عمال الطباعة فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى للجريمة وقال لى مؤكدا بلا أدنى شك ، انها جريمة سياسية . ولم يكن قد مر سوى ساعات قليلة على وقوعها . ومع ذلك بدا الجو العام يسوده شعور بقرب وقوع مذبحة سياسية .. وأمرنى صاحب البيت بعد انقضاء يوم بترك غرفتى وبدأت بعد ذلك أواجه متاعب فى العثور على عمل » .

وقد واجهت أسرة « اربيل شارون » المقيمة فى « كفار ملال » - وهى مزرعة تعاونية لصغار الملاك تتبع حركة العمل - وقتا عصيبا مماثلا بعد أن احتج والديه على وصم « التصحيحيين » بالقتلة . فقال امام مجلس الوزراء .

« أسفر الحادث عن وقوع صراع استمر عشرين عاما . وقد أخرجونى وانا صبى من المدرسة المحلية . فلم استطع تلقى تعليمى هناك ، وظللنا طوال عشرين عاما ، حتى بعد حرب الاستقلال ، محرومين من الحصول على الرعاية الطبية عن طريق الصندوق المحلى للمرض .. ولم نستطع تسويق منتجاتنا من خلال منفذ المزرعة التعاونية .. ولا زلت أذكر والدى وهما يتناوبان الحراسة بجوار الطريق لحماية انتاجنا من محاولة اعضاء المزرعة التعاونية الآخرين افساده . لقد زرعنا وانتجنا ، وشب الأطفال وسارت الأمور على ما يرام فى النهاية .. ولكن تم كل ذلك فى خضم من الصراع المستمر يسوده كراهية لا تنتهى » .

وقد ضاعف « ديفيد بن جوريون » ، وغيره من زعماء حركة العمل الصهيونية من اتساع الجراح عندما عقدوا مقارنة بين « جابوتنسكى » وهتلر « ووصفوا أعضاء » حركة التصحيح باليهود النازيين . وكان « بيجين » واثقا من أن هذا الشقاق ساهم كثيرا فى اتساع نطاق « آرلوسورف » . وكان يؤكد أنه لولا موجة الكراهية التى أثارتها قضية « أرلوسوروف » ، لتمكن جناحا الحركة الصهيونية من تجميع جهودهما فى سبيل العمل من أجل تهريب المهاجرين من أوروبا الى فلسطين بالطرق غير المشروعة ، ولربما أمكن انقاذ عشرات الآلاف من اليهود .

وقد القى الفتى « بيجين » أول خطاب عام له عندما كان فى الثالثة عشرة من عمره ، من فوق منضدة بالحديقة العامة فى « بريست - ليتوفسك

وكانت المناسبة هى احدى الاحتفالات الصهيونية التى ينظمها والده كل عـام احتفالا بعيد « لاج باعومار » (عيد ١٨ آيار) . ولم يكن الخطاب واحدا من خطب « بيجين » الناجحة ، ولكنه سرعان ما أصبح واحدا من الخطباء المعتادين فى الاجتماعات السنوية التى تقام احياء لذكرى « هيرتزل » . وقد استمع « أهرون زفى بروبيز » ، الذى كان يرأس الفرع البولندى لجماعة « بيطار » الى « بيجين » ــ الذى كان فى الثامنة عشرة آنذاك ــ وهو يلقى احدى خطبه فى عام ١٩٣١ . ويقول « بروبيز : « لقد كان رائعا وادركت لحظتها أن شابا يتمتع بمواهب نادرة يقف أمامنا » . ان شهادة « بروبيز » هذه تتسم بشهامة خاصة ، فبعد ثمانى سنوات من ذلك التاريخ ، نحى بروبيز جانبا ليفسح المجال لربيبه . وقد وصل « بيجين » الى قيـــادة منظمة « بيطار » فى حى « بريست » بينما كان لا يزال فى مرحلة الدراسة الثانوية . وعندما التحق بجامعة وارسو ، لدراسة القانون ، اختاره بروبيز » لعضوية اللجنة العليا « للبيطار » . وقال عنه « بروبيز » حينـــذاك ، انه : منضبط ، ومحبوب من زملائه ، ويتمتع بالطموح » .

وقد سيطرت على جماعة « البيطار » ، مثلها فى ذلك مثل « حركة التصحيح » التى انبثقت الجماعة عنهـــا . آراء « جابوتنسكى » وأسلوبه وشخصيته . وقد تبعه « بيجين » فى أنحـــــاء أوروبا مستمعا الى خطبه ، دارسا أسلوبه ، مستوعبا لمبادئه . وكانت الحركة الشبابية لا تخفى ميولها العسكرية . فكان أعضاؤه يتدربون ويرتدون زيا عسكريا . ويقول « ديفيد جونان » ، وهو أحد معاصرى « بيجين » : « لقد غرس « جابوتنسكى » فينا ضرورة أن نتعلم كيف نطلق النار » . وكان « بيجين » ، بصفته المسئول الأعلى عن تنظيم « بيطار » فى بولندا ، يجوب انحاء البلاد ، ويلقى الخطب ، مداهنا وساعيا لاجتذاب أعضاء جدد . وبلغ عدد أعضاء الحركة ، بحلول عام ١٩٣٩ الى ٧٠ الف عضو موزعين على ٧٠٠ فرع .

ويؤكد يزرائيل ايلداد وهـــــو أحد المعاصرين « لبيجين » فى جماعة « بيطار » ، والذى أصبح فيما بعد فيلسوف « عصابة شتيرن » والنـــاقد اليمينى العريق لبيجين :

« أن كلماته مهما بدت فى اليوم ، فانها لم تكن مجرد كلمات خطابية جوفاء بالنسبة ليهود بولندا . لقد كانت تعبيرا دقيقا عن مشـــاعر الشعب اليهودى . ولم يكن أحد يتساءل آنذاك عن تكاليف اقامة دولة يهودية . انها كانت من وجهة نظرهم مسألة عادية خاصة بجمهورية تملك الملايين.. وعندما كان المرء يتكلم عن الجندى اليهودى ، فانما كان يعبر عن مثل عليا . فاليهودى كان يلتحق كجندى فى الجيش البولندى ، فى الوقت الذى كان يكره فيـــه بولندا ولكن عندما كان « بيجين » ينطق بتعبير « جندى يهودى » كان الناس

يشعرون بالفخر ، فقد كانوا يرغبون فى ذلك من أعماق قلوبهم • وكانت جماعة « الارجون » قد بدأت تمارس نشاطها فى فلسطين • وفى بولندا عندما كان المرء يتحدث عن الانتقام وعن انتهاء المذابح ، كان الشعور بالفخر يسيطر على الأولاد اليهود • وكان الشباب مستعدا للمعاناة والتضحية من أجل المثل العليا . فالشباب لايتمتع بالصبر وقد أتاحت لهم منظمة «بيطار» و «الارجون» فرصة انتهاج الطريق الثورى • لقد فتحتا الطريق أمام مئات الالوف الذين لم يكن أمامهم سبيل آخر •

وأدى نجاح « بيجين » فى تنظيم الشباب البولندى داخل « البيطار » الى قيام « جابوتنسكى » بايفاده الى تشيكوسلوفاكيا ، حيث كانت الحركة صغيرة وضعيفة . وبدأ « بيجين » يعمل من أسفل الى أعلا ووفقا لاقوال « بروبيز » كان يكتفى بتناول وجبة واحدة فى اليوم ، وكان ينام أحيانا فوق المقاعد الخشبية بالحديقة العامة . لقد كان يعمل فى اخلاص ، دون أن يكل أو يشكو • ويقول « بروبيز » متذكرا : « لقد اصيب فى احدى المرات اثناء وجوده فى وارسو بالتهاب رئوى • ونقلته زوجتى التى كانت تمرضه الى احدى دور النقاهة فى « أوتوك » حتى يسترد صحته • وعندما اتجهت لزيارته بعد يومين ، وجدته قد خرج وعاد الى العمل على الرغم من ضعفه الشديد • فالعمل كان يعنيه أكثر من أى اهتمامات شخصية أخرى •

واثناء احد جولات « بيجين » ، دعا الدكتور « ليون ارنولد » المحامى والعضو البارز فى « حركة التصحيح » فى بلدة « دروبيز » البولندية الصغيرة ، الى العشاء فى منزل حماه « زفى ارنولد » وهناك التقى بيجين بابنتى « زفى ارنولد » ، التوأمتين ، « اليزا » و « ليا » والبالغتين من العمر آنذاك سبعة عشر عاما . وقد عمل « بيجين » لبضعة أشهر وقبل عودته الى وارسو لتولى رياسة حركة « بيطار » البولندية ، ككاتب لدى محام كبير بتلك البلدة . وتقابل « بيجين » و « اليزا » فى المعبد اليهودى الكبير « بدروبيز » حيث ارتدى كل من العريس والعروس الزى العسكرى لحركة « بيطار » ذا اللون البنى ، وان كان قد ارتديا بعد ذلك الملابس المدنية فى الحفل الذى اقيم لوداعهما فى رحلة شهر العسل ، حيث ارتدت « اليزا » معطفا انيقا يصل الى الركبة وقبعة ملفتة للانظار ، بينما ظهر « مناحم » المائل الى النحافة والذى كان يلبس نظارة طبية على عينيه ، فى بالطو واق من المطر لونه شاحب يخفى تحته تفاصيل جسمه . وكانت العروس فى التاسعة عشرة من عمرها بينما كان العريس فى الخامسة والعشرين . وجاء « جابوتنسكى » من باريس بالقطار لحضور حفل الزواج . ولقد استطاع « مناحم » اتمام هذا الزواج الذى دام حتى وفاة « اليزا » ، بعد ثلاث واربعين سنة من ذلك التاريخ ، تخطى كل الازمات الناجمة عن الفراق ، والنفى ،

والمخاطر ، والمشاكل السياسية الاسرائيلية . وقد شاركت « اليزا » زوجها في تمسكه بمعتقداته وعناده ، ولكنها كانت راضية بالبقاء في الظل الى جواره ولم تكن ، الا في النادر ، لتغفر لاحد يثير غضبه أو يخونه ، وقد رزقا بثلاثة ابناء ، ولد وابنتين ، جميعهم من مواليد اسرائيل . وقد هلكت الاخت التوأم لاليزا في الهلوكوست ، تماما مثل معظم افراد أسرة « مناحم ».

وعلى الرغم من أن « بيجين » كان سعيدا بالجلوس عند أقدام « جابوتنسكى » ، فانه لم يكن مجرد واحد من متملقيه . بل ان التلميذ اصطدم و « المعلم » في مناسبتين مشهورتين . فقد احتج « بيجين » أثناء انعقاد المؤتمر العالمى السادس « لحركة التصحيح » في يناير ١٩٣٥ بمدينة كراكاو ، على محاولات « جابوتنسكى » ذاته .

وقال « بيجين » : « ربما تكون قد نسيت أن « بن جوريون » نعتك في احدى المناسبات بـ « فلاديمير هتلر » ، ولكننا لم ننس » .

ورد عليه جابوتنسكى بحدة قائلا : « انا لن أنسى أبدا رجالا من أمثال « بن جوريون » و « بن زفى » و « الياهو جلومب » لقد ارتدوا في يوم من الايام الزى العسكرى للفيلق (اليهودي) ، وأنا واثق من أنهم لن يترددوا لو دعت القضية اليهودية الى ذلك ، في ارتدائه مرة أخرى وأن يقاتلوا تحت لوائه . ولو حدث ائتلاف ، فاننا سنترفع عن اثارة الخلافات التافهة . فنحن جميعا قد أظهرنا تمسكنا القوى بوطنيتنا الصهيونية » .

وقد جاء التحدى الثانى ، والاكثر خطورة ، اثناء المؤتمر العالمى الثالث « البيطار » ، الذي انعقد بعد ثلاث سنوات من ذلك الحين في وارسو . فقد تعرضت الحركة آنذاك لشقاق هام بين أعضاء جماعة « أرجون زفاى ليومى » ذات الميول العسكرية والموجودين في فلسطين ، والذين كانوا يضغطون من أجل انتهاج سياسة انتقام ايجابية ضد الهجمات العربية على اليهود ، وبين « جابوتنسكى » الذي كان يعترض بشدة على مثل هذا الارهاب المضاد . وكانت جماعة « أرجون » تواقة الى شن حرب ضد البريطانيين ، أما « جابوتنسكى » فكان لايزال يؤمن بوجود قوى بريطانية من نوع آخر يمكن اقناعها باعتبار القضية اليهودية جزء من المصلحة الحقيقية للامبراطورية . وكان جماعة « أرجون » قد قامت بتنظيم خلايا خاصة بها داخل حركة الشباب اليهودى البولندية (البيطار البولندي) ، وفتحت مكتبا سياسيا في سويسرا . وأقامت الجماعة معسكرات للتدريب العسكري في بولندا بالتعاون مع الجيش البولندى ، الذي اغرته فكرة ترحيل مئات الالاف من اليهود بالسفن للقتال في فلسطين ، وبذلك يتم حل المشكلة اليهودية في بولندا (حيث كانت الطائفة اليهودية التى تضم ٠٠٠ر٥٠٠ر٣ يهودى ، تشكل في أواخر الثلاثينيات ١١٪ من السكان وربما

كانت هذه احدى المرات النادرة التى اهتم فيها « جابوتينسكى » بالتكتيك بقدر اهتمامه بالمبدأ . فقد كان يريد الاحتفاظ بالنشاط المشروع لكل من حركة « البيطار » و « التصحيح » بعيدا عن العمليات السرية لجماعة « الارجون » ، وذلك على الرغم من انه كان الزعيم المعين لكل من الجناحين السياسى والعسكرى للحركة . وحاول « بيجين » ، الذى كان ينجاز الى العناصر الثورية النشطة وان كان يريد تجنب الدخول فى معركة بانه يجب الجمع بينهما معا تحت سقف واحد . فلابد لجماعة « الارجون » من أن تعمل من خلال « منظمة بيطار » .

وعندما طرحت المسألة للمناقشة بمؤتمر وارسو الذى انعقد خلال شهر سبتمبر ١٩٣٩ ، انتظر « بيجين » حتى حضر « جابوتنسكى » قبل ان يلقى كلمته . وقال ان الحركة الوطنية الاسرائيلية بدأت من خلال الصهيونية العملية ثم الصهيونية السياسية . وانهم يقفون الان على مشارف الصهيونية العسكرية التى ستندمج فى نهاية الامر والصهيونية السياسية . وذكر أن المسألة يمكن مقارنتها بما حدث بين « كافور » و « غاريبلدى » . فما كان « كافور » لينجح فى تحرير ايطاليا بدون « غاريبلدى » . ولقد قاطع « جابوتنسكى » « بيجين » مرارا ، مذكرا اياه بأن اليهود يفتقرون فى وطنهم الى القوة العسكرية البشرية . ورد عليه « بيجين » بقوله انه يجب عليهم الوقوف فورا فى وجه الخطط البريطانية الرامية الى ايجاد دولة فلسطينية تتمتع باغلبية عربية وذلك بصرف النظر عن الاعداد والنتائج . وأعلن : « حتى لو سقطنا فانه يكفينا اننا قاتلنا » ، وأكد أنه لابد لمنظمة « بيطار » ، وذلك ليصبح « رمزا لعملنا ومعركتنا » (ولقد كانت مثل هذه الايماءات هامة جدا بالنسبة له) . وطالب بيجين بتغيير عبارة « سأشحذ سلاحي من أجل الدفاع عن بلدى ، ولن احمله الا فى سبيل الدفاع » ، بعبارة « سأشحذ سلاحى من أجل الدفاع عن بلدى ، ومن أجل الاستيلاء على وطنى » . وجادل بأنهم كانوا يتوقون دائما الى القوة ، هذه القوة أصبحت موجودة الآن . واضاف : هناك ملايين الاشخاص ليس لديهم شىء يخسرونه . ومهمتنا تنحصر فى استخدام القوة الكامنة فيهم » . وتمت الموافقة على التعديل بعد تردد من جانب جابوتنسكى » ولكن ليس قبل ان يوجه الزعيم هجوما مضادا ساحقا ضد السياسي الشاب المبتدىء ، حيث قال :

« ان ثمة أنواعا كثيرة من الاصوات .. ونحن نتحمل ضجيج الماكينات والعربات وما الى ذلك . ولكن لا يمكن أن نتحمل صرير الابواب لأنه لا يعود علينا بأى فائدة . والخطب الرنانة والتصفيق تشبهان صرير الابواب ليس لها فائدة أو منطق . ولا يوجد فى « البيطار » مكان لمثل هذه الثرثرة . وأحيانا تكون هذه الاصوات مسلية ، ولكن يجب علينا أن نحذرها . وتعتبر الكلمات التى قالها مستر « بيجين » من هذا النمط الأخير ، ويجب علينا أن نكبت مثل هذه الاصوات بكل قسوة » .

لقد وضع « جابوتنسكى » كل ثقته فى الضمير الحى للعالم ، نظرا لعدم ثقته الكافية فى استعداداته العسكرية . وأراد أن تقوم الدول الغربية بتوفير جنة فى فلسطين لآلاف اليهود المهددين فى أوروبا . وسخر « بيجين » من هذا التفكير لاستاذه القديم . وقد رد عليه « بيجين » بكل حدة ، خلال نفس الشهر الذى كان « نفيل تشامبرلين » يتفاوض فيه مع « هتلر » فى ميونيخ من أجل التوصل الى « سلام (وهمى) يسود عصرنا » . حيث أعلن العضو البارز فى منظمة « بيطار » والبالغ من العمر خمسة وعشرين عاما : « لقد مات ضمير العالم ، ولم تعد لعصبة الأمم أى قيمة . وشريكنا البريطانى يقودنا الى المشنقة ويلقى فى السجن بأفضل افراد أمتنا » . ورد عليه « جابوتنسكى » بقوله انه اذا كان هذا هو ما يشعر به « بيجين » ، فمن الأفضل له أن يغرق نفسه فى نهر الفستولا .

ويؤكد « يوحنا بادر » — وهو محام بحركة « التصحيح » ، عاش فى الجيل الوسط بين جيلى « جابوتنسكى » و « بيجين — انه بالرغم من شعور الغضب الذى انتاب الزعيم ، فانه « سعد واغتبط » لمواجهة « الصبيان » له . وثمة روايات متناقضة حول رأى « جابوتنسكى » فى « بيجين » . فقد قيل مثلا ، أنه اختاره خليفة له . ولكن من جهة أخرى ، تردد أنه كان يحتقر تزمت « بيجين » والذى يشبه تزمت ابناء الاقاليم ، وكذلك تقواه المفرطة (لقد كان « جابوتنسكى » بعيدا تماما عن هذا الجانب من التقاليد اليهودية حتى انه كتب فى وصيته يقول : « أريد ان يدفن جثمانى أو يحرق — فالأمر سيان بالنسبة لى — حيثما يلحق بى الموت ») . ولم يزعم « بيجين » فى أى وقت وجود علاقة وثيقة بينهما . فقد كان يدرك تماما مدى الاختلاف بينهما فى السن والمكانة . وكان من الواضح ان « جابوتنسكى » كان يقدر « بيجين » كشخص قادر على التنظيم وكمرءوس موهوب ، ولكن لم يكن هناك أى دليل على انه يحاول صقله ليصبح خليفة له .

وانتهى مؤتمر وارسو بانتصار الشباب . وتم تجنب الشقاق بين جماعتى « البيطار » و « الارجون » وفى ابريل سنة ١٩٣٩ ، تم تنصيب « مناحم بيجين » رئيسا « لمنظمة بيطار » البولندية ، التى كانت بمثابة محطة توليد الطاقة بالنسبة للحركة الدولية ، وذلك بدلا من « بروبيز » ، الذى ترك منصبه فى هدوء تام . وقد أعلن الاتراك الشبان بلا رحمة أن « بروبيز » ممتاز بالنسبة للشئون الثقافية والمؤتمرات ، ولكن ليس بالنسبة لخوض المعارك وتولى الشئون السياسية (وقد اسس فيما بعد « مهرجان اسرائيل » ، الذى ظل يشرف عليه حتى وفاته عام ١٩٧٨) . واحتفل « بيجين » بترقيته بأن تزعم مظاهرة ضد فرض قيود على الهجرة اليهودية . وأتاح البوليس البولندى له أول فرصة لتجربة حياة السجن . وأطلق سراحه بعد ثلاثة أسابيع ، وهو حليق الرأس . ولكن كانت وارسو والعالم بأسره مشغولا حينذاك بأمور أخرى أكثر أهمية .

الفصـــل الثـــالث

هروب واعتقـــال

لم تكن المسألة التى تواجه يهود أوروبا ابان صيف عام ١٩٣٩ ، هى هل ستقع الحرب بقدر ماكانت متى ستقع . وكان الاهتمام الاول للحـــركة الصهيونية بجناحيها هو عملية انقاذ أكبر عدد ممكن من يهود المانيا فى اعقاب قرارات نورمبيرج ، وان لم يكن قرار الحل النهائى قد صدر بعد . ولم تعـد تنبؤات « جابوتنسكى » بقرب وقوع الهلاك تبدو وكمحاولة لاثارة الذعر . ولم يعد النداء الذى وجهه الى كل يهودى لأن ينجو بنفسه طالما كانت هناك فرصة ، يقع على آذان صماء . ولكن كانت الحواجز قد بدأت تقبـــــــــــام والحدود تغلق .

وقبل يومين اثنين من غزو « هتلر » لبولندا ، عاد « مناحم بيجين » الى وارسو بعد ان رافق قافلة تضم الفـــا من المهاجرين « غير المشروعين » تابعين لمنظمة « بيطار » ، حتى حدود رومانيا . وكان يسيطر عليه شعور بالاحباط ، حيث ان رومانيا كانت تسمح ، حتى تلك اللحظة ، بمرور اليهود المتجهين الى فلسطين عبر اراضيها ، ولكن بعد التوقيع فى موسكو على اتفاقية مولوتوف ـــ ريبنتروب فى ٢٣ اغسطس لم يعد فى وسع الرومانيين تحمـــــل المخاطر نيابة عن الغير . وتشتت جماعة المهاجرين من اعضاء « البيطار » ، وعادوا الى ديارهم . ولقى معظمهم حتفه فى معسكرات الموت أو بين صفوف رجال المقاومة البولندية .

وعندما دخـــل الجيش الالماني بولندا فى أول سبتمبر من ذلك العام ، كان رد الفعل التلقائى « لبيجين » منبعثا من مشاعره كمواطن بولندى وكيهودى فى الوقت ذاته . ويسترجع يزرائيل ايلداد أحداث تلك الفترة قائلا « دعا بيجين » قيادة منظمة « بيطار » للاجتماع ، وطلب منا تحصين وارسو وحفر الخنادق . وقال لنا ان علينا اداء واجبنا كمواطنين بولنديين ، وأن نلتزم بالقوانين . وجاء الى مكتب البيطار فى اليوم التالى ، الشاعر يور زفى جرينبرج من « حركة التصحيح » . واندهش للمشهد الذى رآه أمامه ، فصاح قائلا « ماذا تفعلون ؟ ان الروس قادمون . ويوجد لدى جماعة ارجون جوازات سفر فخذوها واذهبوا » . وذهب « بيجين » و « ديفيد جوتان » لمقابلة جنرال بولندى وعرضا عليهم تشكيل كتيبة يهودية لتقاتل مع الجيش البولندى ضد الألمان ، غير ان رده لم يكن مشجعا . وعندئذ فقط بدأ « بيجين » وغيره من قادة « بيطار » يغادرون « وارسو » فى جماعات صغيرة . وكانت قنابل الالمان قد بدأت تتساقط على العاصمة .

ورحل « بيجين » وزوجته « اليزا » بصحبة « ناتان يلين — مور » وزوجته « فريدا » ، اللذين كان قد تم زواجهما فى ٥ سبتمبر بواسطة الحاخام الاكبر شلومو دافيد كاهانا ، آخر حاخامات وارسو . وقد شهد « بيجين » وزوجته على عقد الزواج حيث كان « يلين — مور » واحداً من زملاء «بيجين » فى اللجنة العليا لمنظمة بيطار . وقد أصبح « ناتان يلين — مور » فيما بعد واحداً من الثالوث الذى قاد الحملة الارهابية التى شنتها « عصابة شطيرن » ضد الانتداب البريطانى . وعندما أحكم اغلاق الحصيدة ، اخذوا يروحون بجيئة وذهابا سواء بواسطة القطار أو العربات التى يجرها الخيل ، أو على الاقدام ، ويختبئون لدى الموالين لحركة « البيطار » ، وهم يتحاشون القاذفات الألمانية ويتجنبون الدبابات السوفييتية القادمة . وسادت الفوضى والشائعات ، واحتشدت الأسر اللاجئة على جانبى الطرق واكتظت بهم القطارات ، وبدأ القصف يسجل أول اصابات بين المدنيين ، الذين أصبحوا يبدون فى حالة من الانكسار يرثى لها . وكتب « بيجين » يقول فيما بعد : « كنا ننام ونحن نسير . كنا ننام أثناء سيرنا على أقدامنا » . واحتجز الروس « بيجين » لفترة وجيزة عندما اتهمته امرأة يهودية بأنه مدين لها بمبلغ من المال كانت قد دفعته له ليساعدها على الهرب عن طريق رومانيا . وسدد الدين . واشترى حريته .

ورفض الرفاق الأربعة الذين أصبحوا يعانون من الاعياء الشديد الالحاح عليهم بالبقاء فى مكان واحد ، حتى يمكن لاعضاء منظمة « البيطار » رعايتهم ، وان كانوا قد شعروا بامتنان لتمكنهم من الاحتفال بعيد راس السنة اليهودية مع بعض الأصدقاء . واستطاعوا أن يصلوا فى النهاية ، وبعد أن أمضوا سبعة أسابيع على الطريق ، الى مدينة « فيلنا » التى كانت مركزا هاما للتعليم والمشروعات اليهودية . وكان الروس قد استولوا على الجـــزء الشرقى من الأراضى البولندية وأعلنوا « فيلنا » عاصمة لاقليم « ليتوانيا الحرة » واجتمعت قيادة منظمة « البيطار » البولندية بكامل هيئتها فى « فيلنا » . وسرعان ما انضم اليهم الآلاف من اعضائها . وأخبرهم « بيجين » أن « ليتوانيا » ستوفر لهم سبيل الخروج الى فلسطين . واستأجرت المنظمة منزلا ، وبعثت بأفرادها للبحث عن مراكب لنقلهم عبر بحر البلطيق . ويعترف بعضهم عند استرجاعهم للماضى ، بأنهم كانوا سذجا ، فقد كان من المستحيل أن تدوم حرية « لتوانيا » ولكن كانت « فيلنا » تعتبر آنذاك رمزا للأمل .

ولقد تعرضت مصداقية قادة منظمة « البيطار » للاختبار عندما وصلتهم رسالة من « شيمشون جوليتزمان » ، رئيس حركة الشباب فى فلسطين ، يبلغهم فيها أولا بأن « افراهام شتيرن » ، القائد اكثر اجنحة جماعة « ارجون زفاى ليومى » عنفا قد قرر « العمل بمفرده » . ومن ثم ، وعند تلك اللحظة ،

اصبحت هناك قوتان سريتان تعملان من أجل تحقيق « الحق اليهودى » جماعة « ارجون زفاى ليومى » أو « المنظمة العسكرية الوطنية » ، التى اصبحت تعرف باسمها المختصر « ايتزيل » المكون من الحروف الأولى لاسم المنظمة العبرية) ، وعصابة شتيرن « المحاربون من اجل تحرير اسرائيل » ، — « لوحامى هيروت يسرائيل » (بالعبرية ، واختصاروا « ليهى ») . والأمر الثانى الذى أبلغهم به فى رسالته ، وهو الأمر الأهم بالنسبة « لبيجين » ورفاقه فى فيلنا هو أن «كثيرين هنا (فى فلسطين) يعتقدون أنه لايجب على القبطان أن يغادر السفينة طالما ظلت طافية » . وفهم « بيجين » — بحساسيته المفرطة ازاء مسالة الكرامة ، تماما مثل حساسية « جابوتينسكى » — ان المقصود بهذه العبارة هو اتهامه ورفاقه بالتخلى عن عشرات الآلاف من اعضاء منظمة «بيطار» الذين كانوا لايزالون موجودين فى بولندا .

ويسترجع يسرائيل الداد هذه الواقعة فيقول : « لقـــد اســتدعانا « بيجين » وقال لنا انه ربما كان (جونيتزمان) على حق ، واله يريد أن يعود الى وارسو . ولكننا قررنا فى النهاية عدم العودة . وكانت حجة عدم العودة هى أن جبهتنا أصبحت موجودة الآن فى فلسطين ، التى هى وطننا الأم . ولم يعد هناك ما نفعله فى بولندا . وقد اصبح من المستحيل العمل هنا من اجـــل ترحيل مزيد من أعضاء « البيطار » الى فلسطين . ولذلك فقد استدعيناهم الى « فيلنا » لاخراجهم عن طريقها .

وكان « ديفيد جوتان » واثقا من أن بقاءهم فى « فيلنا » كان أفضل ، كما كان يرى أن تفكير « جونيتزمان » خاطىء ويقول :

« أولا ، كنا نعتقد أن الانتقال اليها انما كان مؤقتا . وكنا على ثقة من أن الجيش البولندى بمساندة البريطانيين والفرنسيين سينتصر . وكانت حجتنا هى ان « ليتوانيا » ليست سوى دولة يمكن تدبير الخروج منها . وكنا هناك على صلة بالعالم الحر . وارسلنا برقيات الى الولايات المتحدة — الى منظمة برو بيز وغيرها من المنظمات — للضغط من اجل منحنا تاشيرات وتصاريح هجرة لأكبر عدد ممكن من أعضاء « البيطار » . وكنا فى حاجة الى تواجدنا فى مكان يمكن للبريطانيين أن يرسلوا اليه تصريحات للهجرة المشروعة .

وكنا قد قمنا بانفسنا ، كذلك ، بتزوير عدة تصريحات . فان الحصول على تاشيرة خروج من «ليتوانيا» كان يستدعى، على الأقل ، تقديم خطاب يفيد بان لديك تصريح بالاتجاه الى مكان آخر . ولذلك فقد قمنا بتزوير مثل هذه الخطابات . كما أن القنصلية الهولندية فى « فيلنا » كانت تمنح تاشـــيرات للذهاب الى « كوراكاو » . وعندما اغلقت القنصلية ، قمنا بتزوير التاشيرات . وكان اليابانيون ايضا يمنحون تاشيرات خروج .

وقد سكت الروس عن كل هذه الأنشطة لانهم كانوا يحتاجون الى العملة الأجنبية ، وكانت اللجنة المشتركة (لجنة التوزيع الأمريكية اليهودية المشتركه) تزودنا بالمال اللازم ·. وكنا فى حاجة الى قاعدة ، وكانت « فيلنا » قاعدة مناسبة يمكننا العمل من داخلها · وكذلك كنـــا نجرى اتصــــالات مع الصيادين « الليتوانيين » فى ميناء « بالانجا » ، وقد منحناهم النقود لاننا كنا نعتقد أنهم يستطيعون نقل الأشخاص بزوارقهم الى السويد .

والذى حدث ، أن الحرب لم تنته بسرعة ، كما ثبت أن قرار البقاء فى « فيلنا » ، كان غاية فى الأهمية · فان منظمة « البيطار » كانت تمثل الحركة الصهيونية البولندية الجماعية الوحيدة التى بقيت لتواجه « الحل النهائى ، بدون قيادة · ويذكر المؤرخ الاسرائيلى « يهودا بوار » ، الذى كان من أوائل مؤرخى « الهلوكوست » ، أن هذه الحقيقة هى السبب الأساسى وراء ما يصفه « بعقدة الهلوكوست » التى يعانى منها « بيجين » ، أو شعوره بالذنب لانه بقى على قيد الحياة · وقد كتب « بوار » يقول : « ان عدداكبيرا من الناجين ممن يمرون بتجارب مماثلة ، يعانون من شعور عميق بالذنب . بيد أن مثل هذا الاحساس بالذنب ليس له أى مبرر من وجهة النظر المنطقية .وتقدم لنا نظرية البروفيسور «بوار» تفسيرا مقبولا لتسلط «الهلوكوست» على تفكير «بيجين» ، والذى أدى به الى ارسال خطاب اثناء حصار الجيش الاسرائيلى لبيروت فى اغسطس عام ١٩٨٢ ، الى الرئيس « رونالد ريجان » ، جاء فيه « انى أشعر هـــذه الأيام وكأننى رئيس وزراء يملك سلطة توجيه جيش باسل يقف فى مواجهة « برلين » حيث يختبىء « هتلر » وحاشيته فى مخبأ عميق تحت سطح الارض وســط المدنيين الابرياء ·

وقد ذكر باحث آخر فى دراسة له عن « الهلوكوست » ، وهو زئيف مانكوفيتز » ان هذه المقارنة التشبيهية تعتبر مضللة وخطيرة ·
فكتب يقول :

« ان حرب النازى ضد اليهود لم يكن لها اساس واقعى » . وقد نبعت من كراهية بلا سبب وخوف من « اليهود » ، بصفتهم قوة شيطانية تعمل من أجل فرض سيطرتها على العالم · والحقيقة الرهيبة هى أن الشعب اليهودى كان ضحية للهلوســـة · بيد أن الشعب الفلسطينى ، هو الشعب الحقيقى ، وتطلعاتهم القومية حقيقية واقعة ، كما أن لهم أهمية رمزية حقيقية فى العالم العربى ، وبالمثل فان التعاطف والاعتراف السياسى الذى كسبه هذا الشعب فى أنحاء العالم يعتبر حقيقة ملموسة ·

وكما عرفنا فان « بيجين » دافع فى عام ١٩٣٩ عن فكرة الرجوع الى وارسو · ومع ذلك « يسرائيل الداد » يعتبر واحدا من الذين يشكون فى

انه كان يعنى ما يقول فعلا . فان « بيجين » كان يملك آنذاك ، نفس القوة والمكانة اللتين كانتا تمكنانه فى مناسبات أخرى من فرض رأيه على زملائه هذا ، اذا كان هو يرغب فى ذلك .

ويقول الداد : « أنا لا أعرف حتى الآن ما اذا كان جادا فيما بقوله أو انه كان مجرد ايماءة ، مجرد مشهد تمثيلى . فلطالما شاهدناه يفعل ذلك حتى يومنا هذا . وأنا لا أعرف ما اذا كان يريد فعلا العودة الى وارسو » .

هذا وقد وجد قادة حركة « بيطار » البولندية وقتا كافيا فى ربيع سنة ١٩٤٠ ، بالرغم من مشاغلهم العملية ، لمناقشة مسألة أوسع نطاقا كانت تمزق حركة « التصحيح » : هل يوقفون مؤقتا النضال ضد الحكم البريطانى فى فلسطين طالما ظلت بريطانيا تشن حربا ضد النازى ؟ أم هل يؤيدون سياسة « بن جوريون » التى تدعو الى الاشتراك فى الحرب وكأن « الكتاب الابيض » الذى يفرض قيودا على الهجرة اليهودية ، لم يصدر ، مع محاربة « الكتاب الابيض » وكأن الحرب غير قائمة ؟ وقد أصدر « جابوتنسكى » اوامره الى « الارجون » بوقف النضال . ورضخ « دافيد رازئيل » ، قائد قوات « الارجون » فى فلسطين للامر . ووفقا لاقوال « الداد » ، فان «بيجين» أدان عملية وقف القتال باعتبار أنها بمثابة خيانة للقضية اليهودية . وكان يعارض وقف القتال .

وقاد « الداد » حملة فى مجلة « بيطار » التى كان يرأس تحريرها فى « فيلنا » ، من اجل « الحياد المعادى » ، ما لم يمنح البريطانيون اليهود جيشا خاصا بهم تحت راية نجمة داوود . ويتفق موقف بيجين هذا والموقف الذى اتخذه فى المؤتمر العام لمنظمة « بيطار » ، ولكنه عندما أعلن الحرب ضد الانتداب البريطانى بعد اربعة اعوام من ذلك التاريخ ترك انطباعا بأن دوافع اتخاذه لهذا القرار كانت اكثر من مجرد استجابة لمأساة يهود أوروبا عام ١٩٤٤

وقامت جماعة البيطار فى أحد أيام صيف عام ١٩٤٠ بتنظيم اجتماع فى الجامعة البولندية « بفيلنا » — والتى كانت تشتهر بأنها مستوقد للعداء ضد السامية — للاحتفال بثلاث مناسبات : احياء ذكرى وفاة « تيودور هيرتزل » ابو الصهيونية السياسية ، ووفاة « حاييم ناخمان بياليك » شاعر الاحياء العبرى ، والذكرى الخامسة عشرة لانشاء الجامعة العبرية فى القدس . وكان من المقرر أن يلقى بيجين كلمة فى تكريم هيرتزل . ولكن حدث فى منتصف الاجتماع ، الذى حضره آلاف الطلبة اليهود ، أن مررت ورقة الى المنصة . وجاء فى المذكرة : « لقد دخلت الدبابات الروسية المدينة » . وشحب وجه الاستاذ الذى كان يتكلم عن الجامعة العبرية واقترح أن يرحلوا جميعا بأسرع ما يمكن . ووقف « بيجين » معلنا : « سنواصل عقد

الاجتماع حتى نهايته وسنختمه بالنشيد القـــــومى « هاتيكفا » . وهب الحاضرون وانطلقوا يرددون النشيد القومى الصهيونى . ويقول « يسرائيل الداد » : « لن انسى ابدا تلك المرة التى رددنا فيها « الهاتيكفا »! . لقــد ظننا جميعا أن هذه هى آخر مرة سننشد فيها « الهاتيكفا » بأوروبا .

وادرك قادة « البيطار » آنذاك ان الوقت بدأ ينفد . فان الكرملين لم يكن بصديق للصهيونية ، التى كان يحتقرها بصفتها « انحراف قومى » عن الطريق الثورى . كما أن « ستالين » كان لا زال الحليف القلق لهتلر . ولكن لم يكن لدى « بيجين » ورفاقه ما يردون به سوى أن يواصلوا ما كانوا يقومون به ، ويستمروا فى البحث عن منافذ لتهريب اتباعهم عبرها . وكانت « منظمة بيطار » تحتفظ بسجل لبطاقات عضوية أفرادها الموجـــودين « بفيلنا » . وعندما وصل الروس قام أحد الشبان — ممن تولوا فيما بعد منصبا رفيعــا بدولة اسرائيل بسحب بطاقته حتى لا ينكشف أمره . ففصــــله بيجين من البيطار على الفور .

وتلقى أعضاء حركة التصحيح فى ذلك الصيف لكمة مزدوجة فلم يكد يمر اسبوع على دخول الدبابات السوفيتية الى ليتوانيا ، مما انهى اســــتقلالها الهش ، حتى توفى « فلاديمير زئيف جابوتنسكى » فى الولايات المتحـــدة . وخاطر « بيجين » بحريته حيث اتجه الى « كوفنو » لالقاء مرثية بالمعبـــد اليهودى الرئيسى هناك ثم توفى بعد شهر من رحيل « جابوتنسكى » ، أحد الاحبار البارزين فى « فيلنا » واشترك خمسة عشر من أعضاء البيطـــار فى جنازة الحبر التى اشترك فيها الآلاف من أعضاء الطائفـــة « الحاســـيدية المتطرفة » . وانسلخوا من الجنازة واتجهوا الى قبر شاب من المنظمة مات نتيجة للبرد القارس واصابته بالغرغرينا اثناء محاولته الوصول الى فلسطين. وأقام « بيجين » صلاة الجناز عليه والقى كلمة قصيرة ثم رددوا جميعا نشيد « البيطار » ، بما يتضمنه من اعلان الايمان بأن اسرائيل سوف تقوم من بين الفساد والرماد . غير أن « بيجين » تأثر بوفاة معلمه بدرجة أكبر مما حاول أن يبديه .

وقد لفتت تصرفاته التى تنطوى على التحدى انظار البوليس السرى السوفيتى اليه . وتم استدعاء عضو بالبيطار الى مقر القيادة وسئل عما اذا كان يعرف « بيجين » وعندما رد بالايجاب قال له الضابط : « لقد القى كلمة رائعة بالمقابر اليس كذلك » ؟ وكان « ديفيد جوتان » من أهالى « فيلنا » وقد درس بجامعتها . وفى أحد الايام ابلغه احد معارفه القدامى بانه وزملاءه ضمن القائمة التى وضعها الروس بأسماء المطلوب القبض عليهم . وقــام البوليس السرى السوفيتى بزيارة منزل والديه ، بيد أن « جوتان » كان قد ذهب على سبيل الاحتياط ، الى مكان آخر لينام فيه . وبذلك أخذ زعمـــاء

« البيطار » حذرهم ، وانتقلوا من « فيلنا » الى قرية « بافيلنيوس » القريبة ، حيث قاموا بتأجير غرف متفرقة فى بيوت الفلاحين .

وتلقى « بيجين » قبل مغادرتهم المدينة مباشرة استدعاء للحضور الى الغرفة رقم ٢٣ فى مبنى مجلس مدينة « فيلنا » بشأن موضوع « الطلب الذى تقدمتم به » وأدى هذا الى تحذيره بدلا من ايقاعه فى الفخ . فلم يستجب لهذه « الدعوة المهذبة » ، ولم يكن ذلك فقط الا لانه لم يتقدم بأى طلبات . وقد اختار « بيجين » الا يختبىء أو يحاول الهرب . وفى كتاب « الليالى البيضاء »، الذى يعتبر من أول الكتابات الادبية عن الحياة فى معسكرات الاشغال الشاقة « الجولاج » والذى نشر فى عام ١٩٥٧ ، قال «بيجين» : « كان هناك سبب بسيط وراء الجزء الاول من قرارى . فقد قلت لنفسى ، اذا كانت الحكومة السوفيتية ترغب فى اعتقالى ، فليتعب عملاؤها أنفسهم ويحضروا الى منزلى، فهذه هى مهمتهم ، ولماذا اختفى وكان الارض ابتلعتنى » ؟

واضاف يقول بخبث : « اما السبب وراء الجزء الثانى من قرارى فلم يكن بمثل هذه البساطة ، ولا اريد أن اخوض فيه » . ولم يكشف « بيجين » عن هذا السبب الاخير الا بعد مرور عشرين عاما أخرى .

« لقد أظلمت الدنيا فى نظرى بعد وفاة جابوتنسكى . لم يكن « جابوتنسكى » بالنسبة لنا مجرد رئيس أو زعيم ، بل كان اكثر من ذلك ، فقد كان محل آمالنا ، وكنا نتطلع اليه ليخرجنا من العبودية .. لقد ضاع الامل ذاته ، لقد رحل عنا ولم يعد هناك أمل . ولذلك فقد كنت ممهدا نفسيا لان اعتقل بواسطة السوفييت لاننا اذا لم نستطع ، كما قلت اثناء تجمعنا حول قبر احد اعضاء « البيطار » ، أن نقاتل من أجل بلدنا فليس اقل من أن نعانى من اجله . وبصراحة تامة ، لقد كانت لحظة يأس متناهى . لم يكن امامنا بصيص من الضوء . ولذلك فقد كنت فى حالة نفسية تجعلنى افضل الذهاب الى السجن . ولم أتكلم فى هذا حتى مع زوجتى . لقد قدم لى رفاقى النعيم .. ولكننى رفضته » .

وعلى اى الحالات فقد انتقل زعماء منظمة « بيطار » الى « بافيلنيوس » ، حيث استأجر « بيجين » و « اليزا » بعض الغرف فى منزل احدى الارامل . وقاسمهم مسكنهم كل من « الداد » (الذى كان يعرف آنذاك باسم « يسرائيل شيب ») وزوجته « باتيا » ، وشخصان آخران ، أحدهما زوج شقيقة مسز « بيجين » . وكان عملاء البوليس السرى السوفيتى يتتبعونهم كظلهم . بل ان « بيجين » كان يلهو بهم . فدعا « اليزا » للذهاب معه بالقطار الى « فيلنا » وقام بتعيين فريق من اعضاء البيطار لتتبع العملاء وكان العملاء يقتفون أثر « بيجين » وزوجته أينما ذهبا — وكان جواسيس بيجين يقومون بدورهم باقتفاء أثر العملاء . لقد كان الجميع يعلمون أنها لعبة

لن تستمر طويلا . وسخر بيجين فى كتابه « الليالى البيضاء » من رجال البوليس السرى السوفيتى لافتقارهم الى المهارة التى يتميز بها المحترفون . فلقد كانوا مكشوفين تماما . ولكن ربما كان الامر ببساطة لا يسبب لهم أى شعور بالقلق . فلو أن قيادة « بيطار » غادرت « ليتوانيا » فالى غير رجعة ، أما اذا ظلوا بها فان رجال البوليس السرى سيستطيعون عندما يريدون ، أن يلقوا القبض عليهم .

وتحرك البوليس السرى فى ٢٠ سبتمبر ، أى بعد عشرة أيام من لعبة القط والفأر . وشعر « بيجين » بالارتياح عندما سمع الطرق على الباب ، فقد عرف أخيرا أين يقف . ودخل ثلاثة رجال ، وقطعوا على « بيجين » و « الداد » ، مباراة الشطرنج التى كانا يلعبانها . وسأل قائد القوة عن السبب فى تجاهل « بيجين » للاستدعاء الذى أرسل اليه بالحضور الى مبنى مجلس المدينة . ورد عليه « بيجين » قائلا : أنه لم يكن لديه شأن والبلدية . وانهم اذا كانوا يريدون الاتصال به فانهم يعرفون أين يجدونه . وطلب منهم « بيجين » بلهجته الرسمية الشبيهة بلهجة المحامين ، أن يكشفوا عن شخصياتهم . وأبرز قائدهم بطاقة شخصية تفيد بأنه من رجال المخابرات « اللتوانية » . وسألهم « بيجين » عما اذا كان معهم أمر كتابى بالقبض عليه ، ونفوا ذلك ولكنهم قالوا انهم جاءوا على أى الحالات لاعتقاله . وصمم « بيجين » ، متشبها « بجابوتنسكى » ، على الا يجبره أحد على التعجل ، وعلى أن يحتفظ بوقاره . وطلب من « اليزا » تقديم الشاى « لضيوفهم » وبدأ يستعد للرحيل .

يذكر « الداد » هذه المناسبة فيقول :

لقد أدى « بيجين » ، ما أصفه بمثابة مقطوعة موسيقية . فقام بتلميع حذائه وارتداء حلة وربطة عنق ، وكان فى منتهى التهذيب . وفى النهاية طلبوا منه الذهاب فقال لهم : « أنا هنا فى بيتى ، فتفضلوا أنتم أولا . والتفت الى قائلا : « اننا سنواصل مباراة الشطرنج » . وتلقيت فيما بعد رسالة يخطرنى فيها بأننى فى وضع الفوز ولذلك فانه ينسحب . ولم يكن هذا صحيحا، فأننا لم نكن قد قمنا بتحريك القطع سوى خمس أو ست مرات . وقد سمحوا له بأن يأخذ معه التوراة وكتاب آخر فقط . وبكت زوجتى . أما زوجته فلم تبك .. لقد كانت فى غاية القوة والتماسك » .

وبينما كان « بيجين » خارجا تحت الحراسة ، شاهد « ديفيد جوتان » وتبادلا نظرات تنم عن وقوع المحتوم وكأنهما يقولان : « حسنا ، لقد حدث المتوقع » وكان زملاء قائد منظمة « بيطار » واثقين من انه يواجه فترة سجن طويلة غير محدودة ، بالرغم من تأكيداته بأنه سيعود سريعا . ومع ذلك فقد وجدوا صعوبة كبيرة فى اقناع « اليزا بيجين » بالذهاب معهم الى فلسطين

بواسطة أوراق هجرة مزورة . ويقول « جوتان » أنها كانت تصاب بالهستيريا .

« أوضحت لها أن السوفييت لن يحتفظوا « بمناحم » فى « فيلنا » وانهم سيرسلوه الى سيبيريا أو أى مكان آخر مشابه . وان الحدود ستغلق فى القريب العاجل . وأكدت أن السبيل الوحيد للضغط من أجل الافراج عنه هو عن طريق اجراء اتصالات بالعالم الحر ، وبصفة خاصة بالولايات المتحدة . ولا يسعنا عمل ذلك الا من فلسطين أو استنبول » .

وفى النهاية أمكن اقناع « اليزا » بالرحيل . فسافرت برفقة « يسرائيل » و « باتيا » ، الى حيفا عن طريق « أوديسا » وتركيا . وكانت جماعتهم ضمن ٤٠٠٠ يهودى سمح لهم الروس بمغادرة « ليتوانيا » عبر « أوديسا » و فلاديفوسك » ودفعت اللجنة المشتركة ، ألفي دولار عن كل فرد سافر عبر « أوديسا » وأربعة الاف دولار عن المجموعة التى سافرت عبر « فلاديفوسك » . واتجهت المجموعة الاولى الى فلسطين بينما سافرت المجموعة الثانية الى الولايات المتحدة .

وأمكن ابلاغ « بيجين » ، فى زنزانته الكريهة الرائحة بسجن «لاكيشكى» نبأ فرار زوجته وذلك من خلال احدى الالغاز التى تقوم على التلاعب بالكلمات والتى يحتاج حلها الى جهد ذهنى مضن ولكن بمجرد ان تعرف الحل فانه يبدو لك فى غاية السهولة . فقد أرسل له بعض الاصدقاء لفافة تحتوى على بعض الملابس الشتوية الثقيلة . وعندما حل بيجين اللفافة وجد بداخلها منديلا مطرزا عليه بطريقة بدائية « أولى » . ولاول وهلة ، لم يفهم لماذا كتب اسم التدليل الذى يطلقه على زوجته بتلك الطريقة بدلا من هكذا : « آلا » . ولكن فى النهاية استطاع أحد زملائه اليهود بالسجن أن يحل له اللغز . فان كلمة « آولا » هى تأنيث للكلمة العبرية « أوليه » التى تعنى حرفيا « من يذهب الى اعلى » ولكنها ترمز أيضا الى « المهاجر الى فلسطين » . وقد تأكدت صحة هذا الحل للغز فى مايو عام ١٩٤١ عندما سمح لاقارب المسجونين بزيارتهم . وطلب « بيجين » السماح لزوجته بزيارته ، على احتمال ألا تكون قد رحلت بعد . وحضرت بدلا منها فتاة من جماعة « بيطار » بفيلنا ، تدعى « بولا دايتشيز وقالت له ان العمة « آلا » موجودة مع العم « شيمشون » . وفهم « بيجين المغزى المقصود فورا . فان العم «شيمشون» هو «شيمشون جونيكزمان» ،زعيم « بيطار» فلسطين . ثم استطردت « بولا » تقول : ان والديه فى صحة طيبة وكذلك اخوته الموجودون مع العمة « آلا » . وحيث أن « بيجين » لم يكن لديه سوى أخ واحد فقد أدرك انها تعنى ان رفاقه قد نجحوا أيضا فى الفرار . وطلب « بيجين » من « بولا » ان تكتب خطابا الى العمة « آلا » وتبلغها فيه أنه فخور بهم جميعا ، « وقولى لها انى فى صحة طيبة واننى سأعود اليهم » .

وقد اعاد « بيجين » الى الاذهان اللغز المبنى على التلاعب بلفظى «آلا» و « أولا » بعد أن طواه النسيان بمدة طويلة وذلك عندما أهدى نسخة من كتابه الليالى البيضاء الى « دافيد جوتان » بعبارة تقول : الى « ديفيد الذى لولا ما أصبحت «آلا» هى أولا — أى ما اصبحت زوجته « آلا » مهاجرة الى فلسطين ·

ولكن شاءت الاقدار ان يمر عليه عامان عصيبان قبل ان يتمكن من الوفاء بوعده ويعود اليهم مرة أخرى ·

الفصـــل الرابـــع

الانتقال الى « الجولاج »

سأل « مناحم بيجين » نفسه بعد أن أمضى تسعة أشهر مسجونا فى مقر رئاسة البوليس السرى السوفييتى بفيلنا ويسجن « لوكيشكى » البارد ، لماذا ينتهى أمر الكثيرين ممن يحتجزهم البوليس السرى السوفييتى بالاعتراف ؟ وقد بحث « آرثر كوستلر » هذا اللغز ذاته فى روايته عن عمليات التصفية الجسدية التى مارسها الكرملين ، والتى نشرت تحت عنوان « الظلام وقت الظهيرة » . وكان جواب «كوستلر » على ذلك التساؤل هو أن قدامى البلاشفة ظلوا على ولائهم للثورة مهما ساورتهم المخاوف من تطرف ستالين واسرافه . وقد أدركوا أن المرء الذي تنتابه الشكوك والريبة فى سلامة الطريق الذى يسلكه الحزب انما يعرض الثورة للخطر وذلك فانه « يستحق » اصابته برصاصة فى مؤخرة رأسه . ولم يكن « روباشوف ، بطل كوستلر ، ضحية للبوليس السرىفحسب بل كان ضحية أيضا لمنطقه الشيوعي .

وخطا «بيجين» بسؤاله خطوة أخرى : لماذا يسلك المسجونون السياسيون الاخرون الذين يخلصون لمثل عليا أخرى غير الشيوعية ، نفس الطريق الى العدم ؟ وتوصل تفكيره الى أن السبب فى هذا يكمن فى « حائط الشك » الذى يقيمه البوليس السري السوفييتى حول فريسته ، وهو الحائط الذى لا يحرمه فقط من حريته بل أيضا من جمهوره ، فيقول :

اذا ما أدرك المناضل أن خدماته لم تعد ذات قيمة ، وان أحدا لن يستمع لكلماته أو يعرف بالموقف الذى اتخذه ، كما أن احدا لن يتلقف تضحيته من بين يده ويتعلم منه كيف يضحى ، فان الخيط الذى يربط بينـــه وبين مثلـــه العليا سينقطع فى الغالب . وعندئذ سوف ينمحى تماما ادراكه الداخلى برسالته وسوف تتساءل نفسه المعـــذبة : من الذى سيعرف ؟ من الذى سيتبعنى ؟ من الذى سيحل مكانى ؟ .

ما اهمية معاناتى وما الهدف من العذاب الذى أقاسيه ؟ .

واضاف « بيجين » الى ما سبق عاملا اضافيا توصل اليه من تجربتـــه الذاتية ، وهو الحيلة المعتادة التى يمارسها المحققـــون : حرمان المسجون من النوم ، وهو جزء لا يتجزأ من اى عملية استجواب يجريها السوفييت . لقـــد كان البوليس السرى يعمل أساسا خـــلال الليـــل ، ويتم اعادة السجناء الى

زنزاناتهم قبل موعد الاستيقاظ مباشرة • وبمجرد ان يغلبهم النعاس ، يحين وقت الاستيقاظ • وكان النوم محظورا اثناء النهار • وكانت الاوامر الصادرة الى الحراس تنص على مراقبة السجناء بدقة وتهديد كل من يغفو اثناء النهار بالسجن الانفرادى اذا تكرر منه ذلك ويقول « بيجين » عن هذه التجربة :

« يأتى الليل حاملا فى طياته ظلام الاستجواب الجديد •• المرة تلو المرة •• والليلة تلو الليلة ، طوال الاسابيع والاشهر ، طوال الزمن اللانهائى • يبدأ الضباب يتكاثف داخل رأس المسجون الذى يجرى استجوابه •• ويكاد الاجهاد يزهق روحه ، وتهتز ساقاه تحته ، ولا تصبح لديه سوى أمنية وحيدة مطلقة وهى : أن ينام ، كم يتمنى أن ينام ولو لفترة وجيزة ، أن يستلقى ولا يقوم أن يستريح وينسى • وأن ينام ، أن يموت ، أن ينام ••• العدم » • ان كل من جرب هذه الرغبة الجامحة يعلم أن الجوع والعطش لا يمكن مقارنتهما بها • لقد التقيت بسجناء وقعوا على الوثائق التى أمروا بالتوقيع عليها ، بهدف واحد فقط وهو أن ينالوا ما وعدهم المحققون به ـ النوم بلا ازعاج » •

وقد عانى « بيجين » ، وفقا لاقواله ، من هذين النوعين من غسيل المخ » فقد وضع فى عزلة تامة الا من جيرانه المباشرين ، والبرقيات التى كانت ترسل بأسلوب النقط والشرط عبر جدران ومواسير السجن • ونادرا ما كانت تتاح له فرصة للنوم • وبدون محاكمة صدر ضده حكم بالسجن لمدة ثمانى سنوات بصفته « عنصرا خطيرا على المجتمع » • لقد ثار ضابط البوليس السرى السوفيتى وأعلن غاضبا : « محاكمة • امنحوه منصة يمارس من فوقها مهارته الخطابية » ومع ذلك فان « بيجين » لم ينهار • وعندما اعترف فى نهاية الامر ، فانه فعل ذلك وفقا لشروطه الخاصة • فقد رفض التوقيع على مستند يقول : « اعترف بانى مذنب بتولى رئاسة منظمة « بيطار البولندية » واستطاع بعد ليلة متواصلة من المناقشات اللانهائية ان يقنع المحقق بالغاء الفقرة التى تشير الى الاعتراف بالذنب • واقتصر اقرار الاعتراف على تسجيل حقيقة بسيطة ومحددة بوضوح : « انى اعترف باننى كنت رئيسا لمنظمة بيطار البولندية » • لقد استطاع « بيجين » ان ينهك المحقق من خلال المناقشات المضنية ، تماما كما فعل مع كل من تباحث معهم فيما بعد • وصرخ المحقق صائحا وهم يقودون « مصدر عذابه » الى زنزانته : « اغرب عن وجهى ، فأنا لا أريد ان تقع عيناى عليك مرة اخرى ابدا ! » •

كيف استطاع بيجين ان يصمد ؟ ان كتاب « الليالى البيضاء » لا يجيب مباشرة على السؤال ، ولكن يمكن للمرء ان يستشف الاجابة من بين طياته لو انه قرأه بامعان • لقد تعامل « بيجين » مع تجربة الاستجواب ، بل ومع تجربة السجن بأسرها وكأنها مبارزة ذهنية أو مباراة شطرنج قاتلة • لقد كان يفكر : كيف يعمل النظام ؟ ما الذى يحاول المحقق الوصول اليه ؟ لقد

ساعدته هذه التساؤلات التى كان يوجهها الى نفســه مثلما يحاول غيره أن يحل المسائل الرياضية ، على الاحتفاظ بعقله ، وبمعاييره ، واحترامه لذاته ٠٠ لقد حافظ على نفسه من ان ينقلب الى حيوان ٠

وحاول المحقق بما لديه من خبرة اعوام طويلة فى السياسة الصهيونية ٠ ولكن كان « بيجين » عنيدا ومتزمتا ومتكبرا ٠ وعلى الرغم من انه كان يعلم ان الانتصار على المحقق لا قيمة له فقد رفض أن ييسر له بلوغ الهــدف ٠ ورفض تلميذ « جابوتنسكى » الموافقة على أن الصهيونية ليست الا انحرافا قوميــا برجوازيا ، وان زعيمه ، الذى كان قد توفى مؤخرا ، كان أداة للامبرياليـــة البريطانية ٠ وكان صمود « بيجين » وروح المقاومة التى يتمتع بهما أمرا غريزيا فكان يناقش ويوجه المحقق ، بالرغم من ان هذا الاخير كان تلميذا بليدا ، وربما جعله يدفع ثمن جرأته ووقاحته غاليا ٠ لقد كان يتصرف تصرفا بطوليا غــير علنى ومجرد من أى غرض سوى البطولة ذاتها ، تماما كما فعل « زئيف دوف بيجين » عندما لكم الرقيب البولندى الذى حاول اجتذاذ ذقن الحبر ٠ لقــد كان ينفذ مفهوم العزة والكرامة التى غرسها « جابوتنسكى » فى نفوس تلاميذه من فتيان وفتيات البيطار ٠ لقد كان الطرفان يتجادلان ، وهما يشعران بأن ثمة شىء يجبرهما على ذلك ٠ وكتب « بيجين » يقول : « كنت اشعر أحيانا انه قد نسى دوره كمحقق تماما كما نسيت انا دورى كشخص يجرى التحقيق معه »٠

ولكن كان التمرين الليلى على المجــادلة يساعده أيضا على أن يستمر طافيا فوق السطح . وقال : « لقد كانت التحقيقات بالنسبة لى عبارة عن مناظرة بين عقيدتى ضد عقيدته ، فكان لدى ما اقاتل من اجل الدفاع عنه حتى داخل حجرة التحقيق كما كتب يقول عن عملية تحدى لاحقة : « انا اناضل ، ولذا فانا موجود » . ولم يتخل « بيجين » ابدا ، فى الوقت ذاته ، عن الامل فى اطلاق سراحه ، حتى فى اكثر اللحظات يأسا ، حينما فكر فى ارسال ورقة طلاق مشروطة الى زوجته « اليزا » . وكان السبب فى ذلك يرجع جزئيا الى أن « بيجين » رضخ رغما عنه فى النهاية لمحاولات المحقق فى أن يجعله يتأقلم . فقد وعده بمنحه فترة لاعادة تعليمه.وتساءل بيجين «هل ساعيش حتى نهايةفترة اعادة التعليم ؟ هل ساكملها واعود ؟ » يقول « ميرون شيسكين » ، رفيقه فى السجن والزعيم السابق لحركة التصحيح ، فى بولندا ، أن «بيجين» لم يفقد الأمل اطلاقا فى انه سيخرج كان كلانا يعرف أنه أينما ذهبنا فاننا سنذهب فى النهاية الى اسرائيل . لم تكن المسالة عقيدة دينية ، انما كانت شعورا راسخا فى نفوسنا . وكان « بيجين » يدرك أن نتائج الحرب الدائرة خارج جدران السجن ، مشكوك فيها ، وأن أصدقاءه فى الغرب يبذلون الجهود من اجله . لقــد كانت الثرثرة المملة بين رفــاق « بيجين » فى الزنزانة تؤكد ان « هتلر » سيوجه مدافعـــه فى القريب العاجل نحو حليف « المصلحة »

السوفيتى . وترقب السجناء البولنديون تلك اللحظة فى ابتهاج ، بينما ترقبها اليهود فى فتور . ولكن المستقبل لم يكن مضمونا على الاطلاق . ولذلك فان الامر كان جديرا ببقاء المرء على قيد الحياة وجديرا بأن يعمل المرء على كسب الوقت .

ولم يكن الوقوف وراء القضبان مسالة جديدة بالنسبة « لمناحم بيجين » فلقد دخل السجن البولندى قبل ذلك بعامين لتظاهره أمام السفارة البريطانية فى وارســـو . ولذلك فانه لم يصب بصدمة عندما احتجز فى مقر البوليس السرى السوفيتى أو وراء قضبان سجن « لوكيشكى » ، الذى نقل اليه بعد فترة وجيزة . وكان الظلام والفروق الكبيرة فى درجات الحرارة والبرودة ، والرائحة النتنة لجرادل القاذورات الموجودة فى الزنزانات المكتظة ، والسرير الصلب ، ووجبات الطعام غير المشبعة ، والسجان الفظ الذى يقوم بتنفيـذ الاوامر الخبيثة الصادرة اليه ، والعزلة عن الاسرة والصديق — كانت كل هذه أمور قد تعود عليها .

« لقد وجدت فى قفص « الآدميين » كل الاشياء المعتادة — مرتبة قش ، ورف ، ومنضدة عارية ، وكرسى بلا ظهر وغير متماسك ، واناء عميق صغير ، وبالطبع الجردل . وعامة يعتبر سجن « فيلنا » شبيه « بسجن وارسو » ، ولا شك ان كل السجون الاخرى التى يقيمها الانسان لسجن اخيه الانسان ، لا تختلف عنها فى شىء . فلا يوجد جديد تحت الشمس . وربمـــا كان من الافضل الا يكون المرء سجينا مستجدا » .

وقد اكتشف أن الفرق الوحيد بين السجن السوفيتى وغيره من السجون هو ان سجين البوليس السرى السوفيتى كان يسأل نفسه « هل من المقدر لى أن اخرج ؟ » بدلا من أن يسألها : « متى سأخرج من هنا ؟ » وجاء أول التقاء لبيجين بالواقع ، عندما صادر حراسه الكتاب الوحيد ، باستثناء التوراة الذى سمح له باحضاره معه من « بافيلنيوس » . وكان الكتاب هو ســـيرة حياة دزرائيلى بقلم اندريه موروا ، والذى كان قد بدأ قراءته بالانجليزية . وكعقاب له على تعامله مع السجن وكأنه مكتبة عامة يمضى وقته به فى القراءة أجبر على الجلوس لمدة ستين ساعة فى مواجهة حائط خال ، وركبتيه تضغطان على الحائط وعيناه تركزان على نقطة واحدة بلا حراك . لقد كان أسلوبا حاذقا فى التعذيب ، استطاع « بيجين » تحمله باسترجاعه لكل الاوقات الهامة البارزة فى حياته . ولقد كان ارتياحه بالغـــا عند السماح له بالارتمـــاء على حاشيته ، حتى أنه كاد أن يصاب بالهذيان .

وظل على مدى ثلاثة اشهر يشارك رجلين آخرين زنزانة واحـــدة . كان احدهما ضابطا احتياطيا بالجيش البولندى ، فى منتصف العمر وأعزب مولعا بالنظام بدرجة ضايقت حتى « بيجين » نفسه ، والآخـــر كان تروتزيـــا

شابا أصبح فيما بعد جنديا برتبة مساعد عريف ، كما أصبح اثناء وجوده بالسجن تلميذا « لبيجين » . وقد أثار هذا الشاب دهشة الرجلين الاكبر منه سنا عندما عاد الى الكنيسة . وكان زميلاه البولنديان بالزنزانة لا يكادان يخفيان شعورهما بالعداء للسامية والمتأصل فى نفسيهما ، ومع ذلك فقد حزن « بيجين » على فراقه لهما . وفى هذا الصدد يقول بيجين :

« كانت توجد حواجز تفصل بيننا ، بل اننا كنا نتعارك ، ولكننا تمكنا من التعرف على بعضنا البعض ، وتعلمنا كيف نتفاهم ونتسامح . وكنا قد أصبحنا بالفعل بمثابة مجتمع صغير ، له عرفه وتقاليده . ولم أمارس هنا التدريس الا قليلا ، ولكننى تعلمت كثيرا . ولقد مررت هنا بتجربة الاستجواب كما اتخذت هنا قرارا مؤلما .

وقد تم وضع « بيجين » خلال فترة انتظار انتهاء المحاكمة وصدور الحكم فى زنزانة جماعية تضم ستة عشر سريرا لينام عليها حوالى ستين سجينا . وكانوا ينامون على الأرض . وكان رفاقه فى هذه المرة يتكونون من لص يهودى ، وضابط بولندى برتبة كولونيل يبلغ من العمر ٧٨ عاما ، ويعاقب باثر رجعى لأنه كان قد حارب فى صفوف جيش القيصر . وكان معظم المسجونين الذين انهاروا تحت ضغوط الازدحام والجوع ، هم من أولئك الأشخاص الاقوياء البنية ، الذين اعتادوا على الحياة فى الاماكن المفتوحة . أما المفكرون « الضعفاء والضعفاء البنية » ، كما وصفهم « بيجين » فكتابته وهو يشعر ببعض الرضا عن النفس ، فانهم لم يمرضوا أو يشتكوا ، لقد بدا كأن أرواحهم كانت بمثابة الدعامة التى تسندهم ، وتقوم بمهمة الدرع الذى يحمى اجسادهم . ولقد اشتركت المجموعتان فى اعلان الاضراب عن الطعام احتجاجا على عدم احداث أى تغيير فى نوعية طعامهم الذى كان يتالف باستمرار من نوع من الحساء الخفيف غير الشهى المصنوع من الحبوب ويعرف باسم « كاشا » . ويصف « بيجين » هذا الحساء فى اكتئاب فيقول : « ان رائحته كانت تزكم أنوفنا فعلا لقد كان حساء « الكاشا » كريها بالنسبة لنا ولم نعد نتحمل تناوله مرة أخرى » . وانتصر المضربون بعد بضعة أيام . ولأول مرة منذ شهرين متواصلين قدم لهم حساء مصنوع من أوراق الكرنب الفاسدة بدلا من « الكاشا » الكريهة .

وكانت تلك هى الفترة التى علم فيها « بيجين » ، من خلال « تليغراف » السجن ، بوجود « ميرون شيسكين » فى الزنزانة المجاورة وأبرق اليه زعيم « حركة التصحيح » ببولندا ، والذى يكبره باثنى عشر عاما ، برسالة — عن طريق النقر على الحائط — يستفسر فيها عن صحة « جابوتنسكى » . وشعر « بيجين » بجرح وأسى لعدم معرفة « شيسكين » بنبأ وفاة « جابوتنسكى » ، ولكنه أبلغه به بعد فترة وجيزة . وذهل « شيسكين » ووضع قبعته على رأسه وتلا صلاة الجنازة . ولقد ردد زملاؤه فى الزنزانة كلمة « آمين » فى نهاية الصلاة بالرغم من أن أحدا منهم لم يكن يهوديا .

وأثناء فترة عيد الفصح اليهودى ، اشترك « بيجين » و « شيسكين » فى زنزانة واحدة . ويقول « شيسكين » متذكرا :

« كنا نأخذ جرايتنا اليومية من الخبز ونغمسه فى القهوة ثم نضعه على النافذة ليجف ، وبذلك كنا نحصل على خبز « الماتزا » (او الخبز اليهودى غير المختمر) وكنا نتلو صلاتنا : « ان هذا هو خبز بلائنا ، نحن اليوم عبيد ولكننا سنكون فى العالم القادم رجال أحرار ، ونحن اليوم موجودين هنا ، ولعلنا نكون فى العام القادم بالقدس » . وكنا نغنى بعد ذلك نشيد الحركة الصهيونية : وكنا نسمع أصوات ترد علينا من أماكن مختلفة بالسجن . ان المسجونين اليهود يرددون النشيد ، حتى بالرغم من حظر المظاهرات » .

وقد نجا الزعيمان الصهيونيان من العقاب بصورة أو بأخرى . ولكن الحظ تخلى عن « بيجين » عندما سمعه احدالحراس اليهود يروى « نكتة »، وظن انه هو المقصود بها ، فاشتكى الى مدير السجن ، الذى سارع بالحكم على « بيجين بقضاء سبعة أيام فى الحبس الانفرادى . وقد قبل الحكم من وجهة نظر فلسفية ، فاعتبره دورة دراسية جديدة فى الاساليب التى يتبعها البوليس السرى السوفيتى وفى فن ولغة الحبس .

« لقد انقضت الايام السبعة ولياليها . لقد أدى الحبس الانفرادى الى اصابته بضعف شديد ، ولكنه تعلم منه الكثير . لقد تعلم من الحر الخانق أثناء النهار ومن البرد القارس فى الليل ، ومن القذارة والرائحة الخانقة الخاصة بالقفص الخالى من النوافذ ، ومن عدم وجود أى غطاء ، ومن الرطوبة والارض القذرة المصنوعة من الاسمنت التى كنت افترشها للنوم والتى كانت مرتعا للفئران — لقد تعلم من كل هذه الاشياء أن ثمة أماكن أسوأ حالا من زنزانة السجن ، تماما كما تعلم فيما بعد أن ثمة اماكن أسوأ من زنزانة الحبس الانفرادى » .

وقد استطاع « بيجين » أن يتحمل اسبوع الحبس الانفرادى الذى لم يتناول خلاله سوى الخبز والماء ، ولكنه لم ينس ابدا خيانة الحارس اليهودى الذى كان يعمل فى خدمة البوليس السرى . وقد ضم « بيجين » هذا الموظف المجهول الى قائمة « الابالسة » التى يحتفظ بها فى ذاكرته وتضم أيضا المحقق اليهودى ذا الكلام المعسول الذى حثه باللغة اليدية على أن يعترف « بالحقيقة » ، وكذلك المترجم الصهيونى الركيك الذى كان يتعبد عند ضريح لينين ، وساوم « بيجين » على النصوص التوراتية الخاصة بهيرتزل ، ثم الحلاق اليهودى الذى كان يعمل بالسجن والذى كان يؤدى الاعمال القذرة نيابة عن « سيده » بتهيئته « للزبائن » برواياته الساذجة عن الحياة فى معسكرات الاشغال الشاقة ، وكان هناك آخرون فى حياة « بيجين » من أمثال أولئك المرتدين . ولم يتساهل «بيجين» معهم أبدا حتى عندما أصبح

رئيسا للوزراء فكان يستخدم تعبير « ذلك اليهودى المتكبر » ، بلهجة استنكارية فى وصف أى يهودى يحاول خطب ود العدو الفلسطينى أو يحاول تلقينه درسا فى واجبه القومى . وكان هذا الاسلوب أسهل أحيانا فى الرد عليهم من مناقشة المسائل التى كانوا يثيرونها .

وعلى الرغم من أن فترة التسعة أشهر التى أمضاها « بيجين » فى سجن « فيلنا » كانت فترة عصيبة ، الا أن الايام اثبتت انها لم تكن سوى تمهيد لنزوله فى « المكان الأسوأ من زنزانة الحبس الانفرادى » أو « ارخبيل جولاج » الذى وصفه « الكسندر زولشنتسن — فى رواية بهذا الاسم — بالجحيم السوفيتى » الذى يتلقف لرجال والنساء الموصومين لسبب او آخر ، بانهم أعداء الثورة ، فيطويهم النسيان ويتحولون الى ما يشبه المحفريات المتحجرة » . وبالرغم من أن اقامة « بيجين » هناك لم تدم أكثر من ثلاثة اشهر فانها تركت فى نفسه عداء ابديا للروس والشيوعية ، وحماسا للحرب الباردة ظل راسخا فى نفسه حتى ما بعد « الوفاق » بكافة اشكاله .

وبدات رحلة العذاب بحركة تمرد كان يمكن اعتبارها فى ظروف أخرى مجرد محاولة بسيطة للترويح عن النفس ، حيث رفض المسجونون الذين كانوا ينتظرون نقلهم أن يتناولوا طعامهم من المبصقات . وكان سجن «لوكشكى» مكتظا بدرجة انه لم يكن يحتوى عددا كافيا من الاطباق لكل المسجونين . ولكن المسجونين كانوا يرون أن المبصقات صنعت خصيصا لعملية البصق ، حتى لو لم تستعمل فى ذلك الفوضى وصمد المسجونين لمدة يومين . وكما حدث من قبل بالنسبة للاضراب عن الطعام ، انتصر المسجونون ولكن بثمن باهظ : فقد حصلوا على عدد قليل من الاطباق والفناجين كانوا يضطرون الى تداولها من يد الى أخرى ، ومن فم الى آخر ، ومازالت بقايا الحساء أو القهوة عالقة بها . وكتب بيجين يقول فى ابتهاج ولكننا تناولنا طعامنا ، ولم نتناوله من المبصقات .

وكان « بيجين » واحدا من الفى سجين تم ترحيلهم فى اوائل شهر يونيو سنة ١٩٤١ من « فيلنا » الى الشمال . وكانت وجهتهم التى لم يكونوا قد عرفوها بعد ، هى معسكر « بيتشور » للاشغال الشاقة على نهر « بيتشورا » ، الذى يتدفق عبر منطقة التندرا الشمالية ليصب فى بحر « بارنتس » المتجمد الذى يقع جنوب الدائرة القطبية الشمالية مباشرة . وكانت الرحلة التى بلغ طولها ١٥٠٠ ميل اشبه ما يكون بالكابوس حيث تم حشرهم فى القطارات والبواخر النهرية التى استقلوها فى أعداد أكبر مما لو كانوا ماشية . فقد كانت كل عربة من عربات قطار السجن مصممة بحيث تسع أربعين شخصا أو ثمانية خيول ، وجندى حراسة . بيد ان الروس تمكنوا بشكل ما من حشر ما يقرب

من سبعين سجينا في كل منها . وكانت كل عربة مزودة بفتحة ماسورة متجهة نحو القضبان تستخدم كمرحاض ، وطابقين من الاسرة الخشبية المثبتة في الجدران . فاذا اختار المرء النوم فى الطابق الاعلى فانه يعانى من الحشر اما اذا اختار الطابق الاسفل فانه قد يتعرض للاختناق . وكان الهواء يدخل من نافذتين صغيرتين فى اعلا العربة . ولم يكن يتم فتح الباب الا ثلاث مرات فى اليوم : مرتان لاحصاء عدد المسجونين ومرة لاطعامهم وجبة واحدة لا تتنوع عبارة عن خبز وسمك مملح . وكان السائل الوحيد الذى يدخل جوفهم هو ماء لم يسبق غليه ، يشربونه من جردل . وقد شاهد « بيجين » الحراس فى احدى المرات وهم يملأون الجردل من بركة راكدة يغطيها وحل لزج أخضر اللون . ومع ذلك فقد شربه .

واستغرقت رحلة القطار ستة أسابيع تقريبا تخللتها وقفات كانت تستمر عدة أيام لاسباب غير معروفة . وعلم المسجونون وهم فى الطريق أن المانيا قد اعلنت الحرب على الاتحاد السوفيتى . وابتهج البولنديون واللتوانيون فان عدويهما سيشتبكان مع بعضهما البعض. ولم يكن « بيجين» يدرى أن الحرب الجديدة نحو الشرق والمنذرة بالشر ستؤدى قريبا الى منحه حريته . وكان الخط الحديدى محطما بعد مدينة كوتلاس : « لقد اهتزت بنا العربات وكانها فى سفينة تهتز فى وسط عاصفة هوجاء وأصيب كثير منا بدوار « قطار » وقىء مستمر وأنهكت قوانا واستغرقنا فى النعاس . ولم يعد أحد منا يتفوه بكلمة واحدة » .

وغادر السجناء القطار عند محطة صغيرة اسمها « كوشفا » ثم ساروا على الاقدام لمدة خمس ساعات عبر حقول موحلة حتى وصلوا الى معسكر الترحيلات . وقام جنود مدججون بالسلاح وكلاب متوحشة بحراستهم . وصاح أحد الضباط أن أى شخص يخرج من الصف سيتعرض لاطلاق النار عليه . وتجاذب « بيجين » ،أثناء المسيرة أطراف الحديث مع أحد الجنود الذى أكد له فى قسوة : « لا أحد يخرج من هنا حيا » . وشق المسجونون طريقهم من معسكر الترحيلات عبر أراضى المستنقعات حتى ضفاف نهر « بيتشورا » ، حيث تم شحنهم على قاطرة سفينة نارية مع شحنة من القضبان الحديدية . وتعرف « بيجين » من حديث أجراه مع حارس آخر ، على بعض ما ينتظره من بؤس . وقال له الحارس وهو يشير بابهامه الى اللفافة التي يحملها « بيجين » ، وتتضمن حاجياته المتواضعة « سترى ، انهم سياخذونها منك » . ولم يفصح عمن يقصد بكلمة « هم » .

وقد تم نقل « ميرون شيسكين » و « ديفيد كرول » وهو صديق آخر لبيجين من التصحيحين : على نفس القطار المتجه نحو الشمال ، ولكن فى

عربات مختلفة . وعند وصولهم الى معسكر « بيتشور » ، قام « كـــرول » ، الذى يتصف بسعة الحيلة ، برشـــوة أحد الضباط لوضع ثلاثتهـــم معا فى مستشفى المعسكر . وقد كلفهم ذلك ثلاثة قمصـــان من لفافاتهم الثمينة . لقـــد أصبحوا فى منطقة « الليالى البيضـــاء » حيث تكاد الشمس القطبيـــة لا تغيب أبدا ، ويستمر الشتاء تسعة أشهر فى الســـنة ، وكان على المرضى ان يركضوا مسافة ميل تقريبا وهم نصف عرايا فى درجـــة حرارة تقـــل عن الصفر حتى يصلوا الى مبنى الحمـــام . وقيل لبيجين : « ستعتاد على هذا ، والا فانك ستموت » . وقد خشى « بيجين » فى أول ليلة له بمبنى المستشفى ، من ان يهلك ، وذلك عندما كاد يلتهمه جيش من البق الاحمـــر وعن ذلك يقول :

« لقد ظلت اعداد هذا العدو الرهيب المصمم على امتصاص دمى ، تتزايد باطراد . وحاولت اللجوء الى استخدام تكتيكات مختلفـــة لتضليله ، فغيرت وضعى فى السرير ، ولكن لم تفلح هذه المنـــاورة . فان العـــدو أمسك بى ورفض التخلى عنى . ولم تغمض لى عين فى تلك الليلة . وقـــد حـــدث نفس الشىء لجميع المستجدين الاخرين ، أما المخضرمون فقد ناموا مثل الملائكة . لقد استطاعوا ان يعتادوا عليه » .

وبعد ان أمضى « بيجين » أسبوعا فى المستشفى ، بدأ تكليفه بالعمـــل فى بناء الخـــط الحـــديدى الممتـــد من « كوتلاس ـــ فاركوتا » ، « بأمر من الحـــزب والحكومة » . وكان زملاؤه فى العمل خليطا متباينا من الافراد ، فكانوا يتكونون من روس وبولنديين ، ولتوانيين ، ولتفانيين واستوانيين ، ورومانيين ، ويهود . وكان من بين الفئة الاخيرة مساعد رئيس تحرير مغضوب عليه بصحيفة برافدا ، يشـــكو من مرض فى القلب وحـــرارة مرتفعة ترفض النزول عن ٣٨ درجة ولكن سرعان ما أدرك « بيجـــين » ان التمييز الهـــام الوحيد هو ذلك القائم بين المسجونين السياسيين والمجرمين . وكان للمجرمين اليـــد العليا حيث كانوا يتباهون بقوتهم الجسمانية ويرهبون المفكرين الحتراء . وعندما قام أحـــد المجرمين بسرقة معظم حاجياته اثنـــاء نومه ، أدرك بيجين قصد الحارس . انهم فعـــلا « أخذوها كلها » ، ولكن بالتقسيط !

وكان السجناء يقومون بنقل قضبان حديدية الى مسافة ربع ميـــل من مركب ترسو عند نهر متشورا ، عبر جسر خشبى ضيق ثم عبر الحقـــول حتى عربة سكة حديد منتظرة . وكانوا يعملون بمصاحبة فرقـــة موســـيقى نحاسية تعزف الاناشيد التى تشدو بعظمة الانجـــاز السوفييتى . وكانـــت القضبان التى يحملها المسجونون ـــ واحـــد على كل كتف ـــ تسلخ الجلد ، وتسبب آلاما مبرحة . ومما ساعد على مضاعفة الالم ، طول الناموس التى كانت تحوم طوال ساعات النهار الممتدة وعلى مدى أربع عشرة ساعة يوميا . ويشكو « بيجين » فى مذكراته قائلا : « ان الناموس يزن ويلدغ ، ثم يشرب

ويزن .. ليس هناك اى مهرب منه » . وكانت الظروف التى يعمل المسجونون فى ظلها أسوأ من الظروف فى السجن ، بالرغم من أنهم كانـــوا يعملون فى الهواء الطلق . لقد كان البرد قارســـا بدرجة لا تحتمـــل . وكان الرجـــال يتقاتلون من أجل كسب مكان بالقرب من المواقـــد . وقـــد لقى اثنـــان من الفتيان اليهود كانا يشاركان « شيسكين » فى كوخه ، حتفهما نتيجـــة للتجمد من البرد . وكان العمل مضنيا بينما كانت الجـــراية اليومية أقـــل من أن تقيم الاود . وقال بيجين فى مذكراته « لقد شاهدت على ضفاف » البيتشورا « حيوانات تسير على قدمين » . وكسرا للملل ، كان يتم تبـــديل ورديات مجموعات العمل كل عشرة أيام من فترة النهـــار الى الليـــل . ونتيجـــة لهذا النظام لم تتح لهم أية فرصة ليوم من الراحة الاسبوعية » .

وفى صباح أحد الايام ، بينما كان « بيجين » فى طريقه الى العمـــل ، سأل أحد الحراس : « هل أنت بولندى ؟ فأخذ « بيجين » بدقته المعهـــودة يشرح له انه يهودى وان كان مواطنا بولنديا ، ولم يكن الحارس مهتما بمثل هذه الفروق الدقيقة ، فان لديه أخبـــارا يريد نقلهـــا اليه . فقد سمع فى الاذاعة أن السلطات أصدرت عفوا عن جميع المسجونين البولنديين ، واتفقت الحكومتان البولندية والسوفيتية على اطلاق سراحهم حتى ينضموا الى القتال الدائر ضـــد الالمان . وتأكدت الشـــائعة ، عندما قرأ قائد المعسكر نص القرار فى « البرافدا » ولكن ذلك لم يكن سببا كافيا ، من وجهـــة نظر « العالم » البيروقراطى الموجـــود فى « الجـــولاج » ، للافراج عن البولنديين ولم يكن قائد المعسكر قد تلقى بعد تعليمات بذلك . وعلى هذا فيجب عليهم أن يعملوا ، حتى حصـــوله على تلك التعليمـــات ، من أجـــل تحقيق ما أصـــبح بمثابة « هدف مشترك » لقهر العدو الالمانى . وواصل « بيجين » وزملاؤه ، لعـــدة أيام أخرى ، أداء أعمـــال السخرة فى معسكر « بتشورا » للاشغال الشاقة ، وهم يحملون القضبان ويتضورون جوعا ويحكون جلودهم .

وبدلا من وصول الأمر بالافراج عن البولنديين ، تلقى قائد المعسكر أمرا بارسال مجـ ـة من الرجال الى معسكر آخر على النهر نحو الشمال ، حيث يمكن استغلالهم فى اعمال أكثر فائدة . واختار المسجونون البولنديون « بيجين » للاعتراض نيابة عنهم . فما فائدة ارسالهم الى معسكر الشمال لو كان سيفرج عنهم قريبا ؟ ولكن لم يكن القائد يملك من الأمر شيئا . وكان أقصى ما يستطيع أن يقدمه لهم هو أن يعدهم « اذا وصل الامر بالافراج عنكم فاننـــا سنأخذكم حتى من على السفينة لنرسلكم الى الجهة التى من المفروض أن تذهبوا اليها » .

وكان « بيجين » واحدا من ثمانمائة رجل حشروا على ظهر ناقلة بضائع ، أبحرت لمـــدة ثلاثة أسابيع على نهر « بيتشورا » ولم يكن فوقهـــا مكان للوقوف أو التحرك أو حتى للجلوس ، بل كان على الشحنة الآدمية أن تنـــام ليلا

ونهارا فوق سراير خشبية ترتفع الى ثلاثة طوابق على جانبى جدران العنبر الذى تفوح منه رائحة كريهة خانقة . وكانوا يشربون من مياه النهر البـاردة الأمر الذى أدى الى اصابة معظمهم بالاسهال • ولم يكف المرحاضان البدائيان لاستيعاب هذا الضغط عليهما • وتعرض المسجونون كذلك لهجـوم جيوش القمل . واخـذ المجرمون يتهكمون على المسجونين السيلسيين ويجمعـون الحشرات ويلقونها على وجوههم . ورجا مساعد رئيس تحرير البرافدا المغضوب عليه والذى كان واثقا من أن المجرمين يهدفون قتله ـ رجـا « بيجين » أن يساعده على ترديد نشيد « الهاتيكفا » الذى يتذكر أجزاء منه منـذ أيام شبابه فى « أوديسـا » .

وكانت محنة « بيجين » والبولنديين قد اقتربت من نهايتها ، وان لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لليهودى الروسى من « البرافدا » فقد وفى قائد المعسكر بوعـده عندما وصل أمر الافراج أخيرا بلغه الى ناقلة البضـائع ، وأصبح من المقرر اطلاق سراحهم قبل حلول أسوأ فترة فى شتاء الشمال القارس • وتردد صوت أحد الحراس داخل العنبر هاتفا : « بيجين » ثم بدا يردد الاسماء، الاسم تلو الآخر ، وفقا للترتيب الابجدى • ورد كل واحـد منهم على النداء بترديد اسمه واسم أبيـه ، وعلى راسهم « مناحـم وولفوفيتش » • واعلن الحارس : على الذين ناديت اسماءهم ان يجمعوا حاجياتهم ، فقـد صدرت الأوامر بالافراج عن البولنديين • ستصبحون أحرارا • وسيطرت الغـيرة على أحد المجرمين من غير البولنديين ، فأشار الى « بيجين » وقال محتجـا : « انه من « الزيد » (أى يهودى حقير) وليس بولنديا . وتجاهله « مناحم وولفوفيتش » ، فهذا لم يكن الوقت المناسب للحساسيات •

الفصـــل الخامس

الاتجـــاه شرقا نحو المقاومة السرية

أخلى سبيل المسجونين البولنديين حتى يقاتلوا الالمـــان ولكن دون أن يوجههم احد الى مكان مكتب التجنيد الذى يشرف عليه الجنرال « فلاديسلاف آنديرز » ، وتركوا ليتوصلوا الى المكتب بمفردهم . فقـــد أقلهم الروس فى سفينة الى معسكر ترحيلات ، ومن هنـــاك منحوا أوراق الافراج عنهم من « الجـــولاج » بلا أى تعقيدات . ومنح كل واحـــد من البولنديين مبلغا من المـــال واطلق سراحه . وقد حصل « ميرون شيسكين » على مبلغ يكفيـــه للقيـــام برحلة تستغرق ثلاثة أيام بالقطار الى « كوييشيف » ، حيث حـــاول اقناع البولنديين بتشكيل كتيبة يهودية على نمط فيلق « جابوتنسكى » الذى اشترك فى الحرب العالمية الاولى ، ولكنهم قاموا بدلا من ذلك بتعيينه ضـــابط اتصال يهودى برتبة ميجور بمكتب « أنديرز » .

ولسبب غير مفهوم ، لم يتم الافراج عن « ديفيد كرول » صديق « بيجين » الاخـــر من « حركة التصحيح » ، والذى كان قد اسندت اليـــه مســـئولية الاشراف على مجموعة العمل ، وذلك على الرغم من انه جـــاء معهم الى معسكر الترحيلات . وظل « بيجين » يعتقد لسنوات طويلة بعد ذلك انـــه استشهد فى الشمال النائى . ولكن فى أوائل الثمانينيات جاء يهودى روسى الى اسرائيل قادمـــا من منطقة جبال الاورال ، ليقـــــول : ان « كرول » « حى يـــرزق » ، ويبلغ تحيـــاته الى بيجين و « شيكسين » وأبلغهـــم انـــه « يطلب منهما ارسال شال من النوع الذى يستخدمه اليهود فى الصلاة . غير أن الزائر ابلغهمـــا بعد ذلك وقبل أن يتمكنا من تلبية طلبه ، أن « كرول » توفى فى حادث طريق .

ولم تكف النقود التى حصل عليها « بيجين » ، لسد احتياجاته مـــدة طويلة . فشق طريقا عبر برارى آسيا الوسطى السوفيتية بواسطة القطار ، الذى كان يركبه بدون تذكرة ، وينام على الارض الوعرة ، ويأكل كلما كانت تسنح له الفرصة وسط هذا « القطيع المشرد » من المسجونين السابقين الذين كانوا يتجهون على غير هدى نحو الجنوب أبان الأشهر الأخيرة من عام ١٩٤١ . لقد تعلم سر البقاء أثناء حياته فى المعسكرات : « انك تستطيع التعود على كل شىء » . وكان واضحا ان الجيش البولندى لا يهتم باليهود الذين كانوا قد أصبحوا مثل خيال المآتة ، مهما كان ما أثبتوه من قدرة على التحمل . ورفض طلب « بيجين » ، فواصل طريقه يحدوه الأمـــل فى العثور على أخته

« راشيل » وزوجها الذى كان قد تم ترحيله قبل اعتقال « بيجين » فى « نيلنا » .

وسمع « بيجين » فى احدى الليالى ، وهو ينعس عند محطة سكة حديدية ، واحدة من « المتشردات » وهى تحكى عن مناجم النحاس فى « الاورال » ، وذكرت المراة ، التى كانت تنتظر مثل « بيجين » أن تسنح لها الفرصة لركوب القطار بلا مقابل ، اسم « هالبرين » . وسألها « بيجين » دون ان يسمح لآماله بالتحليق عاليا ، عما اذا كان « هالبرين » هذا الذى ذكرته هو محام من وارسو ، وعما اذا كان اسم زوجته — بالصدفة هو « راشيل » . وشاء الحظ ان ترد على تساؤلاته بالايجاب . واستطاع « بيجين » بمساعدة تلك المراة ، ان يصل الى اخته وزوجها واجتمع شملهم مرة اخرى فيما وصفه بكوخ « حقير مبنى من الطين فى بلدة أوزبيكية صغيرة، هى بلدة « دزيزاك » الواقعة فيما بين « طشقند » و « سمرقند » ولم يدم وجودهم معا مدة طويلة . فقد سمع « بيجين » أن الروس قد بدأوا مرة أخرى يلقون القبض على الزعماء السياسيين اليهود ولما كان ماضيه معروفا حتى فى أوزبيكستان ، فقد انتقل الى مدينة « مارجيلان » حيث كانت ترابط الفرقة التاسعة البولندية ثم علم من اخته بعد اسابيع قليلة ان « أشخاصا لا تعرفهم» قد جاءوا الى كوخها واستفسروا عن مكانه .

كان « بيجين » قد قابل فى « مارجيلان » الميجور « شيسكين » واثنين آخرين من أعضاء حركة « البيطار » ، الذين قدموا له الطعام والمأوى . وبموجب اقتراح من « شيسكين » ، قاموا باستدعاء « يوهاتان بادر » محامى حركة « المتصحيح » الذى كان يعيش فى المنفى بروسيا . لقد كانت شبكة اتصالات « البيطار » ما زالت تعمل بكفاءة ! واستطاع « بادر » قطع مسافة ١٢٠٠ ميل سيرا على الأقدام ، والوصول الى مكان الاجتماع بالرغم من تفشى وباء التيفود الذى قتل عشرات الآلاف من الناس وقد وجد « بادر » أن « بيجين » ، بفضل مضيفيه من اعضاء البيطار ، كان بحالة افضل مما كان يتوقع . واستفسر « بيجين » ، الذى كان يرتدى « جاكتة » من الجلد وحذاء برقبة عالية ، عن كيفية الوصول الى فلسطين والقيام بثورة ضد البريطانيين . ويعود « بادر » بذاكرته الى الوراء فيقول « كان كلانا يوافق على أن المهمة الأساسية فى « ارتزاسرائيل » أى أرض اسرائيل التاريخية) هى محاربة الحكومة البريطانية . ومرة أخرى بدا واضحا ان « بيجين » لم يحد عن هدفه نتيجة لوجود بريطانيا فى حالة حرب مع النازى . بيد أن بادر أوضح أنه ليس هناك سبيل للحصول من السوفييت على تصريح خروج وانه من الأفضل آن ينضم الى الجيش البولندى . وقال « بيجين » ، متأملا بعد مرور عقد من الزمان ، قام خلاله بالثورة : « لا أظن أنه قدم لاحد ، على مدى حياته كمحام ، نصيحة افضل من هذه » .

غير أن « بيجين » كان محجما عن تعريض نفسه للكشف الطبى على الرغم من انه كان يدرك حكمة هذا الامر . فقد تعرض من قبل للرفض لاسباب صحية ، وشعر أنه جرح فى كبريائه . بيد أن صديقيه الاكبر سنا « بادر و « شيسكين » اقنعاه بأن يحاول مرة اخرى . وأعلن الطبيب فى هذه المرة ايضا عدم لياقته . وقال ان قلبه مريض ونظره ضعيف ، فكيف يكون جنديا لائقا ببولندا الام ؟ ولم يرض شيسكين بترك الامور عند ذلك . فتفاوض سرا والميجور « لنيك » رئيس اركان قائد الفرقة . وأجرى الضابط البولندى اختبارا شخصيا لبيجين ، ثم ارسل مذكرة الى طبيب الجيش تتضمن تعليمات اليه باجازة لياقة الجندى المستجد للخدمة ولم يكن الطبيب قد نسى حساب « بيجين » التلبية او نظارته ولكنه تغاضى عن شكوكه . فأعلن صائحا « القلب والرئة فى حالة ممتازة » . وحتى لو كنت قصير النظر ، فانك ستتعلم فى الجيش كيف تصيب الهدف جيدا . وكان التحاق « بيجين » بالجيش البولندى ، بمثابة نقطة تحول فى حياته . فقد ادت به الى فلسطين والى قيادة منظمة « أرجون زفاى ليومى » . ولكن المسالة ابان عام ١٩٤٢ ، لم تزد عن كونها مقامرة . فلم يكن لدى زعماء « حركة التصحيح » الموجودين آنذاك فى « مارجيلان » أى تأكيد بأن جيش الجنرال « اندروز » سوف يرسل الى « الارض الموعودة » . ويقول « بادر » : « لم تكن المسالة تزيد عن مجرد اعتقاد شائع ،ولم تكن أية قرارات قد صدرت بعد « . ولكن المخاطرة أتت اكلها .

وكانت تجربة « بيجين » البولندية فى هذه المرة ، كسابقتها ، غير مشجعة اطلاقا . فقد تلقى تدريبه المبدئى فى جو يسوده العداء للسامية والاهانات والاذلال . وكان عزاؤه ان هذا الوضع لن يستمر طويلا . فأرسلت وحدته جنوبا عن طريق ميناء « كرازلونودسك » الى ايران والعراق ثم شرق الاردن . وكانت الضفة الغربية للاردن قد أصبحت فعلا فى نظر « بيجين هى « أرض اسرائيل » ... ارض الاجداد .

وكتب فى مذكراته فيما بعد يقول : « توقفت القافلة العسكرية لنستريح . وغادرت العربة وسرت الى مسافة قريبة عبر الحشائش واستنشقت ملء رئتى من هواء وطنى القومى » .

عين « بيجين » فى مايو ١٩٤٢ كاتبا فى القدس ، حيث عمل فى مكتب الميجور المسئول عن المدينة . وقد ظل بيجين جنديا عاديا الى ان اصبح رئيسا لوزراء اسرائيل عندما قامت الحكومة البولندية فى المنفى بمنحه رتبة بريجادير جنرال بأثر رجعى . والتقى « بيجين » وزوجته « اليزا » مرة اخرى فى القدس حيث انتقل للاقامة بالحجرة التى تستاجرها بالدور الارضى

فى المنزل رقم ٢٥ شارع الفاسى بضاحية « زحافيا » الظليلة والمفضلة لدى أساتذة الجامعة والمحامين والاطباء اليهود من الطبقة المتوسطة ، وحيث تسدد الاحاديث باللغات الالمانية والعبرية والانجليزية على السواء . وقد ولد اول ابنائهما « بنيامين » فى شهر مارس ١٩٤٣ .

وانغمس « بيجين » لفوره فى الشئون السياسية « لحركة التصحيح »، ولكنه ، على خلاف الجنود اليهود الآخرين ، رفض ترك الجيش البولندى ، وقال بيجين لشريكه القديم فى لعبة الشطرنج ، « يسرائيل الداد » ، والذى اصبح عضوا نشطا فى « عصابة شتيرن » : « لقد وعدت وعـــد شرف ، واقسمت يمينا .. ولن اترك الخدمة » . بيد أنه عين رئيسا لحركة «البيطار» فى فلسطين ، « وهو ما زال فى زيه العسكرى . ولكنه سرعان ما استقال من هذا المنصب عندما علمت المباحث الجنائية البريطانية والمخابرات ، وبداوا يتحرون الامر . ومع ذلك ، كانت تجرى استشـــارته فيمـــا يتعلق بمشاكل « منظمة أرجون زفاى ليومى » ، وكان يزور معسكرات التدريب التابعـــة للمنظمة سرا . وبدأ الحديث يتردد فعلا عن توليه قيادة المقاومة السرية على الرغم من افتقاره الى الخبرة العسكرية .

كانت « الارجون » قد وصلت الى درجة متقدمة من التدهور عندما وصل « بيجين » الى فلسطين . فقد ضاع منها الهدف بوفاة « جابوتنســـكى » ، وما تلا ذلك من انشقاق « افراهام » شتيرن عن الجماعة ، وفقدان قائـــدها الشاب الملهم « دافيد رازيئيل » ، الذى قتل فى مايو ١٩٤١ ، أثناء قيـــامه بمهمة سرية فى العراق بتكليف من البريطانيين .

وقد شهد « ايثان ليفنى » ، الذى أصبح عام ١٩٤٣ ، رئيسا لعمليات منظمة أرجون ، بأن « المنظمة كانت فى غاية القوة عندما وقع الخلاف » .

« كان الجيش البولندى يزودنا رسميا بالاسلحة التى يبعثها لنا أفراد شعبنا فى بولندا . وكان فى استطاعة الارجون استدعاء أربعة الويـــة ، أى حوالى أربعة آلاف عضو للقتال . وكنا نملك عدة آلاف من البنـــادق ، وعدة مئات من المسدسات ، وعشرات من المدافع شبه الآلية التى قمنـــا بتهريبها من فنلندا ، وبضعة عشرات من المدافع الآلية البولندية الثقيلة ، كما كنا نملك قنابل نقوم بتصنيعها بانفسنا . وكانت تلك الاسلحة تعتبر حديثة آنذاك .

« وعندما وقع الخلاف ، اختفت معظم هذه الاسلحة ، وانضم حـــوالى ثمانمائة رجل من بين اربعة آلاف رجل الى « شتيرن » . وبقى فى صـــفوف « منظمة ارجون » اقل من الف رجل . اما الباقون فقد تخلوا عن مواقعهم متذرعين بأنه لم يعد فى وسعهم الاختيار بين الجماعتين الموجودتين — وربما

كانوا صادقين فى زعمهم هذا . وكانت المأساة الكبرى هى أن أحدا لم يكشف عن مكان مخبأ الاسلحة . ولم يعد لدى « الارجون » بعد وقوع الشقاق سوى عدد ضئيل من الافراد النظاميين المتفرغين لا يزيدون عن الدستة تقريبا . أما الباقون فقد واصلوا العمل فى وظائفهم . وكان يتم استدعاؤهم للتدريب ولاداء مهام خاصة . وانضم ما يقرب من نصف عدد رجالنا — أى خمسمائة رجل — الى الجيش البريطانى فى الفترة بين عامى ٤٢ — ١٩٤٣ تماما كما فعل كثير من المنسحبين » .

هذا وقد خلف « يعقوب مريدور » « يزرائيل » ، حيث رقى من الصف الثانى من قيادة « الارجون » بعد الشقاق الذى وقع مع « شتيرن » . ويؤكد « ليفنى » أنه كان محبوبا : « وكان يترك انطباعا طيبا لدى المحيطين به ، وكان يبدو فى صورة « الصابرا » الحقيقى (من ولد فى اسرائيل) ، الذى تمتد جذوره عميقا فى الارض ، وبعيدا تماما عن صورة القادمين من الشتات . وكنا نعتبر « مريدور » ، آنذاك ، افضل الخيارات امامنا . ولكنه اصاب كل مواليد (فلسطين) والقادمين الجدد من أوربا بخيبة الامل . فقد وجـــده « ليفنى » مفرطا فى الخيال :

« لقد أثبتت الايام أن مريدور ، لم يكن رجلا عمليا وكان يختار الذين يعملون معه من بين رفاقه ، ولكنه لم يكن موفقا دائما فى اختياره . وقــامت المؤامرات ، فى منتصف عام ١٩٤٣ ، داخل القيادة العليا .. ولم يســتطع « مريدور » أن يجمعهم حوله . لقد كان دائما ودودا ، وكان من بين القلة المتزوجة بيننا . وقد حاول ان يتصرف كأنه يراس جماعة من الزملاء الذين يتساوون فى الكفاءة . وربما كان قد توصل الى استنتاج ذاتى بأنه لا يتمتع بالقوة والجاذبية الشخصية اللائقة بقائد أعلى » .

وصدق « دافيد جوتان » ، رفيق « بيجين » من « فيلنا » على هذا بقوله :

« لم يكن مريدور ، يتمتع بشخصية قوية لائقــة بالموقف . لقد كان صادقا ، ويتمتع بخبرة عسكرية واسعة ، كما كان محبوبا . ولكن الظــروف كانت تستدعى فى ذلك الحين وجود شخص يتمتع بزعامة شعبية . ولم يكن « مريدور » طموحا ، لقد كان شجاعا أثناء العمليات ولكنه فى الواقع مفرطا فى التواضع .

وتحولت الانظار ، بصورة متزايدة ، نحــــو « بيجين » ، ولكن كان لابد أولا من اخراجه من الجيش البولندى . ولـــا كان من الصعب اقنــاعه

بترك الجيش تلقائيا ، كماكان من الصعب تسريحه من الجيش بأسلوب شريف ، فان السبيل الوحيد الباقى كان العمل على أن يمنحه البولنديون اجازة طويلة الاجل ، مع احتمال مدها . وأسندت هذه المهمة الى «مايك كاهان» المحامى البالغ من العمر ٤٠ عاما ، الذي قدم من وارسو . وقد وصل «كاهان» الذى كان من التصحيحيين فى وارسو ، الى فلسطين قبل بضعة أشهر من وصول « بيجين » . وكان مسئولا خلال الثلاثينيات عن الاتصال بالنظام البولندى الحاكم والذى كان يعرف كثيرين من أعضائه منذ أن كان فى المدرسة والجامعة ، كماكان وسيطا فى الحصول على جوازات السفر وتأشيرات الخروج لاعضاء « منظمة بيطار » ، فضلا عن أنه كان قد تلقى تدريبا عسكريا ، وكان من حقه ارتداء زى « الوحدة الخاصة » فى سلاح طلبة الكلية العسكرية . وقد تعرض هو أيضا الي الترحيل للعمل فى معتقلات الشمال الروسية ، قبل ان يفرج عنه لينضم الى الجيش البولندى . وتمكن « كاهان » عندما كان يخدم فى العراق ، ومن خلال معارفه السابقين ، قبل الحرب من أن يحصل على تسريح من الجيش لاسباب صحية . واتجه الى فلسطين مستخدما تصريح اجازة . اما بالنسبة لحلقة الاتصال التى كانت ستؤدى الى خروج « بيجين » من الجيش وانضمامه للمقاومة السرية ، فقد كانت مزورة .

فقد كان « كاهان » يزور بانتظام الادارة الاعلامية البولندية بالقدس ، حيث قابل « تريزا ليبكووسكى » ، التى كانت من الارستقراطية البولندية واحدى قريبات رئيس بولندا ، الجنرال « فلاديسلاف سيكورسكي » . وكانت « تريزا » مهتمة بالمسألة اليهودية ، فتولى « كاهان » تعريفها بالصهيونية .

وتبنى « كاهان » فكرة استغلالها فى القيام بحملة دعائية بولندية — يهودية مشتركة فى الولايات المتحدة ، يروج فيها لجهود « هيلليل كوك » وغيره من « التصحيحين » هناك . واقترح كاهان ان يقوم البولنديون ، كجزء من هذه الخطة بتسريح بعض الجنود اليهود ويرسلونهم للقيام بجولة فى أمريكا . وفى ذلك الوقت ، عاد « ارياه بن — اليعازر » ، الذى كان احد مندوبى الارجون فى الولايات المتحدة ، الى فلسطين ، حاملا معه « البوما » يتضمن صورا تبين كيف قام « التصحيحيون » بتجنيد نجوم المسرح والسينما فى حملتهم من أجل انقاذ اليهود من أوروبا التى تخضع للهيمنة النازية . وربما كانت الصور تبالغ بعض الشىء فى تقدير تأثير هؤلاء المندوبين ، بيد انهم حازوا اعجاب البولنديين ، فطلبوا تزويدهم بقائمة بأسماء الجنود اليهود الذين يمكن ارسالهم الى الولايات المتحدة . وكان اسم « بيجين » من بينها ، ولكن بدا أن المؤامرة قد دفنت فى الرمال عندما رفضها البريطانيون .

الا أن الخطة أمكن انقاذها عندما نقلت قيادة الاركان العامة البولندية من العراق الى«ريحوعوت»، الواقعة بين القدس وتل أبيب. وأجرى«كاهان»بعض الاتصالات مع كبار الضباط ممن كان يعرفهم فى وارسو · ولم يحصل على رد فورى ، ولكنه تلقى فى يوم خانق الحرارة من أيام خريف عام ١٩٤٣ ، دعـوة لتناول الغداء مع أحد الجنرالات (وهو الجنرال نفسه الذى دبر له مسألة تسريحه من الجيش) . وقال له الجنرال : « لقد صدقت اليوم على منح كل رجالك اجازة طويلة الأجل » · وكان « بيجين من بينهم ، حيث حصل على أجازة لمدة عام ، على شرط أن تبدأ المجموعة مباشرة فى أداء مهمتها بالولايات المتحـدة ولقد اعترف كاهان فيما بعد قائلا : اننا لم نكن ننوى اطلاقا ، ارسال « بيجين » الى هناك · وعلى أى الحالات فان البريطانيين لم يسمحوا لهم بالسفر ، ولم يكترث البولنديون باستدعائهم مرة أخرى · ويقول « مريك كاهان » « لقد كان الضباط البولنديون متعاطفين مع منظمة « الارجون » .

ولم يكن طريق الوصول الى قيادة الارجون ممهدا تماما · فعلى الرغم من أن مريدور لم يكن يمانع فى أن يعمل تحت قيادة بيجين كنائب له ، فان غـيره من كبار الضباط كانوا يرون ضرورة اسناد هذا المنصب الى رجـل عسكرى واعترضوا على « بيجين » لانه وافد حديثا على البلاد وليس لديه خبرة فى تخطيط العملية أو كقائد ميدانى · بل أن بعض القـــــادة الاقليميين الذين شعروا بالاحباط نتيجة لعدم تحقيق طموحاتهم ، « تركوا » بعد أن اســـتولى « البيطار »البولندى التى كانت أكبر مصدر لتزويد الارجون « بالقوة البشرية » وخاصة بالنسبة للمستويات العليا . ولو كان « ارياه بن اليعازر » لم يغادر فلسطين ويسافر الى أمريكا عام ١٩٣٩ ، لاصبح منافسا قويا لبيجين حيث انه كان رجلا يجمع بين القدرة على الخيال والقـدرة على العمل · بيد ان « بـن ـ اليعـازر » كان يشعر بأنه ابتعد عن المسرح اكثـر من المطلوب وان عمله فى الخارج جعله ملفتا للانظار اكثر مما ينبغى . ولذلك فقد ألقى بكل ثقله وراء ترشيح « بيجين » · وكان « بن ـ اليعازر » قد عاد أساسا للبحث عن العلة فى عدم فعالية « الارجون » ، وكان تشخيصه هو افتقار المنظمة للزعامة · يقـول «أيتان ليفنى» فى هذا الصدد: لقد كان هو الذى اقنع مريدور بضرورة الانسحاب ولقد استطاع ان يفعل ذلك بأسلوب ناعم مثل الحرير · كان « بن ـ اليعازر » الشخصية السياسية الوحيدة الاخرى التى كان « بيجين » يتعامل معها على أساس الندية كما كان يشاوره بشأن استراتيجيته الخاصة بالثورة ·

واتفقت الاغلبية العظمى من قادة الارجون مع « بن ـ اليعازر » على حاجتهم الى قائد يستطيع اشعال جذوة النار القديمة للمنظمة واحياء ثقتها بنفسها. ووفقا لأقوال « ديفيد نيف » العضو المخضرم فى « الارجون » ، والمؤرخ الرسمى

لها فان « المسألة لم تعد ، بحلول نهاية عام ١٩٤٣ ، مجرد مسألة تخطيط عمليات عسكرية ، لكنها كانت مسألة اتخاذ موقف • لقد حان الوقت لان يتولى الحركة رجل سياسة بدلا من قائد عسكرى محترف ، فان كل القرارات اصبحت تحتاج الى حساسية سياسية « • وكانت هذه المواصفات تنطبق تماما على « بيجين » ، فهو يحظى بالاعجاب ، وكانت سمعته الثورية تسبقه فى كل مكان ، كما انه كان يملك الادراك السياسى اللازم • أمـــــا المعرفة العسكرية ، فهو يستطيع الحصول عليها من غيره •

الفصــل السادس

انتهاء الهدنة

قال :« ايتان ليفنى » ،رئيس عمليات منظمة « ارجون زفاى ليومى » ، مناحم بيجين « فى نهاية عام ١٩٤٣ : » ان القرار الذى ستتوصل اليه سيتم تنفيذه . فاننى ورجالى على أهبة الاستعداد » وبذلك أصبح « بيجين » هو القائد الاعلى الجديد « لمنظمة الارجون » الذى أعلن من أول فبراير عــــام ١٩٤٤ ، التمرد على الحكم البريطانى ، دون أن يعوقه عن ذلك ادراكه أن « ليفنى » ما كان يستطيع أن يدفع الى الميدان بأكثر من ستمائة مقاتل مدرب وكان « بيجين قد كتب مسودة النداء المدوى الذى وجهه الى يهود فلسطين . بينما كان لا يزال نفرا فى الجيش البولندى ، أى قبل عدة اشهر من ذلك التاريخ . والان حان الوقت لطبعه فى منشورات ورفعه على اللافتات . ولــم يكن الحلفاء قد أنزلوا بعد قواتهم على ساحل نورماندى ، وكانت بريطانيا لا تزال مشتبكة فى المعركة مع العدو المشترك ، ألمانيا النازية ، ولكن كانت الهدنة بين اليهود والبريطانيين قد انتهت فى نظر « بيجين » الذى اعلن : « ان كل فرد يهودى بوطننا القومى سيقاتل » . وكما رأينا من قبل ، فان « بيجين » لم يكن لديه ، على أية حال ، فائض من الصبر ليضيفه على تلك الهدنة . وقد أدى ما علمه عن المذابح التى تعرض لها يهود أوروبا ، وما شاهده فى فلسطين من تطبيق عنيد للقيود فرضها « الكتاب الابيض » ، الذى صدر عــام ١٩٣٩ ، على الهجرة اليهــودية ، ومن تصد قاس للمراكب المحملة باللاجئين — أدى كل هذا الى تقوية حدة مشاعره الفطرية التى كانت قد دفعته الى معارضة « جابوتنسكى » منذ ستة أعوام . لقـــــد آن الأوان للنضال و « لتحطيم الأبواب من الداخل » .

وأعلن :

« لقد مرت أربعة أعوام على بداية الحرب ، وتبخرت كل الآمــــال التى ذخرت بها صدورنا وكأنها لم تكن . ان أحدا لم يمنحنا مكانة دولية ، ولم يتم انشاء جيش يهودى ، ولم تفتح الأبواب المغلقة بهذا البلد . لقد أحكم النظام البريطانى خيانته المخزية للشعب اليهودى ، ولذلك لم يعد هناك أى أساس معنوى لبقائه فى أرض اسرائيل التاريخية .

« اننا نعلن بلا أدنى خوف انتهاء الهدنة بين الشعب اليهودى والادارة البريطانية فى أرض اسرائيل ، والتى تسلم اخواننا لهتلر ، ان شعبنا يعلن

الحرب على هذا النظام ـ الحرب حتى النهاية . وتنحصر مطالبنا فيما يلي : نقل السلطة فورا داخل أرض اسرائيل التاريخية الى حكومة انتقالية عبرانية » .

لقد وصم « بيجين » البريطانيين بالتواطؤ مع هتلر . فان ما يعرفه كان كافيا لاقناعه بأنهم كانوا يشاركون ، على الاقل ، المعادين للسامية فى سلبيتهم وعدم اكتراثهم بمصير اليهود . وقد أدرك « بيجين » هذا على الرغم من عدم تمتعه بموهبة النظر الى الماضى من خلال منظور تحليلي والتى يملكها المؤرخون . ولم يكن يرى أمامه حلا بديلا للقتال . ومع ذلك أعلن « بيجين » ان قتال « الارجون » سيكون نضالا سياسيا بالأساليب العسكرية . فان « بيجين » رجل السياسة ، كان يفرض قيوده الخاصة : فمنظمة « الارجون » ، على خلاف « عصابة شتيرن » ، لم تكن تقاتل الامبراطورية البريطانية ، بل كانت حربها موجهة ضد الادارة فى فلسطين ، وليست ضد الحكومة والأمة البريطانية . وكان « بيجين » يصر ابان مفاوضات عام ١٩٤٤ التى دارت من أجل توحيد الجماعتين المنشقتين ، على ضرورة كف أعضاء « عصابة شتيرن » عن استخدام تعبيرات مثل « الحكم الأجنبى » و « الاستعمار البريطانى » فى دعايتهم . وعندما تساءل زعيما « عصابة شتيرن » ، « ناتان يلين ـ مور » و « اسحاق شامير » عم يستخدمان من عبارات بدلا من ذلك ، اقترح « بيجين » استخدام تعبير « الحكم الظالم » .

ولم يكن اصرار « بيجين » المعتاد على ضرورة الدقة اللفظية ، والذى كثيرا ما كان يثير الغيظ ، يهدف الى مجرد الالتزام بعلم معانى الكلمات . فكان يرى أن مسئولية تنفيذ السياسة البريطانية المناهضة للصهيونية تقع أساسا على عاتق الادارة الفلسطينية . ولذلك فان الواجب يحتم توحيد القتال ضد الادارة فى القدس بدلا من الحكومة فى لندن التى يجب اقناعها بأن سياسة تلك الادارة تتسم بالافلاس ، وبالتالى فانها ستجبرها على تغيير سياستها الجارية بأخرى أكثر تعاطفا تجاه قضية اليهود . وعند ذلك ستعترف لندن بأن اليهود هم القوة الفاصلة وستضع ثقتها فيهم وتعتمد عليهم بدلا من العرب . وغنى عن القول ، أن أعضاء « عصابة شتيرن » لم يتأثروا بمنطق « بيجين » .

وقد كتب « يلين ـ مور » يقول :

« حاولت أن أشرح له أن التصور بامكانية الفصل بين الادارة المحلية وحكومة لندن ، ليس الا وهما . وانه غير قائم على أساس من الواقع . ويجب علينا أثناء حرب التحرير ، ضرب الجهاز العصبى للحكم البريطانى فى لندن . ان « أرض اسرائيل » ليست لهـا أهمية بالنسبة للامبراطورية البريطانية سوى انها قاعدة عسكرية لفرض الحكم البريطانى على دول المنطقة ، وكمحطة على الطريق الى المستعمرات والممتلكات التى تقع نحو الشرق .

وتمسك « بيجين » بموقفه مؤكدا أهمية التفريق بين التعبيرين ، وذلك في الاجتماع السرى الذى استغرق خمس ساعات مع « موشيه سنيه » ، الذى كان آنذاك نائبا لقائد قوات « الهاجاناه » الدفاعية ، والذى كان يعرفه منذ أن كان طالبا فى وارسو · وقال « سنيه » ، أثناء نقاشهما الذى امتد طوال احدى ليالى شهر أكتوبر ١٩٤٤ ، « لقد قمت باعلان الحرب على انجلترا » فصحح له « بيجين » معلوماته قائلا : « ليس على انجلترا ، انما على الحكم الظالم ، فان انجلترا ليست عدوا لنا ، ان هذا هو ما يقوله أعضاء « شتيرن » انهم يشنون حربا ضد العدو الانجليزى » ·

ولما كانت بريطانيا ، على هذا الاساس ، ليست العدو وكانت قواتها تحارب النازيين ، فقد فرض « بيجين » على رجاله الالتزام بضبط النفس : فعليهم أن يمتنعوا تماما عن مهاجمة أى أهداف عسكرية حتى تضع الحرب فى أوروبا اوزارها ، وبالمثل ، لم يكن للارجون اية مصلحة فى اغتيال افراد الجنود أو الضباط أو رجال الشرطة البريطانيين . وبدلا من ذلك فقد جعل « بيجين » هدفه هو النيل من مكانة بريطانيا ، وكان يقول ان كل هجوم يعتبر من وجهة النظر السياسية انجازا ، حتى لو لم يكن ناجحا عسكريا :

« لقد تعلمنا من التاريخ ومن المشاهدة ان نجاحنا فى تدمير مكانة الحكومة فى « أرض اسرائيل » ، سيؤدى تلقائيا الى انهاء حكمها . ومنذ تلك اللحظة فصاعدا لم نكف عن مهاجمة نقطة الضعف هذه . وظللنا طوال سنوات تمردنا نوجه الضربات الى مكانة الحكومة البريطانية ، عمدا ، ومن غير هوادة وباستمرار ·

«فان مجرد وجود مقاومة سرية لا تتأثر بالاضطهاد أو بالشنق أو التعذيب أو الترحيل ، وأن هذه المسائل لا تؤدى الى قهرها او اضعافها ، لابد وأن يؤدى فى نهاية الامر الى تقويض مكانة اى نظام حاكم استعمارى يبنى وجوده على تصور غير واقعى لقدراته الشاملة . ويعتبر كل هجوم توجهه المقاومة ويفشل النظام فى منع وقوعه ، بمثابة ضربة موجهة الى مكانته . وحتى لو لم ينجح الهجوم فانه يترك ندبة فى تلك المكانة ، وتبدأ تلك الندبة تتسع لتصبح شرخا يمتد مع كل هجوم لاحق » .

واكد « بيجين » فى حديثه مع « سنيه » أن الهدف هو اجبار بريطانيا على اعادة تقويم سياستها ، واضطرارها الى الجلوس الى مائدة المفاوضات حيث لم يكن فى وسعها المخاطرة بتعريض نفسها للاذلال فى نظر الدول العربية .

« ان هذا الشىء لن يستطيع البريطانيون ابتلاعه ، ولن يستطيعوا تجاهله · انهم يسكتون اليوم على هذا ولكن عندما تتصاعد موجة نشاطنا ،

فلن يستطيعوا ابتلاعه . وسوف تأتى اللحظة التى سيضطرون عندها الى التفاوض معنا : ان ما نقوم به سيؤثر على القرارات السياسية » .

وكان « بيجين » يؤدى « معزوفته » أيضا أمام متفرجين أمريكيين . وقال ان الولايات المتحدة تريد مد نفوذها الى الشرق الاوسط وأكد ان اى انهاك لقوة بريطانيا فى المنطقة سيكون اضافة لصالح الامريكيين . وفى الوقت ذاته ، فان استمرار الاضطراب فى الشرق الاوسط من شأنه ازعاج الامريكيين بينما هم يحاربون اليابانيين . ولذلك فقد كانت لديهم مصلحة فى التسوية . واعرب « بيجين » لـ « سنيه » عن توقعه أن يستيقظ الرأى العام الامريكى ، ويجبر بريطانيا على تغيير اتجاهها .

وبدأ « بيجين » يمارس نشاطه فى فلسطين باندفاع كبير نحو تحقيق امانيه بالتأثير فى كل من العرب وزملائه اليهود على السواء . لقد كان يؤمن بأن الصهيونية ظلت طوال ٢٥ عاما فى خطأ جسيم ، حيث كانت تتعامل مع العرب على أنهم أعداء ، تاركة للبريطانيين فرصة التحكم من وراء الستار . وحاولت « جماعة ارجون » أن تبين فى عملياتها وفى المنشورات ، التى قامت بتوزيعها فى المدن والقرى العربية ، ان المعركة الدائرة انما هى معركة بين اليهود والبريطانيين . وعرضوا على العرب ، تمشيا مع مفاهيم « جابوتنسى » التمتع بالمساواة والحكم الذاتى ، طالما انهم يتقبلون أن يعيشوا كأقلية فى دولة يهودية . أما اذا لم يرضوا بذلك ، فان اليهود سيثبتون لهم انهم يعرفون كيف يمارسون فن القتال . ولقد كان هذا اسلوبا تكتيكيا اكثر من كونه تفكيرا فلسفيا . ففى عام ١٩٣٨ لم يتردد « الارجون » ، تحت قيادة « رزائيل » فى الانتقام بوحشية من المدنيين العرب كرد على الهجمات العربية ضد اليهود، ولم تتردد ، وهى تخضع لقيادة « بيجين » اعتبارا من عام ١٩٤٧ ، فى مواصلة العمليات الانتقامية ضدهم .

ولقد صدم « بيجين » ، عندما كان وافدا حديثا نسبيا من أوروبا ، ازاء استكانة واستسلام « الييشوف » ـ اى طائفة يهود فلسطين . وتساءل فى مناقشاته مع « سنيه » : بماذا ضحى « الييشوف » ؟ انهم لم يساهموا الا بالقليل فى حملة جمع الأموال ، والتعبئة وأعمال الاغاثة ، وكانوا يكتفون باغلاق حوانيتهم لبضعة ساعات قليلة فى مناسبات الحداد ، ولكن كانت المقاهى مفتوحة وكان اليهود منشغلين بتحقيق الارباح » . وأوضح ان « منظمة الارجون » تحاول أن تثبت لهم ان واجبهم يحتم عليهم القتال ، وأن هناك شبابا فى سن صغيرة مستعدون لأن يضحوا بأرواحهم . وادعى « بيجين » بأن اليهود يساندونه ، على الرغم من كراهيتهم لحظر التجول وما الى ذلك

من أساليب العقوبات الجماعية « اننا نزكى مشاعرهم ونعدهم للحــرب . وبدون الاعداد المسبق ، فان « البيشوف » لن يهبوا للكفاح فى اليوم المحدد . اننا نعدهم لهذا اليوم » .

وذكر « بيجين » « لسنيه » ، الذى جاء بصفته الممثل الشخصى « لديفيد بن جوريون » ، أن التنافس بين الجماعات العسكرية المختلفة يخدم هدفــا مفيدا من حيث توزيع الادوار : « فالشيرنيون » يقومون بتنفيـــذ استراتيجية مبنية على الارهاب الفــــردى ، بينما يقوم « الأرجونيون » بتنفيذ عمليات عسكرية متفرقة فى حين تستعد قوات « الهاجاناه » للدخول بثقلها فى المعركة النهائية . الا أن هذه كانت نظرية افتراضية ربما كانت لها جاذبيتها فى وقت من الأوقـــات ، غير أن عام ١٩٤٤ لم يكن من تلك الأوقات . ورد عليـــه « سنيه » بحدة : « لو أن تقسيم الادوار هذا نبع من مفهوم سياسى موحد ، فربما أثمر ، أما وهو ينبع من ثلاث وجهات نظر مختلفة ، فانه لن يســـفر عن ثمار طيبة » .

وبدأت « الارجون » عملياتها الهادئة الى تقويض المكانة البريطانية ، بقيامها فى مساء ١٢ فبراير بالقاء القنابل على مكاتب الهجرة فى القدس وتل أبيب وحيفا . لقد كان عملا رمزيا ولم يسفر عن أضرار تذكر أو أى ضحايا (باستثناء خفير عربى أصيب بصدمة بعد أن استدرج بعيدا عن موقع حراسته بواسطة اثنين من المحبين الهائمين ، وقفا يتطارحان الغرام داخل بوابة مبنى مجاور) .وكانت الرسالة التى نقلها « بيجين » عن طريق هذا العمل هى أن منظمة « الارجون » لن تسكت على ما تمارسه الادارة الحاكمة من صد لليهود عن « الأرض الموعودة » بينما هم يساقون الى حتفهم فى أوروبا . وبعد اسبوعين من هذه الغارات تبعها رجـــال « الارجـــون » بالقـــاء القنابل على مكـــاتب « الضرائب على الدخل » فى ثلاث مدن رئيسية ، وبهجوم شنوه فى ٢٣ مارس على مقر قيادة المباحث البريطانية . ومهما كانت نوايا « بيجين » فانه أراق فى هذه العملية الاخيرة الدماء لاول مرة منذ أن تولى القيادة ، حيث قتل ستة من رجال المباحث ،بينهم أحد المفتشين ، واثنين من رجاله . وأثار هذا الحادث اهتمام البريطانيين والمجتمع اليهودى الفلسطينى « البيشـــوف » . وتكلم ضابط مخابرات بريطانى عن مخاطر « الهجمات المفاجئة » التى يشنها القتلة المتعصبون ، الذين يستطيعون الانسحاب والاختباء داخل المدن المزدحمة : « وقال آخر انه بالرغم من ايمان « الارجون » بأن عليهم القيام بمهمة مقدسة وهى اخراج البريطانيين من فلسطين فان « هذا لا يعنى انهم غير مهتمين بالوسائل الكفيلة بتحقيقها ، فهم يجمعون بين المهارة والخبث بالاضافة الى الجرأة والشجاعة . وفرض حظر التجول والقى القبض على المشـــبوهين وأعيدت مرة أخرى عقوبة الاعدام ضد كل من يوجد فى حوزته أسلحة أو من يقوم بوضع المتفجرات . وتعلمت جماعة « الارجون » درسا لم تعره اهتماما

وهو أن عمليات التخريب تعرض حياة الافراد للخطر مهما بلغت كفاءة المخربين أو تلقوا تحذيرات بالتزام الحرص ، وتصاعدت حـدة الجراة والطمـوح فى الهجمات .. فأصابت فى هجماتها التالية محطة أذاعة .وسـك حديدية وحصون الشرطة .

وكانت جماعة الارجون ، فى ذلك الوقت ، بمقاتليها البالغ عددهم ستمائة مقاتل ، اقرب الى كونها جماعة ثورية منها الى جيش هجومى . ونادرا ما كان اعضاؤها العاملون يزيدون عن ألفى شـخص . وكانت متماسـكة ومرنة ، ويربط بين أعضائها مشاعر الولاء الشخصي والانضباط الايديولوجي . وكقائد عسكرى مستجد ، فان « بيجين » تعلم بسرعة . وكان منذ البداية يحسن تحديد الهدف . ولم يشترك خلال العام الأول فى وضع التفاصيل التكتيكية ، ولكنه استطاع تدريجيا أن يصبح القائد العسكرى الاعلى داخل مقر القيادة ، وأن لم يكن كذلك فى الميدان . وكانت لديه ثقة متناهية فى رؤساء عملياتـه المتعاقبين ، سواء كان ذلك « ليفنى » أو « اميهـاى (أوجيدى) باجلين » وكان يوجه دائما الاسئلة المناسبة . ويقول « ليفنى » الذى كان يجتمع يوميا و « بيجين » .

« كان تواقا دائما الى معرفة التفاصيل ، ويغرقنى بوابل من الاسئلة . لقد كان « بيجين » يريد معرفة كل ما يجرى . فمثلا كان على أن اقوم بترشيح قائد كل عملية ، وأسماء الذين يجب ترقيتهم ، وكنا نمزح ، مع انى ذو طبيعة منطوية . وكنت اقول له أسهل على أن أكرر نفس العمل من ان أقوم بشرحه له . أما هو فكان يؤمن دائما بالتفكير بصوت مرتفع والمشاركة فى عملية التوصل الى القرار . ونتيجة لتمرسه على الانتقال من عملية الى عملية اخرى تزايد فهمه للمسائل العسكرية .

ثم يستطرد « ليفنى

« وكنت اقدم الاقتراحات ، ولكن كان « بيجين » واعضاء القيادة العليا الخماسية هم الذين يختارون الاهداف وكان « بيجين » يهتـم بما اقـوله بالنسبة للمسائل الفنية ، ولكنى ما كنت لارى ، مثلا ، ان من الملائم إن يكون هدف العملية الثالثة هو الهجوم على مقر المباحث الجنائية البريطانيـة . لقد بدأنا تدريجيا من الصغر حتى كبرنا .وكان علينا أن نكتسب الخبرة ، فلم نكن قد قمنا بعمليات منذ أربع سـنوات ولكن « بيجين » كان يطالب فى اجتماعات القيادة العليا ، التى كانت تنعقد كل أسبوع ، بتحديد اهداف تترك انطباعا ضخما فى انحاء العالم . واحيانا كان يطالبنا بوقف العمليات ، ان الامر الذى كان يثير اعجابى ببيجين ، هو منطـقه التحليلى وقدرته على التحليل

السياسى ، لقد ساعدنى ذلك على الاقتناع بامكانية نجاح حربنـــا ، وبالفرص المتاحة أمامنا فى المستقبل » .

وكانت « منظمة الارجون » ، مثل كل المنظمات الثورية السرية ، تواجه مشاكل داخلية متعلقة بالامن والموارد ، ومشاكل خاصة بالخيانات والتمويل والمؤن . ووفقا لشهادة « بيجين » نفســه وزملائه ، فانه كان يتردد كثيرا فى اصدار حكم اعدام ضد الخونة الوشاة . وكانت هذه شخصية « بيجين » ، المحامى مع وقف التنفيذ ، والرجل الرحيم الذى يؤمن بقدسية حياة اليهود . ووفقا لاقوال « ليفنى » فلم يعدم رميا بالرصاص أثناء قيادة « بيجـــين » للارجون ، سوى اثنين فقط من الخونة ، فى حين صدر العفو عن عشـــرة اخرين : « لقد كنت أؤيد صدور الحكم بالاعدام فى احدى القضايا ، ولكــن « بيجين » قال لى : « لقد درست المحاماة ولن يقبل أى قاض مدنى الادلة التى نقدمها للحكم بالادانة » ، ولقد أخذنا برأيه .

وقد أدى تردد « بيجين » الى افلات واحد من أكثر وشـــاة الارجون حياته بدون عقاب . وكان هذا الشخص هو « يعقوب شيليفتس » ، عضو « حركة التصحيح » القادم من « فيلنا » والذى كان يشترك فى حملة جمـــع التبرعات . وكانت له اتصالات قوية داخل « الارجون » . وقام « شيليفتس » فى مارس ١٩٤٤ عندما كان « بيجين » لازال يعيش فى القدس واسرته ، بشراء هدية بمناسبة عيد الميلاد الاول « لبنيامين بيجين » . وحضرت الشرطة فى اليوم التالى لاعتقال قائد الارجون ، الذى تصادف أن كان خارج المنزل . وكانت زيارة الشرطة بمثابة انذار فاختفى « بيجين » فى « تل أبيب » . وكان واثقا من أن « شيليفتس » أحضر الهدية خصيصا من أجل معرفة مكـــان سكن « بيجين » وقد قام فيما بعد بتقديم قائمة بأسماء قادة الارجون — ومن بينهم « بيجين » و « مريدور » و « بن — اليعازر » — الى المباحث البريطانية. وتم اعتقال « بن — اليعازر » بناء على ذلك البلاغ . ووقعت القائمة فى يد الارجون .. فلم تكن « منظمة الارجون » هى الوحيدة التى تعانى من مشاكل أمنية .

وعندما أوصى ضباط الارجون بتنفيذ العدالة الثورية فى «شيليفتس» أصر «بيجين» منحه فرصة للدفاع عن نفسه ضد الاتهامات الموجهة له . واستدعى للمثول أمام محكمة من ثلاثة أعضاء . وعندما رفض الحضور استدعى مرة أخرى . ففر الى مصر . ورأى زملاء « بيجين » أن هذا الفرار يعتبر دليلا كافيا على ادانته ، بيد أن القائد لم يكن قد اقتنع بعد .

ويقول « بيجين عن هذه الواقعة » :

« لقد قلت انه ربما يكون قد خاف من توجيه هذا الاتهام الفظيع اليه ، وربما كان هذا هو السبب فى فراره الى مصر . وقلت ان من الضرورى أن نرسل له أمرا بالعودة لمواجهة المحاكمة . وكان يوجد آنذاك جنود فى الجيش البريطانى من أعضاء الارجون . واتجه اثنان منهما لمقابلة « شيليفتس » فى احد فنادق القاهرة ليطالباه نيابة عنى بالعودة . فقام بتسليمهما الى الشرطة العسكرية .

وعندئذ فقط وافقت على أن يكون هذا دليلا كافيا على ادانته . وقام البريطانيون بابعاده عبر المحيط الى الولايات المتحدة . وقد كنا نعرف هذا . ويقال انه مازال موجودا فى أمريكا ، ولكننا لا نكترث بأمره » .

ولما كانت القيادة الرسمية للحركة الصهيونية قد حرمت « الارجون » من الحصول على الاموال والمعدات ، فقد كان عليها ان تحاول الحصول عليهما من أى مكان . لقد كان لدى « ايتان ليفنى » فى مستهل عام ١٩٤٤ ، ستون مسدسا صالحة للاستخدام ، وثلاثة مدافع شبه آلية مسروقة من معسكر بريطانى ، وعدد من البنادق وبضعة مئات من القنابل اليدوية ، وطنان من المتفجرات . ولم تكن هذه الاسلحة تكفى للقيام بثورة . ومارس أعضاء « الارجون » من أجل الحصول على المزيد من الاسلحة عمليات السرقة والنهب والاغتصاب من اليهود الذين كانت المنظمة تتطلع الى قيادتهم فى يوم ما . وأمكن فى عام ١٩٤٥ الاستيلاء على ماقيمته ٣٨ ألف جنيه من الماس اثناء غارة على بعض الرسائل من الطرود البريدية ، كما استولوا على مبلغ مماثل تقريبا نتيجة لغارة على قطار يحمل أجور عمال السكة الحديدية . وقد قتل فى تل أبيب اثنان من المارة حاولا التدخل لمنع عملية سطو قام بها رجال مسلحون من الارجون على خزينة شباك تذاكر سينما « عدن » بالمدينة ويزعم « ليفنى » انهم كانوا يسرقون من البريطانيين كلما أمكنهم ذلك . ويقول « لقد صادرنا فى احدى المرات أموال بنك يهودى . وكنت قد اقترحت هذه العملية على « بيجين » الذى طلب منى أن استكشف الشركة التى يؤمن لديها البنك . وعندما اكتشفت أن شركة التأمين هى « لويدز » اللندنية ، وافق « بيجين » على العملية . ومهما يكن من أمر ، فان مخابرات « الهجاناه » حصلت على قائمة بأسماء « المساهمين » الذين يمولون « الارجون » ، وكانت تتضمن ٦٤ . فردا وشركة ومؤسسة يهودية فى تل أبيب وحدها ، بما فى ذلك عدد من أعضاء الهجاناه ذاتها الذين تعرضوا للارهاب حتى يدفعوا .

وكان السبب الاساسى الذى أدى الى فشل اتصالات « بيجين » المبكرة مع « عصابة شتيرن » و « الهاجاناه » ، بصرف النظر عن الواجهة الايديولوجية هو : رفض قائد الارجون المشاركة فى السلطة أو الاستسلام لرأى أحد آخر

لاينتمى الى صفوفه . لقد كان « صاحب فكر احادى » ، عنيداً ، يتمتع بثقة متناهية في النفس . فليس هناك شيء او مخلوق من حقه أن يتصور أنه يستطيع الوقوف فى سبيله ، حتى لو كان القيادة المحلية «لحركة التصحيح» التى حرص « بيجين » طوال فترة التمرد الذي قاده ، على الفصل فى ازدراء بينها وبين الارجون . فان « التصحيحيين » كانوا مهذبـين اكثر من اللازم ، ومازالوا يتمسكون بسياستهم القائمة على التعاون مع بريطانيا فى زمن الحرب .

ووفقا لاقوال « يلين — مور » ، فان « بيجين » قدم انذارا نهائيا الى عصابة « شتيرن » ، معلنا أن عليهم ، كشرط لعودة الوحدة بينهما ، أن يعترفوا « بجابوتنسكى » كموجه للجيل . وكان « يلين مور » مثل « بيجين » قد تربى فى ظل « جابوتنسكى » ، ولكنه ، على خلاف « بيجين » ، تطور وبعد عنه ، ولم يعد « جابوتنسكى » هو مرجعه الاولى ، ولقد أبدى « يلين — مور » بعد عدة عقود من ذلك الحين ، نفس الروح الاستقلالية المبدعة عندما نادى بالتعايش السلمى مع الفلسطينيين العرب ، بينما كان « بيجين » لايزال يردد الاقوال التى ادلى بها « جابوتنسكى » امام « لجنة بيل » فى عام ١٩٣٧ . وكان « يلين — مور » و « شامير » يشـعران فى عام ١٩٤٤ انهما لا يمكنهما السـجود لروح « جابوتنسكى » دون أن يخونا ذكـرى زعيمهما ، افراهام (أو ، يائير) شتيرن » . الذى قتل فى فبراير ١٩٣٢ عندما اطلق بريطانى الرصاص عليه . وكان « شتيرن » قد تمرد على دعوة « جابوتنسكي » ، عندما اشتعلت الحرب فى أوروبا ، بوقف اطلاق النار على البريطانيين . ولكن كما يقول « يلين — مور » ، كان وراء رفض « عصابة شتيرن » لشروط « بيجين » ، سبب عملى اهم من الأسباب المبدئية :

« اننا كنا سنضطر عند أى اختلاف فى الرأى يقوم بيننا — ولا بد لمثل هذه الخلافات أن تقوم — أن نلجأ دائما الى تعاليم « جابوتنسكى » للبحث عن حلول لمشاكل لم يكن لها وجود فى عهده . واذا وقع أى اختلاف فى الرأى فى تفسير آرائه المدونة ، فمن الذى يحق له حسم المسألة ؟ وسألت « بيجين » مستوضحا : « كيف يكون الامر اذا ظهرت خلافات فى الرأى بين المنظمتين ؟ من الذى سيحكم بينهما ؟ ولم يتردد بيجين فى القول بأسلوب اشبه بالاشتراط : فى هذه الحال فان حق اتخاذ القرار يكون له . وعند ذلك وعلى الرغم من معرفتنا القديمة ببعضنا وتعاوننا معا على مر السنين ، فقد أصبت بالذهول . فقد كان « بيجين » واثقا كل الثقة من نفوذه المعنوى ، حتى أنه لم يشـك للحظة فى أنه وحده هو صاحب الحق ، بلا منازع فى اصدار الاحكام » .

وقد اعترف « بيجين » فى حواره و « موشيه سنيه » نائب قائد قـوات « الهاجاناه » ، بأن « بن — جوريون » هو الزعيم السياسى « لليشيوف » (يهود فلسطين) . وأعلن ان الارجون لم تكن لديها الرغبة فى الحكم ، وانها

ستسير وراء راية بن جوريون بمجرد ان يعلن الحرب على الحكم البريطانى . ولكن حتى يحدث هذا ، فان أي تفكير فى أن للهاجاناه حق الاعتراض على نشاط « الارجون » ، مرفوض ولايمكن التوقف حتى يتم بحث احتمالات التعاون بينهما . وأردف بيجين يقول لـ « سنيه » (أى سنيه) انما يتكلم معه لمجرد ان « الارجون » تقاتل ، ولو لم تكن المنظمة تقاتل لما أصبح لها ذكر . وأكد ان الرضوخ « لبن — جوريون » قبل الاوان المناسب انما سيعنى القبول بالتصفية التلقائية للمنظمة . ولم يتأثر « بيجين » بالحجج القائلة بأن القيادة الرسمية وحدها هى المنتدبة من قبل « اليشوف » ، كما لم يتأثر بقول « سنيه » فى مجادلاته أن « بن جوريون » أكثر علما بما يجرى فى المحيط الدبلوماسى الاوسع نطاقا ، ومن ثم فانه اقدر على اتخاذ القرارات الاصوب بالنسبة للمصلحة اليهودية .

وقد تم لقاء الصديقين القديمين فى جو يسوده الشعور بان ثمة ازمة وشيكة الوقوع . فقد لاحظت القيادة الرسمية ، سواء كانت مخطئة أو على صواب فى ذلك ، دلائل تشير الى تحسن في الموقف البريطانى من التطلعات الصهيونية . واطلع « سنيه بيجين « على التلميحات التى ادلى بها « ونستون تشرشل » « لحاييم وايزمان باجراء تقسيم جيد » بمجرد انتهاء الحرب . كما تمت اخيرا الموافقة على انشاء كتيبة يهودية ملحقة بالجيش البريطانى ، وهو الامر الذي طالما اجرى الصهاينة اتصالات ومارسوا الضغوط من اجل تحقيقه. وكان القلق يسيطر على « بن — جوريون » وزملائه ازاء احتمال ان تتعرض هذه الامال للاحباط نتيجة للحملة الارهابية . كما كانوا يخشون فى الوقت ذاته من الا يتوقف تمرد المنشقين عند الاضرار بالبريطانيين ، على الرغم من عدم وجود ما يشير فى تصريحات « بيجين حتى تلك اللحظة ، الى ما يؤكد مخاوفهم من حدوث ثورة كاسحة . بيد أن ردود « بيجين » لم تعمل على تبديد مثل هذه المخاوف . فقد أعرب قائد « الارجون » عن عدم ثقته في انصاف الوعود التى يقدمها « تشرشل » وأعلن « بيجين » أنه لا يمكن وصف اى تقسيم خاصة اذا كان قاصرا على « أرض اسرائيل الغربية » بأنه « جيد » . وكان « سنيه » يشعر ، ربما أكثر من « بيجين » ، بتزايد حدة المطالبة بقيام « الهاجاناه » بوقف المنشقين عند حدهم . وقد انتهى الاجتماع بينهما ، كما جاء فى تقريره بنغمة يائسة : قلت له : « لا أعرف اذا كان هناك يهودى آخر يريد تجنب وقوع قتال بين اليهود وبعضهم البعض ، اكثر مما أريد .. وعلى هذا ، فانا أقول لك اننى أخرج من هذا الحوار وأنا أشعر باكتئاب تام .. فالخلاصة كانت واضحة تماما : « انهم يريدون فرض طريقتهم على الجميع » .

وكان « بن جوريون » قد ابلغ اللجنة التنفيذية العليا للوكالة اليهودية، منذ وقت مبكر فى ابريل عام ١٩٤٤ بعدم وجود أى حل بديل « وعلينا أن

نقابل القوة بالقوة . ولا شك أن هذا القرار يعتبر كارثة ، ولكن وقوع كارثة محدودة كان أفضل من نجاح مجموعة صغيرة في فرض سيطرتها على « اليشوف »[١] . وأصبح كابوس القتال بين الاخوة حقيقة واقعة بحلول نهاية العام . فقد عقد اجتماع أخير بين « بيجين » و « الياهو جولوم » ، رئيس « موشيه سنيه » الذى كان قد عاد لتوه من مهمة رسمية الى لندن . وخرج « جولوم » من الاجتماع وقد ازداد اقتناعا بمدى فداحة الضرر الذى يلحقه المنشقون بالمساعى الدبلوماسية الصهيونية . وأعلن فى مؤتمر صحفى : « اذا اضطررنا لاستخدام القوة ضد أولئك الذين يرتكبون هذه التصرفات الضارة المعتوهة ، فاننا لن نتردد فى ذلك » . وأكد « جولوم » بعد اجتماعه العقيم مع « بيجين » ان على « اليشوف » ان يتخذوا كافة الاجراءات الكفيلة بوقف نشاط الارجون .

ولقد سبق السيف العذل فى ظرف أسبوع واحد ، اذ حدث فى ٦ نوفمبر ١٩٤٤ ، أن قام رجلان مسلحان من عصابة « شتيرن » فى القاهرة باغتيال اللورد « موين » ، الوزير فى حكومة تشرشل لشئون الشرق الاوسط . ولم يكن « بيجين » وجماعته قد تلقيا اى انذار مسبق بالعملية ، على الرغم من أن الجماعتين كانتا تمران بمرحلة اتصالات ايجابية بينهما . ودفعت منظمة « أرجون » ، بدلا من « عصابة شتيرن » ثمن مقتل « لورد موين » . فقد اجتمعت اللجنة التنفيذية العليا للوكالة اليهودية فور انتشار النبأ وقررت دعوة « اليشوف » الى نبذ جميع أعضاء هذه العصابة المخربة والمدمرة ، وحرمانهم من المأوى والملجأ وعدم الاستسلام لارهابهم وتقديم كافة المساعدات اللازمة للسلطات من أجل وقف اعمال الارهاب وتصفية المنظمة المسئولة ، فان بقاءنا فى حيز الوجود يتوقف على هذا . وكتب « الياهو جولوم » يقول : « لم يعد هناك مجال لمناقشة أساليب القضاء على وباء الجرائم الارهابية . وأصبحت الحاجة الى منع هذه الجرائم فورا تتصدر كل الاعتبارات الاخرى ، وتستدعى اتخاذ كافة الاجراءات الكفيلة بمساعدة السلطات على وقف هذه الجرائم .

لقد تركت تلك الفترة التى أصبحت تعرف باسم « السيزون » (موسم الصيد) ندبة جديدة فى نفسية « مناحم بيجين » . لقد كان الامر يبدو وكأن قابيل وهابيل قد بعثا من جديد فى العصر الحديث . واذا لم يقتل الاخ أخاه ، فانه يترك وظيفته ويفصل أبناءه من مدارسهم . ووفقا لما جاء فى سجل التاريخ الرسمى للهاجاناه قام « المتطوعون » اليهود باحتجاز عشرين رجلا لاستجوابهم كما تم التحرى عن واحد وتسعين آخرين بدون القبض عليهم . وسلمت أسماء ما يقرب من سبعمائة شخص ومؤسسة كانت لها علاقة بالاعمال الارهابية والابتزاز الارهابى ، فضلا عن أسماء بعض المساهمين المتطوعين أو المرغمين على تمويل «الارجون » الى المباحث الجنائية البريطانية ويقال أن ثلاثمائة منهم قد اعتقلوا بموجب هذه القوائم . وتفيد

تقديرات أخرى بأن عدد المقاتلين من « الارجون » والمؤيدين لها الذين سلموا الى انبوليس بلغ الف شخص . وقد أمكن خلال « موسم الصيد » (أو السيزون) الذى استمر على مدى ٧ أشهر القبض على كل القيادات العليا تقريبا واحتجز رجال « الهاجاناه » أحد هذه القيادات وهو « ايلى تامين » رئيس مخابرات « الارجون » ووضعوه فى الحجز الانفرادى من شهر فبراير حتى اغسطس عام ١٩٤٥ بمستوطنة « عين حيروت » . وكان محتجزوه يريدون انتزاع المعلومات منه . وكانوا مستعدين فى سبيل ذلك لان يضربوه ويعلقوه على الحائط وأن يلكموه فى أسنانه حتى تنخلع ثم تركه مسلسلا فى قذارته ويوهموه بانهم سوف يعدمونه . وعندما انتهى « الموسم » فى شهر يونيو ، شعروا فى بداية الامر حرجا شديدا منعهم من اطلاق سراحه فورا .

وقد تمكن «بيجين» نفسه من مراوغة جماعة المطاردة . وقال « شيمون افيدان » ، الذى قاد « موسم الصيد» : اجريت عدة محاولات للايقاع ببيجين، ولكنها فشلت جميعا . وكنا كلما نبلغ المكان الذى تصلنا الاخبار بوجوده فيه نجده قد تركه . وكان من بين المكلفين بالبحث عنه ، «مائير باعيل» القائدالشاب لاحدى وحدات الهاجاناه والذى أصبح فيما بعد العضو اليسارى بالبرلمان . ووصلت أنباء الى « باعيل » ورجاله تفيد بأن « بيجين » سيتناول غداءه وهو متخفى بأحد المطاعم فى شارع الانبياء بالقدس يقول باعيل » صدرت الى الاوامر بالقبض عليه واحضاره الى «عين حيروت» ، حيث أقام «الهاجاناه» سجنا صغيرا . وانتظرنا عند المطعم اربعة أيام ولكنه لم يحضر . وكنا نتناول الطعام فى المطعم بالتناوب . فكان أربعة منا يدخلون بينما كان الخامس ينتظر فى الخارج مع سائق التاكسى » .

وقد سأل بيجين ، عندما اصبح رئيسا للوزراء ١٩٧٧ زميله عضو البرلمان ، عما اذا كانت هذه الرواية صحيحة ، فرد عليه « باعيل » بالايجابه واكد له انه لوكان قد امسك به ، لما أمكنه الافلات منه .

« وماذا كان سيحدث لو حاولت المقاومة ؟

« كنا سنضربك .

« واذا كان هناك اشخاص مستعدون لحمايتى

« كنا سنضربهم ايضا . اما اذا استسلمت ، كنا سنضعك فى سيارة التاكسى ومعك ثلاثة اشخاص يمسكون بذراعيك . وكنا سنضع نوعا من الكمامة فى فمك ونلقى بك فى حقيبة السيارة ونغلقها عليك لو اننا شككنا فى انك ستسبب لنا متاعب » .

واضاف « عيل » كنوع من المواساة أن مهمته كانت تقتضى على اى حال تسليمه حيا — ولكن ليس للبريطانيين . وقام رئيس الوزراء عندئذ واحتضنه .

ولم يـكن الغموض فى المسألة ينصب على السبب فى فشل « باعيل » فى القبض على « بيجين » ، بقدر ما كان فى السبب الذى دعا الهاجاناه الى الاعتقاد بانه سيحضر الى القدس . فان قائد « الارجون » ظل ، فى الواقع ، مختبئا تحت اسماء مختلفة من ربيع عام ١٩٤٤ حتى نهاية التمرد ، بمنطقة تل ابيب وكان اول ملجأ له هو فندق السافوى المتواضع الذى يقع بين شارع « الينبى » وشاطىء البحر ، وحيث نزل تحت اسم « مناحم بن ـــ زئيف » . وقد قامت جماعة ارهابية فلسطينية جاءت عن طريق البحر بعد ثلاثين عاما من نزول بيجين بالفندق ، بالاستيلاء عليه . وكانت حالة الفندق قد تدهورت كثيرا ودمر نصف المبنى المصنوع من الاسمنت عندما اقتحمته فرقة هجومية اسرائيلية وقتلت جميع الارهابيين باستثناء واحد منهم فقط . وكان « بيجين » قد اختار ذلك الفندق لعدم حصوله على فرصة كافية من الوقت للبحث عن مكان افضل ، وأيضا عملا بالمبدأ القائل بان « أكثر الاماكن ظلاما هـــو ذلك الواقع مباشرة تحت المصباح » . وقد ترك « السافوى » بعـــد أن نجـــا بأعجوبة . فقد قاد مدير الفندق فرقة تفتيش بريطانية متخطيا بحذر الغـــرفة رقم ١٧ التى لم يكن يعرف شخصية « بيجين » الحقيقية ، ولكنه شعر انه غادر الفندق بغرض قضاء اجازة : « هذه هى كل الغرف عندى » .

وانتقل « بيجين » من الفندق بعد ذلك ، وبصحبته زوجته وابنـــه الى منزل منعزل فى القطاع اليمنى فى « بتاح تيكفاه » . وكتب يقـــــول عن تلك الفترة : ان الظروف هناك كانت صعبة ، وكان المنزل مهملا . وكانت الريح تعصف ليلا ونهارا من خلال نوافذه المحطمة . وفى المساء كان الطقس باردا والظلام حالكا . فلم يكن هناك كهـــرباء أو تدفئة مركزية . ولكن من دواعى سروره انه كان ينام على ملاءات تم شراؤها خصيصا للمندوب الســـــامى البريطانى ، سير « هارولد ماك ـــ ميتشل » الذى كان « الارجــــون » قد وضعوا خطة فى يوم ما لاختطافه . كان البيت الصغير غير مريح ، وبالاضافة الى ذلك كان معرضا للمخاطر وكانت العائلات البولندية تبدو واضحة وضوح النهار فى وسط اليمنيين من ذوى البشرة السمراء ، ولم يمض وقت طويل قبل أن تبدأ التساؤلات تتردد حول الغريب الذى لا يخرج أبدا الى العمل .

وتولى « الارجون » نقل « بيجين » واسرته الى منطقة « حاسيدوف »، وهى منطقة عمالية على اطراف « بتاح تيكفاه » حيث انتحل مناحم لنفســه اسم « يسرائيل هالبرين » . وكثيرا ما كان المسكن يتعرض لانقطاع الميـــاه ولم تكن الكهرباء قد ادخلت اليـــه بعـــد ، بيد أن « بيجين » ، الذى كان ما زال فى مرحلة « الاختفـــاء المفتوح » كان يجد عزاء فى الحقول وحدائق البرتقال وخضرة الحدائق والاشـــجار الكثيفـــة . وقدمت عائلة « هالبرين » نفسها على انها عائلة بولندية لاجئـــة . وفسرت « اليزا » سببها عندم

خروج زوجها الى العمل بأنه عاكف على الدراسة ليتقدم الى الامتحـــان فى القانـــون الفلسطينى . وذكرت ان اللجنة المشتركة وهى جمـــعية خيرية يهودية هى التى تتولى مساعدتهم حتى يتخرج . وكانت القيادة العليـــا للارجون تجتمع فى المطبخ على ضوء مصباح الجـــاز او الشموع . وكانت العائلة تتنزه سيرا على الاقدام فى أيام السبت فى حـــدائق البرتقال .

وتعرضت عائلة « بيجين » أثناء اقامتها فى منطقة « حاسيدوف » لاول تجربة لها مع عمليات التفتيش الشـــامل التى يقوم بها الجيش البريطــــانى . ففى فجـــر يوم ٥ سبتمبر ١٩٤٤ تم تطويق بلدة « بتاح تيكفـــا » ، التى كانت مشهورة بايواء الارهابيين ، وفرض فيها حظر التجـــول . وقـــرر « بيجـــين » وواحد من ضـــباط قيـــادته الذى أمضى الليلة معـــه أن ليس هناك أى مغزى من فرارهما للاختبـــاء فى الغـــابة لان ذلك من شـــأنه ان يلفت نظر الجيران اليهـــا ، ان لم يكن نظر القـــوات ، ومن ثم يصبح القبض عليهما أمرا محتوما . وقررا ان يتصرفا باعصـــاب هادئة ويتمسكا بمظهر البراءة فجلس القـــائدان على سلم المنزل وهما يتفـــرجان على الدبابات والمدرعات البريطانية اثناء مرورها عند آخر الشـــارع . وأسرت جارتهم مسز « سبيجل » فى انزعاج لمسز « بيجين » قائلة : « ليس هنـــاك ما يزعجك يا مسز « هالبرين » . اما انا ففى حوزتى احدى بطاطين الجيش بالمنزل » . وزال الخطر بحلول الظهر . ورفع حظر التجول ، وقد تجـــاهل الجيش لسبب غير معروف حى « حاسيدوف » . ولكن عندما امتـــد التوتر الذى سبق « موسم الصيد » ، الى المنطقـــة بدا الحى أقل أمنـــا وبدأ الناس يتطفلون فى فضول ، وحان وقت الانتقال الى تل ابيب .

واختفى « يسرائيل هالبرين » من الوجود ، وجاء « يسرائيل ساسوفر » اليهودى الارثوذكسى الملتحى الذى يرتدى طاقيـــة سوداء ، للاقامة فى شارع « ياهوشا بن نان » الواقع بين مذبح البلدية ومأوى كلاب البلدية . واضافت الذقن عشر سنوات الى عمر « بيجين » . وكان قد فسر للجيران عـــدم حلاقته لذقنه خلال الشـــهر الاخـــير من اقامته فى « بتاح تيكفا » بأنه فى حالة حداد . وكان اثنـــاء وجوده فى « تل ابيب » يذهب للصـــلاة بانتظام فى المعبد المحلى ، مثل اليهود المتدينين وكان الجيران يرتابون فى أنه واحد من الطلبة « المستديمون » فى المعاهد الدينية ، والذين لا يزالون ابدا اى عمل ويعيشـــون من ريع مهور زوجاتهم . ورزق بيجين اثناء اقامته وعائلته فى شـــــارع « يهوشا بن ـــ نان » ، بثانى اطفاله . وكانت فى هذه المرة طفـــلة اسماها « هاسيا » ، تيمنا باسم أمه . وسجل المولودة باسم : « هاسيا ابشتاين » ، نسبة الى يسرائيل ايشتاين ، احـــد اصدقاء « بيجين » المقربين ، والدى اضطر الى القيام بدور الاب السعيد بوزار « اليزا » وابنتها فى المستشفى .

وكاد البريطانيون يكتشفون مكان اختبار « بيجين » فيما بين المذبح ومأوى الكلاب ، مرتين : المرة الاولى عندما مسحوا شارع «يهوشا بن ـ نلن» بالانوار الكاشفة ، وجابوا الشارع جيئة وذهابا بحثا عن مخابىء الاسلحة . ورابط « بيجين » مترقبا فى منزله ، ولكن أحدا لم يطرق بابه . وانتهتعملية التفتيش بحلول الفجر . كان هذا فى أواخر عام ١٩٤٥ ، أما المرة الثانية فجاءت بعد ذلك بعام تقريبا عندما نسف فندق « الملك داوود » فى القدس .

وفى هذه المرة الاخيرة كان من الواضح ان الجيش يعرف جيدا ما الذى يبحث عنه . واختبأ « بيجين » فى غرفة صغيرة سرية تحت سقف المنزل أعدها « يعقوب مريدور » خصيصا لمواجهة مثل هذه الطوارىء . وشعر « بيجين » ان التفتيش عنه أخذ يقترب . وعلم من الراديو الذى تركته « اليزا » مفتوحا عاليا عن عمد حتى يسمعه ، ان حظر التجول سيستمر عدة ايام ، وان التفتيش سيمتد الى كل منزل وكل ركن . وعسكرت جماعة من الجنود فى حديقة منزل « بيجين » واصطحبوا « اليزا » مع طفليها لاستجوابها . وادعت انها لا تعرف الانجليزية . وقالت من خلال مترجم ان زوجها ذهب الى القدس . واعادها رجال الشرطة البريطانية الى منزلها . ولكن عاد رجال الجيش مرة أخرى لتفتيش المنزل ، حيث قاموا بفتح الدواليب والبحث تحت الاسرة ، والنقر على الجدران (بل انهم نقروا على المكان الذى يختبىء فيه « بيجين ») . وظل بيجين محشورا فى ملجئه الضيق لمدة ثلاثة أيام مضنية بلياليها خلال حرارة شهر اغسطس.وقد اعادت هذه الفترة الى ذهنه تجربة الحبس الانفرادى التى مر بها فى « فيلنا » ويقول بيجين :

« كان هناك بعض نواحى التشابه بين التجربتين ، ففى سجن « لوكشيكى » كان الطقس حارا نهارا ، باردا ليلا . اما هنا فان الحرارة كانت لطيفة ، وخانقة نهارا » . وكانت الارض هناك من الحجارة اما هنا فكانت من الخشب . وكانت عظام المرء هناك تصرخ من الالم ـ ولم يكن الالم هنا أقل حدة . وكان المرء لا يجرؤ على التحرك اطلاقا . وهناك كانت الحاجة ماسة الى الطعام ، وهنا الى الماء . وفى هذا الصدد يقول :

لقد كانت هذه هى أسوأ محنة أمر بها : لقد عانيت من عدم وجود الماء . ومن عدم تناول الطعام فى « لوكيشكى » وفى غيره من الأماكن وقد تعلمت هنا لأول مرة معنى الحرمان من الماء وعانيت من الجوع والعطش ـ انهما تجربتان قاسيتان من الأفضل الا يتعرض المرء لهما . ولكن اذا كان لى خيار فى الامر لاخترت الجوع بلا تردد . فالعطش الممتد رهيب ..

وبدأت اشعر بالدوار . وبدأ الجفاف يشمل جسمى . ومما زاد من عذابه أن الجنود المرابطين فى الحديقة أخذوا يدلفون الى المنزل ، طالبين الحصول على شراب . ولكنهم انصرفوا فى اليوم الرابع ، فدفقت « اليزا » على المخبأ بيد المكنسة . واحتفل بيجين بخروجه من سجنه الاختيارى بأن اغرق راسه فى اناء ملىء بالماء البارد ، المرة تلو الاخرى ، وهو يشرب . « لم أستطع ان اصبر ، فقد كنت أشعر بجفاف تام . كان كل ما احتاج اليه هو الماء .. » .

اعترف فيما بعد الجنرال سير « افلين باركر » ، القائد العام البريطانى أن اسلوب التطويق والتفتيش لم يسفر الا عن نتائج ضئيلة جدا ، وقال :

« عندما انظر الى الوراء ، لم اجد اى أسلوب آخر كان يمكن استخدامه فى معالجة المشكلة . وعندما ذهبنا الى تل ابيب كان « بيجين » موجودا هناك مختبئا داخل دولاب . وكان يوجد مساعد عريف وثلاثة جنود يرابطون فى حديقة بيته ، ولكنهم لم يفتشوا المكان بدقة . ان هذه هى واحدة من مشاكل حملات التفتيش ، اذ يجب عليك أن تعتمد على أفراد من المرتب الدنيا ، فاذا اخطأوا يمكن أن تنهار العملية باكملها » .

واقامت عائلة « بيجين » فى المنزل الكائن بشارع « بهوشوا بن ـ نان » لمدة عامين تقريبا ، ولكنه بدأ هو الاخر يفقد عزلته . واظهر البريطانيون اهتماما متزايدا بالحى ، وكانت منظمة « الهاجاناه » قد علمت بمسالة لحية « بيجين » . وأوصى رجال أمن « الارجون » بضرورة انتقاله مرة أخرى . وحلق « يسرائيل ساسوفر » ذقنه وجاء الدكتور « جونا كونيجشوفر » ليقيم فى المسكن الذى يقع عند ملتقى شارعى « روزنبوم » و « يوسف الياهو » ، بالقرب من مسرح « حابيما » فى قلب تل أبيب . وقد استوحى « بيجين » هذا الاسم الذى يعطى انطباعا بأن صاحبه من اليهود الالمان المحترمين ، من بطاقة تحقيق شخصية عثر عليها فى مكتبة عامة . ووضعت صورة « بيجين » على البطاقة ، وقد علا وجهه فى هذه المرة شارب . وكان من المقرر أن يصبح هذا الانتقال الذى تم فى أوائل عام ١٩٣٧ ، آخر تنقلات « بيجين » ، ابان فترة ممارسته للعمل السرى . وولد « لبيجين » اثناء وجود العائلة فى المنزل الكائن بشارع « روزنبوم » ، ابنة ثانية هى « لياه » . وتم تسجيلها هى ايضا تحت اسم « ابشتاين » . ولم يتوان البريطانيون ابدا عن بحثهم عن « الارهابى الاكبر » . وعرضت جائزة قيمتها الفان من الجنيهات الاسترلينية لمن يساعد فى القبض عليه (كانت الجائزة على راس « ناتان يلين ـ مور » من عصابة شتيرين لا تتعدى الف جنيه استرلينى فقط) ولكن لم يخنه احد .

لقد سبب « موسم الصيد » (١٩٤٤ — ١٩٤٥) لبيجين توترا شديدا مما أثر على قدرته على التقدير السليم وعلى التحكم فى مقاتليه من الشباب . لقد سببت لهم مسألة اختطاف اليهود وخيانتهم آلمـــا وشعورا بالخـــزى . وكانت مشاعرهم تدفعهم الى الرد على العدوان بمثله . وقد عكس منشور لاذع كتبه « بيجين » فى فبراير عام ١٩٤٥ ، تحت عنوان « سنعاملك بالمثل ياقابيل » مدى ما شعر به من مرارة :

« لقد استخدمت كل قوتك ياقابيل ، ولكنك لم تستغلها عندمــــا كان الملايين من اخواتك يموتون وعيونهم متجهة نحو « صـــــهيون » — أرض « صهيون » المغلقة الابواب ، أرض « صهيون » التى تستعبدهـــا حكومة شريرة ، انك لم تبد قوتك هـــذه عندما تم ترحيـــل الناجين من المقصلة ، ولم تكشف عنها لتحطم الابواب التى أوصدها « الكتاب الابيض » فى وجههم .

« لقد عمدت يا « قابيل « الى تعبئة ثروة الامة ولكنك لم تنفقها من أجل الاغاثة ، ولمساعدة أسر الجنود ، ولا من أجل تنظيم الهجرة المجانية من دول الابادة . انك تختلس أموال الشعب عشرات الآلاف من الجنيهات ، وتنفقها على المخبرين والمختطفين وعصابات الواشين . لقد اخترت لنفسك حليفا ، ياقابيل . ان حلفاءك هم نظام الحكم الظالم القائم فى الوطن والمباحث الجنائية البريطانية — النازية . انك تسلم اخوانك الى هؤلاء الحلفاء .. انك تسلمهم الى الايدى الملطخة بدماء ملايين المبعدين عن أبواب الوطن ليدخلوا أفـــران « ميدانيك » ..

« انك تمارس ياقابيل الخطف حيث تقتحم فى ظلام الليل بيوت العبرانيين بواقع عشرة ضد واحد — وتوجه الضربات حتى تسيل الدماء .. انك تقتلع من تعتبرهم « مشكوك فيهم » مستخدما الحيلة والخداع باسم الشرطة وبكل قسوة ، وتنقلهم الى جهات مجهولة ، لتعذبهم باساليب لجستابو فى القلب المظلم لحدائق البرتقال ، ثم تقوم فى النهاية بتسليمهم الى حليفك ، المباحث الجنائية البريطانية — النازية ، ليمارس المزيد من التعذيب ضدهم وليقوم بنفيهم الى « اريتريا » ..

ومع هذا فان « بيجين » اختار لنفسه الالتزام بضبط النفس . اذ انه كان واثقا من ان الوقت سيحين عندما تضطر « الارجون » و « الهاجاناه » الى الى القتال جنبا الى جنب . وكان يرى أن اشتعال حرب أهلية واسعة النطاق من شأنه تبديد كل احتمالات قيام مثل هذا التعاون ، بل ان من شأنه تبديد حتى احتمالات قيام دولة يهودية . ولم يكن من الملائم ان ينتهج المـــرء فى ذروة « موسم الصيد » سياسة « فرض الرأى » . ويقدر يعقوب (يول) أمرامى ، الذى خلف « ايلى تافين » فى منصب مدير الاستخبارات ، عدد معارضى وجهة

نظر بيجين تلك ، بنصف عدد أعضاء القيادة العليا . ولكن استطاع منطـــق « بيجين » أن يسود فى النهاية . بل أنه أصدر منذ وقت مبكر يرجع الى شهر نوفمبر من عام ١٩٤٤ تعليمات مشددة وواضحة الى اتباعه تتضمن :

« محظور عليكم رفع ايديكم أو استخدام السلاح فى وجه الشـــباب العبرانى ، لانهم اخواننا وغير مسئولين عما يحدث ، كما انهم يخضعون لتوجيه خاطىء للتحريض .ولكن سيأتى اليوم الذى سيدركون فيه خطاهم فيقفوا الى جانبنافىوجه المغاصب الاجنبى.ان سلوككم هو سلوك الوطنيين الذين لايحيدون عن هدفهم ، وهذا سيساعد على زيادة سرعة انفصالهم عن الذين يستغلونهم ويثيرونهم ضدنا ، وعندئذ سيحظى المحرضون تماما بعكس ما كانوا يسعون اليه . ولن تكون هناك حرب بين الاشقاء ، وسيأتى اليوم الذى سيهب فيه الشعب .. رغما عن اولئك الذين يضعون العراقيل .. ليقف صفا واحدا ، وهذا هو المهم .. ان هذا هو السبيل الوحيد لانقاذ يهود فلسطين من الحرب بين الاشقاء ، ولانقاذ البلاد من الخراب ، وللحفاظ على نقاء رايتنا ونزاهـــة سلاحنا ، ولرفع اسرائيل عاليا فى نظر الغرباء . وهذا أيضا ـــ صدقونى ـــ هو الطريق الى النصر » .

ووافقت قيادة الارجون على مضض . وربما تكون معرفة زملاء «بيجين» ان قيام حرب سافرة بين « الارجون » و « الهاجاناه « الاكثر عددا وعتـــادا سينتهى بلا أدنى شك بدمار منظمة الارجون ـ ربما تكون هذه المعرفة قد أثرت أيضا على استمالتهم الى الموافقة · بيد أن العامل الاساسى الذى حسم الموقف تمثل فى النفوذ الفريد الذى يتمتع به القائد . وكانت النتيجة أن ســــــاد الانضباط ولم يرد أعضاء « الارجون » على أى محاولات استفزازية · ويعترف « يعقوب أمرامى » الذى كان قد اعترض على سياسة ضبط النفس ، « بأن الايام أثبتت فى النهاية أن » بيجين » كان على حق · فبعد مضى ثمانية أشهر من ذلك الحين ، انضمت قوات « الهاجاناه » الينا فى القتــــال ضــــــد البريطانيين ·

واسفرت حملة المطاردة عن توجيه ضربة خطيرة للارجون ولكنها لم تكن قاضية .فقد عاد« الياهو جولوم » ـــ المؤرخ الرسمى للهاجاناه ـــ ونقض فيما بعد قوله السابق بأن « موسم الصيد » قد كسر شوكتهم نهائيا » . وفى الواقع فان « الارجون » و « عصابة شتيرن » ظلتا مشلولتى الحركة طوال السبعة اشهر الأخيرة من الحرب العالمية الثانية . وقد تجنب الشتيرنيون قسوة «موسم الصيد»بأن اوقفوا تلقائيا عملياتهم بعد اغتيال اللورد «موين».واعترف«يعقوب مريدور » ، الذى تم اعتقاله فى خريف عام ١٩٤٥ وترحيله الى شرق افريقيا قائلا باستثناء توزيع المنشورات فاننا لم نقم بأية عمليات خطيرة » · ولكن

« بيجين » استطاع أن يراوغ « الصيادين » وسرعان ما وجدت « الارجون » قادة جدد من الشباب ليحلوا محل أولئك الذين كادوا يقعون فى الأسر .

وكسبت « الارجون » فى الوقت ذاته ، تعاطف الرأى العام اليهـــودى فى فلسطين نحو تجنب الانتقام . ولم يستسغ أعضـــاء « الهاجاناه » كثيرا عملية المطاردة لدرجة أن التقارير الرسمية تعلن ان الذين شاركوا فى « موسم الصيد » كانوا من المتطوعين الذين لبوا نداء القيادة الوطنية . وأكد « موشيه سنيه » فيما بعد أنها لم تكن بأى حال من الاحوال حملة نفذتها «قوات الهاجاناة» ويقول « سنيه » عن ذلك :

« لم تتخذ مطلقا أى مؤسسة تابعة للهاجاناه أى قرار بشـــأن حملة المطاردة ، كما لم يصدر أى قرار الى أى مؤسسة للهاجاناه » بتنفيذ المطاردة لقد طرحت اللجنة التنفيذية العليا الموضوع على لجنة العمل الصهيونية حيث تم اتخاذ القرار ، ثم عرض الموضوع بعد ذلك على مجلس الهستدروت الذى أصدر قرارا فى هذا الشأن . ولم تأخذ « الهاجاناه » المسألة على عاتقها . بل كان هناك أفراد تم تجنيدهم على أساس شخصى لتنفيذ « المطاردة » . ولم يحدث مطلقا ان ناقش مجلس الهاجاناه ، هذه المسألة أو تلقى أمرا فى هذا الصدد أو اصدر أمرا بشأنه .

وقد أعرب « سنيه » عن أسفه ازاء التعاون مع البريطانيين ووصفه بأنه كان بمثابة « خطأ فادح » . ومع ذلك فقد قبله فى جبينه . ويزعم نائبــه . « يسرائيل جاليلى » ، انه هو نفسه عارض تسليم المنشقين الى المباحث البريطانية . وكانت المشكلة التى تواجهها « الهاجاناه » هى انها لم تكن تملك الجهاز القضائى أو التحكيمى اللازم للتعامل معهم بنفسها . ووفقا لأقوال « جاليلى » فان السبب الرئيسى الذى منع تعبئة « الهاجاناه » ، ككيان مستقل فى هذه العملية هو ان مبادئها الاساسية تنص على انها كيان عالمى فالهاجاناه لم تكن « الجيش الاحمر » لحركة العمل ، بل كانت قوات الدفاع عن يهـود فلســطين . وكانت المؤسســـة المتحكمـــة فى « الهاجاناه » تتيح ولـــو من حيث المبدأ على الأقل ، فرصا متكافئة لكل من حركة العمل والأحزاب الصهيونية اليمينية وأحزاب الوسط . وكان موقف شركاء « حركة العمل » من «الارجون» و « عصابة شتيرن » متكافئا على أحسن تقدير . ولم يكن « بن — جوريون » راغبا فى أن يخسر ولاء هؤلاء الشركاء .

ولكن ، من الناحية العملية فان الهاجاناه وقوتها الضاربة التى تعرف باسم « البالماخ » هما اللذان نفذا حملة المطاردة . وقد اعترف أحد الاعضـــاء العاديين ممن تكلموا فى الندوة التى عقدت عام ١٩٦٦ حول هذه المسألة والتى تكلم أمامها أيضا « سنيه » أن الاوامر صدرت اليه ووحدته فى «ريحون صهيون»

من قائده المباشر بتنفيذ عملية المطاردة ضد احد أفراد الحركات السرية ثم ضربه ٠ ولابد أن هذا هو نفس ما حدث فى أماكن أخرى ، على الرغم من الفروق الدقيقة على السياسات الائتلافية الصهيونية .

وانتهى « موسم المطاردة » أو « الصيد » ، بانتهاء الحرب فى أوروبا واقتراب موعد الانتخابات البريطانية ، وأصيبت القيادة الرسمية بخيبة الامل ازاء عدم ابداء تشرشل أى ميل الى مكافأة اليهود على مساعداتهم ٠ وتقول السجلات التاريخية للهاجاناه بمنتهى الوضوح والصراحة : « الاجراء الذى اتخذ ضد المنشقين كان من وجهة نظر اعضاء الهاجاناه ضرورة مريرة ومؤسفة ٠ وظلت الكراهية التى سادت بين الأشقاء خلال تلك الأيام البائسة ، راسخة لفترة طويلة بعد ذلك فى صميم « الييشوف » ٠ أما « مناحم بيجين » فهو لم يغفر ولن ينسى أبدا ٠

الفصـــل السابع

ماساة الاخطاء

لقد كان عام ١٩٤٥ بالنسبة « لمناحم بيجين » هـــو العام الذى أثبت صحة توقعاته . فقد أحبط البريطانيون ـ فى ظل الحكومات المحافظة والعمالية على السواء ـ آمال رجال من أمثال « وايزمان » و « بن جوريون » ، ممن كانوا لايزالون يأملون فى امكانية التوصل الى حل سياسى ويسدون آذانهم عن سماع ضجيج المطالبة باقامة دولة يهودية فى فلسطين . وثبت أن شكوك « بيجين » كان لها أساس من الصحة تماما . ونتيجة لهـــذا ، تحققت نبوءة أخرى من نبوءاته ، تتعلق « بالهاجاناه » . وهذه النبوءة كانت قد أثارت أزمة الثقة الوحيدة التى تعرض لها أثناء توليه قيادة منظمة « ارجون زفاى ليومى » . فقد اقترحت « الهاجاناه » اقامـــة جبهة مشتركة مع منظمـــة « ارجون » و « عصابة شتيرن » أى شن حملة متحدة للمقاومة الايجابيـــة ضد الحكم البريطانى .

وبدات بريطانيا تتكيف بانتهاء الحرب فى أوروبا ، مع حقيقة انهـــا لم تعد قوة عالمية مهيمنة . فاقتصادها مجهد نتيجة للحرب التى استمرت ستة أعوام . وبمجرد أن فترت نشوة النصر ، بدا عالم ١٩٤٥ مختلفا عن العالم فى سنة ١٩٣٩ ، وان لم يكن اقل خطورة منه . ومهما يكن القرار الذى تتخذه بريطانيا بشأن ادعاءات اليهود والعرب المتناقضة بشأن فلسطين ، فان القادة البريطانيين لايمكن ان يتجاهلوا تأثير هذا القرار الذى يتخذونه على علاقات بريطانيا مـــع الولايات المتحـــدة والاتحـــاد الســـوفييتى والدول العـــربية والاسلامية ، أو مع مصادرها التقليدية للبترول فى الخليج والعراق . وكانت الرياح المعاكسة قد بدأت تهب ضد اتخاذ قرار بحل بسيط للمشكلة موال للصهيونية ، حتى قبل الانتخابات العامة فى يوليو . فان تعاطف « وينستون تشرشل » تجاه القضية اليهودية لم يكن راسخا فى أحسن الاحوال . وأدى اغتيال اللورد « موين » الى تحييد هذا التعاطف . ولذلك فلم يعترض عندما قدم وزير خارجيته « انتونى ايدن » ، النصح لمجلس الوزراء قائلا : « اذا خسرنا الصداقة العربية ، فان الامريكيين والروس سيســـارعون للاســـتفادة من اخطائنا » .

الا أن معظم الزعماء الصهيونيين ظلوا واثقين من أن الاحتمالات ستكون أفضل لو تولى العمال السلطة . فقد تعهد الحزب فى المؤتمر الذى عقده فى ديسمبر عام ١٩٤٤ «ببلاكبول» ، بأنه سوف يلغى القيود التى فرضها الكتاب

الابيض لعام ١٩٣٩ على الهجرة اليهودية الى فلسطين كما أنه سوف يؤيد انشاء وطن قومى لليهود هناك . ولكن الحزب بدأ يتراجع عن تعهداته خلال أسابيع قليلة من وصوله الى الحكم . حيث قامت وزارة المستعمرات بابلاغ « حاييم وايزمان » فى ٢٥ أغسطس بأنه لن تحدث أية زيادة فى حصة الهجرة التى تصل الى ألف وخمسمائة مهاجر يهودى شهريا . ولقد كان هذا القرار ضربة فادحة اصابت النفوذ الشخصى « لوايزمان » بصفته نصير اجراء حوار مع البريطانيين ، كما أصابت حركة العمل الصهيونية فى فلسطين ، التى راهنت بالكثير على العلاقة الخاصة التى تربطها بحزب العمال البريطانى . وجاءت نقطة التحول المباشرة فى تلك العلاقات عندما وقع اختيار « كليمنت آتلى » على « ايرنست بيفن » ، الزعيم النقابى العمالى ووزير العمل ابان الحرب ، ليكون وزير خارجيته بدلا من « هيو دالتون » ، ذو الميول الصهيونية . ولكن ربما ما كانت السياسة البريطانية قد تغيرت لو كان الاختيار قد وقع على « دالتون » فيما عدا أن وزارة الخارجية كانت ستجد صعوبة أكبر فى اقناعه بالتخلى عن برنامج الحزب المعلن قبل الانتخابات .

وكان « دالتون » ، الذى أصبح وزيرا للخزانة ، مدافعا متحمسا عن القضية الصهيونية . ولم يكن « بيفن » حديث العهد بشئون السياسة الخارجية ، كما كان يسود الاعتقاد العام ، كما لم يكن رجلا يتصرف بدافع من عواطفه بدلا من عقله . فقد كان ضليعا فى الاوضاع العالمية وكان قد درس جيدا وضع بريطانيا فى العالم . وكان الصهيونيون يعتبرونه خلال الثلاثينات حليفا لهم . حشد جهوده أثناء اشتراكه فى حكومة «تشرشل» الائتلافية من أجل تعبئة القوة العاملة لصالح المجهود الحربى . ويشك « هارولد بيلى » الذى كان مستشاره الاول فى وزارة الخارجية لشئون الشرق الاوسط ، أن يكون لدى «بيفن» علم بقرار « بلاكبول » ويقول : لقد تم التخلى عن سياسة الحزب منذ البداية . وكنت أحيانا أتساءل عما اذا كان « بيفن » ، يدرى شيئا عنها . أما عن وجهات نظر أولئك الزملاء الذين كانوا مهتمين بمثل هذا القرار ، من أمثال « دالتون » ، و « كريبس » ، فان « بيفن » كان يرفضها بشدة لانه كان يعرف أنهما يخضعان لمحاولات قوية من جانب الصهاينة للتأثير عليهما » .

ومر « بيفن » بمرحلة « امتصاص » من جانب وزارة الخارجية التى قامت بمنحه فكرة موجزة عن الموضوع وأقنعته بأن الصهيونية مجحفة بالعرب وضارة بالنسبة لبريطانيا ، وأن اقامة دولة يهودية عند « نقطة التقاء » مواصلات بريطانيا مع الهند واستراليا والشرق الاقصى ، فضلا عن مواصلاتها مع مصدر البترول الرئيسى الذى يغذى الامبراطورية من شأنه أن يعرضها جميعا للخطر وحاول وزير الخارجية ان يسلك طريقا وسطا يجمع بين ترضية العرب، وعدم اغضاب الأمريكيين . ولم يندهش « مناحم بيجين » لعدم تعاطف «بيفن»

ازاء مأساة اليهود الأوروبيين الناجين من الحرب أو لعـــــدم استجابته لحجج الصهاينة الذين يحاولون التأثير عليه من وراء الستار . فلقد كان يتوقع كل هذا منذ البداية ويؤمن بأن على اليهود ، اذا كانوا يريدون الحصـــول على دولة الاستيلاء عليها بأنفسهم .

ومع هذا ، اذا أراد المرء أن يصدق شهادة « بيلى » وغيره ، وأن يعتقد أن « بيفن » لم يكن يحمل مشاعر معادية للسامية ، فانه يصعب عليه أن يفهم مدى عدم احساس البريطانيين بالمعاناة اليهودية . وقد شعر « بيفن » ، و « واتلى » ، بالضيق ازاء الضغوط الامريكية التى اعتبروها نتيجة لاثارة المشاعر فى الداخل بدون وجه حق ضد الرئيس « هارى ترومان » . وقد ضاعف من هذا الضيق أحجام « ترومان » عن المشاركة فى الاعباء المالية والعسكرية الناجمة عن فرض أى حل للمشكلة الفلسطينية . وكان البريطانيون أيضا يشعرون بقلق ازاء تاثير اتخاذ قرار موال للصهيونية ، على تسعين مليون مسلم فى الهند ، ولم يكن قد تحدد مصيرهم بعد ، وعلى الاطماع السوفييتية فى تركيا واليونان وايران . وفضلا عن هذا فان العسكريين البريطانيين فى فلسطين ذاتها ، كانوا يحذرون رؤساءهم من صحوة عربية جديدة . ويقـــول المدافعون عن سياسة « بيفن » انها كانت تهدف مصلحة بريطانيا أكثر من مصلحة العرب . بيد أن هذا كله لا يفسر لنا السبب فى اغماض زعماء حزب العمل اعينهم عن ادعاء الصهيونيين بأن يهود أوروبا جديرون بصفة خاصة بتعاطفهم معهم ، ان لم يكن وقوفهم بضمائرهم معهم وان فلسطين هى الملاذ الطبيعى للاجئين .

ويؤكد « بيلى » أن « بيفن » كان يشعر بأنه يتعرض للضغوط الامريكية من جهة ، كما يتعرض زملاءه فى مجلس الوزراء لمحاولات التاثير عليهم من جانب المنظمة الصهيونية فى بريطانيا العظمى من جهة أخرى . وكان يرفض كل هذا بشـــــدة » .

ومهما كان من حسن النوايا التى انطوت عليها سياسته ، فان هذا الشعور بالاستياء الذى سيطر على وزير الخارجية دفعه للادلاء بتصريحات لم يكن لها تأثير طيب سواء بالنسبة للمصلحة البريطانية أو سمعته الشخصية . فقد كان ينظر الى العالم من منظور بريطانى ديمقراطى اشتراكى . فهو يرى أن بريطانيا دخلت الحرب من أجل تأمين أوروبا لمصلحة الديمقراطية . وأصبح اليهوديستطيعون العودة ، كغيرهم ، لاستئناف حياتهم العادية ، بعد أن تم القضاء على « هتلر » . ولم يكن يدرك مدى عمق الشعور بالصدمة الذى يسيطر على اليهود . فلقد كانوا ضحايا برنامج ابادة شاملة كاد أن ينجح حيث هلك ستة ملايين يهودى لا لأى ذنب اقترفوه سوى انهم يهود .

وقال « بيفن » : صحيح انهم تعرضوا لافظع المذابح وعمليات الاضطهاد ولكن التجـــربة انتهت ونجـــا عدد منهم . ويجب الآن اغاثتهم ومساعدتهم

ومعاونتهم على العودة للاستقرار فى المانيا ، والتغلب على المخاوف والتوترات الناجمة عن مثل هذه التجربة .

ثم قام وزير الخارجية ، بعد ذلك ، باقتباس عبارة قالها « اتلى » دون ان تلفت نظر أحد . فقال ان اللاجئين اليهـود فى أوروبا ، يجب الا يحاولوا « الضغط من اجل الوصول الى مقدمة الطابور » . وأعلن ان بريطانيـا لم تعدهم بدولـة يهودية فى فلسـطين وانمـا وعدتهم بوطن قـومى . وأكد « أن الفرصة لازالت سانحة لتحقيق هذا طالما كان هناك اعتراف بأن عبء انقاذ الشعب اليهودى لا يجب أن يقع على فلسطين وحدها . وكانت الاساءة الاخيرة التى ارتكبها وزير الخارجية هى مهاجمته أمريكا أثناء انعقاد مؤتمر حزب العمال فى « بورنماوث » خلال شهر يونيو التالى ، بسبب مطالبتها فتح فلسطين أمام هجـرة ١٠٠ الف يهودى : « ارجو الا يساء فهمى فى أمريـكا لو قلت انها تقدمت بهذا المطلب بنية صافية تماما . فأنا أعرف انهم لا يريدون فى نيويورك وجود أعداد كبيرة من اليهود عندهم » . ولم يكن هناك اى لبس فى فهم المغزى من كلامه .

لقد كانت بريطانيا تواجه مهمة مستحيلة . فقد اقنعت وزارة الخارجية « اتلى » و « بيفن » بانتهاج سياسة تقوم على تعليق مسألة فلسـطين . بيد ان ديناميكيات الواقع جعلت ذلك أمرا مستحيلا . فان اليهود الذين صدموا عندما انكشفت لهم فظائع « بيلسين » و « أوشفيتز » ، سيطرت عليهم حالة من اليأس القاتل . وأمام عدم الاكتراث البريطانى بمأساتهم ، تضاءل الأمل فى أن يختار يهود فلسطين ويهود العالم ، انتهاج سياسة معتدلة . وفى الوقت ذاته بدأ صوت العـرب فى فلسطين يرتفع بعد أن ظلوا فى سبات لمدة خمسة أعوام . وبدأ مديرو وزارة الخارجية يشعرون أن الأمور تزداد تعقيدا بصورة تفوق امكانياتهم على معالجتها .

كان « بن جوريون » ، الزعيم المنتخب « للييشوف » (يهود فلسطين) يشعر دائما بقدر أكبر من عدم الثقة فى النوايا البريطانية من « حاييم وايزمان » الرئيس المتقدم فى العمر للحركة الصهيونية العالمية . وقد كتب « بن جوريون » سطرا واحدا فى مذكراته بعد أن تجول فى شوارع لندن المدمرة نتيجة للغارات ، ولكن كان يسودها فى ذات الوقت الشعور بالابتهاج العارم حيث أن ذلك كان هو يوم ٨ مايو سنة ١٩٤٥ ، أى يوم النصر . سجل « بن جوريون » بمذكراته فى ذلك اليوم سطرا واحدا يقول : « يوم النصر — يـوم حزين ، حزين » . فاليهود لم يكونوا قد كسبوا الحرب .لقد قتل منهم ستة ملايين ، ومازال أمامهم أن يدخلوا معركة للحصول على دولة — وبنهاية شـهر سبتمبر أصبح « بن جوريون » واثقا من أن الوسائل الدبلوماسية قد وصلت الى طريق مسدود . فأخذ تقل الطائرة من لندن واتجه الى باريس . وفى أول أكتوبر بعث من هناك

ببرقية مكتوبة بالرموز ، الى « موشيه سنيه » قائد الهاجاناه ، تأمره بتنظيم تمرد مسلح ضد بريطانيا . وقد أصدر « بن جوريون » الامر على مسئوليته الشخصية ، دون اخطار « وايزمان » وكانت معارضة « بن جوريون » لاستخدام العنف بمثابة سياسة مرحلية منها مبدئية . ويقول كاتب سيرة « بن جوريون » أن هذه البرقية تجاوزت كل ما كان قد أعلنه من قبل أمام زملائه فى لندن :

« لم يحاول «بن جوريون» ايهام نفسه بأن النضال المسلح يمكن أن يؤدى الى اخراج بريطانيا من فلسطين ، وانما كان يأمل فقط فى أن يؤدى الى اثارة موجة من التعاطف العميق بين الرأى العام العالمى تدفع بريطانيا الى تغيير سياستها . ولذلك فقد أعلن فى مؤتمر صحفى عقده بباريس ، وهو يضع هذا الهدف نصب عينيه أن « تصرفات الحكومة البريطانية تعتبر مواصلة لسياسة هتلر العدائية » .

وكانت أول مشكلة واجهها « سنيه » فى فلسطين هى كيفية الاتصـــال « ببيجين » . فان حملة المطاردة (أو السيزون) لم تكن قد انتهت تماما الا بالكاد . كما أن الاتصال بينهما كان قد انقطع منذ حوالى عام . وقرر « سنيه » أن يبدأ اتصالاته من خلال « عصابة شتيرن » . وتولى « ناثان يلين — مور » الذى كان قد نجح فى حماية « الشتيرنيين » من اخطار حملة المطاردة بانتهاج سياسة تنطوى على مزيج من الرضوخ والتهديد — تولى مهمة تسليم الدعوة لبيجين ، الذى اسعده كثيرا ان « بن جوريون » قد بدأ اخيرا يتكلم ويتصرف مثله وأعرب قائد الارجون عن استعداده للتعاون — ولكن كالمعتاد ، بناء على شروطه هو . فقد رفض « بيجين » على الفور ، أثناء اجتماع سرى ضم كلا من « سنيه » و « يسرائيل جاليلى » من الهاجاناه ، و « يلين — مور » من « عصابة شتيرن » ، اقتراحا بحل الجماعتين المنشـــقين وانضمامهما الى « الهاجاناه » .

وقال « بيجين » : اننا نحتاج الى قيام جبهة مشتركـــة فى مواجهـــه البريطانيين . وطالما التزمت « الهاجاناه » بالقتال ، فان الجبهة المشـــتركة ستكون قائمة . ولكن اذا تخلت « الهاجاناه » عن الحملة العسكرية ضـــد البريطانيين ، فاننا سنواصلها .

وكان « بيجين » مدركا مدى تعقيد موقف « الهاجاناه » . فانها كـــانت بمثابة قوات الدفاع التابعة للوكالة اليهودية ، التى تعتبر قانونا الممثل المنتخب « للييشوف » . فاذا مارست « الهاجاناه » اعمالا غير مشروعة ، فانهـــا تعرض بذلك المكانة القانونية للمنظمة الام للخطر وستضطر « الوكالة اليهودية » الى أن تختار ، فى وقت ما ، بين الانحراف الى العمل السرى او اعادة تأكيد شرعيتها عن طريق اجبار « الهاجاناه » على الالتزام بالقانون . أما بالنســـبة « لبيجين » فانه كان يرى أن قوة موقف الارجون تكمن فى انها تعتبر اصـــلا

منظمة عمل سرى ولم يسبق لها أن ادعت غير هذا مطلقا . ولقد أوضح منذ البداية أن « الارجون » ستواصل القتال حتى خروج البريطانيين من أرض اسرائيل ، مهما بلغ أمد الحرب » .

واقر « سنيه » و « جاليلى » منطق « بيجين » ، ولكنهما اصرا على ضرورة أن تصبح « الهاجاناه » الشريك الاكبر فيما اصبح يعرف باسم « حركة المقاومة العبرانية » . ووفقا « لجاليلى » ، تم التوصل الى تفاهم دون المساس بكرامة الشريكين الاصغر :

« لم تكن القضية هى ان يعلنا صراحة » اننا نعترف بسلطة الهاجاناه » ولكن ان يكون من الواضح للجميع باننا نتمتع بحق الاعتراف (أو الفيتو) . وبمعنى آخر الا يقوم اى احد بأى عملية الا فى حدود الموافقة الضمنية عليها . وكان الهدف هو منعهم من القيام بأعمال نعتبرها ضارة ، سواء كان ذلك من وجهة نظر التوقيت السياسى أو من حيث الخطة العملية . ولقد كان من المهم بصفة خاصة منع تنفيذ العمليات الخطيرة التى قد تؤدى الى أن تتسبب منظمة ما فى تعثر منظمة اخرى » .

واعترف كل من « بيجين » و « شمول كاتز » المسئول الاول عن الدعاية فى « الارجون » ، بتمتع « الهاجاناه » بسلطة الاعتراض ، غير ان المنشقين تمسكوا بحقهم فى حرية سرقة الاسلحة من البريطانيين و « مصادرة » الاموال من اماكن اخرى . وقد اظهر الهجوم الذى وقع على فندق « الملك داوود » فى يوليو ١٩٤٦ مدى ضعف قبضة الشريك الاكبر . فكان « بيجين » ، اذا لم يقتنع بالمنطق وراء قرار اتخذته « الهاجاناه » يشعر بأن له مطلق حرية التصرف وفقا لتقديره الشخصى . وكانت المشكلة هى عدم وجود قدر كبير من الثقة المتبادلة بين الجماعات التى تشكل الجبهة المشتركة ، بالرغم مما كان لهذه الجبهة من تاثير بالغ فقد استمرت الشكوك القديمة قائمة ، ولم يكن هناك احساس بدوام التعايش السلمى بين هذه الجماعات ، ناهيك عن التزاوج بينها . فلم ينس ، مثلا أعضاء « الهاجاناه » و « عصابة شتيرن » ، السنوات الاولى من فترة الاربعينيات عندما كانت منظمة « الارجون » ، وقبل عهد « بيجين » ، تتعاون مع البريطانيين ، فتشى بالشتيرنيين . أما « الارجون » و « الشتيرنيون » فلم ينسوا موسم « المطاردة » .

ويقول « جاليلى » :

« لم يكن هناك ما يدعو للاعتماد على الارجون .. ولا نقصد « بيجين » شخصيا ، لاسمح الله ، فانه شخص نستطيع الاعتماد عليه . ولكنه كان رجلا يتاثر كثيرا بمن يعملون معه ، خاصة اذا حاولوا أن يشرحوا له الامور بمنطق فنى او عملى . ولكننا لم نكن نعلم من هم بطانته كما أن احدا لم يكن يعرف من

هم بطانتى . فما كان فى وسع المرء أن يعرف المحرضين مسبقا ، ولكن فقط بعد أن يقوموا بالتحريض ، ومن المستحيل ان تعرف قبل ذلك . قد تظن أن هؤلاء اليهود لا يثقون فى بعض ويخافون بعضهم البعض . نعم ، ان هذا حقيقى » .

واستمرت الخلافات الايديولوجية والتكتيكية ، وأن كان العائق الخاص بعدم محاربة البريطانيين اثناء مقاتلتهم « لهتلر » ، قد أصبح غير ذى موضوع فالهاجاناه ، كانت أكثر تدقيقا من الارجون فيما يتعلق بمسألة الاعتداء على الارواح فى حين كانت « الارجون » بدورها تعترض على أسلوب « عصابة شتيرن » فى استغلال الاغتيالات كسلاح مشروع . وكانت « الهاجاناه » تتطلع دائما نحو القيادة السياسية المنظورة . وكانت تحرص على تبرير عملياتها سواء على أساس كونها ردا يتناسب وحجم الاستفزاز البريطانى أو انها جزء من الهدف الاخر لمقاومتها السرية ، الا وهو الهجرة غير المشروعة . فمثلا ، قامت قوة من « الهاجاناه » بقيادة « اسحاق رابين » باطلاق سراح ٢٠٨ يهود من احد معسكرات الاعتقال البريطانية فى « اتليت » ، جنوب حيفا ، وذلك فى ١٠ أكتوبر من عام ١٩٤٥ ، أى قبل ابرام اتفاق « المقاومة العبرانية » . وكانت اهدافها المفضلة هى الهجوم على نقط المواصلات ، خاصة السكك الحديدية ومراكز خفر السواحل .

ومع هذا فقد عملت « حركة المقاومة العبرانية » ، منذ اكتوبر عام ١٩٤٥ حتى شهر يوليو عام ١٩٤٦ ، بقدر معقول من التنسيق . وقد تدمرت الجبهة بسبب كارثة الهجوم على فندق « الملك داوود » ضمن أمور أخرى . ووفقا لاقوال « بيجين » فان أسعد أيام حياته كانت هى أيام وحدة العمل بين المنظمات الثلاث . اذ أن احلامه باقامة جبهة مشتركة لم تتحقق خلالها فحسب ، بل انه ورجاله لم يعودوا يعتبرون خارجين على القانون . لقد ظل طوال أربعين عاما يفرق فى التعريف بين « الارهابيين » و « المقاتلين من أجل الحرية » . ولم يكن ليرضى ان يضحى بالمبادىء فى سبيل الاحتفاظ بمظهر الاحترام ، ولكنه كان يشعر براحة أكبر عندما كان يستطيع التوفيق بين الامرين :

« لم يكن هناك اعتراف رسمى بنا فى عهد « حركة المقاومة » ، ولكننا مع ذلك كنا نتمتع بالاعتراف . ورفع من على كاهلنا جزء من المسئولية — حتى لو كان ذلك جزءا ضئيلا فقط . والشعب كله كان يقف وراءنا » .

هذا ، وقد وجهت « حركة المقاومة العبرانية » ضربتها الاولى ابان ليلة ٣١ أكتوبر والاول من نوفمبر سنة ١٩٤٥ . وأسفرت الهجمات عن نجاح « البالماخ » فى اغراق ٣ زوارق دورية شرطة فى حيفا ، ويافا ، ونجحت الهاجاناه فى نسف الخطوط الحديدية عند ١٥٣ نقطة فى جميع انحاء فلسطين واصابة منشآت السكك الحديدية فى القدس وتل أبيب بالاضرار . بينما نجحت

« الارجون » فى تدمير قاطرة واصابة ست قاطرات اخرى باضرار وذلك فى غارة جريئة على رصيف البضائع ومحطة « اللد » . وكانت عصابة « شتيرن » هى الوحيدة التى فشلت فى تحقيق أهدافها الطموحة للغاية ، فقد انفجرت شحنة ناسفة قبل الاوان وقبل النجاح فى غرسها بخزان للبترول فى معمل التكرير بحيفا ، وشنت « الارجون » و « شتيرن » طوال فترة الشتاء ، وفى اطار بنود الاتفاقية ، غارات على الشرطة البريطانية وعلى منشآت الجيش والطيران بحثا عن الاسلحة . وقد خسر البريطانيون فى احدى الليالى وبالتحديد فى ٢٧ ديسمبر عشرة قتلى واثنى عشر جريحا . واستؤنف الهجوم المشترك مرة اخرى فى ٢٥ فبراير عندما نجحت « منظمة الارجون » فى تدمير حوالى عشرين طائرة من السلاح الجوى الملكى البريطانى وهى مرابطة فى مطارات اللد » و « قصطينا و « كفر سركين » ، مما اسفر عن خسائر يتراوح تقديرها ما بين ٧٥٠ الف جنيه استرلينى ومليونين من الجنيهات الاسترلينية . واستمرت الغارات على السكك الحديدية والشرطة طوال شهر مارس ، ونجحت « عصابة شتيرن » فى ليلة ٢٦ ابريل فى اثارة غضب البريطانيين وحنقهم الى أقصى حد ، عندما قامت باغتيال ستة جنود مظليون وهم نائمون على أسرتهم بمعسكر فى تل ابيب . كما اصيب اربعة آخرون بجراح . واعلن الليفتنانت جنرال « جون دارسى » القائد العام للقوات ، فى تقريره الذى رفعه الى رئيس الاركان فى لندن ، انه لن يتمكن من السيطرة على رجاله اذا وقعت هجمات مماثلة اخرى عليهم ، وبخاصة أن بعضهم قد اتجهوا فى حالة هياج شديد الى شوارع « نيتانيا » . وشنت « المقاومة العبرانية » آخر عملياتها خلال شهر يونيو ، حيث تسببت « الارجون » فى الحاق خسائر قيمتها مائة الف جنيه استرلينى فى مخزن عربات السكك الحديدية ، ونسفت فرق المتفجرات التابعة للبالماخ « عشرة طرق ومعابر جديدة من بين الاحدى عشر طريقا ومعبرا التى تربط فلسطين بجيرانها . بيد أن « عصابة شتيرن » أصيبت بخسارة فادحة أخرى عندما قتل احدى عشر من رجالها وأسر عشرون منهم فى طريق عودتهم من غارتهم على ورش السكك الحديدية فى حيفا .

وكان لدى البريطانيين عام ١٩٤٦ ، ثمانين ألف جندى وعشرين ألف شرطى مرابطين فى فلسطين التى لم يزد عدد اليهود فيها عن ستمائة الف نسمة تقريبا . ومع ذلك فلم يستطع البريطانيون ان يردوا على حملة التخريب والارهاب التى قادها خمسة آلاف أو نحوها من مقاتلى « حركة المقاومة العبرانية » ولقد كتب « جيه . بوبربيل » يقول فى الدراسة التى اجراها حول « الارجون » و « عصابة شترين » : » : لقد أصبح الانتداب بمثابة دولةعسكرية تخضع لحالة حصار مستديم وعلى الرغم من حجم الحامية ، ومعداتها ، وعزيمتها فانها عديمة الفعالية ، تهزم نفسها بنفسها » . وكانت الفرقة السادسة المحمولة جوا تشكل القوة البريطانية الرئيسية ، ولكن لم يكن لافرادها من

المحاربين القدامى فى (« نورماندى » و « آرنهيم » من ذوى « البيريهـــات الحمراء » ، أى خبرة بكيفية التعامل مع العصابات الذين يختفون داخل المدن المزدحمة التي تزودهم بملاذ ملائم تماما . وكان الجيش عاجزا عن الحركة ، فلم يكن من المتصور شن حرب شاملة ضد يهود فلسطين . فى أعقاب تعرضـــهم للإبادة الجماعية أو (الهلوكوست) • وعلى أى الحالات فان الامريكيين ما كانوا سيسكتون على ذلك . واستمر الجدل يدور فى حلقةمفرغة : فالادارة فى القدس كانت ترى أن الحل الوحيد هو التسوية السياسية . وايد الجيش هذا الرأى ، ولكنه لم يكن مستعدا لان يتعرض لتمريغ أنفه فى التراب ، حتى يتم التوصل الى مثلك تلك التسوية واستطاع مارشال « بيرناردى مونتجمرى » ، رئيس الاركان العامة للقوات الامبريالية ، أن يقنع مجلس الوزراء بالتحرك وذلك بعد « ليلة الجسور » ، وقيام الارجون باختطاف خمسة ضباط بريطانيين من احـــد أندية تل ابيب كرهائن حتى يتم إطلاق سراح اثنين من رجالها محكوم عليهما بالاعدام . وقال بعد ان زار فلسطين ان الجيش مستعد تماما لشــــــن « حرب ضد هذا العدو المتطرف الماكر » • واكد مجلس الوزراء أنه لم يعد يستطيع السكوت على وضع انخفضت فيه سلطة الحكومة الى الحضيض • وقد ادرك البريطانيون بذلك الوقت ، أن العدو لم يعد هو مجرد شرزمة القاتلين التابعين « للارجون » عصابة شتيرن » • وصدرت التعليمات الى الســــير « آلن كاننجهام » ، المندوب السامي البريطاني ، تفوضه بســـــحق » العناصر الاكـــثر تطرفا » داخل الوكالة اليهودية ، الذين كان من المعتقد انهم يدبرون الحملة الارهابية من خلال « الهاجاناه ».

وبدأ البريطانيون يوم ٢٩ يونيو ١٩٤٦ فى تنفيذ العملية التى أطـــلق البريطانيون عليها اسم « عملية اجاثا » بينما وصفها اليهود « بالســـبت «الاسود » وتم تعبئة كل الجنود ورجال الشرطه الموجودين من أجل اقتحام مقر رئاسة الوكالة اليهودية ومكاتبها الاخرى فى القدس وخمس وعشرين مستعمرة فى اماكن متفرقة من البلاد ، وتم اعتقال ٢٧١٨ يهوديا من بينهم شخصيات بارزة « موشـــيه شـــارت » ، « والحاخام » يهـــودا لوب شـــمان » ، وعثر على ترسانة اسلحة تابعة للهاجاناه فى كيبوتز ياجور ، والى جنوب شرق حيفا . وفرض حظرالتجول فى المناطق اليهودية بفلسطين . ومع هذا فان العملية لم تحقق النجاح الساحق الذى كان — مونتجمرى — يسعى اليه . فان اهم شخصية ، وهى بن جوريون ، كانت موجودة فى باريس بعيدا عن مناله . واحتمى « موشيه سنيه » ، قائد « الهاجاناه » بعد أن وصله تحذير فى اللحظة الاخيرة • ونجح نائباه « يسرائيل جالليلى » و ، « اسحاق سده » : مؤسسى « البالماخ » ، فى أن يتواريا عن الانظار ، بينما ظلت منظمة « الارجـــون » و « عصابة شتيرن » دون مساس وقد كانت هذه واحدة من المرات الوحيدة التى لم يأسف فيها « بيجين » على افتقار المنشقين الى قواعد ريفيـــــة فى

« الكيبوتزات » و « الموشيفات » ـ أي القرى الجماعية والتعاونية التابعة لحركة العمل . فلم يستطع البريطانيون العثور على مخابئهم . وكان الفشل الاساسى « ليوم السبت الاسود » هو انه لم ينجح فى ذاته فى دفع « وايزمان » وغيره من المعتدلين الى تشكيل قيادة بديلة ، كما انه لم ينجح فى تقويض وحدة « حركة المقاومة » . وساد معظم يهود فلسطين شعور بضرورة الرد بشكل ما . وكانت المشكلة هى كيف يكون هذا الرد . واقترحت « جولدا مائير » التى كانت واحدة من الزعماء السياسيين القليلين الذين احتفظوا بحريتهم ـ إعلان العصيان المدنى . ولكن كان « موشيه سنيه » و « مناحم بيجين » يتطلعان الى القيام بأعمال اكثر ابهارا من ذلك .

كان « بيجين » معنيا بالتأثير النفسى الذى تركه يوم « السبت الاسود » على يهود فلسطين ، اكثر من اهتمامه بالاثر الاستراتيجى . ولم يكن ذلك اليوم قد نجح فى تحييد « الهاجاناه » و « البالماخ » ، على الرغم من خسائرهما فى الارواح والعتاد . وكانت هناك دواع اكبر من اى وقت سابق لقيام جبهة مشتركة نشطة ، تضم كلا من « الارجون » و « عصابة شتيرن » . ولكن كان « السبت الاسود » استعراضا مذهلا للقوة البريطانية . وخشى « بيجين » أن يؤدى ذلك الى غرس بذور الانهزامية بين اليهود ، حيث أن الانهزامية تعتبر أمرا قاتلا بالنسبة لاى حرب تحرير . « كنا ندرك أن الطريق الوحيد لاستعادة الثقة اليهودية بالذات هو عن طريق شن هجوم مضاد ناجح » .

وكان قائد « الارجون » يحتفظ فى جعبته بالخطة المناسبة فكان قد سبق فى أوائل العام أن اقترح عليه مدير عملياته ، الواسع الحيلة ، « جيدى باجلين » ، قيام المنظمة بتخريب فندق « الملك داود » الذى يأوى جناحه الجنوبى ، مقر رياسة الادارة البريطانية ، مع وجود مقر للشرطة العسكرية وفرع التحقيقات الخاصة فى جناح ملحق به . أما باقى الفندق ذوى الادوار الستة ، الذى كان المستثمرون المصريون اليهود قد افتتحوه عام ١٩٣٢ ، بصفته أول فندق حديث فخم يقام بالقدس ، فقد كان ملتقى للشخصيات البارزة فى حكومة الانتداب حيث تتناول الكوكتيل وتدبر المؤامرات . وكان من بين تلك الشخصيات البارزة «تشيبسى تشانون» الذى نزل فى الفندق عام ١٩٤١ ، بصفته عضوا فى البرلمان ، ووصف الفندق بأنه « يعتبر بلا جدال افضل فندق فى العالم ، بعد الريتز ، فى باريس » . وكانت « الهاجاناه » قد استخدمت حق الفيتو فى ربيع عام ١٩٤٦ ضد خطة « باجلين » على أساس انها استفزازية أكثر من اللازم . ولكن عندما عاد « بيجين » يعرض الخطة بعد يومين من السبت الاسود ، باركها « سنيه » . وتم تبنى « عملية مالونتشيك » (كلمة « مالون » تعنى « فندق » بالعبرية ، ثم أضيف اليها صيغة التصغير باللغة « اليدية ») ـ وتم بعد

ذلك اختصارها ، كاحتياط أمن اضافي الى « عمليات » تشيك » كجزء من «الليشوف » الانتقامي الثلاثي الشعب : فأسند الى « عصابة شتيرن » تدمير مبنى « اخوان ديفيد » المجاور والذى يستخدم كمقر لمكتب الاعلام الحكومى ، بينما يقوم « الهاجاناه » بالاغارة على ترسانة الاسلحة فى « بات جاليم » بحيفا ، واستعادة الاسلحة التى استولى عليها البريطانيون فى « ياجور » . وكان الاسم الحركى « الكودى » للعملية التى ستنفذها « عصابة شتيرن » هو « عبدك وفداك » ، اما بالنسبة لغارة الهاجاناه فكان « استعادة الممتلكات المفقودة » ويبرر « سنيه » موافقته على هذه العمليات على اساس انها تتفق ومبدأ « المعين بالمعين » — فهى تشن هجوما على الحكومة البريطانية فى مقابل هجوم شنته على الحكومة اليهودية . وقد صدقت لجنة « اكس » السرية العليا ، التى كانت تشرف على « المقاومة العبرانية » ، نيابة عن الوكالة اليهودية ، على الخطط الثلاث دون اطلاع اعضائها الخمسة على التفاصيل حيث اخطروا فقط بأن « مبنى حكوميا هاما » سيتم ضربه ، ولكن لم يشيروا الى اسم المبنى بالتحديد .

ويتفق كل من « بيجين » و « جاليلى » على أن الهدف من تدمير فندق « الملك داود » كان اذلال البريطانيين وليس قتلهم . ويقول جاليلى الذى كان نائبا « لسنيه » وشريكه فى السكن آنذاك ، « كان الهدف هو تخريب مبنى يستخدم مقرا للسكرتارية ولقيادة الجيش وكان ذلك ردا على « السبت الاسود » ولقد كان عملا جريئا ، جسورا وينطوى على مخاطرة بالغة ويوجه ضربة الى المركز العصبى . ولم يكن الهدف منه هو تدمير الفندق ذاته . كما لم يكن الهدف منه . بكل تأكيد ، هو أن يسفر عن وقوع ضحايا » وقد صدرت الاوامر الى « باجلين » منذ البداية بمنح افراد السكرتارية والناس الموجودين بالفندق ، فرصة كافية لمغادرته .

غير أن هناك ثغرة يصعب سدها بين كل من تقارير « الارجون » و « الهاجاناه » ، حول المشاورات الفنية التى دارت بين « باجلين » واسحاق سده ، فوفقا لاقوال « بيجين » ، اقترح « بيجين » منح البريطانيين فرصة زمنية لمدة ٤٥ دقيقة ، بينما اقترح « سده » خمس عشرة دقيقة فقط .. ولكنهما اتفقا بعد ذلك كحل وسط منح البريطانيين مهلة لمدة ثلاثين دقيقة . ويؤكد أعضاء « الارجون » ان « سده » ضغط على « باجلين » لزيادة قوة الشحنة الناسفة التى ينوى غرسها فى « بدروم » الفندق . ويقولون أن « الهاجاناه » كانوا يريدون ضمان عدم اتاحة فرصة كافية للبريطانيين لنقل مئات من الوثائق المدنية التى استولوا عليها من مكاتب « الوكالة اليهودية » .

وقد نفى « جاليلى » هذا التقرير كلية (كان هو و « بيجين » الوحيدين الباقيين على قيد الحياة ابان الثمانينيات ، وبطبيعة الحال وكما هو معتاد

بالنسبة لمثل هذه المؤامرات ، لم يتم تسجيل اى تفاصيل كتابة) . ويصر على أن « الهاجاناه » لم يكن لديها أى مصلحة فى وقوع انفجار مدوى . بل انها كانت تنظر الى العملية أساسا كرمز فقط . وكان « سده » مهتما الى أقصى حد بتقليل احتمالات حدوث اصابات بين الاشخاص لدرجة انه اقترح توقيت القنابل لتنفجر بعد الظهر عندما يكون معظم العاملين قد انصرفوا الى بيوتهم (وهذه نقطة لا يدور حولها جدال) اما عن الوثائق فان « جاليلى » يرفض فكرة انها كانت عاملا دخل فى حسابات « الهاجاناه ». وليس هنالك شك فى أن كلا من « الارجون » و « الهاجاناه » كان لديهما بعد وقوع الحادث ، دوافع قوية تجعلهما يحاولان تخفيف قدر المسئولية التى يتحملها كل منهما . بل ليس من المستغرب أن يكونا قد مارسا اساليب الدعاية السوداء ضد بعضهما البعض ، أو على الاقل أن يكون كل منهما قد حاول اضفاء أكبر قدر من البريق على الدور الذى أداه . وربما كان مما يؤكد صحة ادعاءات « الهاجاناه » الى حد ما ، التصريحات التى أدلى بها البريطانيون بانهم لم يحصلوا تقريبا على شىء من وثائق الوكالة اليهودية يزيد عما كانوا يعرفونه من قبل ، وربما كان ابسط سبب وراء ذلك هو عدم توفير مترجمين للعبرية يثقون بهم (اى من غير اليهود) . ولقد جاء فى صحيفة « باليستاين ترانيجيل » ، (المثلث الفلسطينى) ، نقلا عن رجل شرطة يهودى انهم : « لم يكن لديهم احد يستعينون به فى العمل ضد « الهاجاناه » سوى اشخاص من أمثالى — ممن كانوا يدينون بالولاء للهاجاناه . وكنا نفرز جميع الاوراق ، ولكننا ، اذا عثرنا على ورقة تدين « الوكالة اليهودية » ، أو تضربها : كنا نلقى بها فى المرحاض ونغرقها بالماء . وبعد يومين أصبحت جميع مواسير الصرف فى مقر رئاسة المباحث الجنائية البريطانية مسدودة تماما .

وفى أول يوليو ، تلقى بيجين الاوامر بتنفيذ « عملية تشيك » ، وواصل باجلين عمله فى تنقيح خطته التفصيلية للتسلل الى قاعة « ريجانس » للطعام بالفندق ، عن طريق مدخل الخدم وطرقة « بالبدروم » تمر بطول الفندق . ولكن طلبت الهاجاناه فى ١٧ يوليو من بيجين تأجيل التنفيذ ، وذلك لاسباب لم يطلع عليها ابدا . وكان « سنيه » قد حظى بزيارة من « ماير وايزجال » ، المساعد الشخصى النشط والمخلص جدا « لحاييم وايزمان » . ويبدو أن وايزمان كان يعلم أن ثمة شيئا ما يدبر ، وأن كان لم يطلع بالتحديد على ما هو هذا الشىء . وحاول وايزمان ان يستغل آخر قطرة من النفوذ لديه ، فى محاولة بطولية أخيرة لفرض سيطرته على اتجاه الاستراتيجية الصهيونية . وأعلن وايزجال هو يقرأ من بيان مكتوب :

« اننا نقف على حافة هاوية .. واذا ما واصلتم تنفيذ عملياتكم فان

هذا سيكون بمثابة إعلان الحرب على بريطانيا العظمى . وأنا واثق من أن بريطانيا لن تسكت وبذلك سنخسر كل ما كافحنا من أجله . ومازلت أشغل منصب رئيس الحركة الصهيونية ، ومن المعترف به عامة في الانظمة الديمقراطية أن الرئيس يكون القائد الاعلى للقوات المسلحة .. وانا استخدم الان سلطتى هذه . وانا آمرك أن توقفوا فورا جميع العمليات التى تقوم بها الجمعيات السرية الثـــلاث » .

وهدد وايزمان بالاستقالة فورا وبأن تكون استقالته مسببة اذا لـــم يخضع « سنيه » لهذا الانذار النهائى . واصر على أن اقل مايرضى به هـــو تأجيل كل العمليات الى حين اجتماع اللجنة التنفيذية العليا « للوكالة اليهودية » فى اغسطس التالى بباريس ، لبحث افضل اسلوب لمواصلة النضال . وعلى الرغم من أن « سنيه » لم يشارك « وايزمان » فى مخاوفه ، بل على العكس كان تواقا للعمل ، فانه لم يجد امامه مفرا من الرضوخ . فهذه أول مرة يتدخل فيها الزعيم المسن بطريقة مباشرة فى شأن من شئون « الهاجاناه » . ونصح « جاليلى » « سنيه » بالاتجاه فورا الى « لجنة اكس » ، ويقول « سنيه » :

« ان هذا كان خروجا على الاساليب المشروعة . وكنا نستطيع مجازاته ونقول لوايزمان انه يستطيع الاتصال ببن جوريون . ولكن كانت المسألة أخطر من ان نماطل فيها على اساس التمسك بالاجراءات الشكلية . فكان لابد من عرضها على « لجنة اكس » ، وكان لابد للجنة أن تتخذ قرارا بشأنها . وشرح « سنيه » للجنة بدقة اعتراضـــات وايزمـــان ، وان لم يحـــدد لها المبنى الذى ســـيتم ضربه . وعـــدل احد أعضـــاء اللجنـــة — وهـــو « ليفى اشكول » الذى أصبح فيما بعد رئيسا للوزراء — عن موقفه ، وبذلك سحبت الموافقة على تنفيذ العمليات الثلاث .

ولم يكن « بيجين » يعلم شيئا عن هذه الاتصالات المتبادلة . واكتفى « سنيه » بأن طلب التأجيل . ولم تجد « عصابة شتيرن » بأسا من الانتظار . أما « بيجين » فكان قلقا . فكلما زادت الفجوة الزمنية ، قلت احتمالات الاحتفاظ بسرية عملية « الملك داود » . ووافق مرتين على منح « سنيه » مهلة أخرى ، ولكن بدأ صبره ينفد . وكان قائد « الهاجاناه » يسلك طريقا ملتويا ووعرا فى محاولته التنسيق بين قادته السياسيين والارجون . ومن الواضح ان « سنيه » كان يأمل فى تغيير السياسة الرسمية بمجرد أن يتحدث مع « بن جوريون » قبـــل انعـــقاد اللجنـــة التنفيذية العليـــا فى باريس ، ولكنه لم يكن يثق ببيجين بدرجة تكفى لان يطلعه على الحقيقة ووفقا « لجاليلى » ، فانه لم يكن يرغب فى ازعاج قائد « الارجون » :

«لم يذكر الحقيقة كلها .فأولا وقبل كل شيء ، فهو لم يكن مضطرا لذلك . ولم يكن مضطرا لان يطلع بيجين على أسرار الحركة الصهيونية : أى اسرار تنظيم « البيشوف » . ولكن كان هناك سبب اكثر خطورة . فهو لم يكن يرغب

فى تثبيط همة « بيجين » . فلو ان بيجين شعر بالاحباط نتيجة لاطلاعه على حقيقة ان الحركة الصهيونية قد بدأت تنسحب من النضال للتوصل الى نتائج بعيدة المــدى » .

واسفرت مراوغات « سنيه » من تحقيق النتيجة التى كان يحاول تجنبها بالذات . فقد قام قائد « الهاجاناه » فى ٢٠ يونيو بابلاغ « بيجين» بأن «الوكالة اليهودية » تستعد لاعلان سياسة عدم التعاون مع البريطانيين وذلك فى ٢٥ يوليو . وكان هذا« سببا آخر »فى عدم تنفيذ اى عمليات قبل ذلك التاريخ .ولم يستجب « بيجين . وبعث « سنيه » فى صباح ٢٢ يوليو بآخر نداء وجهه اليه فى جملة واحـدة : « يجب ان تمتنع مؤقتا عن تنفيــذ عملية القدس » . ولكن كانت « الارجون » قد كفت بالفعل عن تلقى أى أوامر .

وكانت القنابل المخبأة فى أربعة أوعية لبن ، قد وصلت الى القدس فعلا . وكان هناك كثيرون ــ فى الارجون و الهاجاناه « وعصابة شتيرن ــ يعرفون بخطة الملك داود حتى انه لم يعد ممكنا تجميدها لفترة اطول . وكان بيجين يرى أنه قد حصل فعلا على موافقة « الهاجاناه » على عملية « تشيك » . ولم يكن أحد قد ابلغه بالغائها ويقول يعقوب امرامى ، الذى خلف « ايلى تافين » كرئيس لمخابرات الارجون ، ان المنظمة ضاقت ذرعا بتأجيلات « سنيه » .

« لم نكن نعلم شيئا عن انذار وايزمان ، ولكننا كنا ندرك ان وايزمان يعارض فكرة النضال ضد البريطانيين وانــه يحاول التقليل من شـــأن هذا النضال . وكنا نظن انهم انما يريدون مجرد التأجيل . وكنا نعتمد بدرجة اكبر على حقيقة انهم كانوا طلبوا منا اصلا تنفيذ العملية ، ولم نر أن هناك سببا يدعو للتأجيل . ولم يقدم « سنيه » اى تفســـير .

هذا وقد امتنع بيجين من جانبه عن الخوض فى المسألة اكثر مما ذكر فى كتابه «التمرد»الذى لم يحاول فيه تبرير أسباب رفض مطلب قائد «الهاجاناه» .

وفى الساعة الثانية عشرة و٣٧ دقيقة من بعد ظهر الاثنين ٢٢ يوليــو من عام ١٩٤٦ ، انفجرت شحنة ناسفة من مادة « تى . ان . تى » وزنها ٣٥٠ كيلو جراما ، داخل مطعم « الريجانس » ، الذى كان خاليــا فى ذلــك الوقت ، وذلك قبل موعدها المحدد بست دقائق . ودمرت الدعائم الوسطى الموجودة تحت الجناح الجنوبى بفندق الملك داود ، وانهارت خمسون غرفــة من غرف مكاتب الادارة المدنية والعسكرية البريطانية ، محدثة صوتا مدويا وسط سحابة من الدخان وتراب الاسمنت . وتطايرت قطع الحجارة فى الطريق الرئيسى الذى يطل عليه الجناح ، لتقتل المارة وتصيبهم بالعاهات . وقذفت الانقــاض المتطايرة باحد المسئولين البريطانيين وقذفت به ليرتطم بحائــط مبنى « جمعية الشبان المسيحيين » المقابل للفندق ، ويخترقه بجسمه تاركا وراءه رأســه

المنزوعة من أثر قوة الانفجار ودماءه المتناثرة على الحائط . وظل عمال الانقاذ يستخرجون جثث الضحايا من تحت الانقاض حتى بعد أسبوع من وقوع الحادث وأعلن فى ٣١ يوليو الحصر النهائى لعدد ضحايا العملية التى اسفرت عن ٩١ قتيلا من بينهم : ٢٨ بريطانيا ، و ٤١ عربيا ، و ١٧ يهوديا ، واثنان من الارمن ، وروسى واحد ، ويونانى ومصرى . وبلغ عدد المصابين ٤٦ شخصا . وكان أكثر من نصف القتلى من الكتابيين ومن موظفات الالة الكاتبة والسعاة وغيرهم من صغار الموظفين فى السكرتارية وفى الفندق . وصدم « مناحم بيجين » ازاء فداحة الاصابات ، ولكنه سارع بالدفاع عن رجاله ، وظل حتى بعد ٤٠ عاما من وقوع الحادث ، يلقى بمسئولية حجم الخسائر على البريطانيين . فهم لم يكترثوا بالتحذير الذى أبلغ تليفونيا الى تحويلة تليفونات الفندق . وأعلنت اذاعة « الارجون » السرية الحداد على الضحايا من اليهود — الذين اختصتهم بالذكر تمشيا مع أسلوب بيجين فى التمييز . وامتنعت الاذاعة عن اعلان الحداد على القتلى البريطانيين ، حيث ان بريطانيا لم تعرب عن حزنها على الستة ملايين يهوديا الذين هلكوا فى محرقة النازى . وأعلنت « اننا سنواصل السير فى طريقنا — طريق المعاناة ، وطريق النضال — ونحن نطوى صدورنا على هذا الحزن وهذا الغضب ازاء مأساة اليهود المؤلمة » وبدا ان «الارجون» لم يلاحظوا ان معظم القتلى لم يكونوا يهودا أو بريطانيين بل كانوا عربا . وكما يقول « ثيرستون كلارك » : بالنسبة للارجون ، فان العرب لم يكن لهم أى وجود ، بل كانوا كالاشباح غير المرئيين » .

وأصبح من المعروف الآن بصورة مؤكدة أن الارجون قد قاموا فعلا بتوجيه الانذار ، ولكنه لم يبلغ للسلطات البريطانية بأسلوب يوحى بالجدية ولا قبل فترة كافية تسمح للعاملين باخلاء الفندق قبل انفجار الشحنة الناسفة . أن ما وقع فى ذلك اليوم الحزين اثناء فترة تناول طعام الغداء كان بمثابة مأساة جاءت نتيجة لسلسلة من الاخطاء . ولكن لا يمكن اعفاء « منظمة الارجون » وقائدها من المسئولية الكاملة . فمهما كانت قلة تجاربهم السابقة ، لا يمكن تصور تنفيذ أى عملية تخريب على هذا النطاق الضخم دون أن يوضع فى الاعتبار احتمال وقوع خطأ . فمن شأن القنابل مثلا أن تنفجر قبل موعدها ، كما أن الرسائل قد تضل الطريق فلا تصل الى وجهتها المحددة . وكانت القدس قد تعرضت آنذاك لانتشار موجة من الانذارات الكاذبة وكأنها وباء . ولم يكن هنك ما يضمن عدم التعامل مع الانذار الذى وجهه « الارجون » على انه واحد من تلك الانذارات الكاذبة . كما كان من المعروف جيدا أن يوم الاثنين يعتبر أكثر أيام الاسبوع ازدحاما بالعمل بالنسبة للسكرتارية حيث انه يأتى فى اعقاب أيام الاجازة الاسبوعية للمسلمين واليهود والمسيحيين ولذلك فان معظم العاملين لم ينصرفوا لتناول الغداء قبل الساعة الواحدة بعد الظهر . وكان هذا هو السبب وراء اقتراح « الهاجاناه » تنفيذ العملية فى الوقت

متأخر من النهار حتى ولو أدى ذلك الى زيادة المخاطر التى يتعرض لها فريق « جيدى باجلين » .

لقد أبلغ التحذير الى الفندق تليفونيا بواسطة « أدينا هاى » البالغة من العمر ستة عشر عاما والتلميذة باحدى مدارس القدس التى كانت تتولى نقل رسائل الارجون . وبدأت « أدينا » فى اجراء اتصالاتها بمجرد أن انسحبت فرقة التخريب من « بدروم » الفندق . وتقول ان قائد العملية اعطى الاشارة التى سبق الاتفاق عليها تقول « ادينا » :

« دخلت حانوتا قريبا من فندق الملك داود ــ وكان محلا للعطور أو لبيع النظارات ــ أو ربما كان يجمع بين الامرين ، واتصلت بالفندق . وقلت بالعبرية والانجليزية : « هنا المقاومة اليهودية .. لقد غرسنا القنابل بالفندق ، فالرجا اخلاء الفندق فورا .لقد أنذرناكم ، ثم هرولت عبر شارع الملك جورج . وكان يوجد آنذاك كشك للتليفون حيث توجد حاليا حديقة عامة . واتصلت بالقنصلية الفرنسية وابلغتهم ان ثمة قنبلة ستنفجر فى فندق الملك داود وطلبت منهم فتح النوافذ حتى لا تحدث أضرارا . ثم اتجهت الى شارع يافا بالقرب من محطة الاتوبيس القديمة ، واستخدمت التليفون الموجود بمحل لبيع البويات واتصلت بصحيفة « بالستاين بوست » وابلغتهم بالعبرية اننا قمنا بزرع قنابل فى فندق الملك داود ، واننا حذرناهم هناك . وطلبت من الصحيفة تحذيرهم مرة اخرى واتجهت بعد ذلك الى معسكر اليهود ، وعندما وصلت الى محطة البوليس هناك ، تردد صوت انفجار هائل ، لقد كان هذا هو صوت انفجار فندق الملك داود .

ويمكن القول ان من المستحيل اتمام مثل هذه الرحلة ، حتى لو قامت بها فتاة مراهقة فى عجلة من أمرها ، فى مدة تقل كثيرا عن نصف ساعة ، اذا أخذنا فى الاعتبار المكالمات التليفونية الثلاث التى اجريت خلالها . وثمة دلائل مستقلة تؤكد أن المكالمات الثلاث قد تمت بالفعل . ويقول « نعيم نيسان » ، رئيس الخدم فى فندق الملك داود ، انه استدعى الى تحويلة التليفونات بالفندق :

« كان عامل التليفونات شاحب الوجه تماما . وقال ان امراة اتصلت به وابلغته ان ثمة قنبلة فى الفندق . وطلبت منه أن يهدأ والا يثير الرعب . وهرعت الى المدير ، مستر (ماكس) « هامبيرجر » ، الذى قال لى أن من السهل جدا على اى شخص ان يعلن أن قنبلة توجد بالفندق . فقلت له : لماذا المجازفة ولماذا لا يبلغ السلطات . والتقط سماعة التليفون وأدار على الفور رقم مقر القيادة البريطانية . ثم قال لى : « لا تقل لأحد . فان أحدا لن يغادر الفندق » . وكان قد سأل البريطانيين : « هل اخلى الفندق ؟ » . ولم اسمع الرد ولكنى اعتقد انهم ردوا بالنفى ، وان هذا هو السبب فى طلبه منى عدم ابلاغ احد ،

وان احدا لن يغادر الفندق . واتجهت بعد ذلك لاستئناف اعمالي بعيدا عن قاعة « الريجانس » وكنت في موقعي هناك عندما وقع الانفجار .

ولم يوجه « نيسان » ، فيما بعد ، أي أسئلة الى « هامبرجر » حول هذا الموضوع : « انه لم يتحدث أبدا بعد ذلك من المسألة ، ولم يحدث أبدا ان اثرتها معه مرة أخرى . فهو في غاية التشدد » . وكان « نيسان » يهوديا عراقيا ، عمل من قبل لدى الاسرة المالكة في بغداد . وقد تزوج ، بعد الحادث بأربع سنوات ، من « ادينا هاى » ، ولكن لم تكن له اى صلة « بالارجون » . وهو كان على صلة بعم « ادينا » ولكنه لم يحدث ان قابلها الا بعد فترة طويلة من الحادث . ويؤكد « اميل سوتير » المدير المساعد بالفندق ، صحة رواية « نيسان » في مضمونها . وكان « اميل » قد استبعد صدق التحذير في البداية على اساس انه خدعة . ويعترف « سوتير » وهو مسيحي سويسري متزوج من بريطانية ، بأن عمال التليفون أخطروه ثلاث مرات بالتحذير .

وقد تأكدت أيضا صحة الانذارات الاخرى ، حيث أقرتهما كل من « البالستاين بوست (أو الجيروسالم بوست حاليا) ، والقنصلية الفرنسية ، بل ان عامل تحويلة الصحيفة قام باخطار الشرطة . وقد عثر على تلك الرسالة مسجلة في سجلات المباحث الجنائية . وقد بعث جندي فرنسي كان يخدم في قوات حفظ السلام للامم المتحدة بجنوب لبنان ، عندما أعيد في عام ١٩٨١ نشر رواية « تارستون كلارك » عن أحداث ذلك اليوم — بعث برسالة الى « ادينا نيسان » يبلغها فيها أن والده كان قنصل فرنسا بالقدس عام ١٩٤٦ ، وانه يذكر كل تفاصيل الحادث منذ ايام طفولته .

وبالقاء نظرة تحليلية على الماضي ، نجد انه من الواضح أن البريطانيين كانوا سيتصرفون بسرعة أكبر ازاء التحذير لو أن « ادينا هاى » اتصلت تليفونيا بالسكرتارية مباشرة ولم تكتف بالاتصال بتحويلة تليفونات الفندق . ولم يكن رقم السكرتارية سرا . ولكن كانت « منظمة الارجون » تعتقد أن اجراء مكالمة واحدة هو أفضل طريق لتحذير كل من الفندق والسكرتارية في آن واحد . وكان « اسحاق افينوم » ، قائد الارجون المحلي بالقدس الذى تلقت منه « أدنيا » الاوامر ، يعتقد أنه مجرد ابلاغ التحويلة يكون بمثابة اطلاق جرس الانذار ، وانه بمجرد الضغط عليه يتم نقل التحذير الى كل من ادارة الفندق والبريطانيين في آن واحد . ولكن ، على خلاف ظن « الارجون » ، من الواضح أن عمال التحويلة لم تكن لديهم سلطة اطلاق الانذار على مسئوليتهم الشخصية .

ويظل التساؤل معلقا : لماذا لم يقم البريطانيون باخلاء السكرتارية عندما علموا بالانذار من « هامبورجر » ومن الشرطة ؟ ان أبسط رد على هذا هو ان الاوان كان قد فات . ولكن المسألة تنطوي على ما هو اكثر من ذلك . فسان

« مناحم بيجين » ظل يروى فى الاحاديث التي أدلى بـــها حتى وقت قريب ـ وكان آخرها فى عام ١٩٧٦ ـ أن السير « جون شو » ، سكرتير عام الادارة البريطانية ، تلقى التحذير ورد قائلا فى غطرسته المعتادة : « اننى موجود هنا لاصدار الاوامر الى اليهود ، وليس لتلقى الاوامر منهم » . وكانت هذه الرواية قد نقلها يسرائيل جاليلى ، عضو الهاجاناه ، الى « بيجين » فى ظرف ايـــام قليلة من وقوع الكارثة . ويقول « جاليلى » بدوره عن صحفى أمريكى (توفى بعد ذلك) وقد رفع « شو » دعوى تشهير ضد صحيفة لندنية يهودية صـــغيرة منذ فترة طويلة ترجع الى عام ١٩٤٨ ، عندما قامت بنشر الخبر . وقد أقسم « شو » وسكرتيرته انهما لم يتلقيا أى انذارات . وقد سحبت الصحيفـــــة زعمها بدلا من الدفاع عنه ، حيث انها لم تستطع العثور على أى شهود اثبات . وتقول « جوزفين » ، زوجة « شو » ان الخبر مختلق تماما بهدف الاســــاءة الى سمعة السير « جون » ولتخفيف جزء من المسئولية عن كاهل الارجون ، ولكن ليس هناك أى دليل ايضا يثبت هذا الادعاء . ويسلم « شمويل كاتز » ، مدير دعاية « بيجين » ، فى تسجيله لتاريخ كفاح « الارجون » ، « بامكانية استبعاد » الرواية الخاصة برد « شو » على الانذار .

ومع كل هذا ، فان شخصا ما بالإدارة البريطانية تلقى الانذار ، وهناك الكثير من المعلومات التى تؤكد أن شيئا ما قد وقع خطأ . وربما كان هذا هـــو سبب المشكلة . فان « باجلين » ورجاله كانوا قد دخلوا الى « بدروم » الفندق متخفين كعمال عرب . واثناء اعداد فتائل المتفجرات فى قاعة « الريجانس » للطعام شاهدهم ضابط بريطانى برتبة « ميجور » فأطلق الإنذار . واثنـــاء الارتباك الذى وقع ، اطلق أحد رجال « الارجون » النار عليه . وابلغ الحادث الى رجال الامن البريطانيين ، ولكن ساد اعتقاد خاطىء بأنه اشتبك مع بعض اللصوص العرب . وقام رجال « الارجون » بعد ذلك بتفجير شحنتين صغيرتين فى « طريق جوليان » ، وهو الشارع الرئيسى الذى يقع عنده فندق الملك داود، لاجبار البوليس على اغلاق الشارع مما يضمن عدم زيادة عدد الاصـــابات المحتملة . وانفجرت القنابل قبل موعدها ، مما زاد من الارتباك العام . وسمع سير « جون شو » هذه الانفجارات من حجرة مكتبه بالدور الرابع ، فعـــبر الممر الواقع خارجها لتقصى الامر ، وتوصل الى ان المسالة لا تزيد عن كونهـــا واحدة من الحوادث « العادية » المألوفة فى عام ١٩٤٦ ، ورأى أن البوليس بوسعه معالجتها حيث ان لديه اشياء أهم من ذلك يؤديـــها . ومن الواضح ، بذلك ، أن التحذير الذى وجهته « أدينا هاى » ، من خلال شبكات اتصـــال الفندق والامن ، لم يتم تقييمه على اعتبار أنه حدث منفرد ، بل على اساس انه جزء من الفوضى التى كانت تسود القدس حيث كانت أصوات الانفجـــارات والطلقات والهرج والمرج من الامور المعتادة . واذا كان قد وقع اهمـــال من جانب البريطانيين فيما يتعلق بالامن ، فانه لم يتجاوز نطاق الاخطاء البشريـــة

المسموح بها . ولقد دفع البريطانيون ، والعاملون لديهم ، وزوارهم ثمنـــــا فادحا للغاية مقابل هذا الخطأ .

بيد انهم قضوا على الجزء الاكبر من مشاعر التعاطف التى حظوا بهـــا فى بداية الامر ، وذلك عندما وصل الى الصحف والصهاينة خطــــاب دورى أصدره القائد المعلم الجديد للقوات البريطانية ، الجنرال سير « افلين باركر » ، الى قواته . وكان سير « باركر » قد كتب الخطاب الذى ندم فيما بعـــد على اصداره ، فى ثورة من الغضب ، ولكنه استغل كقرينة تؤكد أسوأ الشـــكوك السائدة ازاء النوايا البريطانية ، فقد أعلن :

« يجب على جميع الجنود البريطانيين الامتناع عن اقامة أى عـــلاقات اجتماعية مع اليهود ، ويجب الا تجرى أى اتصالات معهم خارج نطاق الالتزامات الرسمية فقط ، وأن يكون ذلك فى أضيق الحدود الممكنة . وأنا أدرك أن هـــذه الاجراءات من شأنها اثارة بعض المتاعب بالنسبة للقوات ، ولكنى واثق مـــن أنهم لو فهموا تماما الاسباب التى دفعتنى الى اتخاذها فانهم سيدركون انهـــا لائقة ، وأنها كفيلة بمعاقبة اليهود بأسلوب يكرهه هذا الجنس اكثر من شىء آخـــر ، ألا وهو تغريمهم ماليا واظهار احتقارنا لهم » .

وقد ضاعفت عملية « الملك داود » من كراهية الجمهـــــور البريطانى « للارهاب اليهودى » . ولكنها ساعدت فى الوقت نفسه على زيادة ايمـــــان الحكومة بحتمية التوصل الى حل سياسى . فان الكرامة البريطانية تأثرت فعلا كما تأثرت معها ارادة الاستمرار فى حكم فلسطين . أما داخل المعسكر اليهودى فان هذه العملية كانت بمثابة توقيع حكم باعدام المقاومة المشتركة . فأجبـــــر « موشيه سنيه » ، أكثر قادة « الهاجاناه » ثورية ، على الاستقالة . ووافق « بن جوريون » فى باريس على العودة الى الوسائل الدبلوماسية التى شملت الموافقة رسميا على قبول مبدأ التقسيم . وتوقفت الهاجاناه تقريبا عـــــن كل عملياتها التخريبية لمدة سبعة عشر شهرا . وكمــــا توقـــع « بيجين » فان « الارجون » و « عصابة شتيرن » ، وجدوا انفسهم مضطرين الى مواصلة الطريق بمفردهم ، دون الحصول على معونة من احـــد . وكانت هـــذه هى احدى التوقعـــات التى أثبتت الايام صحتها ، دون أن تترك لديه أى شـــعور بالاغتباط ازاء انتصار رأيه .

الفصــل الثامن

« النفس بالنفس »

كان لعبارة « فلينتقم الله لدمائهم ! » ، التى جاءت فى البيان الذى اصدره مجلس الوزراء الاسرائيلى فى ١٤ فبراير سنة ١٩٨٢ ، فى نهاية اجتماعه الاسبوعى ، صدى مدويا . واحدث هذا الدعاء باستنزال اللعنة ، هزة عنيفة فى اعضاء السلك الصحفى بالقدس الذين كانوا يشعرون بالتعب المعتاد الذى يسيطر عليهم فى عطلة نهاية الاسبوع ، وأيقظهم من اغفاءتهم بعد ظهر يوم الاحد المذكور . لا يمكن ان يكون هناك سوى رجل واحد يستطيع ان يكتب مثل هذه العبارة : « مناحم بيجين » الذى يتولى رياسة وزراء اسرائيل طوال الخمس سنوات السابقة . وعلى الرغم من أن البيان بدأ بالموافقة على اجازة لسفير مخضرم ، ثم اشارة غامضة الى استعراض المسائل الدبلوماسية والامنية ، فان هذا الاجتماع لمجلس الوزراء لم يكن اجتماعا عاديا . فقد جاء فى الفقرة الثالثة من البيان اعلان عن اصدار مجموعة جديدة من الطوابع البريدية ، الامر الذى كان من الممكن اعتباره ، فى ظروف اخرى ، بمثابة مسالة غير مثيرة للاهتمام تماما كما كان الحال بالنسبة للبنود التى سبقته . ولكنها كانت طوابع تثير الشعور بالورع بنفس درجة اثارتها لاهتمام هواة جمع طوابع البريد . اذ ان هذه الطوابع العشرين صدرت « تخليدا لذكرى شهداء الجبل الذى اسس دولة اسرائيل » . وقد تضمنت المجموعة ، من اجل المحافظة على المظاهر ، شخصيات وطنية بارزة من أمثال « حنا سنيش » ، شاعر « الكيبوتز » الذى اعدمه النازى بعد أن قفز بالمظلة الى داخل أوروبا المحتلة ، و « ايلى كوهين » الجاسوس من دمشق . ولكن أحدا لم يندهش عندما ظهرت على عشرة طوابع من ضمن العشرين طابعا ، صور المناضلين من « الارجون » و « عصابة شتيرن » الذين أعدمهم البريطانيون شنقا ، ورجلين فجرا نفسيهما أثناء وجودهما داخل زنزانة المحكوم عليهم بالاعدام .

لقد كان قائدهم القديم يدفع الدين الذى فى عنقه لهم . فهؤلاء الاشخاص كانوا بالنسبة « لمناحم بيجين » آخر الشهداء ، وأبطال ملحمته الشخصية ، وكان « بيجين » يضعهم على منصة تسمو فوق كل منصة اخرى لغيرهم من المقاتلين فى صفوف « الارجون » الذين سقطوا فى ميدان المعركة ، والذين يحمل لهم فى نفسه كل تقدير . ان اولئك هم الرجال الذين قال عنهم ، وهو يفيض فى التعبير عن اعجابه بهم فى كتابه « التمرد » ، انهم اجتازوا الاختبار :

« ليست هناك معركة مجيدة ، ولا هجوم عاصف . ولكن هناك فقط التفكير والتأمل ــ التفكير فى الوقت الذى أخذ ينفد مع كل دقة من دقات

الساعة . والتفكير فيما وراء الزمن . ان الايام تمر بطيئة وطويلة ولكن الليالى أطول . والوقت يمتد ويتيح فرصة أطول من اللازم للتأمل . ويطوف بالذهن ذكرى شىء ما أو شخص ما . ذكرى صوت أم مسنة ، أو زوجة شابة ، وهو يأتى من بعيد ولكن بوضوح كامل . ان الملابس الحمراء التى يدثره بها الجلاد ، تذكره على الدوام بأن أيامه أصبحت معدودة ، وأن الشمس التى تسطع خارج زنزانته المظلمة لا تعمل على محو الليل وانما تعمل على زيادة اقتراب الظلام الازلى . ان المرء لا يستطيع هنا كبت غريزة حب البقاء . فان الصراع المؤلم يستمر معها ، فهو يبدأ صباح كل يوم من جديد وكل ساعة وكل دقيقة ، ويستمر يدور فى ذهنه عندما يخلد الى النوم وعندما يقوم من نومه وفى غدوه ورواحه وفى وحدته عبر زنزانته المغلقة » .

لم يكن الامتحان مجرد اختبار فى الشجاعة ، وانما فى الانضباط والالتزام ويشرح « يعقوب أمرامى » ، مدير مخابرات « الارجون » ، هذا الامر قائلا : « لقد ذهبوا الى المشنقة لانهم لايعترفون بالحكم البريطانى ، وكان بعضهم على الاقل يستطيع أن ينجو بجلده لو انهم قبلوا السلطة القضائية للمحاكم البريطانية ولم يجبرهم أحد على الرفض ، وكانت لديهم حرية اختيار مطلقة . فقد مزق « دوف جرانير » ، وهو أكثر هؤلاء الشهداء اخلاصا ، توكيلا رسميا كان قد وقعه يفوض فيه أحد المحامين باستئناف الحكم . لقد كان هؤلاء شهداء بمعنى الكلمة : رجال اختاروا الموت فى سبيل هدف . كانت تضحيتهم تشكل جاذبية خاصة بالنسبة « لبيجين » الرومانسى والمعقائدى ، القائد والمتفرج فى وقت واحد . لقد كانوا يتصرفون وكأنهم شخصيات خرجت من بين صفحات رواية بقلم « جابوتنسكى » ، حيث يقومون بتوجيه قضاتهم ثم ينشدون « الحاتيكفا » (نشيد الحركة الصهيونية) وهم يقفون عند المشنقة . وعندما توفيت « اليزا بيجين » فى نوفمبر من عام ١٩٨٢ ، دفنت عند جبل الزيتون بالقرب من مقابر « مائير فينشتاين » و « موشيه برازانى » ، اللذين خدعا الجلاد بأن فجرا قنبلة يدوية مهربة اليهما فى سجن القدس المركزى . وكان « بيجين » قد طلب فى وصيته التى كتبها بعد انتخابه رئيسا للوزراء فى عام ١٩٧٧ ، أن يدفن هو وزوجته بجوارهما .

وكان « بيجين » بصفته قائدا للارجون يقدر أرواح المقاتلين حق قدرها . فكان يصر قبل تنفيذ اى عملية على أن تتضمن خطة للهروب قابلة للتنفيذ . ومع ذلك فقد كان يضع فى اعتباره احتمال أن يتعرضوا أحيانا للمقاومة ، وأن يموت بعضهم أو أن يصابوا بعاهات ، بينما يعتقل آخرون بل وقد يتعرضون للنفى أيضا . وهذا هو ثمن « التمرد » . فاذا كانت المعركة ذات قيمة فانها تكون جديرة بالتضحية . وكان « بيجين » يرفض السكوت على الاذلال بواسطة المشنقة او السوط . فقد عانى اليهود فى شتاتهم بالمهجر فى

صمت من مثل هذا الاذلال ، ولكنهم لن يسكتوا عليه فى وطنهم القومى . ولم ينس « بيجين » عندما كان طفلا واجبر على مشاهدة تنفيذ عقوبة الجلد العلنى فى زعماء اليهود « ببديست ــ ليتونيسك » ، بناء على أوامر أحد الجنرالات البولنديين ، ويقول « كنت آنذاك فى السابعة ، ولكن بشاعة هذا المنظر المهين لم يمح من ذاكرتى مطلقا » .

وكانت عمليات الشنق والجلد بالسياط من الاساليب التى اعتاد البريطانيون على استخدامها من أجل قمع حركات التمرد بالمستعمرات وان كان ذلك فى الحالات القصوى ، وكانوا ينفذون الاعدام فى أعداد من عرب فلسطين تفوق عدد اليهود . ولكن لم يرد على البريطانيين بالمثل ، من بين الجماعات المتمردة ، سوى « منظمة أرجون زفاى ليومى » . وقد تمكنت المنظمة من وقف عمليات الشنق والجلد التى مارستها السلطات البريطانية بممارستها الشنق والجلد بالسياط ضد الضباط وضباط الصف البريطانيين أنفسهم وردت على الاهانة بالمثل ، ليس ضد الجنود كأفراد فحسب بل ضد النظام ككل . وما زال الالم الناجم عن تلك الاهانة قائما حتى اليوم . ويتردد ان « مارجريت تاتشر » قالت بعد مرور ثلاثة عقود على تلك الاحداث ، لرئيس وزراء آخر فى الكومنولث ، انها لا تستطيع مطلقا مصافحة رجل مسئول عن شنق اثنين من الجنود البريطانيين برتبة سيرجنت (ومع هذا فقد استقبلت مناحم بيجين فى مقر رئاسة الوزارة فى داوننج ستريت) .

وقد اثمر أول تهديد وجهته الارجون ، فقد القى القبض على كل من « ميشيل آشيل » و « يوسف سمحون » ، عضوى المنظمة ، وهما فى طريقهما الى المستشفى بعد أن اصيبا أثناء اشتراكهما فى غارة مسلحة وقعت فى ٧ مارس عام ١٩٤٦ ، ضد أحد معسكرات الجيش بصرافند . وكانت فرقة من « الارجون » قد تسللت الى القاعدة العسكرية متخفين فى زى جنود مظلات بريطانيين ، ولكن اكتشف أمرهم عندما طمع أحد افرادها وحاول انتزاع مدفع آلى من طراز « فيكرز » من فوق احدى الدبابات . وانسحبت الفرقة فى غير نظام . وصدر الحكم بالاعدام ضد « أشبل » شاعر الارجون ، و « سمحون » وردت المنظمة على ذلك باختطاف ستة من الضباط البريطانيين : خمسة من احد نوادى تل أبيب والسادس من القدس . وقد تمكن الاخير من الهرب ، مما سبب « لبيجين » الشعور بالخزى الابدى . وفرضت السلطات حظر التجول فى تل أبيب ، وبدأت عملية التفتيش من بيت الى بيت وأعلن « بيجين » أن الارجون سترد على « الشنق بالشنق » . وجرت المفاوضات بين الطرفين من خلال الوسطاء اليهود . وأطلقت « الارجون » ، كتعبير عن حسن النية ، سراح اثنين من الضباط المحتجزين وأعطيت كل واحد منهما جنيها كتعويض عن أى أضرار لحقت بهما . وأعلن الضابطان انهما لقيا معاملة طيبة . وعندما تم استرداد عضوى

« الارجـون » ، القى الرهائن البريطانيون الباقون فى وسط تل أبيب ، وهم محشورون داخل صندوق شحن . وخرجوا منه ، وهم يرتدون زيهم العسكرى الانيــق الذى كان قد تم كيه ، مما أثـار سخرية وضحك المـارة . لقـد عقـدت « الارجـون » صفقة ولم تتراجع عن تنفيذها .

ولكن لم تكن للعملية التالية نهـــاية سعيدة مماثلة ، وان كانت قد اسفرت عن تحقيق نصر آخر « للارجـون » . فقد صدر حكم ضد « بنيامين كيمتشى » المقاتل فى الارجـون البالغ من العمر سبعة عشر عاما ، بالسجن لمـدة خمسة عشر عاما مع جلـده ثمانى عشرة جلدة عقابا لــه عن حمـل السـلاح . وردت « الارجـون » على ذلك باعلان : « اذا استخدمتم السوط ضدنا ، سنستخدم السوط ضـــدكم » . ومع ذلك تم جلد « كيمتشى » ونفـذ « بيجين » وعيده ، حيث تم اختطـاف ضابط بريطانى برتبة ميجـور وثلاثة ضباط صف من تل أبيب ونيتانيـا وريشون لوزيون . وتلقى كل واحـد منهم ثمانى عشرة جلدة قبل الافراج عنهـم . وقـد أكـد البيـان الذى صدر وهو يحمل شعارا يصور ضفتى الاردن وبندقية وتحتهما فقـرة تقول « ليس أقل من هذا » : ان المنظمة لن ترد « بالســوط فقط مستقبلا ، اذا استمرت عناصر القهـر فى جراتهـا التى تهـدف الى الحـاق الاهانـة الجسمانية بالشباب اليهودى وشرفه القومى والانســانى ، بل اننـا سنرد بالنـار » . وابتلع البريطانيـون كبرياءهم . فأعفى شـاب آخـر من « الارجـون » كان قد اعتقل مع « كيمتشى » من عقوبـة الجـلد . ولـم يوقع البريطانيون بعد هـذا عقوبة الضرب بالســوط على أى من اليهـود أو العرب طوال المـدة المؤلمـة الباقية لهم فى « الارض الموعـودة » ومهمـا يكن من أمر ، فقـد تحققت أمنية أحـد الجنـود البريطانيين ، كتب عبارة على أحد ملصقات « الارجون » التى تحذر جميع ضباط الجيش البريطـانى من احتمالات تعرضهم للجلد بالسوط .. كتب يقول : « لا تنسوا الضابط الذى براسنى برتبة سيرجنت — ميجور » .

أما استخدام حبل المشنقة فقد احتاج الى جهد اكبر لايقافه . اذا احتاج الامـر الى تنفيذ الاعدام شنقا فى سبعة من رجال « بيجين » قبل أن يتـم ايقاف مثل هذا الحكم . كما استدعى الامر أن يلحق بهم اثنان من الجنـود البريطانيين برتبة سيرجنت ، تم تنفيذ الاعدام فيهما شنقا بمقصـلة اقيمت خصيصا لهذا الغرض ، لا لاى ذنب ارتكباه سوى كونهما بريطانيين موجودين بفلسطين فى ذلك الوقت . وكانت حكومة « اتلى » والادارة البريطانيـة فى القدس ، فى وسط هذا الجـو من الارهاب الذى يزداد جراة ، تقعـان تحت ضغوط مكثفة من الراى العـام لاستعراض قوتهما . ومن ثم فقـد أصبح « دوف جرانر » المهاجر اليهودى المجرى البالغ ثمانية وعشرين عاما

والذى أصيب بجراح مرتين أثناء خدمته فى الجيش البريطانى رمزا لروح التحدى المميزة للارجون ، وللاصرار البريطانى .

وقد ألقى القبض على « جرانر » فى أعقاب غارة مسلحة على مركز شرطة « رمات جان » فى ٢٣ ابريل ١٩٤٦ وكانت فرقة من الارجون قد دخلت المبنى متخفية كجنود بريطانيين جاءوا لتسليم مجموعة من المعتقلين العرب . وعندما لم يعثروا على مفتاح خزينة الاسلحة ، قاموا بنسف الباب ، مما نبه حامل مدفع برن يقف على سطح المبنى وأحد رجال الشرطة الذى اجرى اتصالا تليفونيا طالبا النجدة . وفقدت « الارجون » فى هذه المعركة غير المدبرة ، ثلاثة من رجالها . وتحطم فك « جرانر » عندما أصيب برصاصة فيه ، وكاد أن يفارق الحياة عندما عثر عليه رجال الجيش . واجريت له سلسلة من العمليات الجراحية ، واصبح لائقا للمثول امام القضاء حيث جرت محاكمته فى يناير سنة ١٩٤٧ بالقدس . ووجه « جرانر » اثناء شرحه للاسباب التى تجعله يرفض حق المحكمة فى مقاضاته ، اتهاما الى بريطانيا بتحويل « ارض اسرائيل التاريخية » الى قاعدة عسكرية وباغتصابها من الشعب اليهودى « لذلك فلم يعد هناك اى أساس قانونى لحكمكم ، الذى اصبح لا يقوم الان سوى على مبدأ واحد فقط : القوة الغاشمة ، المثلة فى استخدام السلاح وسيادة الارهاب المتخفى فى صورة القوانين المزعومة . لقد صيغت هذه القوانين بواسطة حاملى الحراب . وهم يصدرونها ثم يطبقونها بما يتناقض مع الحقوق الاساسية للانسان ويتعارض مع ارادة الشعب المحلى والقانون الدولى » .

وعندما اصدر القضاة العسكريون الحكم عليه بالاعدام شنقا ، رفع صوته مرددا النشيد الصهيونى وهو يقف فى قفص الاتهام . وكان « جرانر » يفضل الحياة على الموت ، ولكن على أن يكون ذلك وفقا لمبادئه ، وليس لمبادىء قضاته . وكان المعتقلون من رجال « الارجون » يعرفون جيدا الفرق بين الاستشهاد والانتحار . وكانوا يودون أن يتم انقاذهم أو مبادلتهم ، ولكن على الا يكون المقابل هو التماس الرأفة . واصدرت « منظمة الارجون » انذارا ، وان كان أقل تحديدا من الانذارات السابقة : ان اعدام أسرى الحرب يعتبر جريمة قتل مع سبق الاصرار . ونحن ننذر نظام الحكم البريطانى باراقة الدماء ردا على ارتكاب مثل هذه الجريمة » . وكان رد فعل « بيجين » المبدئى ، مرة أخرى ، هو اختطاف رهائن بريطانيين . فاختطف الميجور هـ . أ . كولينز ، الذى قيل انه ضابط مخابرات ، ولكنه كان فى واقع الامر ضابطا متقاعدا يشتغل فى الاعمال الحرة ، وذلك اثناء تناوله الشاى بمدينة القدس . واختطف كذلك ، القاضى « رالف ويندام » من قاعة المحكمة فى تل ابيب . ويبدو أن عملية الاختطاف

الاخيرة أزعجت البريطانيين أكثر من الاولى ، وان كان من المشكوك فيه أن السبب فى ذلك هو صلاته بالطبقة الارستقراطية ، كما كان يزعم « بيجـــين » ، وبدأت الحكومة تحـــاول كسب الوقت بعد أن كانت قد قررت فى بداية الامر تنفيذ حكم الاعدام على « جرانر » بصرف النظر عن العواقب . فأعلنت تأجيل تنفيذ الحكم الى أجل غير مسمى لاتاحة الفرصة له لتقديم التماس الى « المجلس الملكى الخاص » . وكان هذا الاعلان بمثابة نقطة تحول فى القضية وكانت جماعة « الارجون » تواجه تفوقا عدديا . وقرر « بيجين » ان استمرار احتجاز الرهائن لن يحقق شيئا ، خاصة وان المخبأ الموجود به القاضى « ويندام » ، لم يكن آمنا على الاطلاق ولكن عندما اتضح أن البريطانيين كانوا لا يزالون مصممين على شنق « جرانر » وثلاثة آخرين — هم « يحيل دريزنير » ، و « مردخاى الكوشى » و « الايزر كاشانى » — لم تدبر « الارجون » عملية الانقاذ بسرعة كافية . وكانت البلاد كلها تخضع للقوانين العسكرية ، ونقل الرجال الاربعة المحكوم عليهم بالاعدام من القدس الى حصن عكا ، حيث أعدموا فى ١٦ ابريل عام ١٩٤٧ ، تحت ستار قانونى من الدخان . وقام بعد اســـــبوع واحد « فينشتاين » و « برازنى » ، من الارجون و « عصـــابة شتيرن » ، على التوالى ، بتفجير قنبلة يدوية ، تم تهريبها اليهما داخل برتقالة . وكانا ينويان أن يصحبا معهما الجلاد الى القبر، ولكنهما رجعا عن ذلك عندما اصر حاخام السجن على مرافقتهما حتى حبل المشنقة .

وقد حققت « الارجون » ، ابان صيف ذلك العام ، اكبر انتصاراتها ، اقتحام حصن عكا ، الذى كان يبدو منيعا منذ عهد الصليبيين — ولكنها عانت أيضا من آلام تنفيذ احكام اعدام أخرى واتخاذ القرار الصعب بشنق الجنديين اللذين يحملان رتبة سيرجنت واللذين تحتجزهما المنظمة . وتمت عملية اقتحام الحصن الكائن فى وسط المدينة العربية ، عن طريق تنفيذ خطة معقدة لاختراقه من الداخل والخارج . وقد بلغ المجموع الكلى للمسجونين الذين هربوا من الفجوة التى فجرت فى الجدار الحجرى السميك ٢٥١ سجينا منهم ١٣١ عربيا ، والباقى ١٢٠ من اليهود . ولكن كانت الخسائر فادحة فى المقابل ، حيث قتل خمسة عشر يهوديا أثناء المطاردة كما القى القبض على خمسة آخرين . وكان من بين القتلى «ميتشيل اشيل » الذىكان قد نجا من حبل المشنقة منذ عام مضى. وقدم ثلاثة من المعتقلين الجدد — وهم « إشفالوم جيب » ، و « مائر ناكار » و « يعقوب ويز » — الى المحاكمة بتهم عقوبتها الاعدام . وقال أحدهم للقضاة :

« اننا نعلم أن هذه المعركة ستسفر عن نتيجة واحدة . فان شعبنا سيحصل على حريته وسيجلو المستبد عن الارض . ولهذا فاننا نحتفظ بهدوئنا. بل الاكثر من هذا فاننا سعداء . فليس هناك سعادة اكبر من أن نهب حياتنا من أجل مثل

اعلى ، وأن نعلم ونعلم بما لا يترك مجالا للشك ، أننا من بين أولئك الذين يلعبون دورا مباشرا فى سبيل تحقيقه » .

وأدرك « بيجين » انه يجب على « الارجون » أن تأخذ رهائن من رتب عالية ، حتى يستطيعون انقاذهم . ولكن منذ تنفيذ عمليات الاعدام السابقة أصبح البريطانيون على حذر ، مما جعل تنفيذ ذلك أمرا صعبا . واضطر «الصيادون» فى نهاية الامر الى الاكتفاء باختطاف اثنين من جنود المخابرات برتبة سيرجنت ، أثناء عودتهما الى مسكنيهما سيرا على الاقدام وهما يرتديان الملابس المدنية بعد ان قضيا ليلة فى مصيف ناتانيا بدون تصريح . وتمت عملية الاختطاف عن طريق ضرب السيرجنت « كليفورد مارتن » و « ميرفن بيس » بالهراوات وتخديرهما بالكلوروفورم ثم نقلهما بسرعة الى مخبأ أعد خصيصا لهذا الغرض أسفل مصنع لصقل الماس بناتانيا » . وكان حارس سجنهما هو «جيدى باجلين» رئيس عمليات الارجون . واعلن البريطانيون تحديد اقامة جميع سكان المدينة اليهودية ، وتم استجواب ١٤٢٧ شخصا منهم ، ولكن بقى الجنديان فى زنزانتهما الخانقة بمرحاضها المصنوع من قماش سميك والاوكسجين المعبأ.ونفذ حكم الاعدام فى ٢٩ يوليو عام ١٩٤٧ ، فى المسجونين الثلاثة من منظمة الارجون ــ « جيب » « نكار » و « فيس » ، حيث اقتيدوا الى حبل المشنقةفى عكا . وفى ظرف ساعات قليلة من ذلك ، لحق بهم كل من السيرجنت « مارتن » والسيرجنت « بيس » . وتولى « باجلين » بعد التشاور مع « بيجين « ، مؤكدا له امكانية تنفيذ العملية وتم شنقهما بواسطة عارضة خشبية فى سقف مصنع الماس المهجور . ثم نقلا الى غابة صغيرة من أشجار الكافور حيث تركت جثتيهما تتدليان من شجرتين . ووضع « باجلين » لغما بالقرب من الشجرتين على أمل أن يقتل جنديا ثالثا حتى يتحقق التعادل ، ولكن عندما تأخر البوليس فى العثور على الجثتين اخطرت منظمة « الارجون» الشرطة بمكانهما ، مع تحذيرهم من وجود الغام فان « باجلين » كان يخشى أن يصيب اللغم اى جندى يهودى قد يشترك فى مهمة البحث وبناء على التحذير ، فان البريطانيين سحبوا الجثتين مستخدمين الحبال والخطافات ، معتقدين أن الجثتين ذاتهما ملغومتان . ومما زاد من بشاعة عملية استرداد الجثتين بالنسبة لفرقة الانقاذ العسكرية والشرطة والصحفيين والمصورين الحاضرين ، ان الجثة الاولى عند انزالها لمست اللغم الذى زرعه « باجلين » ففجرته وتطايرت اشلاؤها . أما الشجرة التى تحمل الجثة الثانية فقد اقتلعها الانفجار من جذورها واصيب ضابط برتبة كابتن من سلاح المهندسين الملكى كان يشرف على العملية ، فى وجهه وكتفه .

تردد صدى عملية شنق الجنديين فى جميع انحاء العالم ، مثلما حدث لعملية الانفجار فى فندق « الملك داود » وعملية الهروب من حصن عكا . ومع هذا فقد كان « مناحم بيجين » الذى صدق على العملية ، متحفظا بصورة غريبة

ازاء هذا القرار . وكتب يقول فى مذكراته التى نشرت فى كتابه « التمرد » :
« وفى اليوم التالى تم شنق البريطانيين . لقد عاملنا عدونا بالمثل . ولقد حذرناه مرارا وتكرارا . ولكنه تجاهل تحذيراتنا باصرار . لقد أجبرنا على الرد عليه بأسلوب « الشنق بالشنق » . وكانت أيام ساد الظلام نهارها كالليالى الخالية من النجوم » هذا هو كل ما قاله فى المساحة التى تقل عن صفحة واحدة والتى خصصها لعملية الشنق ، عن هذا القرار أما باقى المساحة فقد ملأها بتوجيه اللوم للبريطانيين لتنفيذهم « احكام الاعدام » التى لا معنى لها » .

بيد أن قرار قتل الجنديين لم يصدر ببساطة ، فقد بذل « بيجين » جهودا فائقة فى مشاورات مع زملائه بالقيادة العليا للارجون ، على الرغم من عدم وجود ما يفيد بانه كان يعارض قرار الشنق . ويعتقد « يعقوب أمرامى » أن « بيجين » لم يكن يعرف تماما ما يجب عليه عمله . يقول « أمرامى » :

« لقد سأل الجميع عن آرائهم ، ولم يكن يريد أن يؤثر على الآخرين عن طريق اعلان موقفه . وأنا شخصيا كنت أؤيد القرار . وقام بمشاورة ستة أو سبعة منا — مثنى وفرادى . ولم يكن هناك من يعارض القرار . وأنا لا أنفى أن البعض كانت تراودهم المخاوف . لقد كانت المسألة نسبية . وكان رأى البعض قاطعا ، بينما كان هناك آخرون لديهم بعض الشكوك ولكنهم قالوا نعم . وكان « بيجين » ، يريد أن يسهل المسألة على اى أحد يريد أن يقول لا ، أو يعبر عن اى تحفظ .

« وكانت مشاورة كل أعضاء القيادة العليا بهذه الصورة ، عملا غير عادى ، وكانت القرارات تؤخذ عادة بواسطة موافقة اغلبية الاعضاء الموحودين . ولم أسمع « بيجين » يعترف مطلقا بعد ذلك بأنه كانت لديه بعض الشكوك . ولو أنه كان لا يوافق على القرار لعارضه بكل قوته ويدافع بقوة عن وجهة نظره . ولم يكن هناك آنذاك ، اى دليل على انه كان يعارض القرار . وكان « باجلين » أقوى المؤيدين لقرار الشنق — فان البريطانيين شنقوا رجاله هو » .

وجدير بالذكر أن احد الدارسين الاسرائيليين اكتشف بعد خمسة وثلاثين عاما أن والدة السيرجنت « مارتن » كانت يهودية مصرية . وكان والده قد تزوجها اثناء عمله فى السودان كموظف مدنى من وزارة المستعمرات . ووفقا للشرائع اليهودية فان هذا الامر يجعل السيرجنت يهوديا . وقد سئل أحد أعوان « بيجين » ، الذى كان قد أصبح رئيسا للوزراء ، عما اذا كان هذا سيؤثر فى مصير السيرجنت ، لو أنه كشف عن تلك الحقيقة آنذاك . وكان رده « فى الغالب لا » . فان تنظيم الارجون السرى قد سبق له ، على أى الحالات ، اغتيال يهود آخرين ممن اعتبرهم خونة .

ومهما يكن من أمر ، فان عملية شنق الجنديين البريطانيين حققت الهدف منها ، فلم يتم بعد ذلك اعدام اى ارهابى يهودى وان كان قد تم قتل خمسة من اليهود الابرياء عندما هاجمت جماعات من الجنود والشرطة البريطانيين في تل ابيب كرد فعل لعملية الشنق . واغلق « بيجين » صفحات القضية على أساس افتراض ان اعدام الجنديين البريطانيين قد انقذ أرواح عشرات من رجاله ورجال « عصابة شتيرن » خلال العام الاخير للانتداب البريطانى .

ولكن ربما لم يكن من قبيل المصادفة أن « بيجين » كان يصر باستمرار ، منذ ان تولى رئاسة مجلس الوزراء ، على رفض مطالب زملائه من اليمينيين باعدام الارهابيين العرب . فقد حصل على كفايته من عمليات الاعدام ، كما انه كان يعلم جيدا قيمة الاستشهاد .

الفصل التاسع

الخروج من عش « الدبابير »

كان شنق كل من السيرجنت « مارتن » والسيرجنت « بيس » بمثابة القشة التى قسمت ظهر البعير بالنسبة للرايين العام والبرلمانى فى بريطانيا . وكان رد الفعل المبدئى هو الغضب . فاجتاحت المظاهرات المعادية لليهود فى لندن وليفربول ومانشيستر وجلاسجو وغيرها من المدن البريطانية . ولكن سرعان ما تحولت الكراهية الى تساؤل : هل فلسطين تستحق فعلا هذه التكاليف الباهظة التى يدفعها البريطانيون بأرواحهم ومكانتهم ومصالحهم ؟ لقد أخذ الرد على هذا التساؤل يتبلور ابان صيف عام ١٩٤٧ ليصبح نفيا جازما .

واعترف سير « آرثر جريتش ــ جونز » ، وزير المستعمرات بمجلس العموم فى ١٢ اغسطس ، بأن « ثمة موجة شديدة من التساؤل تسود الجمهور البريطانى حول الاعباء والتكاليف التى تتحملها بريطانيا ، والمأساة الناجمة عن استمرار بريطانيا فى تحمل هذه المسئولية الدولية » . وكان هناك شبه اجماع كامل بين أعضاء مجلس العموم ، الذين تم استدعاؤهم من اجازاتهم الصيفية لمناقشة مسألة شنق الجنديين ، على المطالبة بانسحاب مبكر للقوات البريطانية . وقال « ونستون تشرتشل » فى خطاب وجهه فى قصر « بلنهايم » الى أعضاء حزب المحافظين المعارض والمجتمعين هناك :

« أن (بريطانيا) تحتفظ بحوالى مائة الف جندى بريطانى فى فلسطين ونبدد من الاموال التى نحصل عليها بصعوبة ثلاثين مليون جنيه استرلينى ، أو ربما أربعين مليون جنيه سنويا هناك ، .. وليست هناك اية مصلحة بريطانية فى استمرار الانتداب فى فلسطين . ولقد بذلنا طوال ثلاثين عاما تقريبا جل طاقتنا من أجل القيام بمهمة شريفة فرضناها على أنفسنا تلقائيا . وقد طالبت الحكومة منذ عام باخطار الامم المتحدة باننا نرفض تحمل المزيد من الاهانات والخسائر . ولكن الوزراء اكتفوا بفتح أفواههم فى بله وتردد بصورة مخزية فى اتخاذ القرار ، ومازالوا لا يفعلون شيئا سوى ترك أفواههم مفتوحة حتى الآن » .

وقد بعث « هيودالتون » ، عضو الوزارة العمالية ، برسالة الى « كليمنت آتلى » ، رئيس الوزراء ، يقول له فيها :

« اننى واثق تماما من ان الاوان قد حان تقريبا لكى نخرج كل قواتنا من فلسطين . فان الاوضاع الموجودة هناك حاليا ، لا تكلفنا غاليا من حيث الافراد والاموال فحسب ، ولكنها ، كما يعلم كلانا ، لا تشكل اية قيمة حقيقية من وجهة النظر الاستراتيجية - وعلى اى الحالات لا يمكن الاحتفاظ بقاعدة آمنة فوق « عش دبابير » - وفضلا عن هذا فان بقاءنا هنا يعرض شبابنا لاقصى التجارب بلا داعى حقيقى ، مما يولد مشاعر معادية للسامية بسرعة مذهلة » .

وجاءت قوة ضغط الراى العام ، عقب شنق الجنديين البريطانيين ، على راس قائمة الاسباب التى سردتها « اليزابيت مونرو » ، الخبيرة البريطانية فى شئون الشرق الاوسط ، وراء حدوث « التحول الضخم » فى موقف بريطانيا ، فتقول :

« ان الراى العام البريطانى اعتاد طوال سنين عديدة أن يتخطى اى عقبات تعترضه فى فلسطين ، وكان ينظر الى « الاضطرابات » و « العنف » هناك ، تماما كما كان ينظر الى « الاضطرابات » فى ايرلندا - اى كتجربة مؤلمة على الرجل الابيض ان يتحملها كجزء من اعبائه ، ولكن هذا الاتجاه تغير فى الاول من اغسطس سنة ١٩٤٧ ، وكان السبب فى هذا التغيير هو تنفيذ الاعدام شنقا فى جنديين بريطانيين شابين برتبة سيرجنت ، على يد الارهابيين اليهود الذين ارتكبوا هذا العمل كاجراء انتقامى . فلهجة جميع التعليقات التى ترددت فى الداخل ازاء هذا العمل تختلف تماما عن التعليقات على الاعمال الارهابية السابقة ، والتى أسفر بعضها عن خسائر أفدح فى الارواح - كعملية نسف فندق « الملك داود » مثلا . وقد نشرت الصحف المصورة فى صفحاتها الاولى صور الرجلين المشنوقين ، وساد شعور بالاستياء العام ازاء استخدام الجثتين كشرك متفجر ، بل ان الراى العام الحر عبر فى عدة مدن بريطانية عن استيائه فى صورة ثورات محدودة من المشاعر المعادية للسامية » .

وادى هذا الحدث بسرعة الى تصعيد المشاعر المناهضة لامريكا ، وذلك فى فترة غير ملائمة على الاطلاق . « وقدم وزير الخارجية البريطانى تحذيرا فى الثانى من أغسطس الى السفير الامريكى لويس دوجلاس ، يفيد بأن بريطانيا التى « تشعر بالاحباط وخيبة الامل نتيجة للقيام بمهمة الانتداب ، التى لم تحظ بالامتنان عليها ، قد تضطر الى التخلى عن هذه المسئولية » وكان الموقف فى فلسطين يعمل على تسميم العلاقات بين الولايات المتحدة وبريطانيا .

وكانت الحكومة قد بدأت بالفعل فى اتخاذ الخطوة الاولى نحو انهاء الانتداب - على الرغم من اتهام تشرتشل لاعضاء الوزارة بالبلادة - قبل

خمسة اشهر من اعدام الجنديين . فقد المح « يرنست بيفين » فى مجلس العموم يوم ١٨ فبراير السابق الى « أن السبيل الوحيد الباقى الان أمامنا هو رفع المشكلة الى الامم المتحدة لاتخاذ قرار فيها » . فقد ادرك وزير الخارجية أن بريطانيا لن تستطيع ارضاء أى من العرب أو اليهود — وانها لا تملك امكانية فرض حل من جانبها . وكان بيفين » ما زال محجما عن الاعتراف بافلاس سياسته والتخلى عن الانتداب ، غير أن بريطانيا تقدمت فى شهر ابريل بطلب الى الامم المتحدة لتشكيل لجنة خاصة لدراسة الاحتمالات القائمة فى فلسطين وتقديم تقرير بنتائج دراستها الى « الجمعية العامة » فى الخريف . ويعتقد « هارولد بيلى » مستشار وزير الخارجية « بيفين » لشئون الشرق الاوسط ، أن هذه المبادرة صدرت أساسا عن « أتلى » اكثر من أن تكون من بنات أفكار وزير الخارجية . وأصدرت « لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين » فى ٣١ أغسطس ١٩٤٧ ، توصياتها بانهاء الانتداب البريطانى وبانشاء دولتين منفصلتين واحدة يهودية وأخرى عربية . وفى ٢٩ نوفمبر وافقت الجمعية العامة على التقسيم بأغلبية الثلثين .

ولم يكن هذا هو الحل الذى كان « مناحم بيجين » و « الارجون زفاى ليومى » يسعون الى تحقيقه . وكان « بيجين » قد عقد اجتماعا سريا فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٣٧ مع « أميل ساندستروم » ، رئيس « لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين » . وقد عقد هذا الاجتماع ، الذى منح « الارجون » نوعا من الاعتراف الدولى ، بترتيب من كارتر دافيدسون ، الصحفى الامريكى بالاسوشيتدبرس ، حيث قدم مساعيه الحميدة نظير أن يكون هو الوحيد الذى يطلع على تقرير مباحثاتهما التى استغرقت ثلاث ساعات .

وكتب « دافيد سون » يقول فى تقرير قد أجل ارساله لمدة شهر حتى تنتهى بعثة الامم المتحدة من عملها وتغادر الشرق الاوسط ، أن « ساندستروم » و « بيجين » قد ناقشا « فى هدوء وبأسلوب ودى التاريخ السياسى والدينى لفلسطين وكان الحديث لطيفا ووديا لدرجة ان « ساندستروم » قام بنفسه فى النهاية بتحذير « بيجين » قائلا : « ان الشارع قريب من هنا . أليس من الافضل أن نخفض أصواتنا ورد عليه بيجين ضاحكا : « لا تخش شيئا ، فان رجالنا يقفون هناك . وسيبلغوننا اذا ارتفعت أصواتنا ولفتت الانتباه » .

وقد حدد قائد الارجون اهدافه ، بينما كانا يرتشفان النبيذ ويأكلان الفاكهة ، بمنزل الشاعر « يعقوب كوهين » فى تل أبيب ، ونص برنامجه على المطالبة بمنح اليهود السيادة على جانبى الاردن على أن يتم تنفيذه وفقا للخطوات التالية :

١ ـ انهاء الاحتلال البريطانى « لارض اسرائيل » .

٢ ـ نقل السلطة الى هيئة نيابية ديمقراطية تمثل شعبنا .

٣ ـ اعادة جميع اليهود الراغبين فى ذلك الى الوطن فى فلسطين بمساعدة من هيئة دولية .

٤ ـ اجراء انتخابات ديمقراطية عامة بعد الانتهاء من اعادة اليهود الى الوطن .

٥ ـ الحصول على قرض دولى لاستصلاح الارض لصالح كل من الفلاحين العبرانيين العائدين والعرب ، والذين يعانون من العوز الشديد وهم يرزحون تحت نير العبودية والاستغلال .

وعندما استعد ساندستروم للانصراف ، صافحه « بيجين » قائلا : اتمنى لك التوفيق فى مباحثاتك ، ولكن لا أحد منا يتصور أن قرارك سوف يجعلنا نتخلى عن النضال .

وقد قبل « ديفيد بن جوريون » قرار التقسيم على مضض ، نيابة عن التنظيم اليهودى فى فلسطين (الييشوف) كما وافق عليه بصفته الشخصية ، حاييم وايزمان ، الذى يعتبر أكثر الدبلوماسيين الصهيونيين اصرارا ومثابرة . غير أن « بيجين » أعلن رفضه للقرار وكأنه شيئا محرما ، وقد صدق وعده الذى أعلنه عند وداعه للجنة الامم المتحدة . وظل يحارب التقسيم فعليا حتى أعلن قيام دولة اسرائيل يوم ١٤ مايو عام ١٩٤٨ ، ثم فى الكنيست طوال مدة الست والعشرين سنة التى قضاها فى صفوف المعارضة ، وأخيرا من موقعه داخل الحكومة التى تولى رئاستها بعد عام ١٩٧٧ ، وذلك عن طريق بذل كافة الجهود الممكنة لضمان عدم عودة الاراضى المحتلة فى الضفة الغربية الى الاردن أبدا .

هذا ، ولطالما انقسم الرأى العام الاسرائيلى حول مدى مساهمة « الارجون » و « عصابة شتيرن » فى انشاء دولة اسرائيل فبموجب تفسير « الماباى » للتاريخ ، كان « المنشقون » يعتبرون بمثابة عنصر ازعاج ، لا قيمة له . اما الجهد الفعلى فى بناء الامة فقد اضطلعت به حركة العمل (تحت رئاسة حزب الماباى) ، وحلفائها من الطبقة المتوسطة والفئات الدينية . وهم « الصهيونيون العموميون » وحزب « مزراحى » . وشطب الدور الذى لعبه ورثة « جابوتنسكى » . ولكن عندما قام « بيجين » فى عام ١٩٧٧ بتشكيل حكومة الليكود المنتخبة ، تبوأ « التصحيحيون » المكانة التى يستحقونها وانقلبت الاوضاع . وأصبح « بيجين » يوصف بأنه الرجل الذى « طرد البريطانيين من البلاد » ، بينما تحول « بن جوريون » وشركاؤه الى مجموعة

من الاشخاص خائرى القوة الذين يقبلون الحلول الوسط ، ورجال لا يملكون البصيرة ولا الشجاعة التى تمكنهم من مقاتلة الطغاة الدخلاء .

ولا يقل هـذا التفسير الجـديد المتطرف تشويها للحقيقة عن سابقه فالوثائق البريطانية والمناقشات التى دارت فى بريطانيا تبين بوضـوح أن « الارهاب اليهودى » قد لعب دورا بارزا فى تحطيم ارادة البقاء فى فلسطين . وكانت لبريطانيا اهتمامات أخرى تشغلها فى الداخل والخـارج . فالجنيـه الاسترلينى كان يواجه ضغوطا ، كما كانت بريطانيا تعانى من نقص شديد فى الوقود بعد أن تعرضت لشتاء قاس . وكانت الهند على وشك نيل الاستقلال .

وبدات نظرة بريطانيا الاستراتيجية تتغير مع بداية نهـاية الامبراطورية البريطانية . ولم يكن فى وسع الحكومة ، فى مواجهة التهديد السوفيتى المتزايد فى أوروبا أن تعرض للخطر تحالفها مع أمريكا والمساعدات المالية التى تحصـل عليها منها . وأصبحت فلسطين تشكل عبئا ، خاصة وأنهـا ، كما قالت « اليزابيث مونرو » ، « لا تعتبر مسألة حياة أو موت بالنسبة لميزان مدفوعات المملكة المتحدة او مستوى المعيشة بها ، ولا بالنسبة لأمن بريطانيا العسكرى أو علاقاتها بالكومنولث » . وبحلول عام ١٩٤٧ ارتفعت تكاليف المحافظة على سيادة القانون والنظام فى فلسطين وأصبحت باهظة . فالى متى تسـتطيع بريطانيا الاحتفاظ بمائة الف رجل مرابطين هناك ؟ وعلى اى الحالات فان مائة الف لم يكونوا كافين لاداء تلك المهمة . وتزايد الشعور بأن الفوائد الناجمة من وراء ذلك اصبحت فى تناقص مستمر . ولم يستطع الجنرالات ولا السياسيين ايجاد رد مقبول على حرب العصابات المستمرة التى تشنها « الارجـون » و « عصابة شتيرن » فى المدن . فلم يكن ثمة سوابق يمكن الرجوع اليها . ولم يكن فى وسعهم قهرالمتمردين دون أن يسحقوا « البيشوف » ككل .

وفى الوقت ذاته ، كان الشباب يقتلون بعيدا عن ديارهم بلا سـبب مقنع . وكانت بريطانيا تتعرض للاهانة والسخرية . ففى خلال ثلاث سنوات — أى منذ نهاية الحرب العالمية فى ١٩٤٥ الى أن غادر آخر المندوبين الساميين للبلاد فى عام ١٩٤٨ — لقى ٣٣٨ مواطنا بريطانيا حتفهم بأساليب عنيفة على ايدى الجماعات اليهودية . وقتل ٩٩ بريطانيا خلال ستة أسابيع اعتبارا من أول أكتوبر وحتى ١٨ نوفمبر من عام ١٩٤٦ ، بعد ما انسحبت « قوات الهجاناه» فى ١٦ يوليو من ذلك العام ، من حركة المقاومة العبرانية . وفى يناير سنة ١٩٤٧ تم اجلاء حوالى الفين من الرجال والنساء والاطفال الى بريطانيا بينما نقل باقى المدنيين للاقامة داخل« ساحة آمنة »خلف الاسلاك الشائكة . وخلال ليلة واحدة من شهر مارس قتل أكثر من عشرين بريطانيا . من بينهم اثنا عشر ضـابطا عندما قامت « الارجون » بنسف ناديهم بالقدس ، فضلا عن اصـابة ثلاثين بريطانيا بجراح . واشعل رجال « عصابة شتيرن » النار فى معمل لتـكرير

البترول فى حيفا ، واستمرت السنة اللهب مشتعلة لمدة ثلاثة أسابيع . وأوصى رؤساء الاركان فى لندن بفرض الاحكام العسكرية فى بعض الحالات المعينة ، ولكنهم أقروا ان « فرض القيود فى جميع انحاء البلاد فى وقت واحد ، انما يفوق امكانيات القوات المتاحة حاليا ، كما أن فرض الاحكام العسكرية من شأنه أن يزيد من الاعباء الحالية دون مزايا تعويضية » . وكما يقول « نيكولاس بيثيل » :

« لما كان كل واحد من الضحايا البالغ عددهم ٣٣٨ شخصا ، قد لقى حتفه بطريقة فردية ، حيث قتل بمفرده عن طريق اطلاق الرصاص عليه ، أو ضمن مجموعة صغيرة بواسطة قنبلة ، فان موتهم ترك اثرا عميقا داخل الرأى العام البريطانى لا يقل عن الاثر الذى احدثته الخسائر الاكبر حجما فى الارواح البريطانية ، ابان الحرب العالمية الثانية ، والتى تحملها بصبر وتصميم . فى حين بدا هؤلاء القتلى البالغ عددهم ٣٣٨ وكأنهم ماتوا بلا أى داع . ولذلك فقد تضاعفت الضغوط السياسية من أجل وقف تلك الاغتيالات .

هذا ، وقد رفع القنصل الامريكى فى القدس تقريرا الى واشنطن فى أول مايو من عام ١٩٤٧ جاء فيه ما يلى :

« لا مفر من استنتاج ان حكومة فلسطين ، التى يحاول المسئولون فيها ادارة شئون البلاد من خلف الاسلاك الشائكة ومن داخل مبان محاطة بحماية مكثفة ، وهم يعيشون (أى أولئك المسئولين بدون زوجاتهم وابنائهم) فى عزلة تثير الشفقة فى وسط مناطق آمنة — لا مفر من استنتاج أن هذه الحكومة لا تزيد عن كونها منظمة طريدة بلا أمل كبير فى أن تتمكن من مواجهة الاوضاع القائمة حاليا فى البلاد » .

وتوصل « مايكل ج . كوهين » ، المؤرخ الاسرائيلى ذو الميول السياسية الصهيونية اليسارية ، بعد أن اجرى دراسة مستفيضة للوثائق البريطانية الاربكة ، الى « أن التاريخ يوحى ، على ما يبدو » بأن الاساليب العنيفة التى انتهجتها جماعة « ارجون زفاى ليومى » والمكروهة فعلا من الناحية المعنوية ، كان لها تأثير حاسم فى تحويل مسألة الجلاء من كونها حلا بديلا فى فبراير ١٩٤٧ ، الى قرار حازم ، بحلول شهر اغسطس من ذلك العام ، ينص على التخلى عن أعباء الانتداب » .

ولكن ، لا يمكن تقييم دور « الارجون » و « عصابة شتيرن » فى فراغ . فان قوات الهاجاناه كانت تدبر فى الوقت ذاته حملة باسلوب مختلف لم يكن أقل اضرارا بسمعة بريطانيا ومكانتها ، وان أدى الى اظهار القضية اليهودية فى صورة أفضل . فقد عملت فيما بين عام ١٩٤٥ وشهر مايو من عام ١٩٤٨ على احضار حوالى سبعين الف يهودى بطرق غير مشروعة الى فلسطين . وقد تمكنت البحرية الملكية البريطانية من اعتراض طريق ٥١٥٠٠ من هؤلاء

المهاجرين واحتجازهم فى قبرص . وكانت اشهر مراكب الهجرة غير المشروعة ، وهى « الاكسودس ١٩٤٧ » (أى الخروج الجماعى ١٩٤٧) ، قد أقلعت فى يوليو من ذلك العام من الميناء الفرنسى الصغير ، « بورت — دى — بو » ، حاملة على ظهرها ٤٥٠٠ يهودى . وقد تعقبتها طائرات السلاح الجوى الملكى وسفن الاسطول البريطانى فى رحلتها عبر البحر الابيض المتوسط . ولما كانت معسكرات قبرص قد امتلأت عن آخرها ، فقد قرر « بيفين » انتهاج سياسة جديدة لمعاقبة أولئك المتسللين باعادتهم الى المكان الذى أتوا منه . وفى يوم ١٨ يوليو اعتلى مشاة البحرية البريطانية ظهر « الاكسودس » أمام الساحل القريب من غزة . وانتهجت « الهاجاناه » سياسة تجمع بين المقاومة والاعلام . فقد تم نقل صوت المعركة الدائرة مع القوات البحرية التى اعتلت المركب ، الى الشاطىء من خلال أجهزة ارسال قوية واختارت « الهاجاناه » أن تعرض قصيتها على المسرح العالمى الاوسع نطاقا بدلا من أن تحاول انزال بعض الركاب . فصدرت التعليمات الى قبطان السفينة « ايك آران » ، باستغلالها « كمظاهرة كبرى تحمل لافتات تبين مدى ضعفنا ومسكنتنا وعجزنا ، ومدى قسوة البريطانيين » . وأدى البريطانيون الدور المرسوم لهم فى النص الذى وضعته « الهاجاناه » . بحماس يفوق كل تصوراتها اذ انهم قاموا بتوجيهها ، بعد سيطرتهم عليها ، الى داخل ميناء حيفا حيث أصبحت هدفا ثابتا يقف أمام آلات التصوير ومراسلى أجهزة الاعلام العالمية ، وشاهد حدث وصول السفينة ، رئيس « لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين « اميل ساندستروم »» واثنان من زملائه ، بدعوة من « أبا ايبان » ، الذى أصبح فيما بعد وزيرا لخارجية اسرائيل ، وكان يعمل آنذاك بالوكالة اليهودية . وقد ذكر « ايبان » فى مذكراته أن المهاجرين قرروا ألا يستسلموا لمحاولات الابعاد فى هدوء . ووجه «ونستون تشرشل » الى « بيفين » اتهاما بشن « حرب قذرة » ضد اليهود .

وعلق ايبان على ذلك بقوله :

« لو أن أحدا أراد أن يعلم حقيقة ما يقصده « تشرشل » لعرفها بسهولة من مشاهدته لجنود البريطانيين وهم يستخدمون أعقاب البنادق والخراطيم والقنابل المسيلة للدموع ضد الناجين من معسكرات الموت . وكانوا يحملون الرجال والنساء والاطفال بالقوة الى السفن لحبسهم ، حيث يتم القاؤهم فى الاقفاص الموجودة فى أسفل السفن لينقلوا الى خارج المياه الاقليمية لفلسطين . وبينما كان « ساندستروم » و « بريليج » و « جرانادوس » يراقبون هذه الممارسات البشعة ، كنت أنا أترقب عودتهم الى القدس بصبر نافذ . ورأيت وجوههم عند عودتهم وقد علاها الشحوب من هول الصدمة . وأدركت أن سؤالا واحدا فقط كان يشغل بالهم : اذا كان هذا هو الاسلوب الوحيد الذى يستطيع به الانتداب البريطانى أن يستمر ، فمن الافضل وقفه تماما » .

وقد ضاعف البريطانيون من حماقتهم باعادتهم لهؤلاء المشردين الى الميناء الفرنسى « بورت — دى — بو » حيث رفضت أغلبية اللاجئين البالغ عددهم ٤٥٠٠ شخص ، النزول الى الشاطىء بالرغم من العرض الفرنسى بمنحهم حق اللجوء . واتيحت للصحافة العالمية فرصة اخرى لتصوير الظروف الصحية السيئة فى السفينة وكتابة التقارير عنها . ووصفت الصحيفة الشيوعية الفرنسية « لومانيتيه » السفن البريطانية الثلاث بأنها تشبه معسكر « أوشفيتزعائم » . وارتكب « بيفين » عند ذاك اكبر أخطائه على الاطلاق ، حيث أرسل اليهود الى المانيا . وكانت سياسته الجديدة بمثابة كارثة اعلامية لبريطانيا خاصة فى الولايات المتحدة ، بينما ادت الى تحقيق نصر ساحق للصهيونية . وكتبت « اليزابيث مونرو » تقول : « لقد استغل الصهاينة الركاب كقطع فى لعبة الشطرنج . وارتكبت الحكومة البريطانية ، التى تعرضت لاستفزاز بالغ ، نفس الخطأ ، وأثار تصرفها بارسال اليهود الى المكان الذى كان يعتبر من قبل بمثابة مقبرة لهم ، استياء الملايين ، اكثر مما لو أرسلوهم الى اى مكان آخر فى العالم » .

وكانت الهجرة غير المشروعة تعتبر حتى تلك الفترة ، حكرا على « الهاجاناه » والوكالة اليهودية . فقد استطاع « التصحيحيون » أن ينقلوا من أوروبا الى فلسطين فيما بين عامى ١٩٣٧ ، ١٩٤٤ ، اربعين الف يهودى فقط ، وذلك وفقا لاكثر تقديراتهم تفاؤلا . ولكن نشاطهم فى هذا الصدد توقف بعد ذلك وركزوا جهودهم بدلا من هذا على النضال المسلح « للارجون » و « عصابة شتيرن » .

وكان عموم الصهيونيين يحتكرون أيضا النشاط الدبلوماسى فى لندن ونيويورك بل و فىفلسطين ذاتها ، بالرغم من الرنين المرتفع لدعاية « حركة التصحيح » فى أمريكا . واذا قلنا أن بريطانيا ما كانت ستتخلى عن الانتداب فى ذلك الحين بدون نغز حرب المتمردين ، فان الحقيقة تؤكد ايضا أن قرار الامم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ما كان سيحصل على الاغلبية لولا « مفاوضات الاروقة التى كان يجريها الدبلوماسيون المقوتون فى كل من واشنطن ونيويورك . وبالمثل ، فبدون الريادة الدؤوبة لصهاينة حركة العمل وحلفائهم ، لما كان هناك اعداد لقيام الدولة اليهودية ولما وجدت البنية الاساسية للسيادة . ولولا وجود المزارع الجماعية والتعاونية فى النقب والجليل لما جاء خط الحدود الاسرائيلية بهذه الصورة ، بل يمكن القول أنه لما كانت هناك صناعة أو زراعة .

لقد كتب « جوزيف ب . سيشتمان ، رفيق « جابوتنسكى » وكاتب سيرته ، يقول :

« لقد كان حزب التصحيحيين ، والمنظمات المنبثقة عنه ، هو الوحيد دون جميع التشكيلات الصهيونية فى فلسطين ، الذى لم يكن يملك أى مستوطنات (فيما عدا بعض الاستثناءات الضئيلة القليلة) أو مشروعات اقتصادية أو مؤسسات خاصة به . ولقد مكنهم هذا من المحافظة على مثلهم الصهيونية العليا وقدرتهم على حرية الحركة ، مما جعلهم الطليعة العسكرية ليهود فلسطين . بيد انهم دفعوا ثمنا باهظا جدا نظير ذلك ، فقد اصبحوا يشكلون الفئة المعوزة داخل المجتمع اليهودى ، وكثيرا ما اثرت حاجتهم الاقتصادية على فرصهم السياسية » .

ومرة أخرى أصبحت « الهاجاناه » تشكل نواة لجيش يهودى قادر على صد هجوم خمسة جيوش عربية وردها على أعقابها . وكانت جماعة « الارجون » و « عصابة شتيرن » مدربتين على شن هجمات فدائية والقيام بعمليات تخريبية وغارات انتقامية ، ولكنها لم تكن مدربة على استخدام أساليب الحرب التقليدية . وكانت القوة الاسمية للهاجاناه فى منتصف عام ١٩٤٧ تبلغ ٤٣ الف رجل وامرأة ، لكن كان ٣٢ الف منهم يتبعون « الحرس الوطنى » المفتقر للتدريب والتسليح . بيد أن « الهاجاناه » كانت تملك أيضا « قوة ميدانية » قوامها ٨ آلاف من المتطوعين المتفرغين طوال الوقت ، يتدربون بانتظام . كما كانت قوات « البالماخ » النظامية تضم ٣١٠٠ رجل وامرأة . وقد جاء من بين هذه القوات الاخيرة معظم قادة الجيش الاسرائيلى الناشىء . وعندما اقتربت الحرب ، قامت قوات « الهاجاناه » بتنظيم نفسها فى ٥ كتائب ميدانية وتدربت على الأساليب القتالية وانشئت ٥ مقار رياسة اقليمية ، ومع ذلك فان الهاجاناه ظلت ، حتى حلول نهاية عام ١٩٤٧ ، مفتقرة بشدة للتسليح . فلم يكن تحت يدها سوى ١٧٦٠٠ بندقية متنوعة ، و ٢٧٠٠ مدفع نصف آلى ، واقل من الف مدفع ماكينة ويقدر أن الارجون كانت تضم آنذاك حوالى الفى عضو ولكن نصفهم فقط هم الذين تلقوا بعض أنواع التدريب . أما عصابة « شتيرن » فكان قوامها بضعة مئات فقط . وكان مقاتلو « بن جوريون » قد أعدوا انفسهم لشن حرب تحرير ، بينما نظم مقاتلو « بيجين » عملية التمرد ضد البريطانيين . ولا يمكن استبعاد أي من هاتين العمليتين ، كما لا يجب التقليل من شانهما .

الفصـــل العاشر

كمـا حـدث فى ديـر ياسـين

« تقبل تهانى على هذا الذى يعـد عملا رائعا وأبلغ تحياتى الى كافة القواعد والجنود . اننا نشـد على أيديكم واننا فخـورون جدا بالقيـادة الممتازة وروح القتال التى سـادت خلال هذا الهجوم العظيم ، اننـا لن ننسى القتلى ونشـد على أيدى الجرحى بكل الحب · أبلغ الجنـود انكم بهذا الهجـوم والغزو ساهمتم فى صنع تاريخ اسرائيل . فلتواصلوا طريقكم حتى النصر ، وكما حـدث فى دير ياسـين وفى غيرها فاننا سنهاجم ونسحق العـدو . يا الهى ، يا الهى لقـد اخترتنا لنحقق هـذا الغـزو » ..

عندما أرسل مناحيم بيجين هذا الامر الذى يشى بالابتهـاج الى قيادته فى القدس كان لا يعرف الا قليـلا عما حـدث قبل ذلك خـلال أو بعـد المذبحـة التى وقعت يوم ٩ ابريل سـنة ١٩٤٨ فى قرية دير ياسـين وهى قرية عربية تقع على الطـرف الشمالى الغربى من مدينة القدس · ولكنه أعلن بعد ذلك بيومين عبر اذاعـة « صـوت صهيون المقاتل » التابعـة لجمـاعة أرجون زفاى ليومى انها معركة مقدسة اشترك فيها لاول مـرة جنـود من الارجون زفاى ليـومى وليخى والبالماخ . ولقـد ظـل قائـد الارجون زهاء اكثر من ثـلاثين عاما مقتنعا تماما أن دير ياسـين كانت عملية عسكرية تقليدية حارب فيها رجاله بشجاعة وشرف ، محاولين التقليل من وقوع خسائر بين المدنيين الى أدنى حـد متمسكين بالاخلاقيـات التى درجـوا عليها . وقد أدان بيجين خـلال المقابلات التى أجريت معـه مؤخرا وكذلك خـلال تصريحاته السابقة بن جوريون وكل شخص آخـر خالفـه فى هذا الرأى ووصفهم بأنهم « منافقون ضيقو الافق » بل وصل به الامـر الى وصفهم بالكذابين · أن هذا الثبات على المبـدأ يعد دليلا قويا على ولاء بيجين لمقاتليه وربما يعد أيضـا دليـلا على جنون العظمة القوى لديه . ان ما يقوله بيجين بعيد كل البعد عما حـدث بالفعل فى تلك القـرية فى صباح أحـد أيام الجمعة بعد أن نفضت بريطانيـا يديهـا من الانتـداب على فلسطين بشهر واحد ·

ان دير ياسين القرية التى يقطنها ما بين ثمانمائة وألف نسمة يكسبون عيشهم من العمل فى المحاجر وقطع الاحجار مازالت تؤرق مناحيم بيجين والدولة التى ساعد على انشائها وسواء أكان الامر مجرد صدفة أم مدبرا ، وسـواء أكانت يهودية أم عربية فان دير ياسـين سـببت ذعـرا أدى الى اسراع

سبعمائة ألف من العرب فى الهروب من الارض التى سرعان ما أصبحت اسرائيل . ان الاسم لم يفقد قط رنينه ومازالت قصة دير ياسين تمثل بالنسبة للصهيونيين موضوعا محرما ، فان الوثائق والصور قد أسدل عليها ستار من السرية لفترة أطول مما يمكن أن يلحق الضرر بأمن اسرائيل . ووجد الساسة والكتاب من كلا المعسكرين الصهيونيين انه من الحكمة اغلاق ملفات دير ياسين لأن الجميع متورطون فى المذبحة . وعلى الرغم من أن بن جوريون اسرع بارسال برقية عزاء الى الأمير عبد الله فى عمان فان الهاجاناة كانت مشغولة بالفعل فى محو الدليل الاكثر بشاعة ، فقد استطاع مصور لجريدة سينمائية تصوير فيلم طوله أربعمائة قدم للمرحلة الاخيرة من المذبحة ولكنه ارتكب خطأ بالحديث عن ذلك الى احد زملائه الذى كان يعمل لحساب مخابرات البالماخ ، والذى ذهب الى مطار اللد وقام بتبديل الفيلم قبل أن يطير الى لندن وتلقت الجريدة السينمائية فيلما طوله اربعمائة قدم يصور تشكل الضباب فى القدس .

كان عرب دير ياسين يعتقدون انهم آمنون ، على الرغم من الحرب غير المعلنة التى نشبت بعد تصويت الامم المتحدة بتقسيم فلسطين . وكانوا يثقون فى معاهدة عدم الاعتداء التى وقعها مختار قريتهم مع الضاحية اليهودية المجاورة فى جيفات شاؤل . وكما يقول محمد عارف سامور وهو مفتش متقاعد بالمدارس الذى كان يبلغ السادسة والعشرين من عمره عند وقوع المذبحة : « كان هناك اتفاق على الا تحدث مشاكل بينهم ، فاذا قامت مجموعة من شبابهم بمهاجمة دير ياسين فان اليهود يقومون باعتقالهم ومتعهم . واذا هاجم احد من دير ياسين جيفات شاؤل فان العرب يقومون بمنعه . لم تكن هناك مشاكل بين اليهود والعرب هناك فى ذلك الوقت » . كانت دير ياسين بالنسبة للهاجاناة قرية عربية يجب اخضاعها للسيطرة اليهودية عاجلا أو آجلا ولكن ليس بالضرورة عن طريق الغزو ، وكانت القرية تمثل أهمية استراتيجية لسببين ، أن وقوعها فى يد العدو يجعلها تمثل خطرا للضواحى اليهودية فى جيفات شاؤل ، بيت حاكيرم يافانوف وبايت فاجان بسبب موقعها فى أعلى التل . وكانت الهاجاناة تخطط لاقامة مهبط لطائرات على طول سلسلة التلال بين جيفات شاؤل ودير ياسين والذى من شأنه الابقاء على الاتصالات بين القدس والساحل فى حالة الطوارىء . وفى حالة ابو غوش وهى قرية « محايدة » اخرى تقع على بعد اربعة أميال على الطريق المؤدى الى تل أبيب فان السكان العرب وافقوا على النزوح عن القرية خلال مدة الحرب وسمح لهم بالعودة اليها بعد ذلك وربما كان يجرى ترتيب لشىء مماثل بالنسبة لدير ياسين .

ولكن عصابات الارجون وشتيرن كانت لديهـا أفكار أخرى . فلا أنهم خرجوا من تنظيمات سرية فانهم كانوا يتوقون لاثبات معدنهـم ان يظهـروا للهاجاناه والعرب انهم ليسـوا مقاتلى شوارع . وكانـوا كذلك يشعرون بالقلق من أن بن جوريون ربما يذعن لاقتراح الامم المتحـدة بتدويل القدس أو يقـوم على الاقل بالتعامل مع الملك عبد الله .

ومع ذلك فان أولئك المنشقين كانوا يدركـون مدى النقص فى الرجـال والسلاح لديهم . وكذلك لافتقارهم الى التدريب على القتال . ويقـول يهودا لابيدوت وهو ضابط كبير فى الارجون ويعمل حاليا أستاذا للعلوم فى الجامعـة العبرية ان جماعته لم يكن لديهـا اكثر من ثلاثمائة مقاتل فى القدس وان عدد جماعة شتيرن كان يبلغ المائة بالكاد . وقال لابيدوت فى شهادته المودعة فى أرشيف جابوتينسكى فى منتصف الخمسينات ان الفكرة الاصلية بمهاجمـة دير ياسين صدرت عن ييهوشيا جولدزميدت وهو ضابط عمليات الارجـون فى القدس : « كان السبب اقتصاديا أساسا » أى الاستيلاء على غنيمة للحفاظ على القواعد التى قمنا حينذاك بانشائها بموارد فقيرة للغاية . وعلى الرغم من هذا فقد ظلت الفكرة الاساسية هى غزو القرية بقوة مسلحة وهـو شىء لم يكن معروفا حينذاك فى البلاد وأصبح نقطة تحـول فى العمليات العسكرية اليهودية وسرعان ما وافقت جماعة شتيرن التى كانت تتطلع الى المصالحة مع الارجـون على الاقتراح الذى تمت احالته الى اجتماع مشترك لكبار الضباط المقاتلين : أربعة من كل جمـاعة وفقا لمـا ذكره لابيـدوت الذى كان أحـد أولئك الضباط ، فان عصابة شتيرن اقترحت تحـويل العملية الى غـارة تأديبيـة يقول : « لابيدوت » فى شهادته :

بالاضافة الى المناقشة العسكرية تقدمت جمـاعة ليهى باقتراح يقضى بالقضاء على سكان القرية ليرى العرب ماذا يحـدث عندما تشترك ليهـى والارجـون زفاى ليومى فى عملية عسكرية معا .

ولسبب أساسى آخر — فان هذا سوف يحـدث اضطرابا كبيرا فى البـلاد وسيكون نقطة تحـول هامة فى سير المعارك . وكان الهدف الواضح هـو تحطيم الروح المعنوية لدى العرب ورفع الروح المعنوية للجالية اليهـودية فى القدس الى حـد ما وهى التى تلقت الضربة تلو الضربة وخاصـة ما حدث مؤخـرا من تمثيل بجثث القتلى اليهود الذين وقعوا فى يد العرب » .

واضاف بنزيون كوهين قائد الارجـون فى العملية والذى أصيب بجراح عند بداية تبادل اطلاق النار : « عندما وصـل الامر الى مناقشـة وضـع السجناء ، والنساء ، والشيوخ ، والاطفـال تضاربت الاراء . ولكن كان رأى الاغلبية يقف الى جانب القضـاء على كافة الرجـال فى القرية وأى قوة

اخـــرى تعارضنا ســـواء كانت من الشيوخ أو النســـاء أو الاطفال »
« ان الرغبة فى الانتقـــام كانت قوية بعـــد الضربة التى وجههـــا العـــر
الى جوش بتنريون واتاروت وهما مستوطنتان يهوديتان بالقرب من القـــدس
فقدتهما اسرائيل ثم استعادتهما فى سنة ١٩٦٧ .

وقد رفض ضباط الارجون اتخاذ قرار حول اقتراح عصـــابة شتير
ولكنهم أحالوه الى القيادة .. ويقول لابيدوت ان بيجين رفض الاقتراح وأص
على أن يستخدموا مكبرا للصوت لتحـــذير سكان القرية واعطائهم فرصــ
للاستسلام دون اراقـــة الدماء . وقد أكدت مصادر الهاجاناه هذا . ووافق
قادة الميـــدان من جمـــاعة الارجون على مضض على استخدام مكبر للصوت
وترددوا فى أن تفلت فرصة أحـــداث مفاجأة من أيديهم ويزعم لابيدوت ان ك
جندى كانت لديه تعليمات بتجنب أحداث خسائر .

كان الهدف هو حمل العرب على الاستسلام وكانت الرسالة التى كا
مفروضا اذاعتها عبر مكبر الصوت هى:

« انكم محاصرون بقوات الارجون وليهى ولن يحـــــدث لكم شىء اذ
لم تقاتلوا » .

وكان هناك أحد احتمالين :

اما السيطرة على القرية وترك السكان هناك او نقلهم الى القســـ
العربى من القدس ، « اننا لم نتخذ قرارا سريعا وجامدا مسبقا بل قـــرر
الانتظار ورؤية ما سوف يحدث . وكان القرار الوحيد هو احداث أقل قد
ممكن من الخسائر » .

وعـــرف ديفيد شالتيل قائد الهاجاناه فى القـــدس خطة المنشقين
لمهاجمة دير ياسين . وحاول فى بادىء الأمر اثناءهم عن عزمهم ، فالقـــرية
كانت تقع فى ذيل قائمة أولوياته . فهى لم تكن تطل على طريق القـــدس -
تل ابيب ولم تقم بايواء العصابات من العرب الرحل الخارجين عن القانون
وكانت الهاجاناه مشتبكة فى معركة يائسة للاستيلاء على كاستيل وهى هضبة
استراتيجية تتحكم فى الطريق العام . واقترح شالتيل أن ينضم رجال الارجون
وشتيرن بأسلحتهم الى المعـــركة الدائرة للاستيلاء على كاســـتيل ولكنهم
رفضـــوا كما رفضوا كذلك اقتراحا بالاستيلاء على قرية عربية أخرى قريبة على
الطريق مثل قرية كولونيا بالقرب من قرية موتزا اليهودية . ويقول لابيدوت
« كنانريد ان نركز على القتال فى القدس وأن نترك القتال على الطـــريق
للبالماخ والهاجاناه . ولم يكن لدينا قـــوة كبيرة كافية فى القـــدس . ولم يكن
فى استطاعتنا تقسيمها . وكانت دير ياســـين ، كما يبدو ، هدفا يســـهل
الاستيلاء عليه .

وعلى عكس الانكار الذى اعلنته الهاجاناه عقب المذبحة مباشرة فان شالتيل وافق على مضض على الغـــارة على دير ياسين ولكنه وضع شروطا صارمة فى خطاب ارسله الى قادة عصابات الارجون وشتيرن المحليين :

« نما الى علمى انكم تخططون للقيام بعملية ضد دير ياسين ، واود أن الفت انتباهكم الى حقيقـــة أن الاستيلاء على دير ياسين والاحتفاظ بها هو مرحلة فى خطتنا الشاملة . اننى لا اعترض على قيامكم بالعملية شريطة أن تكون لديكم القـــوة الكافية للاحتفاظ بها . فاذا لم يكن ذلك فى مقدوركم فاننى احذركم من تدمير القرية مما سيؤدى الى رحيل السكان وقيام قوات خارجية باحتلال المنازل المنهارة . ان هذا الموقف سيجعل المعـــركة العـــامة اكثر صعوبة بدلا من جعلها اكثر سهولة . وان محاولة اعادة احتلال المكان سيلحق خســـائر جسيمة برجالنا . وهناك راى آخـــر أود وضعه نصب أعينـــكم وهو انه اذا دخلت قوات خارجية المكان فان هذا سيقضى على خطتنـــا ببنـــاء مطار » .

وكان شالتيل يأمل فى ان يثنى المنشـــقين بمواردهم الضئيلة عن تنفيذ ما ينوون القيام به فى دير ياسين ولكنهم كانوا مصرين على المضى قدما . وآثر قائد الهاجاناه اعطاء موافقته بدلا من المخاطرة بوقوع مواجهة مســـلحة بين القوات اليهودية المتنافسة . كان قرار ازرائيل جاليلى قائد الهـــاجاناه بعدم التعاون مع رجال الارجون وشتيرن خرقا للأوامر الثابتة . ولكن شعر شالتيل انه يتعين عليه استخدام الحكمة . وفى يوم الجمعة ٩ ابريل سنة ١٩٤٨ زحفت قوة مشتركة مكونة من ثمانين مقاتلا من الارجون واربعين من شتيرن الى دير ياسين فى هجوم من جهتين . وقبل اذاعة اى تحذير وقع مكبر الصوت فى حفرة وعلى الرغم من أن بيجين ظل سنوات بعـــد ذلك يزعم أن سكان القرية تجاهلوا التحذير الا أن شـــهود العيان اجمعوا على انه لم يذع اى تحـــذير قط ـــ أو على الأقل من على مسافة تسمح للعرب بسماعه . وعلى أية حال فكما يقول لابيدوت فان هذا ما كان يغير من الامر شـــيئا . فضل العرب القتال وكانوا اكثر استعدادا مما كان يظن مهاجموهم . وكانت دير ياسين مثلها مثل أية قرية فى فلســـطين التى يسودها الاضطراب تعين حرسا اثنـــاء الليل . واستطاع احدهم رؤية المهاجمين الذين ندموا فيما بعد لانهم لم يقوموا بهجومهم تحت جنح الظـــلام ـ وأطلق الحارس تحـــذيره وكان كل بيت تقريبا يمتلك بندقية وان كانت من النوع العتيق وامسك الرجال ببنادقهم وشرعوا فى الدفاع عن انفسهم وعائلاتهم وكان القائد بنزيون كوهين ضمن اءائل الخمسة والثلاثين يهوديا الذين اصيبوا بجراح وكان اجمـــالى القتلى اربعة من الارجون وواحد من شتيرن . ولم يكن هناك دليـــل على وجود مدافع أو غيرها من الأسلحة الثقيلة او جنـــود عراقيين أو ســـوريين كما يزعم الارجون . وروى شهود العيـــان اليهود ما راوه من اطلاق النار

من انقناصة الذى كان متواصلا ودقيقا . ووفقا لما ذكره لابيدوت الذى تولى القيادة فان مقاتلى الارجون وشتيرن كان لديهم نحو عشرين بندقية وثلاثة مدافع من طراز برين (وكانت أكثر الأسلحة فاعلية) وما بين ثلاثين الى أربعين مدفع خفيف من طراز ستين وان لم يعمل معظمها لانها مصنوعة بأيدى الهواة فى ورش الارجون ، فى تل أبيب وعدد قليل من المسدسات والقنابل اليدوية تقول شهادة « لابيدوت » :

« كانت المشكلة الاساسية بالنسبة لدير ياسين أن العرب كانوا اقوى منا ولديهم بنادق وذخيرة اكثر وكانوا يحاربون من منزل الى منزل . وحقيقى أن المقاومة كانت مركزة على تل واحد الى المغرب ولكن كان هذا مركز المدينة ، الذى يشكل تسعين فى المائة من مساحة القرية » .

تم ارسال رسول الى مركز قيادة الهاجاناة فى القدس فى ثكنات شيننلر وأرسل شالتيل مجموعة جنود من البالماخ مع مدفع مورتر ومدفع رشاش . وقامت وحدة البالماخ بتطويق التل الغربى من الجهة اليمنى واستطاعت اسكات المقاومة دون وقوع خسائر ثم انسحبت . ومهما كان اعتقاد بيجين الذى عاد الى تل أبيب بالنسبة للمنشقين وقتال البالماخ جنبا الى جنب ، فقد كان ذلك هو حجم الاشتراك الفعلى للهاجاناه فى المعركة . ومع انهيار الجانب الاكبر من دفاع العرب استأنف مقاتلو الارجون وشتيرن القتال مصوبين نيرانهم الى أى شىء يتحرك وللمنازل لنسفها سواء كان السكان داخلها أم لا وأصبح من الصعب بصورة متزايدة السيطرة على مقاتلى الارجون وشتيرن . ومما لا شك فيه أن بيجين أمر بضبط النفس ولكن كلما طال أمد العملية ، ازدادت الفوضى ، وبدا أن المغيرين عادوا الى غرائزهم الوحشية الأولية . ويقول يهوشيا جوردينتشك وهو ضابط من الارجون انهم فكروا فى الانسحاب بعد أن لحقت بهم خسائر :

« كان لدينا أسرى وقررنا القضاء عليهم قبل الانسحاب ، كذلك قضينا على الجرحى لاننا لم نكن نستطيع على أية حال علاجهم وفى أحد الاماكن قتل نحو ثمانين من الاسرى العرب بعد أن قام بعضهم باطلاق النار مما أسفر عن مصرع شخص ممن أتوا لعلاجهم ، كذلك تم اكتشاف العرب الذين تنكروا فى زى النساء . وهكذا شرعوا فى اطلاق النار على النساء أيضا اللاتى لم يسرعن الى المنطقة التى تجمع فيها الأسرى » .

أكد يائير تاسبان وهو الان عضو فى حزب مابام اليسارى فى الكنيست قصة الرجال العرب الذين تنكروا فى زى النساء . وكان تاسبان حينذاك يبلغ السابعة عشرة من عمره ويدرس فى احدى المدارس الثانوية فى القدس ودفعه مقاتلو الهاجاناه للاشتراك فى دفن الموتى بعد انسحابهم من ساحة المعركة . ولكن تاسبان يقدم تفسيرا مختلفا لذلك :

« ما رايناه كان نساء وأطفالا وشيوخا والذى أصابنا بالصدمة هو وجود حالتين أو ثلاث على الأقل من الشيوخ الذين تنكروا فى زى النساء واتذكر عندما دخلنا الى حجرة المعيشة فى أحد المنازل ان وجدنا امرأة صغيرة ميتة فى أحد الاركان وكان ظهرها الى الباب وعندما وصلنا الى الجثة وجدنا أنه رجل عجوز بلحية . وكان استنتاجى لما رايته أن ما حدث فى القرية قد أثار رعب أولئك العجائز لدرجة انهم أدركوا أن كونهم عجائز لن يشفع لهم وكانوا يأملون فى ان التنكر فى زى النساء سينقذهم » .

استطاع مائير بائيل الذى أصبح فيما بعد سياسيا يساريا وكان وقتذاك ضابط مخابرات فى الهاجاناة فى القدس ولم يكن معروفا لعصابات الارجون وشتيرن ان يشهد العملية برمتها : الهجوم ، والمقاومة والمذبحة . وكان قد عرف بالهجوم المرتقب وقرر ، دون ابلاغ رؤسائه ، أن يذهب وان يرى كيفية تنفيذ المنشقين لخططهم . وأخذ معه آلة تصوير وكان هدفه هو ابلاغ مقر القيادة بقدرتهم القتالية . وكان من المعروف ان الانجليز سيتركون البلاد قريبا وان الهاجاناه ستكون هى الجيش الوطنى وستعمل على ضم المنشقين الى صفوفه سواء كوحدات متميزة أو موزعة بين المقاتلين الآخرين وعلى اسوأ الاحوال فانهم اذا رفضوا انتخلى عن وضعهم المستقل فان الهاجاناة ستقوم باخضاعهم بالقوة وفى كلتا الحالتين فانه سيكون من المفيد تقييم ادائهم فى أول عملية تقليدية يقومون بها . واستهل بائيل تقريره لا زرائيل جاليلى بالابيات الافتتاحية لاحدى القصائد العبرية المشهورة التى كتبها حاييم ناشمان بياليك بعد مذبحة كيشينيف سنة ١٩٠٣ والتى قام خلالها الرعاع الروس بقتل تسعة واربعين يهوديا وجرح خمسمائة آخرين :

« انهض واذهب الى مدينة القتلى وستصل إلى الافنية وسترى بعينيك

« وستلمس بيديك على الاسوار والأشجار والأحجار والحوائط دماء

« القتلى المتجمدة وأدمغتهم المسحوقة ..

ومازال تقرير بائيل محظورا ولكن ما يتذكره هو مذبحة غير منظمة بعد ان خمدت معظم المقاومة العربية :

« كانت مذبحة فورية لم يسبق الاعداد لها . كانت انفجارا داخليا لا يستطيع احد السيطرة عليه . كانت مجموعات الرجال تذهب من بيت الى بيت تقوم باعمال السلب والقتل وكنت تستطيع سماع صرخات النسوة العرب ، الشيوخ العرب والأطفال العرب فى منازلهم ، حاولت العثور على القادة ولكننى لم انجح ، حاولت ان أصرخ وأن أمنعهم ولكنهم لم يكونوا يلقون بالا الى » . كانت عيونهم تلمع كانوا كما لو كانوا مخدرين ، مسممين عقليا ، كانوا فى حالة من النشوة » .

وبالنسبة لمحمد عارف سامور لم يكن الضحايا مجرد أشخاص مجهولين لديه كانوا أبناء عمومته ، جيرانه أصدقاءه وشاهد المدرس الشاب المذبحة من منزله الواقع فى الجانب الآخر من دير ياسين حتى نجح فى الساعة الرابعة بعد الظهر من الهروب الى عين كرم على بعد عدة أميال الى المغرب ويقول ان معظم الناس قتلوا داخل منازلهم :

« فى احدى الحالات وهى حالة اسرة زهران نجا شخص واحد من بين خمسة وعشرين ، وفى منزل آخر أمسكوا بابن الاسرة فؤاد البالغ من العمر ستة عشر عاما وكانت أمه تمسك به وقاموا بقتله بسكين ، وقضت الام بعد ذلك عشرين عاما فى احدى المستشفيات العقلية . وفى احد الشوارع قتلت سيدة شابة وطفلاها البالغان من العمر سنتين فقط وتركت اجسادهم هناك . وانتقل المهاجمون الى قلب القرية وشرعوا فى قتل كل من يرونه أو يسمعونه بمجرد أن يفتح بابه كانوا يستخدمون القنابل (اليدوية) البنادق الالية وشبه الالية . واستطاع ابن عمى الهرب بعد أن أصيبت ملابسه بثقوب من طلقات الرصاص . وقام احد الضباط بوضع بندقيته الالية فى احد النوافذ وشرع فى اطلاق النار فى الخارج وقتل أى شخص يتحرك . وقاموا بقتل عمى على حسن زيدان وعمتى فاطمة التى سمعته ينادى « انقذونى » فهرعت اليه ولكنهم قتلوها . وجار آخر الحاج يارح الذى سمع بعض الاصوات وخرج ليستطلع الامر ولكنهم قتلوه هو أيضا وسمع ابنه محمد الذى يبلغ السابعة عشرة من العمر سمع أباه يناديه ، فذهب الى نفس المكان وقتلوه . وسمعت أمه صوته يطلب انقاذه فجرت اليه وقتلوها . حدث كل هذا قرب منزلى ورأيته » .

وتحدث سامور وباتيل عن قيام مجموعة من الجنود بتنفيذ حكم الاعدام فى خمسة وعشرين رجلا فى أحد المحاجر بين دير ياسين وجيفات شاؤل . ويعترف سامور انه لم يشاهد اطلاق النار ولكنه سمع عنه من احدى النساء التى شاهدته . ومع ذلك فان باتيل لا يساوره الشك حين يقول : « قاموا بوضعهم فى أحد المحاجر وظهورهم الى الحائط ثم اطلقوا عليهم النار ، رأيت اطلاق النار ثم تمت بعد ذلك بتصوير الجثث . ويقول بهوشيا اريبلى وهو جندى بالجيش البريطانى كان يقود المتدربين من الهاجاناه والذى أرسل لدفن الموتى انه رأى عددا من الرجال « قتلى فى المحجر » . ويزعم يهودا لابوديت انه لم يسمع قط عن تنفيذ عمليات اعدام وانه باعتباره قائدا عاملا كان سيفعل ذلك ولكن كل الدلائل تشير الى عكس ما يزعم .

وهناك مزيد من التقارير البشعة حول الفظائع التى ارتكبتها قوات الارجون وشتيرن التى يستعرض فيها لارى كولينز ودومينيك لابيير فى

كتابهما « القدس » مزيدا من القصص حول عمليات الاغتصاب وما زعم حول شق بطن احدى النساء الحوامل وكان مصدرهما الاساسى ممثل الصليب الاحمر فى القدس جاك دى رينير والمقابلات التى أجرتها محطة سى . اى . دى البريطانية مع الذين نجوا من المذبحة ويعترف دى رينير فى تقريره المنشور انه وصل الى القدس يوم الاحد اى بعد يومين من القتال ولكن قوات الارجون وشتيرن كانت لاتزال هناك . ويرى كولينز ولابيير ان هناك « اتجاها عربيا لتضخيم الاحداث عند استعادتها والتأمل فيها » وهناك دليل آخر يشير الى انه لم تثبت ادانة المهاجمين . ويقول يائير تسبان الذى شهد انسحاب الارجون وشتيرن انه لم ير أية دماء على ملابسهم ويضيف قائلا : « اننا عندما قمنا بدفن ضحايا لم أر أى دليل على استخدام السكاكين فى القتل . اما محمد سامور الذى ليس لديه اى سبب للتقليل من الفظائع فوافق انه لم تحدث أية اعتداءات جنسية » اننى لم اسمع أو أرى أى اغتصاب أو اعتداءات على النساء الحوامل ولم يتحدث معى اى شخص من الناجين عن حدوث مثل هذا الامر . فاذا حدثك شخص عن ذلك فاننى لا أصدقه . وكتب طبيبان من القدس ارسلتهما الوكالة اليهودية لفحص الجثث تقريرا قالا فيه انهما لم يشاهدا أى اثر لوقوع تعذيب أو تمثيل بالجثث .

مما لا شك فيه أن المنشقين قاموا بعملية استعراض للاسرى العرب عبر شوارع القدس اليهودية قبل اطلاق سراحهم فى الجانب العربى من المدينة ، وانهم رفضوا الاحتفاظ بدير ياسين كما امرهم شالتيل او دفن الضحايا . ويوافق لابيدوت فى مجال تذكره لما حدث أن رفض دفن الموتى كان خطأ فاحشا « انك لا تستطيع ان تترك جثث الموتى فى أرض المعركة حتى لو كانت جثث الاعداء ، لم نكن منظمين لنفعل ذلك لم نكن نعرف ما يجب علينا عمله كانت تلك هى المرة الاولى التى نخوض فيها مثل هذه المعركة ويحدث مثل هذا العدد الكبير من الضحايا . كنا مكدودين ، كذلك كنا خائفين من أن يقوم البريطانيون بضربنا بالقنابل من الجو » .

كان هذا الخوف الاخير صحيحا وحاسما فقد تعرفت السلطات البريطانية على المتهمين وكانت تواقة الى تصفية الحسابات معهم ولكن لم يكن لديها فى ذلك الوقت الطائرات أو القوات المطلوبة . وبعد مواجهة عصيبة سمحت الهاجاناه لمقاتلى الارجون وشتيرن بالانسحاب . وقد تمت تعبئة يائير تسبان ومعه نحو مائة من رفاقه المدربين للقيام بعملية دفن الموتى لان الجانب الاكبر من القيادة الصهيونية كانت لا تريد أن يرى البريطانيون والصليب الاحمر الدولى أو الصحافة العالمية الفظاعة الكاملة فى

دير ياسين وتمت عملية الدفن بسرعة شـديدة لدرجة أن احـدا لم يتوقف ليحصي الجثث . وبصفة عامة فان الاراء أجمعت على أن عدد القتلى العرب وصـل الى ما بين ٢٤٠ و ٢٥٠ على الرغم من أن بيجـين كتـب فى كتـابه « التمـرد » : ان القتلى يبلغ عددهم نصف ذلك الرقـم . ولكن ما يدعو للدهشـة أن محمد عارف سامور يوافقه فى هذا القول ويقول ان ثلاثة وتسعين قد قتلوا فى القرية وان ثلاثة وعشرين قد أعدموا فى المحجر المجـاور لهـا . وهكذا يبلغ مجموع القتلى مائة وستة عشر قتيلا . وبعد نحـو ثلاثة أيـام من المذبحة اجتمع ممثلون عن العشائر الخمسة فى دير ياسين فى القـدس فى المكاتب الاسلامية بالقرب من المسجد الاقصى ووضعوا قائمـة بالاشخاص المفقودين وأحصينا الاسماء فوجدناهم مائة وستة عشر ولـم يحـدث شيء منـذ سنة ١٩٤٨ ليحملنى على التفكير أن هذا الرقم كان خاطئا » .

ومرة أخرى فليس هناك ما يدعو سامور للمبالغة أو التقليل من عـدد الضحايا ويدعم رايه هذا يهوشيا اريبلى الذى يعمل حاليـا أستاذا للتاريخ واحـد دعاة السلام فى اسرائيل فيقول ان « رقم مائة وسـتة عشر رقـم معقول ولا أعتقد أنه كان باستطاعتنا دفن أكثر من ١١٠ الى ١٤٠ جثة » .

ان الرقم الحقيقى لن يمكن معرفته قط لانه لم يتم وضـع علامات على القبور ولم يسمح للعرب بالعودة الى دير ياسين . وعلى أية حـال فـان الاسـطورة فاقت الاحصائيات .

الفصـــل الحـــادى عشر

تمـــرد على السفينة التالنيـــا

انتهت الحياة النشطة للارجـــون زفاى ليومى يوم الثلاثاء ٢٢ يونيـــه ١٩٤٨ كان ما حدث اشبه بالفيلم المأساوى الشهير « ذهب مع الريح » : القاء آلاف من العملات النقـــدية على شاطىء تل أبيب ، الأخ يقتل أخاه ، احتراق سفينة محملة بالاسلحة والذخيرة والمتفجرات شديدة الانفجار بالقرب من الشـاطىء ، الشائعات عن الحرب ، الخيانة والغدر ، العواطف المشبوبة والخطب الرنانة الرخيصة وكان اغراق الجيش الاسرائيلى بناء على أوامر من رئيس الوزراء لسفينة الارجـــون « التالنيـــا » الملحمية المحملة بالاســلحة صدمة أخرى تشـــبه « تهمـــة الدم » فى مقتل أرلوزوروف وخيانة شمشون وهو مالم يغفره مناحيم بيجين قط لديفيد بن جوريون وحركة العمل الصهيونية التى كان يتزعمها . ومع ذلك فانه يجب على قائد الارجـــون أن يتحمـــل مسئوليته عن البرقيات المتعارضة وسوء التقدير التى أوصلت الدولة اليهودية الوليدة الى حافة الحـــرب الاهلية .

ضعفت سيطرة بيجين على الارجون عندما خرجت عن نطـــاق العمـــل السرى وبدأت قيادة القدس التى كانت معزولة فى طرف طريق معرض للهجوم بعيدا عن مقر القيادة فى تل أبيب تعمل باستقلال متزايد . وكانت وحـــدات الارجـــون قد تم ادماجها فى الجيش الوطنى الذى استمد بنيانه وقواده من الهاجاناه . وبدأت المكاتب فى الخارج تأخـــذ مبادرات من جانبها دون تنســـيق وبينما بدأ كبـــار الرفاق فى العودة الى الوطن من المنفى أو السجن لم يعـــد بيجين يملك وحـــده احتكار الحكمة السياسية . فكان هناك رجـــال مثل ياكوف ميريدور ، الياهو لا يكن ، أريخ بن اليعـــازر وهيليل كوك ، اكتسبوا خبرة متراكمة فى امريقيا ، واوروبا ، والولايات المتحـــدة ولم يكونوا واثقين ثقـــة عمياء باحكام بيجين . والشىء نفســـه بالنسبة للمقاتلين الشـــباب مثل اميهاى باجلين الذى نضجت شخصيته وســـط النيران . كانوا جميعا يشعرون بحرية اكبر فى مناقشته بل وربما فى الاختلاف مع قراراته احيانا . كانت الايام والدولة ذاتها فى حالة من عدم الاستقرار . لم يكن هنـــاك اجماع من الارجون بالاعتراف بالسيادة المطلقة للحكومة الانتقالية برئاسة بن جوريون ، أو فى التخلى عن روح العمـــل السرى . وفى الوقت الذى ابحـــرت فيه « التالينا » التى سميت على الاسم المستعار لجابوتينسكى عبر البحر المتوســـط اختلط الخط الفاصـــل بين الاستراتيجية والتكتيك ، بين العمل السياسى والقيـــام

بالعمليات العسكرية التى استمد منها بيجين قوته . خرج القائد من مكمنه الى الميدان . كان ذلك عاملا غير مألوف ، اذ اعتقد رجال الارجون الآخرون أنهم أكثر دراية منه فى هذا المجال . وبسبب تشتت السلطة ،

كان حوار بيجين مع يزرائيل جاليلى الذى كان حينذاك نائب بن جوريون فى وزارة الدفاع مترددا وغامضا أفسدته التركة المثقلة بعدم الثقة والمنافسة السياسية ويشير السجل التاريخى أن كلا الجانبين كانا مخطئين فى شكوكهما فلم يكن بيجين يخطط لانقلاب كما أن بن جوريون لم يكن ينصب لقائد جماعة الارجون كمينا يهدف الى القضاء عليه وعلى البقية من قوته . ولكن كلا الرجلين تصرفا بطريقة أوحت بأنهما يتآمران ضد بعضهما البعض . فقد أساء بيجين فهم دوافع وقرارات بن جوريون . ولم يقدر كيف سيقوم رئيس الوزراء بارساء أساس بناء الدولة والحكومة والجيش . وساعد تردد الارجون على زيادة شكوك بن جوريون كما ساعدت على ذلك الكراهية

المتأصلة فى نفسه ازاء كل شىء يمثله الارجون ومناحيم بيجين من عنف ، وفوضى الامر الذى يشكل تحديا وقحا للحق الالهي لحزبه ، حزب الماباى .

وما كان يجب أن تحدث مأساة « التالنيا » . فقد كانت دولة اسرائيل التى ولدت قبل ذلك بشهر واحد أى فى ١٣ مايو ١٩٤٨ تقاتل من أجل بقائها . وكانت القدس اليهودية تتعرض للتهديد من الشرق وتل أبيب من الجنوب . وكان الجيش يمر في طور التشكيل من عصابات الهاجاناه والارجون وشتيرن ومن العناصر المتنافرة من المتطوعين اليهود القادمين عبر البحار . وكان يعانى نقصا شديدا فى الأسلحة والذخيرة . وكانت « التالنيا » تحمل نحو خمسة الاف بندقية بريطانية من طراز لى انفيلد وأكثر من ثلاثة ملايين طلقة بندقية ، ومائتين وخمسين بندقية من طراز برين ومائتين وخمسين بندقية من طراز ستين ، ومائة وخمسين بندقية آلية المانية من طراز سباندا و ، وخمسين مدفع مورتار ، وخمسة آلاف قذيفة ، وطنا من مادة ال تى . ان . تى وكذلك تسعمائة وأربعين متطوعا ليسوا جميعا من المتعاطفين مع الارجون . وكانت السفينة اشبه بمنحة الهية ، كانت تلك السفينة سفينة أمريكية من مخلفات الحرب بدأت العمل فى سنة ١٩٤٤ واشتراها هيليل كوك من اللجنة العبرية للتحرير القومى ، النادى الامريكى لمؤيدى الارجون بمبلغ خمسة وسبعين الف دولار . وقام افراهام ستافسكى بتسجيلها تحت علم بنما . بعد بحث مضنى عن الاسلحة تلقى المكتب الاوربى للارجون حمولة السفينة من الاسلحة هدية من الحكومة الفرنسية التى كان واضحا انها ترد الصاع صاعين للبريطانيين لتأييدهم شارل ديجول قبل وبعد التحرير .

وقبل ثلاثة أيام من انتهاء الانتداب البريطانى أبلغ جاليلى بيجين أن بن جوريون ينوى اعلان دولة يهودية . ووافق قائد الارجون ، الذى كان يخطط لاعلان الدولة بنفسه اذا لم يقم بن جوريون بذلك ، وافق على الاعتراف بالحكومة المؤقتة وعرض على الفور بيع « التالنيا » الى السلطات بمبلغ مائتين وخمسين الف جنيه استرلينى ورفض جاليلى عرضه على أساس أن السفينة معروفة لدرجة أنه من المتعذر أن تقوم بنقل الاسلحة دون اكتشافها . وفى أول يونيو تعهد بيجين بانضمام الارجون الى صفوف الجيش الوطنى ووقع مع جاليلى اتفاقا من ست نقاط :

١ — انضمام اعضاء الارجون الى صفوف الجيش .

٢ — يجرى تشكيل وحدات خاصة من مقاتلى الارجون فى ألوية الجيش .

٣ — يتم تسليم الاسلحة ، المعدات وتجهيزات صناعة الاسلحة الى سلطات الجيش .

٤ — تمارس هيئة أركان مؤقتة تتكون من ضباط من الارجون عملها نيابة عن الجيش حتى يتم انضمام كافة أعضاء الارجون (لم يتحدد موعد محدد ولكن بن جوريون رأى أن هذا سيستغرق نحو شهر يتم بعده تسريح هيئة أركان الارجون) .

٥ — الغاء أنشطة الشراء المنفصلة وتحويل العقود الى الجيش .

٦ — تتوقف الارجون وقواتها عن العمل كوحدة عسكرية فى دولة اسرائيل وداخل مجال سلطة الحكومة الاسرائيلية .

أضاف جاليلى ، نزولا على رغبة بيجين للحفاظ على ماء وجهه ، جملة تنص على أن الارجون تحل نفسها بمحض اختيارها . ولم يرد أى ذكر عن وحدات الارجون فى القدس . ولكن زعم بيجين أن المدينة المتنازع عليها خارجة بصفة مؤقتة عن مجال سلطة الحكومة .

ليس هناك ما يدعو للشك فى اخلاص بيجين بتوقيعه هذا الاتفاق ، كانت ثورته موجهة ضد البريطانيين وكان هدفها اقامة دولة يهودية فى الوطن القديم ، واقر بأن بن جوريون الذى كان يتمتع بتأييد الاغلبية ، هو الزعيم الطبيعى لهذه الدولة وكان مستعدا بصفة اساسية للتخلى عن اثارة العراقيل من أجل السياسة الديمقراطية ولكنه اختلف اختلافا جذريا حول نقطة حساسة وهى — حدود الدولة — مع الاتجاه السائد للقيادة الصهيونية لدرجة انه لم يكن من الممكن النظر الى ولائه كأمر مسلم به . رفض بيجين التقسيم وواصل الحديث والعمل كما لو كان يستخدم الارجون لانشاله مهما كان قرار الحكومة ، وكان ذلك الاساس المنطقى وراء شك بن جوريون وهو ما لم يحاول بيجين تبديده .

أعلن بيجين فى كلمة القاها يوم الاستقلال فى ١٥ مايو أن الارجون ستتخلى عن العمل السرى « داخل حدود الدولة العبرية المستقلة » وأضاف فى تفسير اختار كلماته بعناية : « لقد لجأنا الى العمل السرى تحت حكم القمع . الان لدينا حكم يهودى فى جزء من وطننا . فى هذا الجزء ليس هناك حاجة الى العمل السرى اليهودى . فى دولة اسرائيل سنكون جنودا وبناة » .

وفى الوقت الذى كانت الارجون تتفاوض فيه مع معاونى بن جوريون كتب بيجين الى زملائه فى الخارج أن الارجون ستكون القوة المقاتلة اليهودية الوحيدة « لوضع الامة فى موضع القيادة للبلاد بأسرها » ولان القيادة الصهيونية الرسمية والهجاناه لن تكون مستعدة لذلك فان الارجون ستحتاج الى اسلحة لاجل عشرة آلاف رجل (وهو عدد أكبر بكثير مما تستطيع استخدامه فى ذلك الوقت) وحث ممثليه على (تكديس الاسلحة) . عندما اشتكت السلطات بعد توقيع اتفاق يونيو من أن الارجون ما تزال تشترى الاسلحة من الخارج وتجمع التبرعات من الداخل اجاب بيجين بأن هناك تداخل فنى . ولم تقتنع الحكومة . وانتظرت بعثتها لشراء الاسلحة فى فرنسا بدون أن تتصل بها الارجون ، وفى اسرائيل كرر بيجين القول خلال عرض عسكرى فى ناتانيا أن دور العمل السرى فى الخارج هو جمع الاسلحة حتى يحين الوقت لشن هجوم لغزو البلاد بأسرها . واثار قلق ليفى اشكول الذى كان زميلا نجاليلى خلال المفاوضات مع الارجون ما رآه من الانقسام فى القيام بالادوار . ففى الوقت الذى يلعب فيه دور السياسى يلجأ زملاؤه الى الخيار العسكرى . كتب الصحفى الاسرائيلى شلومو ناكديمون فى تقريره حول موضوع السفينة « التالنيا » المؤيد للارجون الى حد كبير : « لم تستبعد فكرة أنه ربما يكون ضروريا للارجون زفاى ليومى أن تتواجد خارج حدود البلاد وفى القدس الدولية . واكد هذا شامويل كاتز وهو عضو فى جماعة الارجون فى أوروبا :

« اننا لن نحل صفوفنا كلية ، اننا لم ننس قط القدس ، التى رفضت الحكومة الاسرائيلية اعلان سيادتها عليها ، حيث سقطت المدينة القديمة وحيث تتعرض المدينة الجديدة للخطر . هناك يتعين على الارجون أن تواصل وجودها المستقل للنضال من اجل ضم المدينة بأكملها الى الدولة اليهودية ، وحتى ذلك الحين فانه يتعين الحفاظ على بقايا الارجون فى الخارج » .

ويبدو أن كلمة خارج الحدود كانت تعنى خارج حدود التقسيم .

ازدادت شكوك الحكومة فى ١٦ يناير بعد أن ابحرت « التالينا » من ميناء بورت دى بوك بالقرب من مارسيليا عندما اقتحمت احدى وحدات

الارجون احـــد متاريس الجيش وازدادت اعمال التمرد المماثلة خلال اسبوع أزمة السفينة « التالبنا » .

وفى ٢٦ مايو كتب بن جوريون مقالا يدعو فيه الى اخماد تلك التهديدات التى تهدد وحدة الدولة والجيش وحظر الابقـــاء على أية قوة مسلحة خارج الجيش ولم يكن هذا مرسوما روتينيا وأكد « بن جوريون » :

ان هذا يقرر مصـــير الدولة الجـــديدة ووجودها والذين يحيون فوق ارضها . ان مغزاه هو الحيلولة دون تقويض الدولة وتدمير الجيش ، أن جيشا واحدا خاضعا للدولة وللدولة فقط يعمل باسمها يمكن أن يبقى الى الابد وليس جيوشا خاصا متحزبة .

ويحق لبن جـــــوريون أن يفخر لانه طبق نفس المنطق دون ندم على البالماخ ، الجيش الخاص لليسار ولكنه انتظر حتى نهاية حرب الاستقلال .

وتسلمت الارجون يوم الاربعاء ٩ يونيو بناء على آمر من جورج بيدال وزير الخارجية الفرنسية الاســلحة التى بلغ ثمنها خمســـة ملايين دولار . وبعد يومين على الرغم من اضراب عمال الشـــحن ابحـــرت الســـفينة التى تزن ١٫٨٠٠ طن بحمولتها كاملة . وتوافق ابحـــار السفينة مع بدء وقف اطلاق النـــار لمدة شهر بين القوات الاسرائيلية والعربية الذى توصل اليه مراقبـــو الامم المتحدة . وجمـــدت الهدنة التصرفات فى الارض ومنعت ادخال اسلحة اضافية . وفى مكتب الارجون فى باريس اعرب شاموبل كاتز عن اســـتيائه من تلك الشروط باعتبارها تخل بالميزان الى درجة كبيرة فى غير صالح اليهود، ولم تمنع الهدنة بريطانيا من شحن اسلحة الى العراق أو الاردن أو مصر حيث موانيها بعيدة عن منطقة القتال . وكان الحظر الوحيد الفعال ضـــــد اسرائيل ، كتب كاتز :

(عقدت الهدنة من حساباتنا ازاء سفينة التـــالبنا التى ستكون الآن معرضة للهجـــوم من جانب المصريين أو البريطانيين ، كانتهـــاك للهـــدنة .. قررنا انه على ضوء خطورة الموقف بالنسبة للاسلحة فاننا سنقوم بالمخاطرة التى ربما تنشـــأ عن انتهاك رسمى للهدنة ، ولذلك فانه يجب أن تبحـــر السفينة وان يقوم قائدها بالقيـــام بما يراه ضروريا لتجنب أو مقاومة الاعمال العدائية أى أنه يتعين على القائد أن يفعل كل ما هو ممكن لتجنب مراقبـــة الامم المتحدة) .

كان ذلك قرارا من جانب واحـــد اتخذه مكتب باريس الذى احتفظ سرا بموعد ابحار السفينة عن مقر الارجون فى تل أبيب . وكانت باريس تعـــرف أن بيجين لديه تحفظات حول انتهـــاك الهدنة على الرغم من أنه كان يعارضها من حيث المبدأ ، وكان يقول لزملائه : « ليس مهما موقفنا ازاء الهدنة ولكننا

لا نريد أن نتحمــل مسئولية النتائج المحتملة التى تنتج عن انتهاكها » . ولكن كان مكتب باريس واثقــا أن الحكومة ستخضع للأمر الواقع ولم تكن لديه النيــة للسماح لتل أبيب بتقــرير موعد ابحــار السفينة أو اذا كانت ستبحر أم لا . ان القــول انه كانت هناك مخاوف من أن يتم اعتراض برقية أو مكالمة تليفونية كان عذرا واهيا . وعلى أية حال فان مغادرة السفينة عرفت على الفور وعرف بيجين بأمر الابحــار من محطة الــ بى . بى . سى كما عرف عن أزمة أخرى حدثت بعد ذلك . وقام بيجين بارسال برقية الى كلتز ، الذى أكد ــ بعد ثلاثة أيام ــ أن الشحنة فى طريقهــا . وفضــل بيجين أن يدع الحكومة تقرر ما اذا كانت ستخاطر بانتهــاك الهــدنة بالسماح للسفينة بالدخول الى ميناء اسرائيلى . وقام بمخاطبة مونرى فين قبطان الســـفينة والياهو لانكين قائد كتيبة الارجون على السفينة عن طريق الراديو وامرهما بالبقاء بعيــدا وانتظار مزيد من التعليمات . وعلى الرغم من أن لانكين تلقى الرسالة الا انه اختار أن يتجاهلها وواصلت السفينة ابحارها .

وخلال اجتماع عقد فى ١٥ يونيو أبلغ بيجين واريخ بن اليعــازر الذى كان قد وصل من فرنسا جاليلى عن السفينة وحمولتها الثمينة . وفى هــذه المرة نجاهل بيجين اعتراضات زملائه وأبلغ الحكومة عن حمولة الســـفينة وكان قد احتفظ حتى ذلك الحين بسر هدية بيدال . وبعــد التشاور مع بن جوريون أبلغ جاليلى تليفونيا عن موافقــة الحكومة على السماح للسفينة بالاقتراب من الشـــاطىء ولكن أمر الارجون بسحبها الى كفارفيتكين وهى مستوطنة بين ناتانيا وقاصرية وليس الى شاطىء تــل أبيب ملتقى الانظار . وقد أشار بيجين فيما بعد الى رســو السفينة فى كفارفيتكين وهى أحد معاقل الماباى على أنه دليل على أنه لم يكن يخطط للقيــام بعصيان . وافترض جاليلى أن بيجين سيقوم بتسليم السفينة وحمولتها الى الحكومة بدون شروط . وعبر مفاوضو الارجون الذين صدمتهم بعض أسئلة جاليلى التى اتســمت بالخشونة عن شعورهم لأول مرة بعدم ارتياح ازاء دوافعه .

وخلال المحادثات التى جرت فى ١٧ و ١٨ يونيو ثارت شــكوك متبادلة . وعندما وافق جاليلى على أنه يتعين ارسال عشرين فى المائة من الاســلحة الى مقاتلى الارجون الذين ما زالوا يعملون بصورة مستقلة فى المدينـــــة ، بينما قال جاليلى أنه يعنى أن تذهب الاسلحة الى الجيش النظامى (لم تفصل الحكومة ، كما فعلت الارجون بين القدس وبقيــــة البــلاد واحصت قوات الهاجاناه السابقة هناك باعتبــارها جزءا من قوات الدفـــاع الاسرائيلية) . ورفض جاليلى كلية طلبا ثانيا بأن توزع الثمانين فى المائة الباقية من الاسلحة على وحدات الارجون العاملة فى الجيش الوطنى أولا . ورأى أن هـــذا بعد بداية لوضع أسفين لانه اذا ما وافقت الحكومة على مطالب الارجـــون

بالنسبة للاسلحة فانها سرعان ما ستحاول ارغامها على التخلى عن التزامها بقرار التسليم . أصر جاليلى على أن تتسلم وحدات الارجون الاسلحة بنفس الشروط التى تتسلم بها الوحدات الاخرى . وفى يوم ٢٢ يونيو أعلن بيجين فى كلمة شهيرة أذيعت بالراديو بعد ليلة تدمير « التالنيا » أن رجاله ما كانوا سيستمعون له اذا ما خضع لمطالبهم بأن تكون لهم الاولوية . وكشف خلال حديثه النقلب عن رفضه التام لفكرة ترويض نفسه على دمج كتائب الارجون ، وقال فى تلك الكلمة :

(لقد حلموا بتلك الاسلحة منذ سنوات ، ما الذى لم يفعلوه ، ما الذى لم يضحوا به من أجل كل بندقية وكل مدفع ؟ والآن عندما وصلت اسلحة التحرر هذه ، هذه الكمية الضخمة من الاسلحة الحديثة ، كيف لا نعطى هذه الاسلحة الى مقاتلينا فى الجيش ؟ كيف نمتنع عن التأكد من أن يتسلم رجالنا هذه الاسلحة أولا ؟ لقد أحضرناها فكيف اذن نمتنع عن تسليحهم بها ؟).

ولكن اصرار بيجين قابله معارضة قوية من جانب هيليل كوك الذى قامت لجنته الامريكية بشراء « التالنيا » . وكان كوك الذى يزور تل ابيب قبل انهاء أعمال الارجون فى الولايات المتحدة شديد الغضب :

لقد فقدت السيطرة على أعصابى ، قلت أنظر ان هذه أول وآخر سفينة لنا ، هناك عدة سفن فى طريقها الى الهاجاناه . ان علينا عمل كل ما يمكننا حتى لا تقع اية تفرقة ضد مقاتلى الارجون فى الجيش فاذا بدأت فى التفرقة لصالح الارجون فانك ستعطيهم رخصة للتفرقة ضدنا بعد شهرين أو ثلاثة من الان .

وبعد مشاورات اجراها مع اثنين من كبار زملائه وهما ياكوف ميريدور وحاييم لاندو وافق بيجين وأجرى اتصالا تليفونيا مع جاليلى . ووفقا لما ذكره كوك فان بيجين وافق على أن تذهب نسبة الثمانين فى المائة من الاسلحة الى الجيش ككل . ولكن بمجرد تسوية هذا الخلاف نشأ خلاف آخر . أصر بيجين على أن يحضر ممثل عن الارجون ، اى هو نفسه ، استعراضا للوحدات عند استلام الاسلحة وتسليمها باسم الارجون . ويقول كوك : ضحكت فيما بينى وبين نفسى « ظنا منى انه يريد القاء خطاب » .. بحث جاليلى الموقف ثم قرر الا تكون هناك شروط . ويعتقد كوك ان غرور بيجين كان سببا فى دوام الخلاف بدون مبرر : ويقول « ان السمة المميزة فى بيجين هى الاهتمام بالمظهر قبل الجوهر « فمن أجل رغبته فى القاء خطاب ضاعت السفينة واختلف الجانبان كذلك حول من سيقوم بتفريغ السفينة « التالنيا » ومكان تخزين الاسلحة . وأصرت الارجون على أن توكل اليها مهمة التفريغ وان يتم تخزين الاسلحة فى مخازن الارجون تحت حراسة مشتركة من الارجون زفاى ليومى وقوات الدفاع الاسرائيلية . وأصرت وزارة الدفاع على ان يتحمل الجيش

بمفرده مسئولية التفريغ والتخزين • وتبنى جيدى باجلين قائد عمليات الارجون موقفا أشد تشددا مما كان ينويه بيجين • ووفقا لما ذكره « ميريدور » فان قائد الارجون لم يكن يقصد فرض اية شروط ولكن « باجلين » جره الى موقف متشدد • أبلغ « نبهاس فازى » رئيس هيئة شراء قوات الدفاع الاسرائيلية وديفيد هاكوهين ضابط الاتصال بقوات الدفاع الاسرائيلية اللذين كانا يقومان بالمفاوضات بهذا الشأن وصول المفاوضات الى طريق مسدود • استنتج جاليلى أن الارجون تستعد للعمل بمفردها • وفى يوم السبت ١٩ يونيو أبلغ جاليلى بن جوريون بأنه « نشأ موقف جديد خطير ، يتمثل فى المطالبة بجيش خاص ، بأسلحة خاصة لوحدات معينة فى الجيش •

لقد كانت مأساة « التالنيا » تقترب من نقطة اللاعودة • ووسط التقارير القائلة ان السفينة كانت تقترب من الساحل الاسرائيلى وان مئات من جنود الارجون كانوا يهجرون وحداتهم ويتدفقون عبر كفار فيتكين ، دعا بن جوريون الوزارة الى جلسة طارئة يوم السبت ٢٠ يونيو • وتجددت المخاوف القديمة نتيجة للانباء التى ذكرت ان بيجين وبقية قيادة الارجون ينتظرون على الشاطئ •

فانفجر بن جوريون قائلا فى غضب : « لن تكون هناك دولتان ، ولن يكون هناك جيشان ولن يفعل مستر بيجين ما يريده ، علينا ان نقرر عما اذا كنا سنقوم بتسليم السلطة لبيجين أو مطالبته بالكف عن أنشطته الانفصالية . واذا لم يستسلم فاننا سنطلق النار •

وافقت الوزارة بالاجماع على اقتراح من جملة واحدة : « تعهد الحكومة الى وزارة الدفاع باتخاذ ما تراه متمشيا مع قوانين البلاد » وأضاف بن جوريون (الذى كان يشغل منصب رئيس الوزراء ووزير الدفاع دفعا لاى لبس ازاء ما يقررونه « ان القيام بعمل يعنى اطلاق النار » • أبلغ جاليلى والجنرال ياجيل يادين رئيس الاركان الذى تم استدعاؤه الى الاجتماع ان السفينة ستصل فى الساعة التاسعة مساء ذلك اليوم وان ستمائة من رجال قوات الدفاع الاسرائيلية موجودون بالفعل بالقرب من المكان ، وانه يمكن احضار كتيبتين أخريين وصدرت اليهم الاوامر بالتجميع لمواجهة اى عمل . وأصدر القائد أوامره بان يبذل الضابط المسئول كل جهده لتجنب استخدام القوة ولكن اذا لم تنفذ أوامره فانه سيجرى استخدام القوة » • حث بن جوريون الذى ادهشه اجماع الوزارة ، يادين على « العمل بسرعة » • وفسر جاليلى تصويت الوزارة بالاجماع على انه قرار اجماعى بتجريد الارجون من كافة الاسلحة • أوضح الجنرال دان ايفين قائد الجيش المحلى لرجاله ان الهدف من العملية الوشيكة هو : « ارغام الارجون زفاى ليومى على تسليم السفينة والاسلحة وتجريدهم من الاسلحة التى شرعوها ضدنا » .

كان جاليلى مترددا فى الضرب دون بذل جهد آخر للتوصل الى اتفاق. وقام بارسال فازيه الى كفار فيتكين لدعوة بيجين الى التباحث . منع ميريدور بيجين من الذهاب ، لانه كما أوضح فيما بعد أن تلك كانت خدعة للقضاء على بيجين فى الطريق . ووفقا لما ذكره فازيه فان باجلين رفض الحديث اليه ، وقال أنه اذا أراد جاليلى رؤية بيجين فانه يجب أن يأتى الى كفار فيتكين . وعندما قفل فازيه عائدا بالرد كتب جاليلى انذارا الى بيجين قام بالتوقيع عليه الجنرال ايفين :

« بناء على أمر خاص من قائد أركان قوات الدفاع الاسرائيلية امر بمصادرة كافة الاسلحة والعتاد الحربى الذى وصل الى الشواطىء الاسرائيلية فى نطاق سلطاتى ووضعها على الفور تحت تصرف دولة اسرائيل . لقد صدرت الى الاوامر أن أطالبكم بكل الاسلحة التى وصلت الى الشاطىء لوضعها تحت حراسنى وأبلغكم أنه مطلوب منكم الاتصال بالقيادة العليا واطالبكم بالامتثال لهذا الامر على الفور ، فاذا لم توافقوا على القيام بهذا فاننى سالجأ على الفور الى استخدام كل الوسائل التى املكها لتنفيذ الأمر وابلغك ان المنطقة بأسرها محاطة بوحدات الجيش وان الطريق مسدودة وتقع عليك بالكامل مسئولية النتائج المترتبة عن رفض الانصياع لهذا الامر ، وامامك عشر دقائق للرد » .

يزعم جاليلى أن الانذار قدم لبيجين « وسيلة مشرفة للانسحاب » على الرغم من ان صياغة الانذار لا تنم عن ذلك . ويقول ان مهلة العشر دقائق كانت كافية ، لان الارجون لم يكن أمامها سوى خيارين لا ثالث لهما اما الرفض أو الايجاب . ولكن بيجين لم « يأخذ هذا الانذار الغبى « مأخذ الجد. وقال فيما بعد انه اعتقد أن ايفين كان يتصرف من تلقاء نفسه دون معرفة خلفية الاحداث . وعلى اية حال فان جاليلى لم ينفذ مهلة العشر دقائق ، ففى الوقت الذى استمر فيه رجال الارجون فى تفريغ الاسلحة ارسلت الحكومة اوفيد بن أمى عمدة ناتانيا للتوسط بين الطرفين . كان بن أمى مقتنعا بأن الارجون لم تكن تخطط للقيام بانقلاب ولكنه فشل فى التقريب بين وجهات نظر الطرفين .

كان بيجين مازال يواجه المتاعب مع مرءوسيه وأعلن « باجلين » فى جو تسوده روح الشعور بالاضطهاد ان الجيش يقوم بنصب كمين وبدأ فى اعادة تحميل بعض الاسلحة التى كانت قد افرغت بالفعل من السفينة وأراد أن يعيدها الى البحر حتى انتهاء الهدنة ثم يتم تفريغها فى غزة أو العريش جنوبا . كان بيجين مازال يعتقد انه يستطيع خداع الجيش ، وقال « لباجلين » : « اتركها ، اننا سنقوم بتفريغ الاسلحة هنا قبل وصول مراقبى الامم المتحدة . اننى لا اعتقد ان لدى الجيش نوايا سيئة تجاهنا . ان المشكلة تكمن فى الامم المتحدة . خلاصة الامر أن بيجين قام باعفاء « باجلين »

من منصبه وعين « ميريدور » بدلا منه . ولكنه سرعان ما عرف أن نوايا الجيش كانت أبعد ما تكون عن النوايا الحسنة . بعد أن ابلغ جاليلى رفض انذار ايفين قرر بن جوريون عدم اجراء اى مفاوضات اخرى : « لم يعد ممكنا التوصل الى حل . فاما أن يمتثلوا للاوامر وينفذوها ، أو سنقوم باطلاق النار . اننى اعارض اية مفاوضات واتفاق معهم . لقد انقضى وقت الاتفاق .. اذا توافرت القوة فانه يجب استخدام القوة بدون تردد » .

أضاف بن جوريون بخط يده كلمة « فورا » وفى كفار فيتكين فى الساعة الخامسة بعد الظهر من يوم الاثنين ٢١ يونيو توقف تفريغ الاسلحة فى الوقت الذى كان يحاول فيه ميريدور ، ومونروفين وافرهام ستافسكى الذين سافروا من فرنسا على ظهر السفينة اقناع بيجين باخذ السفينة الى تل أبيب حيث سيكون السكان اكثر ودا وحيث تكون الحكومة أكثر ترددا فى بدء معركة . بدأ اطلاق النار بينما كان بيجين يقوم باستعراض قواته ، ووجه قائد الارجون فى حديث بالراديو اللوم الى الجيش لهجومه ، من كافة الاتجاهات وبكافة أنواع الأسلحة . قال ناكديمون ان جنود قوات الدفاع الاسرائيلى أطلقت النار دون صدور أوامر لها وكتب يقول انه خلال حالة الفوضى الشاملة التى حدثت فان الارجون ردت على النار بالمثل . ولكن يزعم هيليل كوك الذى كان على الشاطىء فى كفار فيتكين أن قوات الارجون كانت البادئة باطلاق النار — ليس على الجيش ولكن باتجاه البحر كما لو كانوا يريدون أن يقولوا انهم جادون وانهم مستعدون لعمل اى شىء . ومهما كانت الحقيقة فان الارجون فقدت ستة قتلى وتسعة عشر جريحا وقوات الدفاع الاسرائيلى قتيلين وستة جرحى خلال القتال الذى دار خلال الليل . واصر بيجين الذى انبطح أرضا على الرمال لتجنب الطلقات المنهمرة ، مغادرة المكان لان هذا سيعد انسحابا مخزيا . لكن عندما أحاط طرادان بحريان بالزورق الذى اقل فيروستافسكى الى الشاطىء قاما بحمل بيجين والقائه فى الزورق بعيدا . فأخذ يسب ويحتج باللغة العبرية واليديية واخذ الزورق يناور حتى عاد الى السفينة لم ينقذه هووفين من التعرض للاصابة سوى مهارة فين الملاحية التى تعلمها بالاسطول الامريكى فى المحيط الهادى .

غادرت « التالنيا » كفارفيتكين فى الساعة ٩٫٣٥ ليلا يتعقبها اسطول صغير من السفن الحربية الاسرائيلية المعادية . ووصلت تل ابيب فى نحو منتصف الليل . وفى ساعة مبكرة من صباح يوم الثلاثاء ٢٢ يونيو اذاع مكبر للصوت عرضا نهائيا من الحكومة : « انصتوا ، انصتوا ، سيقوم ممثل عن الحكومة والجيش بالصعود الى السفينة لاخلاء الموجودين على ظهرها وتقديم المساعدة للجرحى وتفريغ الشحنة » . مرة اخرى تجاهل بيجين وزملاؤه الفرصة لتسوية الامور دون اراقة دماء . وعلى ظهر السفينة اقترح انه

يجب على بيجين أن ينزل الى الشاطئ ويتفاوض ولكن أوقفه الياهـو لانكين خوفا من أن يتعرض للأذى . واعترف لانكين فيما بعد أنه ربمـا كان مـن الاصوب ترك بيجين يذهب للتفاوض . ربما كان من الممكن تجنب ما حدث بعد ذلك ، ولكن ربما كان بيجين قد قتل .

لم تكن الحكومة يساورها القلق فقط من جراء رفض الارجون الامتثال لاوامرها بل ومن تجمع مؤيدي بيجين على شاطئ تل أبيب وفـرار الويـة الارجون من معسكر صرفند وغيره من المعسكرات وكان رأي بن جوريون أن سيادة الدولة فى خطر . وخلال اجتماع للقيادة العليا أخـذ رئيس الوزراء يرغى ويزيد ويحادث نفسه وهو فى حالة شديدة من الغضب . ووصفه أحد الشهود بأنه كان أشبه « بأسد حبيس فى قفص » . وقد طلب من شامويل ياناى قائد العمليات البحرية ابداء رأيه كخبير فيما يمكن عمله ازاء السفينة التالنيـا :

« طرحت كافة الأفكار : قذفت قنابل دخان لاجبارهـا على الرحيل ، الاستيلاء على السفينة من القوارب ، تفريـغ الشحنة ... رفض بن جوريون كافة مقترحاتى باشـارة من يده . لم أصب الهدف وفهمت فيما بعد فقط ما كان يريد سـمـاعه منى ـ ما هـو هـدفه الحقيقى . كـان تدمير السفينة التى أصبحت ذريعة للصراع بين الاشقاء . كان يريد تدميرها لازالة الموضوع الذى كان الناس مستعدين للقتال حوله ، وسيكون هناك فيما بعد خلافات واتهامات مضادة متبادلة ولكن لن يعود هناك ذريعة للقتال .

بنفس الروح أمر بن جوريون يادين : « عليك أن تقوم بكافة الخطوات : تجمع وحدات الجيش ، النيران ، قاذف اللهب وكافـة الوسائل الاخـرى التى فى حوزتنـا لتحقيق الإستسلام غير المشروط للسفينة . وكانت كل تلك القوي سيتم إستخدامها إذا ما اصدرت الحكومة تعليماتها بذلك . وخلال اجتماع طارئ عقده مجلس الوزراء تغلب رئيس الوزراء على أية تحفظات اثيرت . ورد بن جوريون على اولئك الوزراء الذين فضلوا تقديم تنـازلات بدلا من الحرب .. » ان ما حـدث .. يعرض الدولة للخطر ... ان هـذه محاولة لتحطيم الجيش وهذه محاولة للقضاء على الدولة ولا يمكن فى رأيى التوصل الى حل وسط بالنسبة لهاتين النقطتين ، واذا ما أصبح من الضرورى لسـوء حظنا البالغ القتـال لهـذا الغرض فان علينا ان نقاتل . لم يـرد المتشككون بشئ وصـوتت الوزارة بأغلبية سبعة ضد اثنين بمطالبة الارجون بتسليم التالنيا الى الحكومة واستخدام القوة اذا استدعى الامـر . وعلى الفور أمر بن جوريون يادين بالتصرف .

أصبحت التالنيا التى رست فى أكثر الاماكن ازدحاما على شاطىء تل أبيب على مرأى من الزوار ، والمراسلين ، ومراقبى الأمم المتحدة فى شرفات فنادقهم ، قبلة للرائحين والغادين من الجنود المؤيدين للحكومة والمؤيدين لبيجين فى ملابسهم الرسمية وحاملين أسلحتهم . وتدفق المدنيون الى الشاطىء كما لو كانوا مشاهدين فى مباراة نهائية للكأس . وكان رجال الارجون المؤيدين لبيجين يرددون الهتافات المعادية للحكومة . وأخذ الجيش يناضل من أجل منع تعزيزات الارجون . بدأ انزال احد القوارب المحملة بالرجال المسلحين من التالنيا وبدأ اطلاق النار خلال دوامة الفوضى التى حدثت تولى ايجال آلون القائد الشاب لقوات البالماخ المملية . وكانت الاوامر الصادرة اليه من بن جوريون صارمة ومحددة : « اقبض على بيجين ! اقبض على بيجين ! » .

فى الوقت الذى بدأ فيه المصادمات تنتشر ومناشدة الارجون عبر مكبر الصوت سكان تل أبيب بالانضمام الى جانبهم ارسل آلون فى طلب مدفع . وتم اخلاء الشوارع التى كانت على مرمى نيران التالنيا . وقام آلون ونائبه اسحق رابين بمعاينة أرض المعركة من مقر البالماخ فى فندق ريتز . وبعد الظهر تم التوصل الى وقف لاطلاق النار لاخلاء الجرحى . وفقا لاحد التقارير فان قادة البالماخ رأوا الارجون يضعون مدفعا آليا ثقيلا على سطح السفينة مصوب الى فندق ريتز . سعى آلون الى الحصول على اذن باستخدام المدفع ووافق بن جوريون حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر وبدأ القصف . كان بيجين مقتنعا أن آلون لديه النية تماما فى قصف التالنيا وكتب يقول فى كتابه « التمرد » : « نجاة سمعنا ازيزا فوق رؤوسنا وناديا على قائد البالماخ مذكرين اياه انه وعد بوقف كامل لاطلاق النار ، لم يرد علينا ثم جاءت طلقة ثانية وثالثة ورابعة ، لقد أحاطوا بالسفينة وهم يزحفون لتحقيق هدفهم .. » .

زعم آلون الذى أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية ونائبا لرئيس الوزراء انه قام باطلاق « طلقات تحذيرية » كمحاولة أخيرة لاقناع السفينة بالاستسلام .ووفقا لرواية البالماخ فان خمس أو ست طلقات فقط قد أطلقت . وقال آلون انه « اندهش » لان السفينة أصيبت وأمر رجاله على الفور بوقف نيران المدفعية . سواء أكان ذلك صحيحا أم لا فان الاصابة المباشرة نفذت أوامر وتعليمات بن جوريون واشعلت النار فى التالنيا واشعلت نيران الحرب الاهلية غير المرغوب فيها وغير المخطط لها ، ويسهل الحل السريع للارجون لتتحول الى قوة عسكرية منفصلة . كان الهدف الوحيد الذى لم يصبه آلون هو مناحم بيجين ولكن اذا كان قائد الارجون مصيبا فان ذلك لم يكن بسبب عدم المحاولة : « ففى كل مرة أذهب فيها الى

منصة ربان السفينة كانت تتعرض بصفة خاصة الى نيران كثيفة وعندما اغادر المنصة كانت النيران تتوجه الى ناحية اخرى » . كانت الطلقة تثقب وسط سطح السفينة ثم تنفجر فى مخزن السفينة . انتشر الدخان وانفجرت الذخيرة . نجح مونروفين فى تشغيل المضخات وغمر المخزن بالمياه ولكن مع استمرار اطلاق النار بدأ الامر وكأنه مسألة وقت فقط قبل أن تنفجر السفينة المشتعلة . وعلى الرغم من اعتراضات بيجين الشديدة رفع القبطان علما ابيض مؤقتا ودعا البالماخ الى وقف اطلاق النار . كان بيجين منبطحا على السطح وكانت ركبة احد البحارة فوق ظهره . ورفض مغادرة السفينة قبل أن يغادرها آخر رجل من رجاله ، وقال فى حديث اذاعه فى تلك الليلة أن مرؤسيه هددوا باستخدام القوة لارغامه على مغادرة السفينة ولكنه رفض مغادرتها :

اذا كنت قد استمررت فى البقاء فوق السفينة فان هذا لم يكن من منطلق الوطنية بل من منطلق الشعور بالواجب . فكيف لى أن أغادر السفينة التى كانت فى طريقها الى الانفجار وكان هناك جرحى على سطحها ! ويمكن أن تحدث الكارثة فى اية لحظة ! قال لى القائد : « اعدك اننا سنخرج جميعا ، سنخرج وبالفعل تم اخراج معظم الجرحى ، وهكذا قفزت الى الماء » .

قال آخرون ان اثنين من بحارة مونروفين الاقوياء قاموا بالقائه الى البحر . وكان آخر من غادر السفينة فين‌ولانكين قبطان السفينة وقائد مقاتليها من الارجون . كلفت معركة شاطىء تل أبيب الارجون اربعة عشر قتيلا وتسعة وستين جريحا فى مقابل مقتل اثنين من قوات الدفاع الاسرائيلى وستة جرحى . وكان من بين القتلى افراهام ستافسكى صديق طفولة بيجين الذى كان قد قبض عليه ثم أعلنت براءته من قتل حاييم ارلوسورف على نفس ذلك الشاطىء الرطب منذ خمسة عشر عاما . وتم فيما بعد انقاذ بعض الاسلحة من السفينة المحطمة التى بقى حطامها على مرأى من تل ابيب كشاهد على حماقة السياسيين — سواء بن جوريون او بيجين وفقا للتحيز لاى منهما . ولم يكن غرق السفينة التالنيا أسعد اللحظات فى حياة قائد الارجون ولا كانت الكلمة التى القاها فى تلك الليلة بعد ساعتين من غرقها من اذاعة الارجون السرية بأفضل خطبة . لقد فقد بيجين السيطرة على نفسه وانفجر فى بكاء مرير وسب بن جوريون ووصفه بذلك الغبى ، ذلك الاحمق الذى تآمر لقتله وأردف ذلك بحركة من يده تشير الى انه يستطيع القضاء عليه وهدد بالويل والثبور لكل من تسول له نفسه ايذاء أسرى الارجون . وبعد ذلك فى نفس الليلة نشرت الارجون بيانا وصفت فيه بن جوريون بأنه « ديكتاتور مجنون » وحكومته بأنها حكومة من الطغاة المجرمين ، والخونة والقتلة ، والغى البيان الامر السابق لقوات

الارجون بالانضمام الى الجيش . ولكن بيجين حذر رجاله من اطلاق النـــار على قوات الدفاع الاسرائيلى قائلا : « انه لن يكون هناك قتال بين الاخـــوة فى الوقت الذى يقف فيه العدو على الباب » .

اما يزرائيلى جاليلى فقد خصـــه بيجـــين باســـوا انواع القـــذف ، فوصفه بأنه « تاجر حقير يتاجر فى الدماء والممتلكات اليهودية » وذرج قائد الارجون لسنوات عديدة بعد ذلك أن يذكر « رجلاً مجهولاً يشغل منصـــبا كبيرا فى الدولة » وهو أحـــد المقربين من بن جوريون الذى نسب اليه انه قال له « ان بن جوريون قد خدع فى مسألة السفينة التالنيا » وعلى الرغم من أنه لميذكر المتـــآمر الا أنه كان يعتقـــد أن جاليلى هـــو الذى خـــدع بن جوريون . وليس من المستغرب أن ينكر جاليلى بشـــدة كل شىء عن ذلك الامر « ان هذا القـــول اما أن يكون حقدا أو حماقة أو كليهمــــا وليس له أساس من الحقيقة . لم تكن هناك تفاصيل حول اتصالات مع الارجون على اى مستوى لم تعلم بها وزارة الدفاع بالكامل وعلى الفور » . أنكر بن جوريون الاتهام كذلك . ويزعم جاليلى ان بن جوريون كان « اكثر عدوانية منه بكثير » . عندما كنت فى المقر فى كفار فيتكين تلقيت رسالة منه يقـــول فيها انه لا يفهم لماذا لا نعمل » . لم يكن هناك خلاف كبير فى الهدف أو الادراك بين زعيمى العمل . وتشير الدلائل على أن جاليلى تردد اكثر من مرة فى القيام بعمل ، كان يريد أن يمنح بيجين الفرصـــــة لاطاعة اوامر الحكومة وكان رأينا ان بن جـــــوريون هو الذى أرغم الاخرين على الاسراع فى العمـــــل . وكان بن جوريون هو الذى قال خلال اجتماع عقد فى ليلة وقوع كارثة الســـفينة التالنيا للجنة الشعبية : « فليبارك الله المدفع الذى قصف تلك السفينة » . كان ذلك دعاء بالبركة لم يستطع الا قليل من الاسرائيليـــين ، حتى من بين المعجبين ببن جوريون أن يرددوا بغير ارتياح كلمة « آمين » .

الفصل الثانى عشر

اختيار جانب المعارضة

لعل مناحيم بيجين هو زعيم الحزب الوحيد فى العالم الديمقراطى الذى خسر فى ثمانى انتخابات متعاقبة واستطاع الصمود حتى كسب الانتخابات التاسعة والعاشرة . وليس صحيحا انه كان محصنا ضد النقد من جانب زملائه المتطرفين فى الوطنية . كان يتعرض دائما للتحدى ولكن متحدوه يملكون الإحترام والنفوذ ، والجاذبية الشعبية والمهارة السياسية التى تمكنهم من احتلال مكانته . وتحولت « حركة الحرية » التى اسسها فى اغسطس ١٩٤٨ خلال اجتماع عقده الرفاق القدامى فى العمل السرى الى حزب الارجون زفاى ليومى ، وكان أهم اعضائه ولمدة أكثر من ثلاثين عاما يشكلون ما اسماه بيجين « بالعائلة المقاتلة » حيث يتمتع بين أفراده بسلطة شخصية غير قابلة للهجوم، ومازال بيجين هو القائد ومازالوا هم أولاده وينادون بعضهم البعض بأسمائهم الكودية ويشتركون فى تبادل الذكريات حول اساطير النصر ، والتضحية والاضطهاد . وخلال أول انتخابات للكنيست فى يناير سنة ١٩٤٩ لم يكن حيروت المطالب الوحيد بتركه فالديمير جابوتينسكى . كان هناك ثلاثة أحزاب إخرى هى : التصحيحيون من المدرسة القديمة الذين كانوا يعاملون من الارجون باحتقار خلال سنوات الثورة ، وحزب المقاتلين بقيادة عصابة شتيرن ، والحزب الرسمى بقيادة مائير جروسمان الذى انفصل عن جابوتينسكى فى سنة ١٩٣١ . وكانت كل تلك الاحزاب تتنافس معه للحصول على أصوات الناخبين . ولكن كان أخطر منافسى بيجين هم التصحيحيون الذين مازالوا ممثلين فى المؤسسات الصهيونية والذين استطاع بسرعة تطويقهم باقناع رئيس الاتحاد الدولى للتصحيحيين بالاعتراف بحيروت باعتباره الفرع الاسرائيلى للحركة . اتبع بيجين اسلوبا تكرر كثيرا فيما بعد للتخلص من معارضى زعامته وهو ما فعله مع كثير من التصحيحيين المحنكين ، انه يهاجم من الداخل ، يعزل معارضيه ويجمد عضويتهم فى الحزب . وعبر السنوات ابعد أولئك المنتقدين يملؤهم شعور المرارة ولكن بدون حول ولا قوة — مثل ايرى جابوتينسكى ، ابن النبى ، وهيليل كوك الذى دخل مجددا فى معارك دستورية غامضة ، وشامويل تامير فى سعيه لتحقيق مستقبل قانونى ناجح ولكنه يدين بالفضل لبيجين لاى نفوذ يأمل فى ممارسته على هامش الحياة السياسية ، وعيزر شايتسمان الذى يقبع فى انتظار ، مثل ديجول ، دعوته الى انقاذ الامة .

كان حزب حيروت منذ نشأته حليفا للايدلوجيين اتباع جابوتينسكى ويثير سخط الناخبين اليهود الشرقيين وكان ما يربطهم معا هو مناحيم بيجين الذى

أنشأ الحزب ورعاه حتى نما وازدهر . لم تكن هناك شبكة من الفروع المحلية النشطة بين الانتخابات وكانت « بيتار » اتحادا رياضيا أكثر منه حركة شبابية . وتأكدت سيطرة بيجين مع انتخابات أول كنيست ، عندما وضع قائمة المرشحين ، وهو مجال خصب لاسباغ الرعاية فى نظام التمثيل النسبى باعتباره بطلا قوميا ، غريبا لدى اليهود . واستطاع فى البرلمان ان يستعرض موهبته الخطابية ، مؤكدا مواهبة وهى نادرة فى حيروت كزعيم شعبى ، واستطاع الوصول الى أولئك العازفين عن التعقيد المذهبى وورث بيجين موهبته الشخصية التى أورثها جابوتنسكى للتصحيحيين . عزل الزعيم نفسه فى الدائرة الداخلية لحنكى الارجون مبتعدا عن الخلافات الداخلية فى الحزب مستخدما أصدقاءه فى القتال نيابة عنه ولم يمض وقت طويل فى اعداد نفسه للخلافة . كان يفضل مبدأ فرق تسد . كان يترك الطموحين ينافسون بعضهم بعضا والمخلصين يشقون طريقهم الى جانب القائد القديم . وخلال التمرد الاول واجههم بالنتائج بعرض استقالته . وحدث فى أحد المرات ان قام بتأجير غرفة فى القدس واستأنف دراسته للمحاماة ، وبعد كارثة انتخابات ١٩٥١ للدورة الثانية للكنيست عندما انخفض عدد الكراسى التى حصل عليها حزب حيروت من اربعة عشر مقعدا الى ثمانية مقاعد وانخفض عدد الاصوات التى حصل عليها الى اربعة آلاف صوت على الرغم من زيادة عدد الناخبين بـ ٨١٤٫٠٠٠ صوت ، أن أبحر بيجين فى أجازة الى ايطاليا وترك وراءه خطاب استقالته مع نائبه اريخ بن اليعازر ولكن يوهانان بادير أحد شيوخ الحزب منع أى شخص من فتح الخطاب .

بعد فوز بيجين فى انتخابات سنة ١٩٧٧ سئل سكرتيره السياسى بيهايل كادشاى كيف استطاع الزعيم مقاومة الهزيمة لمدة تسعة وعشرين عاما ، أجاب قائلا : « لا أعتقد اننا توقعنا الفوز قط » . فى الخمسينات كانت برامج حزب حيروت يزينها شعار : « ان الله اختارنا لنحكم » وكان بيجين دائما يحذر ديفيد بن جوريون رئيس الوزراء من انتقامه عندما يتولى السلطة ، ولكن كلا الشعار والجدل كانا يعكسان احلاما للخلاص اكثر منها أى حلم بالسلطة . كان حزب حيروت يعتبر حزبا للمعارضة وكانت رسالته الحفاظ على « راية الصهيونية الحقيقية مزفوعة » ، والنضال من أجل اسرائيل ابية وغير مقسمة ودحض لبراجماتية أغلبية الماباى » .

على الرغم من أن بيجين تخلى عن العمل السرى وتفرغ لالقاء الخطب بمجرد اعلان بن جوريون للدولة اليهودية فان التزامه بالديمقراطية البرلمانية ظل متكافئا . كان معجبا بنموذج البرلمان الانجليزى على الرغم من كراهيته للحكم البريطانى فى فلسطين وكان ينادى بالحصانة والحماية الدستورية للافراد عندما جرت فى الكنيست مناقشة « القوانين الاساسية » المختلفة . ولكن كان هناك حنين يراوده دائما للثورة وان لم يكن للديكتاتورية . كانت الحكومة فى رأيه مخطئة دائما والكنيست لم يكن المكان النهائى للحكمة والشرعية

وعلى سبيل المثال ، ففى أول مؤتمر صحفى يعقده بيجين كزعيم لحــزب حيروت أنكر صلة الحزب بقتل عصابة شتيرن لكونت فولك برنادوت السويدى ووسيط الامم المتحدة ، ولكنه لم يستطع مقاومة القاء المسئولية المباشرة على « البريطانيين الذين حاكوا المؤامرة » . وكذلك على « شركائهم الظاهريــن والمستترين فى وزارة الخارجية الامريكية » وكذلك « السياسة الخاطئة » للحكومة المؤقتة فى اسرائيل .

« حذرنا الحكومة المؤقتة من أن نقيم دعائمها على حـكم استبدادى فى الجبهة الداخلية ومحاولة الاسترضاء على الجبهة الخارجية الامر الذى يعـد عمـلا سريا جديدا لقد اعلنــا هذا التحذير فى ١٥ مايو ولكن الحكومة المؤقتة التى تتحدث عاليا عن السيادة فى الوقت الذى تمارس فيــه الاستبداد والاستســلام المخزى لم تلق بالا الى تحذيرنا . ولذلك فانــه لا يمكن استبعادها كلية من تحمل المسئوليــة غير المباشرة لمأســاة القدس بسبــب سياستها .

وعلى الرغم من تظاهره بالشجاعة شن بيجين حرب عصابات ضد « استرضاء » التقسيم بالكلمات وليس بقوة الســلاح وحتى لو اراد فانه لم يكن يملك الوسائل ليفعل شيئا آخر . جرى اعتقال كثير من الذين فروا من الجيش من جنود الأرجون بعد مســألة السفينة التالنيا . وفى القدس استسلمت آخر وحدات مستقلة من الأرجون لانذار الحكومة الصــادر فى ٢٠ سبتمبر ســنة ١٩٤٨ . وقال بن جوريون : « ان بيجين ، وهو أبعد الناس عن العمــل الخيرى ، يعرف سلطة القوة واستسلم للقــوة فقط » ، وتولى زعيم حزب حيروت مهمة النضال من أجل « أرض اسرائيل » بعد ثلاثة أسابيع من اجتماع أول دورة للكنيست وبعد أسبوعين من توقيع اتفاقية الهدنة بين اسرائيل ومصر . وقال بيجين ان التفكير بأن اسرائيل تدخل مرحلة سلام وهم بالغ :

« وجد الان فى الجزء الشرقى من اسرائيل ، كمــا فى الاردن احتلال بريطانى غير مباشر ... لن يكون هناك سلام لدولتنا ولن يكون هناك سلام لشعبنا اذا لم نحرر هذا الجزء من الوطن من القوات الغازية ... ان سياستنا الخارجية الرسمية تسير فى اتجاه تجميد الحدود المصطنعة ، حدود التمزيق » .

عــاد بيجــين الى الهجوم فى ابريــل سنة ١٩٤٩ عنـدما تفــاوض الدبلوماسيون والضباط الاسرائيليون للتوصل الى هدنة مع الملك عبدالله فى رودس . وفى محاولة لتقسيم ائتلاف بن جوريون غلف منطقه بمزيج مــن العبارات اللاهوتية والسياسية :

« لقد وقعت هذه الحكومة اتفاقية عبودية مع خادم بريطانيا ، مع حاكم الدولة التى تسمى نفسها المملكة الأردنية الهاشمية — ولعارنا المعظيم هذا الاسم الذى تمت الموافقة عليه فى وثيقة رسمية وقعتها حكومة إسرائيل مع المملكة الأردنية التى تمتد بموافقة حكومة اسرائيل على الواقع على طول ضفتى نهر الأردن ... أن معنى هذه الاتفاقية أن البريطانيين يستطيعون العودة الى غرب اسرائيل واقامة قواعد عسكرية لهم هناك ... أريد توجيه بضعة كلمات الى أعضاء الكنيست من الوجهة الدينية . سادتى أريد أن اسأل ضمائركم — وانا واحد من المؤمنين فى اسرائيل — كيف لم تهتز أيديكم عند موافقتكم على مشروع يتضمن الاعتراف بالمملكة الهاشمية الاردنية ، وبكلمات أخرى التخلى عن الاردن — كل الاردن الى أيدي الاعداء ؟ كيف لم تهتز أيديكم عند الاعتراف رسميا بسيطرة عبدالله على مدينة القدس القديمة ؟ » .

على الرغم من وجود حراسة أردنية على حوائط القدس القديمة ، وعلى الرغم من محنة حرب الاستقلال التي فقدت فيها اسرائيل ٦٫٠٠٠ من بين السكان البالغ عددهم ٦٧٥٫٠٠٠ نسمة وبالرغم من المشاكل التى تواجه الدولة الوليدة التى ضاعفت سكانها خلال اربع سنوات عن طريق الهجرة ، بالرغم من كل ذلك ، أصر بيجين على ابقاء شعلة « أرض اسرائيل » متوهجة . كان ايمان بيجين قويا فى عدم قبول أى حل وسط « لاتقولوا لنا انه لا جدوى من اصدار إعلانات » قال ذلك فى مقام اقتراحه بأن يقوم الكنيست باعلان « القدس الموحدة » وليس فقط القسم الغربى من المدينة ، عاصمتها » . ان الدول الاجنبية يجب أن تعرف أن القدس لنا ، كلها لنا — الهيكل — الحائط الشرقى — والقدس كلها على جانبى الحائط لنا ، والقدس عاصمتنا ليس فقط من الناحية النظرية بل من الناحية العملية .

بالنسبة لبيجين كانت القدس بكاملها العاصمة « ارض اسرائيل » كلها ، ضفتى نهر الأردن كما حددها جابوتنيسكى ، كانت الوطن اليهودى سواء كانت اسرائيل فى موقف يسمح لها باستردادها أم لا . كان يلح بأن رباط آمون « عمان » مثلها مثل شيكم (نابلس) وجليد مثل السامرا والباشا مثل الشارون هى « وطننا » ومهما كان غضب الرئيس جيمى كارتر خلال محادثات كامب ديفيد سنة ١٩٧٨ فانه لم يكن يستطيع اتهام الزعيم الاسرائيلى بالتضارب . الا أن ارتباط بيجين كان لمفهوم المكان ، للاسماء ولاصدائها التاريخية لم يكن لديه شىء من حب موشى ديان للارض لذاتها ولا شىء من الفة « الصبرا » معها .

فى مايو سنة ١٩٥٠ عندما ضمت الأردن الضفة الغربية رسميا وجه بيجين اللوم لموشى شاريت وزير الخارجية لاعطائه الضوء الاخضر « لعبد الله

وحكومة بيفين التى وقفت وراءه لتحويل النهب والغزو الى عمل قانـــونى ومعترف به سياسيا » ظلت المملكة الهاشمية بالنسبة لبيجين الاراضى التى تحتلها بريطانيا من « أرض اسرائيل » اذا استطاعت الكلمات أن تغزو . . .

أخذ بيجين يسأل بن جوريون من الذى أعطى الحكومة السلطة للاعتراف باستسلام القدس ، والهيكل ، ومقبرة البطريرك وقبر راشيل ، والخليل ، وبيت لحم ، وشيكشيم وجليد وباشان ؟

لقد انتخبتم لتسيير شئون الدولة . ربما يقوم الشعب باختيار من يحل محلكم . وقد يجدد انتخابكم . ولكن من أعطاكم الحق ، وفى أى انتخابات أعطيتم السلطة للتخلى باسم شعب اسرائيل عن ميراث الاجداد ، ميثاق الاجيال ، قيادة التاريخ التى كان ثمنها دماء الملايين عبر مسيرة مائة وعشرين جيلا ؟ . . لم تعط اية انتخابات هـــــذه السلطة ومن المؤكد انها لم نمنح لكم فى الانتخابات الاخيرة . دعونى اناقش هذا السؤال .اذا أردتم السلطة فلنخرج الى الشعب ونسألهم اذا كانوا مستعدين أن يعلنوا أن عبدالله ولسنا نحن الذين يجب أن يحصل على القدس ، والخليل وبيت لحم » .

وجه بيجين فى نفس المناقشة انذارا بأن اعتراف الحكومة بالضم الاردنى ليس ملزما لحزب حيروت . « عندما تأتى حكومة أخرى ــ وسوف تأتى ــ سوف تعلن أن هذا التوقيع غير سارى المفعول . أن كل ارض اسرائيل تخص شـــعب اسرائيل ولن تعترف بحق عبدالله أو بحق البريطانيين فى حكم بوصة واحـــدة من وطننـــا » .

كان النضال من أجل « أرض اسرائيل » على الرغم من مثالياته على ضوء حقائق الخمسينات يحترم حدود الديمقراطية البرلمانية . كان بيجين يضـع علامات أكثر من تسلق الثكنات . ولم تظهر مثل هذه الشكوك فى معركتـــه التاريخية الثانية مع حكومة بن جوريون فى هذه الفترة ــ المعركة ضد قبـول اسرائيل للتعويضات الألمانية . عاد زعيم حزب حيروت الى سياسات الشارع محرضا الجماهير على الزحف الى الكنيست معرضا مستقبله السياسى للخطر وهو فى كامل وعيه . كان هذا الموضوع الذى جاء بعد الابادة النازية لليهـود مباشرة تثير مشاعر عنيفة فى المجتمع الاسرائيلى . كان حزب المابام اليسارى الذى ظل بعيدا عن الائتلاف الحاكم يعارض أى تعامل مع بون بنفس القـــوة التى كان يعارض بها حزب حيروت . وكان للحركتين جذور مشتركة فى النازية البولندية ، وتعرض اليهود البولنديين أكثر من أى يهود آخرين للابادة تحت الحل النهائى . ولكن بيجين وحده رفع راية الاضطهاد .

كان اقتراح بن جوريون للمستشار الالماني كونراد اديناور ملجأ أخيرا اتسم بالغباء ، لم يكن الهدف منه عقد مصالحة سريعة بين القتلى والمقتولين بل كان محاولة يائسة ليواصل الاقتصاد الاسرائيلي المجهد مسيرته وتدعيم الدولة اليهودية في مواجهة اعدائها العرب . أقر رئيس الوزراء أن اسرائيل لا يمكنها البقاء فى عزلة وتحتاج الى حليف قوى واتجه أولا الى بريطانيا بل ألمح أن اسرائيل مستعدة للانضمام الى الكومنولث ثم اتجه الى الولايات المتحدة ولكن كلتا الدولتين الغنيتين سببتا له خيبة الامل . بدات حكومة العمال والمحافظين البريطانية محادثات تمهيدية ولكن سرعان ما خمد الاهتمام . واستنتج مستشارو بن جوريون ان وزارة الخارجية البريطانية كانت ضد الفكرة منذ البداية وتأكدوا انه ليس هناك فرصة . وفى واشنطن كان جون فوستر دالاس وزير الخارجية أكثر اهتماما باستعادة العلاقات الامريكية مع العرب . وأعلن أمام احدى لجان مجلس الشيوخ : « ان مشكلتنا الاساسية هى تحسين موقف الدول الاسلامية ازاء الديمقراطيات الغربية لان هيبتنا تتناقص فى المنطقة بصورة مستمرة منذ الحرب » . ولم يلق اقتراح ابن جوريون بجعل اسرائيل « قاعدة الغرب ومخزن غلاله وورشته فى الشرق الاوسط آذانا صاغية » . ولقيت مناشدة اليهود الامريكيين تعاطفا أكثر فقد افتتح رئيس الوزراء حملة لبيع الاسهم الاسرائيلية فى اجتماع ضخم فى ميدان حديقة ماديسون فى مايو ١٩٥١ . ولكن على الرغم من نجاح الحملة فان مؤرخ حياة بن جوريون كتب يقول : « ان الاموال التى تدفقت لم تكن كافية لتحقيق استقرار طويل الامد لاقتصاد الدولة المزعزع . كانت اسرائيل تحتاج الى مساعدة مالية طويلة وضخمة » .

قامت اسرائيل بأول محاولة مترددة للحصول على تعويضات فى مارس سنة ١٩٥١ ولكنها حاولت تجنب التعامل مباشرة مع الالمان وقدمت طلبا للحصول على بليون ونصف بليون دولار الى قوات الاحتلال وهى : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ، وبريطانيا وفرنسا تعويضا عن الممتلكات اليهودية التى استولى عليها النازيون . ولكن الدول الكبرى رفضت القيام بأى شيء ازاء هذا الطلب . كانت التعويضات مسألة تخص الالمان . وجاء هذا الطلب فى المرحلة التى اشار فيها أديناور الزعيم الجديد لالمانيا الاتحادية المعادى للنازية الى استعداده لدفع تعويضات لاسرائيل . كتب تيريس بريتى المؤلف البريطانى فى تاريخه لحياة أديناور انه لم يكن هناك ثمة شك فى تسوية حساب الألمان مع اليهود « كان الشيء الممكن هو جعل أقصى حد لاعادة ممتلكات اليهود فى نطاق الوسائل المتاحة لالمانيا . كان يبدو دائما أن أديناور يفهم ذلك وانه كان يعتبر أن هذا العمل واجب عليه » . ومع ذلك فان عددا كبيرا من الاسرائيليين ومن بينهم أعضاء فى وزارة بن جوريون وزعماء حزبه الماباى شعروا بالذعر من الفكرة . ومع ذلك فان رئيس الوزراء

لم يجد أية متاعب فى تهدئة ضميره وكان يعرف ان الطريق الوحيد لجعل التعويضات مقبولة لدى الاسرائيليين هو وضع كل ثقله وراء الحصول على تلك التعويضات . وقال : « فى عبارة واحدة فان السبب يكمن فى وصية الستة ملايين ، ضحايا النازى ، الذين كان قتلهم بمثابة صرخة مدوية لاسرائيل من ان تنهض ، أن تكون قوية ومزدهرة لحماية أمنها وسلامها . وهكذا نمنع وقوع هذه الكارثة التى حاقت بالشعب اليهودى من ان تحدث مرة أخرى . ولم يكن بن جوريون أقل براعة فى الدفاع عن وجهة نظره فى الكنيست حيث قال :

« تعرض أكثر من ستة ملايين يهودى للقتل عن طريق التعذيب، والتجويع ، والمذابح الجماعية والاختناق الجماعى .. وحدثت عمليات السلب قبل وأثناء وبعد هذا القتل الجماعى — بطريقة لم يسبق لها مثيل كذلك ... ان جريمة بهذا الحجم الضخم لا يمكن ان يكون لها تعويض مادى ، ان أى تعويض ، مهما كان حجمه لن يكون تعويضا عن فقد الحياة الإنسانية أو نهاية لمعاناة وآلام الرجال والنساء ، والاطفال ، والشيوخ ، والرضع ومع ذلك فانه حتى هزيمة نظام هتلر استمر الشعب الالمانى فى التمتع بثمار المذبحة والسلب والنهب والسرقة من اليهود الذين قتلوا . وتعتبر حكومة اسرائيل نفسها ملزمة بمطالبة الشعب الالمانى برد هذه الملكيات اليهودية المسروقة . دعونا لا نجعل قتلة شعبنا المستفيدين أيضا من ممتلكاته !

انفجر مناحيم بيجين الذى كان والداه وأخوه من بين الستة ملايين قتيل فى ثورة غضب شديدة . لم يكن هناك شك فى اخلاصه فى محاولته العنيفة للحفاظ على احترام الذات لليهود ولكن البعض الاخر فى حركة حيروت انتهزوا فرصة موضوع التعويضات كوسيلة لاعادة الحيوية الى الحركة وارجاع بيجين الى الحياة السياسية بعد نكسة انتخابات سنة ١٩٥١ . وجد بيجين متعة بالغة فى الدور الذى أوكل اليه . ووصف يهوشيا أوفير الذى كان يعمل فى ذلك الوقت مراسلا فى صحيفة الحزب « حيروت » الزيارة التى قام بها الى ياكوف روبن سكرتير عام الحركة :

« قرأ صحيفة (يديعوت أحرونوت) التى كانت بحوزتى ولاحظ خبرا صغيرا جاء فيه أن الدكتور ناحوم جولدمان سيقوم بزيارة الى المانيا لاستكمال اتفاقية التعويضات ، وفجأة نادى على أريخ ابن اليعازر : « اريخ ، أريخ ، هذا سوف يعيده . مناحيم سيعود لهذه الحملة ، هذه حملة من أجل شرف الأمة ، وهو ، الوحيد الذى يستطيع أن يقودها . بعد ذلك بأسبوعين عاد بيجين من أوروبا وخرجت حركة حيروت من جمودها العميق » .

بعد ظهر يوم ٧ يناير سنة ١٩٥٢ خاطب بيجين حشدا تراوح عدده بين ٢٠٠٠٠ (كما قال البوليس) و ١٥٠٠٠ (كما قال بيجين) من سكان القدس من شرفة فندق تل أبيب في ميدان صهيون . كان هناك رذاذ خفيف يتساقط ولكن خطابه كان ملتهبا .

كتبت صحيفة (جيروساليم بوست) تصف الموقف :

« كان مستر بيجين يتحدث بحماس وكان كثيرا ما يصيح ويقرن كلماته بكلمات مؤثرة كثيرة من التوراة . واشار الى بيان الحكومة المؤيد لمحادثات التعويضات الالمانية باعتباره ذروه سياسات ذلك المجنون الذى أصبح الان رئيسا للوزراء ، وجذب وسط القائه خطابه ورقة من جيبه وبسطها بطريقة درامية وقال : « انني لم أجيء الى هنا لاثارتكم ولكن هذه الورقة التى سلمت الى الآن تقول أن البوليس لديه قنابل يدوية تحتوى على غاز مصنوع في المانيا — نفس الغاز الذى استخدم لقتل آبائنا وامهاتنا . اننا على استعداد لتحمل اى شىء : حجرات التعذيب ، معسكرات الاعتقال ، السجون السرية فى سبيل عدم اتخاذ اى قرار بالتعامل مع الالمان » .

يبدو أن الاشارة الى الغاز الالمانى كان مثالا كلاسيكيا لعدم اهتمام بيجين بالحقائق ، فمهما يكن اصل غاز الدموع فانه ليس مثل غاز زيكلون — بى ولكن هذا التلميح أتى ثماره . ووجه بيجين الذى كان يتحدث على بعد عدة ميلات من البارلمات من مبنى الكنيست حيث كان بن جوريون يدافع عن سياسة الحكومة تحذيرا الى رئيس الحكومة :

« عندما وجهت الينا نيران المدفع ، أصدرت امرا : لا !
واليوم سأصدر أمرا : نعم ! وستكون هذه معركة حياة أو موت .. اليوم سيعلن رئيس الوزراء اليهودى انه سيذهب الى المانيا ليحصل على أموال ، انه سيبيع شرف الشعب اليهودى من أجل مكسب مادى جالبا له العار الابدى .. ليس هناك المانيا واحدا لم يشترك فى قتل آبائنا . كل المانى نازى ، كل المانى قاتل ، اديناور قاتل ، كل مساعديه قتلة ، لكن كل تقديراتهم الاموال ، الاموال ، الاموال انهم سيكفرون عن هذا الشىء البغيض بدفع ستة ملايين دولار ! » .

سار بيجين عبر شارع بن يهودا مرددا صيحة « الحرية او الموت ، لا سبيل للتراجع » ليتحدى بن جوريون فى الكنيست ، المبنى الذى يضم وزارة السياحة . وسارت الجماهير وراء بيجين ونشرت صحيفة « جيروساليم بوست » أن العنف اندلع فى الشوارع لمدة ساعتين ؟

إخترقت الجماهير متاريس البوليس المحـــــاطة بالاسلاك الشائكة وقامت بقلب السيارات الواقفة فى الشوارع والقـــاء الحجارة على مبنى الكنيست وعلى البوليس المنوط بــه حماية المبنى . ووصل عدد الجرحى من رجـــال البوليس الى اثنين وتسعين وستة وثلاثين مدنيا حتى الساعة السابعة مساء » .

وفى الساعة السابعة والنصف اعيد النظام الى مسرح الأحداث بوصول فرقة من الجيش احاطت بمبنى الكنيست وأصبحت الشوارع أمامه مهجورة تماما .

من داخل الكنيست كتب مراسل آخر يصف المناقشة التى جرت فى جو من العنف لم يسبق له مثيل فى الحياة البرلمانية الاسرائيلية .

« كانت تخترق قاعة الكنيست صيحات الجماهير لم تكـن بعيدة ، اصوات سيارات البوليس المتقطعة وصوت ســيارات الاسعاف والانفجارات المتقطعة لقنابل الغاز والســنة اللهب من سيارة تحترق ، ثم تحطم زجاج النوافذ نتيجة لقـــذف الحجارة واخترق دخان القنابل المسيلة للدموع من الشارع حيث تجـرى المعركة خارج القاعة واصيب احد الاعضاء بحجر فى راسه » .

واستمر الاجتماع على الرغم من كل هذا الاضطراب وتـم اخلاء القسم من القاعة التى كانت تتساقط فيه الأحجار والشظايا الزجاجية ، والذى يضم مقاعد الماپام ، والصـــهيونيين العموميين وهابويل هاميزراحى ، وجلس الأعضاء فى أماكن أخرى · ولكن فيما بعد جرت مقاطعة المناقشة ذاتها داخل الكنيست عندمـــا وصف مناحيم بيجين (حيروت) رئيس الوزراء بأنه سفاح ورفض أن يتراجع عما قاله ورفض كذلك مغادرة منصة الخطابة عندمـــا طلب منه نائب رئيس المجلس ذلك قائلا : اذا لم اتكلم فلن يتكلم احد وقام نائب الرئيس بفض الاجتماع وسط الضجيج .

كان خطاب بيجين ضد التعويضات الالمانية ربما كان سيصبح من أعلام خطبه البرلمانية لو كان فى ظروف مختلفة . فعند قراءته بهدوء بعد ثلاثين عاما من القائه يتضح انه خطاب عاطفى ، فصيح ، متعقل ، انه نداء الى الكبرياء اليهودى ونقــدا قاسيا لأولئك الذين كانوا على استعداد للمساومة بشأنه . قطعة من المسرح مفعمة بالحزن والشجاعة وان كان مبالغا فيها قليلا · ولكن فى النهاية يجرى تذكرها تحت ظلال أعمال الشغب ، والاحجار ، والقنابل المسيلة للدموع والزجاج المحطم التى صاحبت المناقشة وجنوح بيجين الى لغة غـــير برلمانية والتبجح المنافى للديمقراطية كان مدركا للمخــــاطر وخاضها بأعين مفتوحة . بعد سحبه فى النهاية لوصفه بن جوريون بالسفاح واصراره على أنه : « اذا لم اتكلم فلن يتكلم غيرى » . وافـــق على طلب رئيس المجلس بالانسحاب (ليس نتيجة للتهديدات بأننى سأطرد من الكنيست ـ انى أنظر

الى طردى من الكنيست باستخفاف ، عندما نتكلم عن الحملة الراهنة فلننى أؤيدها لانه مازال أمامى مهمة أقوم بها هنا وربما تكون الاخيرة ، وسأقوم بها الى النهايـــــة) .

كانت الحجة الاساسية التى دافع بها عن قضيته أن الشعب الالمـــانى بأكمله مذنب فى المسألة برمتها ــ الملايين الذين صوتوا لصــــالح النازيين ، الذين خدموا فى جيش هتلر ، الجاستابوا الـ اس . اس والـ اس . أ ، دبلوماسيى اديناور الذين كانوا دبلوماسيى رينتروب . « من وجهة النظر اليهودية لا يوجد المانى واحد ليس نازيا وليس هنك المانى واحد ليس قاتلا وانتم تريدون الذهاب اليهم لتلقى الأموال منهم » . كان بيجين يساوره القلق حول الطريقــــة التى سيتقبل بها العالم قبول تعويضات حيث قال :

« ان الالمان سوف ترى حقيقة واحدة : وهى انكم جلستم مع قتلة شعبكم واعترفتم انهم قادرون على توقيع اتفاقية ، انهم قادرون على المحافظة على اتفاقية ، انهم أمة بين الامم ،ان الالمان لا يكرهوننا فقط ولم يقتلوننا ويحرقوننا فقط ، لم يؤذوننا وليسوا غيورين منا فقط ولكنهم يكنون لنا بصفة خاصة شعورا بالاحتقار . وفى هذا الجيل الذى نطلق عليه آخــر جيل يتعرض للعبودية واول جيل يتحرر من عبوديته ــ فى الجيل الذى كسبنا فيه مركز الشرف الذى خرجنا فيه من العبودية الى الحـــرية ، تأتون الآن ومن أجل عدة ملايين من الدولارات الملعونة ، من أجل بضائع فاسدة وتلقون بالقدر الضئيل من الكرامة الذى اكتسبناه ... انكم تجعلون الارض تميد تحت أقدامنــــا ، انكم تعرضون شرفنا واستقلالنا للخطر ، كم سنتعرض للاحتقار » .

بعد أن ناشد بيجين بن جوريون اجراء استفتاء بدلا من تحدى مايعتقد أنه ارادة غالبية الاسرائيليين أعلن بيجين عن رأيه النهائى الحاسم . وقال ان هناك أشياء فى الحياة اسوأ من الموت ذاته :

« هذه هى احدى الاشياء التى سنضحى بحياتنا من اجلها ونكون مستعدين للموت فى سبيلها ، سنترك عائلاتنا ، سنفارق اطفالنا ولا يكون هناك مفاوضات مع المانيا .. أعرف ان لديكم قوة ، لديكم سجون ، معسكرات اعتقال ، جيش ، قوة بوليس ، جواسيس ، مدافع ، بنادق آلية ، كل هذا لايهم . حول هذا الموضوع ستتناثر القوة مثـــل تناثر الزجاج على الصخر ، سنقاتل للنهاية لاجل قضية العدالة ولا جدوى للقوة البدنية فى مثل هذه الحالات . انها هراء وتفاهة . اننى أحـــذر ولكنى لا أهدد ، من الذى أهدده ؟ اننى أعرف انكم ستجروننا الى معسكرات الاعتقال ، انكم تسجنون المئات اليوم وربما ستسجنون الالاف ، لايهم ،

سيذهبون ، سيجلسون ، سنجلس معهم ، واذا اقتضى الامر فاننا سنقتل معهم ولن يكون هناك تعويضات مع ألمانيا وليساعدنا الله فى منع كارثة ستحيق بشعبنا ، ومستقبلنا وشرفنا . » .

مهما كانت نوايا بيجين ليلة السابع من يناير سنة ١٩٥٢ فان خطابه تحول الى مجرد كلمات خطابية جوفاء حيث وافق الكنيست على سياسة بن جوريون ازاء التعويضات الألمانية بأغلبية واحدوستين صوتا ضد خمسين صوتا بينهم أحد أعضاء حيروت الذى أصيب بأزمة قلبية وتم احضاره الى قاعة الكنيست على نقالة) . وبعد اسبوعين صوت الكنيست بأغلبية ستة وخمسين صوتا ضد سبعة وأربعين صوتا لتعليق عضوية بيجين للثلاثة أشهر الباقية على دورة الكنيست كعقوبة على مسلكه غير البرلمانى خلال المناقشة ، وفى شهر مارس قام بيجين بالقاء خطاب أمام مظاهرة من ٧٠٫٠٠٠ من معارضى اتفاقيةالتعويضات فى تل أبيب ولكنه توسل الى مستمعيه بعدم اللجوء الى العنف (وفقا لما ذكره منتقدوه فانه تلقى نصيحة بأن آلاف من سكان الكيبوتزات مفتولى العضلات حضروا الى المدينة لحراسة المبانى العامة والقضاء على أية أعمال شغب) صاح بيجين قائلا : « مستر بنجوريون ان اله اسرائيل سيقرر من منا المصيب» .

بعد ذلك بوقت قصير تم توقيع اتفاقية مع المانيا ، تعهدت بون بامداد اسرائيل بما قيمته ٧١٥ مليون دولار فى شكل بضائع وخدمات على مدى أحد عشر عاما وان تدفع ١٠٧ ملايين أخرى الى لجنة تمثل المنظمات اليهودية العالمية . وكان ضمن المعدات الضخمة التى تلقتها اسرائيل احدى واربعين سفينة تجارية ، واربع ناقلات بترول ، وحوض سفن عائم ومصنع للصلب وصهر النحاس . ورفض أديناور ، — على الرغم من شكوك بيجين فى انه خدم فترة من الوقت فى سجن أحد المعسكرت النازية — ، تهديدات العرب لاقتصاد المانيا الغربية قائلا لهم : « هناك أشياء أكبر يتعين التفكير فيها اكثر من مجرد اتفاقيات عمل لا بأس بها » . اننا نريد المانيا مختلفة عن ألمانيا هتلر » .

لم يستطع مناحيم بيجين توطين نفسه على قبول المانيا « الجديدة » هذه خلال باقى الخمسينات والستينات ، سنوات المعارضة الطويلة المحيطة ، لم يترك بيجين أية فرصة منه لمهاجمة الحكومة لتوصلها الى اتفاق مع « قتلة الشعب اليهودى » ، وشجب تبادل الزيارات بين المدارس الالمانية والمدارس الاسرائيلية ، وندد بعنف ببيع مدافع شبه آلية من طراز « عوزى » الى بون ، والقى واحدة من خطبه الرنانة « انى أتهم » ضد اقامة علاقات دبلوماسية (فى سنة ١٩٦٥) ودعا الى يوم حداد قومى عندما قدم أول سفير لألمانيا أوراق اعتماده . ولكن لم يكن هناك شهداء ، أو زنزانات أو معسكرات اعتقال لاولئك

الذين قاوموا التعويضات ونتائجها ، كما لم يمت بيجين أو رفاقه في الخندق الأخير .

كان ذلك انتصارا حلوا مشوبا بالمرارة لبن جوريون في مبارزة حامية حتى الموت كانت أحيانا مبارزة نبيلة ودائما حقيرة أصبحت مثل مباراة رياضية يشاهدها الاسرائيليون . كانت مبارزة شخصية أساسا . كان بن جوريون يأخذ زمام المبادرة بوجه عام أو يحرض بيجين لذلك . رفض رئيس الوزراء في أحد المراحل الاعتراف بوجود زعيم حزب حيروت مشيرا اليه في الكنيست على انه « العضو الذى يجلس الى جانب د . بادير ويترك قاعة الكنيست عندما يصعد بيجين الى المنصة . وكان يثأر لنفسه بترديد صلاة « شيهيهيانيون » : « لنشكر الرب لابقائنا أحياء ومساندتنا وجعلنا نعيش هذا الزمن » وذلك في المناسبات التى يبقى بن جوريون جالسا في مقعده . ووصلت مبارزة الاتهامات الى ذروتها أو ربما الى دركها الأسفل بمناقشة كريهة ومتأخرة عن موعدها حول موضوع السفينة التالتنيا في يناير ١٩٥٩ . اتهم بن جوريون بيجين بأنه لم يشترك في حرب الاستقلال ، وسخر بيجين من بن جوريون واتهمه بمقاتلة البريطانيين وسط ملاهي باريس ووبخه بن جوريون قائلا : « لا تقاطعني ، ليس لديك على الاقل شيكا او جستابو . وعندما دعا بيجين رئيس الوزراء الى اخراج موضوع السفينة التالتنيا من الكنيست الى لجنة تحقيق أجاب بن جوريون : « لا يا سيدى لن اذهب الي اى مكان معك خارج الكنيست . انني هنا خاضع للقانون وأنا أحترم القانون ويجب أن أولى اهتمامي بك وبكل عضو آخر في الكنيست . هنا يتمتع كل عضو بحقوق وواجبات متساوية . وليس لدى اية نية للاجتماع بك فى نفس الغرفة خارج هذا المكان » .

كان بيجين قد أبلغ حزبه قبل ذلك بثلاث سنوات انه لن يحضر لجنة العلاقات الخارجية فى الكنيست اذا كان بن جوريون حاضرا لانه لا يتحمل الجلوس في نفس الحجرة مع رئيس الوزراء « الذى جرح مشاعره عدة مرات خلال العام الماضى » .

وخلال مناقشة موضوع التالتنيا اتهم بن جوريون بيجين بالكذب « هذه الكذبة الوحيدة التى قالها هنا كافية بالنسبة لى لمعرفة الحقيقة التى يقدر على قولها . انني لا اظن انه يتعمد الكذب أنه ببساطة غير قادر على التمييز بين الحقيقة والخيال » . ولكن عداء رئيس الوزراء لبيجين كان أعمق من الكراهية الشخصية ، كان يكمن وراء الخلاف اعتقاده أن حيروت مثلها مثل الارجون شكلت خلال أزمة التالتنيا تحديا لديمقراطية اسرائيل التى لم تثبت دعائمها بعد . وقال « انها لنفس الحركة واكتشف مستر ابا أهيمير طبيعتها فى مقال كتبه بعنوان « من مذكرات فاشيستى » . ولم يتردد بن جوريون

فى مقارنة بيجين بهتلر . وهو انطباع عززه بيجين بخوضه الانتخابات العامة فى سنة ١٩٥٥ فى سيارة كاديلاك مفتوحة وبحراسة مجموعة من شباب الغرباء ، وقد ظلت هذه الصورة مطبوعة فى أذهان الناخبين بعد فترة طويلة من نسيان معايرة بن جوريون له .

اذا كان بن جوريون البادىء فى تبادلهما القذف فان بيجين كانت له الكلمة الاخيرة ، وفى مايو ١٩٦٢ عندما اختلف المحارب القديم اختلافا شديدا مع حزبه حاول بدهاء هزيمة خصمه :

« ستشعر هذه الدولة بالراحة ، وستشعر الامة انها فى حال افضل ، وستنتهى الكراهية والعداء ، ويبرز الاحترام المتبادل ، وسيختفى الحقد وستبرز المنافسة المفيدة ولو كانت منافسة مريرة ولكنها ستكون امنية وجليلة ، وسيختفى التحريف وتزدهر الحقيقة ، وستقل المسافة بين القلوب وسيعمق الاحساس بالوحدة ، وسيختفى النفاق وتبرز الصراحة ، وستوضع نهاية للتملق البيزنطى ، وستعود الشجاعة وحرية التفكير ليحتلا مكانهما ، وسيتقدم الشعب فى كل المجالات الاخلاقية ، والسياسية ، والامنية والاقتصادية ــ عندما يتقاعد زعيم الماباى الذى يعمل رئيسا للوزراء وكلما كان هذا قريبا كان ذلك افضل » .

الفصل الثالث عشر

الخـــروج من التيـــه

على الرغم من عدائهما المستمر كان بن جوريون أول من يمنح بيجين أول شعور بالاحترام والتكريم اللائق بزعيم معارض مخلص ، ففى يوم الأحد ٢٨ أكتوبر ١٩٥٦ استدعى رئيس الوزراء بيجين الى فراشـــه فى تل أبيب حيث كان يعانى من حمى شديدة وأبلغه ان اسرائيل بسبيلها الى مهاجمـــة مصر . وكان بن جوريون قد أطلع مجلس وزرائه فى وقت سابق من نفـــس اليوم على الخدعة العسكرية الانجلو ـــ فرنسية والتى عرفها العـــالم فيما بعد بحرب السويس ، والاسرائيليون بحملة سيناء . وكان بن جوريون يريد التأكد من تأييد الكنيست والبلاد بالكامل . وقام باستقبال جميع زعماء كافة الاحزاب المعارضة ماعدا الشيوعيين فى مسكنه بشارع كيرين كايميت . ولم يكن بيجين هو الوحيد موضع ثقته ولكن مغزى الاجتماع لم يغب عن أى منهما . وكان بن جوريون بعد كل انتخابات يعلن انه مستعد لتشكيل ائتلاف مع « كافة الاحزاب ماعدا حيروت والشيوعيين » كان أعضاء حيروت مازالوا منبوذين فى تولى المناصب العامة وكان أعضاؤه مضطرين للنضال من أجـــل الحصول على ترقيات فى الجيش النظامى ، كما أن أبواب النقابات كـــانت مغلقة فى وجوههم . وكانت حركة العمل تسيطر على معظم المشروعات . كان حزب بيجين يتعرض للتهكم وفقدان الثقة . وكان التصحيحيون مازالوا منبوذى الصهيونية كان استدعاء بن جوريون لبيجين ايماءة بالقبول على الرغم من محدودتيها .

أمسك بيجين ، الذى كان ينادى دائما بشن حرب وقائية منذ بدايـــة العلم وتبنى استراتيجية « الفاعلية الايجابية » ردا على تسلل الفدائيـــين العرب قبل ذلك ، بيد بن جوريون وقال له : « اننى أحيى قرارك الشجاع » وأكد له : « انك تستطيع الاعتماد على تأييدنا » وخـلال مناقشة الحـرب فى الكنيست أثبت زعيم حيروت انه صادق فى وعده . ولكن هذا التقارب لـــم يدم حيث صب بيجين جام غضبه القديم على بن جوريون فى يناير التالى عقب خضوع رئيس الوزراء للضغط الامريكى وسحب الجيش من سيناء : واتهـــم بن جوريون قائلا : « ان اسرائيل حصلت على نصر عسكرى ولكنها عانت هزيمة سياسية » : تذكر انه بعد هذا الانسحاب فان مؤيدى الحكومة ، اى الاغلبيـــة ليست على حق دائما » . بل ان بيجين كان اكثر قسوة بعد ذلك بشـــهرين عندما قام بن جوريون بسحب قواته من قطاع غزة : « جزء محرر من وطننا »

وقال ان رئيس الوزراء سار بنعال خشنة فوق أجساد ممثلي الشعب المنتخبين « ويل للاعين التي تقرأ والاذان التي تسمع هذه الكلمات » • ظلت رحلة بيجين الشاقة عبر غابة السياسة بطيئة ومضطربة وخلال الحقبة بين حرب السويس وحرب الايام الستة أيام استطاع حيروت ان يدعم صفوفه ليصبح ثاني أكبر الأحزاب بعد حزب الماباى ولكنه لم يستطع اختراق الصفوف ليهدد هيمنة حزب العمل • وفاز فى سنة ١٩٥٥ بخمسة عشر مقعدا من مقاعد الكنيست المائة والعشرين وحصل على سبعة عشر مقعدا فى سنة ١٩٥٩ ،وسنة ١٩٦١ ولكن نصيب الماباى من المقاعد لم ينخفض قط الى أقل من اربعين مقعدا ، الذى كان مع غيره من احزاب العمل - المابام واحدوت وهافودا يضيفان الى ثقل اليسار الديمقراطى •

يرجع التذمر من أسلوب وتطلع زعامة بيجين الى بداية الخمسينات ، كان يلجأ عقب كل انتخابات تقريبا الىالعمل السرى وهو الاسلوب الذى الفه عندما كان رئيسا للوزراء ، كان بيجين يحب الانتصار ويستمتع بخوض المعارك التى كانت تخرج منه افضل واسوأ مافيه ، الرجل الاستعراضى ، والخطيب ، والمشاكس المجبر . وكان سعيدا بشعوره بالاضطهاد . كان اقل ذكر للسفينة التالثيا واقل سخرية من الارجون كفيل بإثارته ولكنه لم يحب قط تعليل وقوع كارثة . كان يشعر بالملل منالاشياء العادية لانها تخالف طبيعته الرومانسية . وبنهاية الخمسينات أصاب بعض رفاق بيجين التعب من المعارضة الدائمة . كتب احدهم وهو عضو فى « الاسرة المقاتلة » من مخضرمى الارجون سرا الى بيجين فى نوفمبر سنة ١٩٥٩ يشكو من أن دعاية الحزب موجهة فقط الى أولئك الذين التزموا بالفعل بتأييد الحزب وليس الى الناخب المتردد • وكتب العضو فى خطابه يقول : ان حيروت معارض للمابام ، ولكن ليس لاجل اى شىء يمكن أن يمنحه الثقة . وأن كثيرا من الناخبين يرفضون تملق رجل واحد ولا داعى لذكر حراسة الدراجة البخارية . وهناك الكثير من « سلطة بيجين » وليس « حيروت » واستحكمت الانتهازية قبضتها ، وهناك السعى وراء الانتصارات الرخيصة ومناشدة مبسطة للجماهير بدلا من حملة معلومات موجهة الىالجماهير المفكرة وتم اتخاذ قرارات كثيرة للغاية وفقا لاهواء الزعيم . وتوقفت الحركة عن تعليم الشباب ولا تقدم افكارا جديدة . كذلك فان المنتقدين أعربوا عن عدم ارتياحهم ازاء السعى لخطب ود الناخب المتين خاصة عندما يستتبع ذلك التضحية بالحرية الفردية . وبعد خيبة الامل التى أصابت حيروت فى انتخابات سنة ١٩٥٩ عندما حصلت على مقعدين آخرين فقط أدان شامويل تامير وهو من أصغر الاعضاء زعامة بيجين علنا ووصفها بأنها زعامة « مفلسة » .

اثبتت تلك السخرية وجود صيحة عامة ضد بيجين الامر الذى شكل

اخطر تحد يواجهه بيجين منذ سنة ١٩٤٨ ، ثورة علنية بعد كمنا لو كانت دعوة لاستخدامه خداعة والسماح لـه بالاستقالة وتأجلت المواجهة نتيجة اتفاق بين حيروت والليبراليين ، ورثة حركة الصهيونية العمومية من الطبقة المتوسطة لتشكيل تحالف جاحال (وهى كلمة مركبة من جوش حيروت ـ الليبرالية وكتلة حيروت ـ الليبرالى) ولم يكن ذلك اندماجا كاملا فظل كل حزب محتفظا بهويته ، وسياسته المنفصلة وتنظيمة ، ولكنها كانت خطوة هامة من اجل ايجاد بديل يمين ـ وسط عريض للعمل . وادخلت حيروت الى مجال نشاط السياسات الاسرائيلية ، وبذلت المحاولات الاولى فى بدايه سنة ١٩٥٠ عندما اقترح ازرائيل روكاش عمدة تل ابيب على بيجين أن يضم حيروت والصهيونيون العموميون صفوفهم خلال الانتخابات البلدية الوشيكة ، رفض بيجين المعرض ، ولكن فى سنة ١٩٥٥ عندما تخطى حيروت الصهيونيين العموميين فى الكنيست جاء الدور على بيجين لاتخاذ زمام المبـادرة التى رفضت هـذه المرة لان حيروت كان شديد التطرف بالنسبة لحلفائهم فى الحزب الصغير التقدمى الذى انفصل فى النهاية لتشكيل الحزب المستقل الليبرالى بزعامة موشى كول وجدعون هوسنر . فشلت المفاوضات السرية مرة اخرى بعد حرب السويس ولكنها كانت أكثر نجاحا قبل انتخابات سنة ١٩٦٥ . وتم التوصل الى الاتفـاق فى ٢٦ ابريل سنة ١٩٦٥ والذى فتـح الطريق أمام حيروت الى اتحاد نقابات الهستدروت المنتشرة . اكد بيجـين لشركائه الجدد ، بقيادة يوسف سابير والميلخ ريمالت الليبراليين المخضرمين انهم لن يظلوا فى المعارضة طويلا بعد ذلك . كان الاتحاد زواجا مفيـدا وليس التقاء عقول . ونجح لان الليبراليين كانوا مستعدين للمثول عند رأى حيروت فيما يتعلق بالسياسة الخارجية والدفاعية بينما تخلى بيجين لهم عن السياسة الاقتصادية . ولكن آمال بيجين تحطمت فى انتخابات ٢ نوفمبر سنة ١٩٦٥ حيث فاز جاحال بستة وعشرين مقعدا أقل بمقعد واحد قبل اتفـاق حيروت والليبراليين . بينما فاز تحالف العمل بخمسة وأربعين مقعدا بزيادة أربعـة مقاعد عن مقاعده قبل الانتخابات على الرغم من عيوب بن جـوريون الذى فاز حزبه رافى بعشرة مقاعد . وبعد تسعة عشر عاما كان شباب حيروت قد تحمل الكثير . انضم الى شامول تامير وهو محام طموح فى تل أبيب وضابط مخابرات سابق فى الارجون ، فى تمرده ضد زعامة بيجين ، اليعيزر شوستاك وافراهام تايير من اتحاد العمل الوطنى المنافس اليمينى القليل العدد ولكن المنظم تنظيما جيدا ، للهستدروت . وكان يوهان بادير قد حذر بيجين مـن ترقية تامير بسرعة كبيرة ولكن اجابه بانه « لديه ثقة غير مخدوذة به » . ألقى شوستاك بالقفاز خلال اجتماع اللجنة المركزية لحيروت بعد اسبوعين مـن الانتخابات . وقال ان الخلاف بينهما يعود الى أيام انشاء الدولة فى سـنة ١٩٤٨ :

« توصل بيجين الى استنتاج ان مسيرة حركة التصحيح حتى انشاء الدولة لم تؤد الى تولى الحكم ، ولكن هذا الطريق سيقود حيروت الى السلطة . وطالب بمنحه الثقة : « اعطوني الفرصة وساثبت لكم ان الحركة ستنجح بطريقتي » . هكذا كانت العلاقة بين الحركة وبيجين غامضة . وتم قبول اشياء كثيرة لم يكن يفهمها الاعضاء أو كانوا يوافقون عليها على أمل أن يثبت انه على صواب » .

واجه بيجين التحدى وجها لوجه . وقال : « منذ دورة الكنيست الثانية والرابعة كانت هناك اشاعات وهمسات وسأقوم أنا هذه المرة باثارة الموضوع » .. منحت اللجنة المركزية الزعيم اقتراعا بالثقة بأغلبية ساحقة : تسعة وعشرين صوتا فى مقابل خمسة مع امتناع أحد عشر عضوا عن التصويت . ولكن كان يجرى الاعداد للمؤتمر القومى التاسع لحيروت فى قرية مكابيا خارج تل أبيب فى نهاية يونيو ١٩٦٦ .

نظمت المعسكرات المؤيدة والمعارضة لبيجين قواتها خلسة كما كان يفعل المتآمرون القدامى فى العمل السرى . ولم تفصح الخطب الافتتاحية عن وجود معارضة مركزة ، ولكن المعارضة برزت عند التصويت على الرئاسة . قدمت قوائم متنافسة الى المندوبين البالغ عددهم ستمائة . وفازت المعارضة بنسبة أكثر من اثنين الى واحد من مجموع الحاضرين والمقترعين (٢٥٣ — ١٣١) مما دعا ايهود اولمرت أحد زعماء حيروت فى الجامعة العبرية لان يقول بدون تفكير ان الامبراطور لا يرتدى ملابس . قال : « حتى الان قاد بيجين مسيرة الحركة باعتبارها حركة معارضة للنظام الحاكم ولكنه لم ينجح فى قيادتها الى تولى الحكم وعليه أن يقبل النتائج ويستقيل مع كل قيادة الحركة » إنفجر الصخب فى القاعة عندما بدأ المندوبون الموالون لبيجين فى التلويح بقبضاتهم والمناداة بسقوط الشاب المغرور . سارع بيجين ، الذى ربما لم يكن يفهم بعد خطورة التحدى الى الدفاع عن أولمرت وقال انه اذا لم يسمحوا له بالاستمرار فى الحديث فانه سيغادر المؤتمر . وقال انه يشعر بالفخر لوجود مثل أولئك المندوبين المستعدين للتعبير عن مثل هذه الاراء وتقديم مثل هذه الاقتراحات . واصل أولمرت وهو ابن أحد أعضاء حيروت القدامى وعضو الكنيست عن الليكود فيما بعد انتقاد الصورة الاخلاقية للحركة ، وافتقارها الى الديمقراطية الداخلية وتوزيع بطاقات العضوية بالجملة ، وعندما تلجأ القيادة الى الهجوم ، فانها تستخدم الهجوم ضد هدف حقيقى وهو شامول تامير وحلفائه من اتحاد العمل الوطنى .

فى اليوم الثالث من المؤتمر حول بيجين التيار المعارض لـــه بأن قـــدم استقالته من زعامة الحزب وعرض التخلى عن متعده فى الكنيست . ولكن هذا العرض رفضه على الفور المندوبون الذين اصابتهم الدهشـــة البالغـــة وكتبت صحيفة (جيروساليم بوست) تصف ما حدث : « ولكن رفض مستر بيجين تغيير قراره . وكان قد قال امام اللجنـــة المركزية فى وقت ســـابق من اليـــوم نفســه : » عندما تفــوز فى الانتخابات فاننا نصبح جميعا منتصرين ، ولكن عندما نخسر فانا الملوم » . ونهم الموالون القدامى التلميح وضـــغط بادير على المندوبين لاعادة انتخـــاب بيجين على الفور وحث رئيس المؤتمر افرهام شسترمان بيجين على العدول عن استقالته : « انـــه ليس شخصا خاصـــا انه ينتمى الى الحركة وجزء من تاريخ الامة » . عـــاد بيجين الى المنصـــــة « لتعـــديل بيـــانه الســـابق » « ووافـــق » على البقـــاء كعضـــو فى اللجنـــة التنفيذية للحزب . واستعادت القيادة سيطرتها وفازت قائمتهـــا الرسمية للمراكز الاساسية فى اللجنة بزيادة اربع أصوات (٢٥٣ ـــ ٢٤٩) خلال اقتراع سرى فى الساعة الثالثة صباحا ولكن لم ينته التمرد . واشـــار تامير الغضب بالحديث عن التميز بين رجال الماضى ورجال المستقبل ، سياسيو الشتات وسياسيو الصابرا التواقون للسلطة : « باعتبارى رجلا حرا مولودا فى هذه البـــلاد ، وباعتبارى مرؤوسك فى الارجون زفاى ليومى ، اجىء الان وأعارضكم فى العلن ، واعلن اننى لا اعارض الايدلوجية بـــل الاســـاليب » ولدهشة بيجين والمندوبين المجتمعين أخرجت المعارضـــة ارنبا من القبعة اذ صعد ايمهاى باجلين رئيس عمليات الارجـــون السابق الذى لم يقم بأى دور فى الســـياسة منذ سنة ١٩٤٨ الى المنصة وبدأ فى صب احتقاره على القيادة .

انفض المؤتمر دون حل المشكلة بعد خطاب مفعم بالمشـــــاعر الجياشـــة القـــاه بيجين واستغرق ثلاث ساعات :

> « هناك حد لمـــا يمكن أن تتحمله الشخصية العامة . هناك حـــد للقسوة العلنية من رجل ما . انهم يطالبوننى بالتقاعد من الحياة العامة ولم أتقاعد ، ليس لاننى مكروه أو اننى محبـــوب . ولكن ما هو الخطأ الذى ارتكبته ضد هذا الشعب طوال حياتى ؟ ما الخطأ الذى ارتكبته ضد مستر بن جوريون حتى يكن لى كل هذه الكراهية ؟ هل كان ذلك لاننى انا واصدقائى حاربنا من اجل الدولة التى أصبح بن جوريون أول رئيس لوزرائها بموافقتى ؟

صفى بيجين بعض حساباته مع الصحافة ثم بدأ فى توجيـــه اللـــوم الى المعارضة الداخلية : « شوستاك وتامير وتايير : كانوا يعملون من وراء ظهرى شكلوا ائتلافا فيما بينهم ولم يبلغوننى . كان مستر تامير يعـــرف اننى كنت انـــوى الاســـتقالة وتركونى مثـــل رجـــل أعمى اتخبط فى الظلام . هل كان يظنـــون اننى رئيس وزراء موناكو لاكراهى على الوزارة دون علمى ؟ » .

كتب مارك سيجال وهو مراسل سياسى اسرائيلى غير معروف عنه تعاطفه مع زعيم حيروت تعليقا جاء فيه :

« كان الخطاب تجربة مؤلمة بسبب الاعتراف بالتعرض للاذى الشخصى العميق . واعترف بعض الصحفيين الذين كانوا يجلسون على مائدة الصحافة والذين تحدثت معهم بعد ذلك انهم شعروا بالحرج الى حد ما لجلوسهم وسط هذا الحشد للاستماع الى هذا الاعتراف الحميم من الذى يقف على المنصة فى حالة هياج شديد ، بينما تجلس حولنا النساء الباكيات . شعرنا اننا نشهد تحطيم شخصية عامة » .

ولكن لم تكن مائدة الصحافة هى شرفة المسرح التى كان بيجين يلعب دوره امامها ويوجه لها اهتمامه . وكما كتب سيجال يصف تلك الليلة : « دوت القاعة بتصفيق مدوى بينما كان الرجل الشاحب احمر العينين يتسلل تاركا المنصة » كان بيجين حريصا على أن تقتصر استقالته على مدة الدورة التاسعة لمؤتمر حيروت . لم يتم انتخاب خليفة آخر فى قرية ماكابيا ، المقر الدائم للبطولات الرياضية اليهودية الدولية . حل بادير مؤقتا محل بيجين كرئيس لمجموعة الكنيست ويلكوف ميريدور كرئيس للحزب بدلا منه .

نجح بادير المخادع فى استرضاء المعارضة ولكنه احتفظ بأغلبية الحرس القديم فى اللجنة المركزية . ووافق باعتباره رئيسا للجنة القيادة على اقتراح يمنح المعارضة فرصة متكافئة فى اللجنة المركزية بشرط أن يخدم بها كل أعضاء الكنيست من حيروت أيضا . قام كل جانب بتعيين ستة واربعين عضوا فى اللجنة ولكن كان للموالين اغلبية اثنى عشر فى مقابل ثلاثة بين أعضاء الكنيست . وقال بادير : « اننى افضل أن أبقى فى التيه السياسى مع مناحم بيجين بدلا من الجلوس فى الوزارة مع شامويل تامير . وفى نوفمبر التالى عندما واصل حيروت طريقه استأنف بيجين تولى القيادة بهدوء . وواصل تامير ، وشوستاك ، والشاب اليهودى المرت شق طريقهم بعد فضيحة حول خطاب مزور معادى لبيجين ارسل الى صحيفة (هاآرتس) ولكنهم عادوا مرة اخرى وسط تشكيلة من الرايات الممزقة ليجلسوا فى مقاعد الحكومة بعد ذلك بعشر سنوات .

على الرغم من شكوك الليبراليين عقب انتخابات سنة ١٩٦٥ والضجة التى ثارت خلال صراع الزعامة فى حيروت لم يصب جاحال بأى اذى . كان الليبراليون لا يحرزون أى تقدم وينظرون فى الاتجاه الاخر . ولكن تآمرت الاحداث لتجمعهم مع مناحم بيجين فى حكومة واحدة اسرع مما كان يتخيل أى منهم . ففى ١٥ مايو سنة ١٩٦٧ وبينما كانت اسرائيل تحتفل

بالذكري التاسعة عشر للاستقلال قام الرئيس المصرى جمال عبد الناصر بارسال دباباته الى سيناء عبر قناة السويس مثيرا أزمة تثشة تبدو عند تذكرها فى غير موضعها بدرجة غير معقولة ، كان العرب يتحرقون للحرب ، وكان الاسرائيليون يشعرون بانهم معرضون للهجوم . وللمرة الاولى خلال التاريخ القصير للدولة اليهودية افتقدوا الثقة فى قدرة زعمائهم على مواجهة مثل هذا التحدى : كان بن جوريون قد اعتزل الحياة السياسية وذهب الى كيبوتز سيدح بوكر فى صحراء النقب وكان خليفته ليفى اشكول مشهورا بعدم الحسم ولم يكن رئيس الوزراء الجديد يمتلك خلفية عسكرية على الرغم من دهائه كسياسى فى الحزب وكان مثله مثل بن جوريون يشغل منصب وزير الدفاع . وعلى النقيض من بن جوريون لم يكن جديرا بالقيام بالمهمة

تم التشاور مع بيجين وابلاغه عن تطورات الازمة باعتباره زعيما لكتلة المعارضة . كان بيجين مدركا تماما لحالة الفراغ فى قمة السلطة والقلق المتزايد فى البلاد : كان تفكيره الاول اعادة بن جوريون الى الحكم على الرغم من عدائهما الطويل والمتبادل . كان بيجين يحترم بن جوريون . وان كان يضن عليه بهذا الاحترام — باعتباره الرجل الذى قاد اليهود الى الاستقلال بعد الفى سنة من النفى . وكان يفضل وجود علاقة مختلفة معه . كان بن جوريون كما يراه بيجين فوق كل شىء سياسيا نشطا ، رجل دولة لم يتهرب من اتخاذ قرارات صعبة كان الشىء الذى لا يعرفه فى ربيع سنة ١٩٦٧ هو أن بن جوريون الذى بلغ الثمانين من عمره لم يعد الاسد القديم الذى يوثق به . وكان الجنرال اسحق رابين قائد الاركان الذى كان يشكو من أنه يطلب منه تحمل الكثير من العبء العسكرى والسياسى كذلك ، قد توجه الى بن جوريون ليحصل منه على تأييد معنوى ولكنه أصيب بخيبة الامل وكتب يقول بعد ذلك بسنوات :

« كان مؤلما رؤيته فى حالته الراهنة ، بعيد كلية عن اية مصادة للمعلومات والاسوأ انه يتمسك بقوة بمفاهيم قديمة واخطأ فى تقييمه لقوة قوات الدفاع الاسرائيلى . كان مقتنعا أن اسرائيل فى موقف سياسى غير محتمل ويشك فى أن تستطيع تخليص نفسها من الخطر ببدء حرب مع مصر » .

استطلع بيجين آراء زعماء الاحزاب المعارضة الاخرى ومن بينهم شيمون بيريز السكرتير العام لحزب بن جوريون رافى الذى انفصل عن العمل فى سنة ١٩٦٥ ، وشعر بالرضا لانهم يشاركونه تشخيصه ويوافقون على وصفه للعلاج . وفى ٢٤ مايو وهو اليوم الذى جعل بعده ناصر الحرب أمرا حتميا باغلاقه مضايق تيران — شريان الحياة لميناء ايلات الاسرائيلى

على البحر الاحمر — اقترح بيجين سرا على اشكول دعــوة بن جــوريون لرئاسة حكومة وحــدة وطنية . وكان رد اشــكول الذى لم يكن خــلافه مع بن جوريون اقل حدة من خلاف بيجين معه : « إن العربة الواحــدة لا يمكن أن يجــرها حصــانان » . وعلى الرغم من أن بيجين كان متأثرا بالــرد انهــائى لاشكول فانه قبل دعوة للانضمام الى زعماء الاحــزاب المعارضة الاخرى لعقد اجتماع خاص فى منزل بن جوريون فى تل ابيب ولكنه شعر بنفس الفزع الذى شعر اسحق رابين ، كان الرجل العجــوز مازال يحــارب حربه الشخصية مع مؤسسة العمل ورفض قيام اسرائيــل بضربة وقائيــة ووصفها بأنها مغامرة خطيرة . وحث الحكومة على طلب مساعدة الــدول الكبرى . تخلى بيجين عن فكرة تعبئة بن جوريون للعمل وابلغ رئيس الوزراء أن جاحال مستعد للانضمام الى ائتلاف شامل بشرط أن يشغل موشى ديان وهو عضو بالكنيست عن رافى منصب وزير الدفاع بدلا من أشكول وقال انه « الرجل المناسب فى المكان المناسب » .

كان التيار يتجه بالفعل الى ديان الذى كان رئيسا للاركان خلال حرب السويس ولكن جولدا مائير سكرتير عام حزب العمل كانت تمانع فى نسيان الماضى . ومع ذلك فقد أصر بيجين أن جاحال لن يشترك فى الحكومة بدون رافى ، ووفقا لما ذكره « يهييل كاديشاى » سكرتيره السياسى — فان بيجين كان أقل اهتماما بسمعة ديان الحزبية من اهتمامه بتأمين أكبر قدر ممكن من الوحدة . وفى النهاية أذعن أشكول لمطالبة الراى العام ولبيجين .

وفى أول يونيو ١٩٦٧ عاد مناحيم بيجين الى الاضواء وانضم الى حكومة اسرائيل ورثة جابوتينسكى : الارهابيون المحتقرون من جماعة الارجون زملاى ليومى . احترم بيجين ديونه التاريخية ودعا أخلص ثلاثة من رفاقه ياكــوف، ميريدور ، واريخ بن اليعازر ويوهانن بادير للذهاب معــه الى مكتب رئيس الوزراء حيث عانقهم ثم انصرف . وفى صباح اليوم التالى ، وهو فى طريقه الى الكنيست فى القدس وقف بيجين للحظة الى جانب قبر معلمه ، وكانت حكومة أشكول قد قامت قبل ذلك بثلاث سنوات باحضار رفات جابوتينسكى بطريقة ملائمة وأعادت دفنها على جبل هيرزل جنبا الى جنب مع زعماء صهيون . وذكر موشى ديان أنه بعد ان قام رئيس الوزراء بالترحيب بالوزراء الجدد فى أول اجتماع لهم مع الوزارة ، رد بيجين بخطاب قصير مفعم بالعواطف حافل بحــكم من التوراة أخذ اشكول الذى كان يتمتع بروح الدعابة يؤكدها بقوله : « آمين ، آمين » .

الفصـــــل الرابـــع عشر

التدريب على الحـــكم

فى هذه الحرب لم يجد مناحيم بيجين نفسه مضطرا لانتظار دعوة وباعتباره وزيرا فى الوزارة وان كان لم يتقلد منصبه بعد أن انضم الى حشد من السياسيين والجنرالات المتقاعدين المفصولين فى مكتب رئيس الوزراء فى تل أبيب فى صباح يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ، وكان أول من سمع بالغارة الجوية المنسقة التى باغتت القوات الجوية المصرية أثناء تناول الافطار وكفلت لاسرائيل السيطرة الحاسمة على سماء المعركة . فمنذ الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة من صباح يوم الاثنين نجحت موجات من المقاتلات القاذفة من طراز الميـــراج الفرنسية الصنع التى كانت تطير على ارتفاع منخفض بعيدا عن مجـــــال الرادار فى تدمير نحو ثلاثمائة طائرة حربية مصرية وعطلت كل القواعد الجوية المصرية الهامة من سيناء حتى مصر العليا . وعند حلول موعد الغـداء حـدث نفس الشىء بالنسبة للقوات الجوية الاردنية والسورية ، كانت سعادة بيجين بهذا الانتصار والاثارة التى أحسن بها لكونه واحداً من الدائرة الداخلية التى سمح لها بالاطلاع على السر تتسم بالطفولية . كان ينفجر فرحا بالانباء التى حجبت عن الصحافة وعن العدو ، وعانق حاييم لاشكوف قائد الاركان السابق وهو ضابط قديم عمل فى الجيش البريطانى وفى حرب سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ واخبره بما حدث . وخلال توجهه الى القدس فى وقت لاحق من نفس اليـــوم أخذ يلوح بعلم أمام سيارة جولدا مائير وضرب معها موعـــدا وكانت رئيسة الوزراء المستقبلة عن حزب العمل تشغل منصب سكرتير عام الحزب وليست عضوا فى الوزارة وفى الكنيست بحث بيجين عن بن جوريون خوفـــا من أن يكونوا قد نسوا ابلاغ الرجل العجوز .

بينما كان بيجين مازال خارج حجرة ليفى أشكول عقد تحالفا غير رسمى مع منافسه القديم من البالماخ ايجال آلون الذى اصبح الان وزيرا للعمل ، وادرك كلاهما الاحتمالات المتاحة نتيجة النصر الاسرائيلى الاولى وكان اشكول قد بعث برسالة الى الملك حسين ملك الاردن عن طريق الامم المتحدة يحثـــه فيها على ابعاد الاردن عن الحرب . فاذا وافق فان اسرائيل تتعهـــــد بعدم مهاجمة المملكة الهاشمية . كانت الوزارة مستعدة من أجل تجنب الدخول فى حرب على ثلاث جبهات اضاعة فرصة غزو الضفة الغربية والقدس الشرقية العربية . لم يعارض بيجين أو آلون قرار ارسال البرقية الى عمان ولـــكن بمجرد أن اتضح فى صباح يوم الاثنين ان حسين تجاهل البرقية بدءا فى الضغط

على رئيس الوزراء باعطاء أولوية لاعادة توحيد العاصمة المقسمة . قال له آلون بغمزة ساخرة « بيجين وأنا نريد القدس . فأجابه أشكول باللغة العبرية القديمة : « ليست هذه فكرة سيئة » .

وعندما وصل بيجين الى القدس لحضور جلسة خاصة في مبنى الكنيست الجديد الذى بنى على أرض مغتصبة فى أعلى منطقة فى جيفات رام والذى تم افتتاحه قبل عام وتعرض المبنى للقصف من ناحية بيت لحم ، أدرك بيجين ان حلمه فى طريقه الى التحقيق ربما اسرع مما كان يتوقع . وعندما عرف أن اشكول لم يصل بعد طلب من سكرتيره السياسى الوقوف عند مدخل الاعضاء وطلب منه ابلاغه بمجرد رؤية سيارة رئيس الوزراء . أحاط بيجين بأشكول عند دخوله المبنى وطلب منه عقد جلسة طارئة لمجلس الوزراء قبل انعقاد الكنيست . وافق اشكول واجتمع الوزراء فى حجرة الوزارة بالطابق الثانى ولكن سرعان ما قام حراس المبنى بدفعهم الى مخبأ سرى ضيق تسوده الفوضى . كانت قنابل المورتر تتساقط بالقرب من المبنى بدرجة خطيرة وانفجرت احداها بين الاعشاب فى الخارج . صوت الاجتماع بالاجماع على الاستيلاء على المدينة القديمة محطة اذاعة الـ ب . بى سى وينتظر الطبعات الاولى من الصحف الصباحية . كانت القدس قد تم حينذاك تطويقها بالدبابات الاسرائيلية .. وسيطر جنود المشاة على جبل سكوس وجبل الزيتون ، المرتفعات الهامة فوق المدينة القديمة وبعد منتصف الليل استمع بيجين فى الاذاعة أن الامم المتحدة تستعد لاصدار أمر بوقف اطلاق النار على كافة الجبهات .

طاردت بيجين ذكرى سنة ١٩٤٨ عندما اصيبت عصابات الهاجاناه الارجون وشتيرن بالاحباط نتيجة وقف اطلاق النار الذى حال بينهم وبين القيام بمحاولة أخرى لاستعادة القسم اليهودى القديم من أيدى الفيلق العربى بقيادة الملك عبد الله . تناولت أول صحيفة تصل الى عتبة بيته وهى صحيفة المابام اليسارية « عال همشمار » تفاصيل أخرى عن القصة ، كان قرار وقف اطلاق النار وشيكا فى الساعة الرابعة صباحا . أيقظ بيجين اشكول واقترح ان يصدروا اوامر الى الجيش بدخول المدينة القديمة قبل فوات الأوان . طلب رئيس الوزراء من بيجين محادثة موشى ديان تليفونيا . قال بيجين لوزير الدفاع : « على الرغم من اننا اتفقنا أمس على مواصلة تطويق المدينة القديمة الا أن قرار مجلس الامن يغير كل شىء . ولا يمكننا الانتظار بعد ذلك وافق ديان الذى كان حتى حينذاك يتزعم الدعوة الى استراتيجية اكثر حذرا . وتحدث بيجين بناء على اقتراحه الى رئيس الوزراء مرة اخرى وطلب منه القيام بعمل فورى . اتفق معه اشكول فى الرأى واستشار زملاءه واصدر اوامره الى الكولونيل مورد خاى جور ولواء مظلاته

باقتحام الجوائط للمرة الاولى منذ قيام السلطان التركي سليمان الاعظم ببنائها في سنة ١٥٤٠ . وفي الساعة ١٥ ر ١٠ من صباح يوم الاربعاء ٧ يونيو وبعد قتال عنيف في الازقة الضيقة المؤدية الى بوابة سانت ستيفانس ، كانت نجمة داود تخفق فوق الهيكل وكانت حفنة من جنود المظلات الذين يغطيهم غبار المعركة والعرق يؤدون صلاة شكر عند الحائط الغربي . لم يسر تنفيذ وقف اطلاق النار لمدة اربع وعشرين ساعة أخرى مما أتاح لاسرائيل استكمال غزوها للضفة الغربية لنهر الاردن وشبه جزيرة سيناء ، وعلى الرغم مما يكتنف ذلك من المخاطر باستثارة السوفييت حلفاء سوريا فان اسرائيل واصلت هجومها لتستولى على مرتفعات الجولان السورية في اليومين الخامس والسادس .

لم تكد تنقضى ثلاثة أسابيع أى في ٢٧ يونيو حتى قامت اسرائيل بتطبيق قوانينها في القدس الشرقية . وكان ذلك يقترب بالنسبة لكافة المحامين التشريعيين - ما عدا المتشددين منهم - من الضم الفعلى . وهكذا تحقق حلم بيجين المثالى في تينس موحدة تحت السيادة اليهودية ، وتم اتخاذ خطوة حاسمة حتى يضمن الا يعاد تقسيمها مرة اخرى اذا منيت اسرائيل بهزيمة في حرب .. حتى معظم الاسرائيليين من العلمانيين انتابهم احساس بأن شيئا اشبه بالمعجزة قد حدث . كان خلطا من التحرر من شىء كان يمثل خطرا شديدا والدهشة من تحطيم الحواجز المادية والنفسية التى قسمت المدينة المقدسة . اندفع عشرات من الاسرائيليين الى الحائط الغربى للحج بدون نظام ليل نهار : وسواء كانت مبادرة بيجين التى اقترحها عند الفجر هى السبب وراء الاستيلاء على المدينة القديمة أم لا فانه كان راضيا على أنه قام بدوره .

شاركت حيروت فى الاجماع القومى حول القدس . فلم يناد اى تنظيم بعودة القسم الشرقى من المدينة الى الحكم العربى ولكن بالنسبة ليهودا والسامرة فى الضفة الغربية التى احتلتها اسرائيل مؤخرا كان بيجين يتحدث باسم الاقلية . لم يكن يتخيل الكثيرون انه بعد حقبتين من الزمن فان اسرائيل ستسيطر على كل فلسطين غرب النهر . تحدث زعماء العمل عن انتظار مكالمة تليفونية من عمان . وأعلن موردخاى بينتوف وزير الاسكان ان « الاراضى محفوظة فى أمان حتى يكون الملك حسين مستعدا لاستعادتها » لم يكن الحزب الدينى القومى قد تطرف بعد وأعلن زعيمه حاييم موشى شابيرو أمام مؤتمر الحزب فى سنة ١٩٦٨ ان التوصل الى تسوية بشأن الاراضى أمر اساسى . ولكن بيجين كان مصمما منذ البداية لبذل المستحيل للحيلولة دون اعادة تقسيم « أرض اسرائيل » . لم يعترض عندما قررت الحكومة ارسال من يقوم بجس نبض الاردنيين ولكن أبا ايبان الذى كان يشغل وقتذاك منصب وزير الخارجية أعرب عن شكه فى أنه اذا استجاب حسين فان بيجين سيستقيل .

قال أبا ايبان : « انني أتذكر كيف ضحك بيجين في سره عندما سمع عبارة « الرفض التام » في رد الملك حسين . وفي شهر يوليو سنة ١٩٦٧ ساعد بيجين ايبان ووزرها فيتح على صياغة خطاب يفتح الطريق أمام التوصل الى حل وسط بين حقوق اسرائيل القومية في القدس ومصالح المجتمع الدولي . ونص الخطاب على : « ان أسرائيل لا تطالب بالسيطرة على القدس من جانب واحد أو بالسلطة المنفردة في الاماكن المقدسة للمسيحية والاسلام » . وستكون اسرائيل ، في أية تسوية سلمية « مستعدة لتقديم صياغة مناسبة لتحقيق هذا المبدأ » . ولكن هذا الاعلان لم يتضمن عرضا للتوصل الى حل حول السياده الاسرائيلية ، كان ايبان يأمل أن يخلق هذا احتمالا بالتوصل الى حل ضمنى بالنسبة للمسجد الاقصى وقبة الصخرة . وهى الاماكن الاسلامية المقدسة في الهيكل اذا ما تم التفاوض من أجل تسوية سياسية مع الاردن كان بيجين مستعدا للقيام بتلك المخاطرة .

بعد انتهاء الحرب كرس بيجين كل براعته اللفظية في تأكيد ان اسرائيل تقبل قرار مجلس الامن التابع للامم المتحدة رقم ٢٤٢ بأكثر الالفاظ بعدا عن الالتزام بشيء . وكان هذا القرار الذى صاغته بريطانيا في نوفمبر سنة ١٩٦٧ كأدنى حد للاتفاق حول قاعدة لاجراء مفاوضات بين اسرائيل والعرب للتوصل الى حل شامل ، يؤكد « عدم السماح بالاستيلاء على الأراضى عن طريق الحرب » ويدعو من بين أشياء أخرى الى انسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من أراضى محل النزاع الاخير » . كان اعتراض بيجين الاول هو منع استخدام الحكومة الاسرائيلية لكلمة « انسحاب » وكان يتباهى بعد ذلك ان خيروت نجح في تحقيق هذا بعد عامين ونصف :

> تم تقديم اقتراح الى الوزراء ثلاث مرات باستخدام كلمة « انسحاب » ورفضت الوزارة خلال احدى الجلسات فرر ليفى اشكول هذا . تم تقديم اقتراح الينا لاستخدام كلمة « انسحاب » وكنت ضد استخدامها . اقترحنا كلمة « انتشار » القوات . سأل أحد زملائى رئيس الوزراء ما هو الفرق بين انسحاب وانتشار القوات أجاب بطريقة مميزة :
> « اذا قلنا انسحاب فعندئذ نكون ملزمين به واذا قلنا انتشار القوات فان ايبان سيفسرها بالطريقة التى يراها صوابا وسيفسرها بيجين بالطريقة التى يراها صوابا » .

اعلن بيجين بعداشارته كثيرا من التفاصيل التافهة ان كلمة « انتشار » ليست ملائمة لمعاهدة سلام . لان انتشار تعنى دائما تنشيط القوات للقيام بهجوم . واستقر رأى الحكومة في النهاية على : « يكون تنظيم القوات بالتوافق الكامل مع الحدود الدائمة التى تتحدد في معاهدات السلام » .

بالنسبة لبيجين كان الاختلاف بين « الانسحاب » و « والتنظيم » قاطعـا . كان حريصا على عدم استخدام لفظ « اعادة » فلم تذكر حكومة اسرائيل كلمة « اعادة انتشار » أو « اعادة تنظيم » فلم تكن تلزم نفسها بالانسحاب وشرح بيجين الفرق قائلا ان « الانسحاب يعنى التحرك الى الخلف وفى كلمة تنظيم ليس هناك حركة . ان ذلك ستقرره الحدود كما تتحدد فى معاهدة سلام » .

قال ايبان وهو واحد من اكثر الوزراء مرونة فى مجال سرده لذكرياته : لم يكن سهلا بالنسبة لى صياغة مقترحات معتدلة فى وزارة تتكون من كافة الاحزاب بما فيهم جاحال الذى يعتقد ممثلوه انه يمكن التوصل الى معاهدات سلام دون التضحية بأى أراض على الاطـــــلاق . ومع ذلك فان بيجين لم يمارس حق الفيتو على الدبلوماسية الاسرائيلية . يقول ايبان ان « اشكول كان يمنحنى سراوبهدوء تأييده للصيغ التى لم تكـن تلقى ترحيب بيجــين وزملائه » . ومع فان جاحال توقف فى مرحلة حرجة قبـــل أن يوضـــع الاحتلال فى قالبه .

استكمل اشتراك جاحال فى حكومة الوحدة الوطنية ــ برئاسة اشكول حتى وفاته بنوبة قلبية فى فبراير سنة ١٩٦٩ وبرئاسة جولدا مائـــير حتى اغسطس سنة ١٩٧٠ ــ انتقال مناحيم بيجين الى مرتبة يصبح فيها جديرا بالاحترام . كان من الصعب ارضاؤه خلال حضور جلســـات الكنيست واجتماعات الوزراء كانت علاقاته مع أعدائه السابقين ودية وعمليـــة بل انه هادن بن جوريون الهرم . وقد تصادف أن تقابلا فى أحد الايام فى مطعـــم الريجنس فى فندق الملك داود ودعا بن جوريون بيجين للانضمام اليه فى تناول الغداء وكتب له المحارب القديم يقول له بعد ذلك :

« كانت زوجتى بــولا لسبـب مـا معجبـة بك لقـد عارضـت طريقتك بقوة أحيانا . قبل وبعد قيـــام الدولـة . كما لـو كنت سأعارض طريقة جابوتنيسكى . عارضت بشدة عددا من أعمالك وآرائك بعد اقامة الدولة . ولست نادما على معارضتى لاننى كنت مصيبا فى رأيى ولكننى لا أحمل لك أية ضغينة شخصية وكلمـــا عرفتك أفضل خلال السنوات الاخيرة يزداد تقديرى لك وتشاركنى زوجتى بولا فى هذا .

ابتهج بيجين بالاطراء بالرغم من انه ربما كان يفتقر الى الصياغة البارعة وسر بنفس القدر لان اشكول كان رئيسا للوزراء أكثر قوة مما كان يتوقع أو ما كانت تؤهله له سمعته . وشهد فيما بعد ان اشكول أثبت انه رجل يستطيع اتخاذ قرارات :

« رايته يعمل فى أوقات صعبة ، وأكرر انه كان البادىء أو الشريك أو العامل الحاسم فى اتخاذ قرارات حاسمة تلك التى كانت أقرب القرارات الى نفسى ـ القرارات المتعلقة بالقدس ، وبمرتفعات الجولان ، والمتعلقة بتوحيد القدس وأعرف مدى تأثيره فى اتخاذ تلك القرارات ٠

كان زعيم حيروت وزيرا بين وزراء آخرين ، فلم يكن يتمتع بعلاقة متميزة مع اشكول ، ولكن تم قبوله وفقا لنفس الشروط ٠ ويقول ياكوف شمشون شابيرو وزير العدل وأحد المخضرمين فى الماباى : « كان أسلوب أشكول معاملة الوزراء على قدم المساواة كان يميل الى قبول الجانب الأخر من العملة وليس كبن جوريون وشاريت بصفة خاصة الذى كان يعتبر نفسه ينبوع الحكمة كلها » ٠ بدا تولى جولدا مائير لرئاسة الوزراء فى اول الامر تهديدا بانتهاء شهر العسل ٠ وكانت رئيسة الوزارة الجديدة قد قاومت تشكيل ائتلاف من كافة الاحزاب عشية حرب يونيو ٠ وكانت آكثر اهتماما بابعاد موشى ديان الذى لم تستطع أن تغفر له تركه الحزب مع بن جوربون اكثر من أبعاد بيجين ولكنها كانت امراة ذات آراء صريحة تمثل الولاء التاريخى وتحيزات الماباى ٠٠ وكانت مسز مائير من الشخصيات التى اذا كرهت أحد فان كراهيتها تكون شديدة وظل مناحيم بيجين لفترة طويلة هدفا لكراهيتها ٠ ولكنها كانت تعرف كيف تسحر وتتكيف ٠ وكانت مثل اشكول تقدر أهمية حكومة وحدة وطنية بمجرد بدء الحكومة العمل ٠ كانت مصممة على نجاحها واذا كان ذلك يعنى التعايش مع بيجين فليكن ذلك ٠ ولدهشة المجتمع السياسى تعاون الاثنان بسهولة بل بود فى الوقت الذى استمر فيه الائتلاف ٠ وعلى الرغم من أن مسز مائير لم تكن تشاركه التزامه الكامل بأرض اسرائيل الا انها كانت تشاركه شكوكه تجاه نوايا الفلسطينيين ٠ وكانت فخورة مثله بيهوديتها ٠

عمل بيجين الذى كانت له نقطة ضعفه كمدنى تجاه الابطال العسكريين على توطيد علاقته فى هذا الوقت مع ديان وكان التقدير متبادلا بينهما مما أدى فى نهاية الامر الى تجنيد الخارج عن حزب العمل لنخدم فى حكومة يشكلها حيروت ٠ كانت هناك صلة روحية تربط بين الاثنين ٠ فديان من جيل ولد فى اسرائيل ويعرف العرب كبشر وليس كأعداء مجهولين كان يعرف الارض بطولها وعرضها بكل حواسه . كان بيجين يشعر كما لو كان فى بيته فى القدس ، فى تل ابيب وفى أحلامه المتعلقة بالتوراة ولكن داخل الوزارة اصبحا نواة ما أطلق عليه احد المعلقين الاسرائيليين : « ائتلاف صقور تخطى الحدود الحزبية . اشتركا معا فى معارضة الموافقة على مشروع آلون الذى وضع تمييزا بين السيادة والامن ، ويصور انسحابا اسرائيليا من

المراكز الانسانية للشكل المعزب عند التوصل الى اتفاق مع الاردن ، توصل بيجين وديان الى موقف مشترك نابع من منطلقات مختلفة : كانا متشابهين فى ايمانهما بالروحانيات كان بيجين يؤمن بالحق الالهى لليهود فى أرض فلسطين كلها . وكان ديان يتذكر تجولاته فى الصبا ، وقضاء الليالى تحت ضـــوء النجوم ويرفض أى حل يمكن أن يحرم يهود آخـــرين من نفس العلاقـــة الحميمة . كان الضم يثير استفزازا غير ضرورى ، ولكن يجب ان تكـــون هناك حدودا لا يمكن الاضرار بها .

كانت الثلاث سنوات التى قضاها بيجين للتدريب على الحكم من ســنة ١٩٦٧ إلى سنة ١٩٧٠ سنوات مثمرة ولكنها اصابته بالاحباط دائما ، فلـــم توكل اليه مسئوليات عندما كان وزيرا بلا وزارة ، فالوزراء الاداريـــون غيورون بطبيعتهم ممن هم أعلى منهم ، حريصون على الا يتركوا فراغـــا لغيرهم . وبدا بيجين دائما كما لو كان يخلق لنفسه عملا ، فكان يشـــكل لجانا فرعية جديدة ، ويستقبل الصحفيين ، ويرد على منتقدى الحكـومة . كذلك فان فرصة البرلمانية كانت محدودة وكان ذلك يكدره وهو أحد النجوم الأوائل للكنيست . فنادرا ماكان الاعضاء فى المقـــاعد الخلفية ينافشون الوزراء بدون وزارة ، كما ان مديرى الحزب لم يعطوا للاعداء القـــدامى فرصة التألق خاصة انهم ربما يعودون الى صفوف المعارضة فى أية لحظة ، وعندما وقع الانشقاق فى النهاية شعر ايبان من جانبه أن بيجين « تخلى عن مائدة الوزراء فى مقابل منبر الكنيست وهو يشعر بالارتياح » .

عندما خلفت مسز مائير أشكول فى رئاسة الوزارة لـــم يكن اســـتمرار عضوية جاحال فى الائتلاف اتوماتيكيا بأية حال . كان بيجين وزملاؤه يشعرون بعدم الارتياح ازاء الاتجاه نحو التوصل لتســوية فيما يتعلق بالاراضى بين أغلبية الوزارة وحساسيتهم المتزايدة من خطر أن ينجح اللوبى الاسرائيلى الاكبر فى اخراجهم من اليمين ، ولكنهم فرضوا الموضـــوع على الســياسة الداخلية وان لم يكن على السياسة الخارجية ففى الوقت الذى ازدادت فيه الروح القتالية بين العمال الاسرائيليين طالب بيجين بتشريع يقضى بجعـــل التحكيم اجباريا فى الصناعات الاساسية والخدمات ، وعندما رفض حـــرب العمـــل بجذوره الممتدة فى الحركة النقابيـــة والتزامه بحق الاضراب ، أعلن بيجين عن استعداده للرجوع الى مقاعد المعارضة ولكن الذى اقنعه بالعدول عن موقفه هو تفجر موضوع أرض اسرائيل وهو نفس الموضوع الذى ادى فى النهاية الى خروج جاحال من الحكم . وفى شهر ديسمبر ١٩٦٩ بدأ جونار يارنج مهمة الامم المتحدة للسلام بعد أن طوى النسيان القرار رقم ٢٤٢ الذى كان قد تبناه مجلس الامن وكان قتال عنيف قد نشب بين القوات الاسرائيلية والمصرية على ضفتى قناة السويس . وكانت هجمات الفدائيين الفلسطينيين

تتصاعد من الاردن وسوريا . وبدأ العالم يخشى وقوع مواجهة أخرى ، وفى واشنطن قدرت ادارة الرئيس نيكسون أن الوقت قد أزف للقيام بمبادرة دولية جديدة لاعادة الشرق الاوسط لصوابه • وفى ٩ ديسمبر أعلن وليام روجرز وزير الخارجية الامريكية أن الدول الاربع الكبرى فى مجلس الامن ستتعاون مع يارنج للتوصل الى تسوية وفقا للقرار رقم ٢٤٢ وكان الامريكيون قد قرروا أيضـــا « التشاور مع الاتحاد السوفييتى مباشرة على أمل تحقيق أكبر قدر ممكن من الاتفاق بيننا » • أصاب اسرائيل الذعر من كلا النقطتين ــ البحث عن تسوية فى اطار القرار رقم ٢٤٢ واشتراك الاتحاد السوفيتى ، صديق اعدائها الذى قام بقطع العلاقات الدبلوماسية معها خلال حرب ١٩٦٧ • ومما زاد من شدة المقاومة للاقتراح الامريكى ما أوضحه روجرز حول سياسة الادارة الامريكيـــة ازاء الحدود • فقد أعلن أن الولايات المتحدة تؤيد مبدأ عــــدم الاستيلاء على الأراضى بالحرب وانسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من أراض احتلتها فى ســـــنة ١٩٦٧ .

« أقيمت الحدود التى نشبت منها حرب سنة ١٩٦٧ بنـــاء على اتفاقيات الهدنة فى سنة ١٩٤٩ وحددت مناطق السلطـــــة الوطنية فى الشرق الاوسط لمدة عشرين عاما . وتلك الحدود كانت خطوط الهدنة وليست حدودا سياسية نهائية . وكانت تحكم حقوق ودعاوى ومواقف الاطراف ازاء التوصل الى تسوية سلمية نهائية اتفاقيات الهدنة ولم يكن قرار مجلس الامن يوافق أو ينادى بتلك الحدود السياسية المحددة • ومع ذلك فانه يدعو الى الانسحاب من الاراضى المحتلة ، وعدم الاستيلاء على الأراضى نتيجة الحرب واقامة حدود آمنة ومعترف بها . .

اننا نعتقد أنه فى الوقت الذى يتعين فيه اقامة حدود سياسية معترف بها ومتفق عليها من جانب الاطراف ، كما أن أى تغيير فى الخطوط الثابتة لا يجب أن يعكس ثقل الغـــزو ويجب أن يقتصر على التغييرات الطفيفة المطلوبة لتحقيق الامن المتبادل . اننـــــا لا نؤيد السياسة التوسعية ونعتقد أنه يجب سحب القوات كما ينص القرار • اننا نؤيد أمن اسرائيل وأمن الدول العربية كذلك . اننا نؤيد أقامة سلام دائم يحقق الامن لكليهما » •

هكذا كان مشروع روجرز عند صياغته الاولى ، كان أكثر اعتدالا ممـــا اعترف به الاسرائيليون ولكن ما لم يستسيغوه هو فكرة الانسحاب الفعلى من كافة الاراضى وما يشتم من فرض حل كان ذلك كافيا لبقـــاء مناحيم بيجين فى الحكومة ، بدأ أن علاقات حزب العمل أصبحت تافهة . فجأة ، وقع جاحـــــال

اتفاق ائتلاف جديد وارتفع عدد وزرائه من اتنين الى ستة وزراء من بينهم عيزرا وايزمان الذى انتقل مباشرة من الرجل الثانى فى قوات الدفاع الاسرائيلية الى حيروت ثم الى الوزارة كوزير للنقل وفى ٢٢ ديسمبر رفضت الحكومة مشروع روجرز جملة وتفصيلا وقالت ان المقترحات الامريكية :

« تتحيز ضد فرص اقامة سلام ، وتتجاهل الحاجة الاساسية لتقرير حدود آمنة ويتفق عليها عن طريق توقيع معاهدات سلام بطريق المفاوضات المباشرة ، وتؤثر على حقوق اسرائيل السيادية وامنها فى صياغة قرارات تتعلق بالفدائيين ووضع مدينة القدس ولاتتضمن اى التزام فعلى من جانب الدول العربية لوقف الانشطة المعادية لمنظمات الارهاب والتخريب » .

. . .

كان بيجين راضيا ولكن قلقا ، فقد رفضت الوزارة مشروع روجـــــرز بتشجيع من موقف جاحال المتشدد ولكن لم يتوقع أحـــد أن يؤدى الرفض الاسرائيلى الى القضاء على المبادرة الامريكية خاصة أن حربا الاستنزاف فى قناه السويس تزداد يوما بعد يوم وكذلك الخسائر الاسرائيلية . غير زعيم حيروت موقفه نتيجة بيان حول السياسة الخارجية صيغت كلماته بعناية فى أواخر شهر مايو سنة ١٩٧٠ حيث اقتربت مسز مائير من اى وقت مضى من قبـــول القرار رقم ٢٤٢ دون سابق انذار . وشكا بيجين من أن جاحال لم يستشر . ولكن رئيسة الوزراء عملت على تهدئته بصفة مؤقته بالتأكيد على أن شيئا لم يتغير . وخلال الاقتراع الذى جرى فى الكنيست حول بيانها امتنع نواب جاحال الستة والعشرين الذين عادوا الى الكنيست خلال انتخابات سنة ١٩٦٩ عن التصويت ولكن كتلة حيروت الليبراليين ظلوا فى الائتلاف لمقاومة تقديم مزيد من التنازلات للامريكيين . لكن بيجين لم ينتظر طويلا لخوض التحدى . فى يوم ١٩ يونيو سنة ١٩٧٠ أقدم روجرز على خطوته الثانية فاقترحت الولايات المتحـــدة على اسرائيل ، ومصر والاردن بدء المفاوضات تحت اشراف يارنج للتوصل الى اتفاق سلام قائم على الاعتراف المتبادل بين اسرائيل والاردن بالسيادة ، ووحدة الاراضى والاستقلال السياسى وانسحاب اسرائيـــــل من الاراضى المحتلة فى سنة ١٩٦٧ . وفى نفس الوقت تلتزم الاطراف بوقف اطلاق النار التزاما كاملا لمدة ثلاثة أشهر على الاقل ، ولتخفيف حده المقترحات كان الرئيس ريتشارد نيكسون اكثر تحديدا عن ذى قبل فى تأكيد أمن اسرائيل وكان قد ألمح فى شهر مايو خلال مقابلة مع ايبان فى البيت الابيض أن اسرائيل تستطيع الاعتماد عليه فى الحصول على طائرات فانتوم قاذفة — مقاتلة اذا احتاجتها فى حرب استنزاف ووفقا لما ذكره وزير الخارجية الاسرائيلى فـــان نيكسون عمق الان التزامـــه :

« جعلنا نفهم أن تعهده لى حول طائرات الفانتوم يجب أن يؤخذ مأخذ الجد وأكد انه لن يكون متوقعا من اسرائيل سحب جندى واحد من أى من خطوط وقف اطلاق النار الا فى اطار اتفاقية سلام متبادلة تعتبرها اسرائيل مرضية لامنها ، كان هناك ايضا تعهد باستخدام الفيتو الامريكى فى مجلس الامن لمقاومة اية قرارات تدعو الى الانسحاب الكامل الى خطوط ما قبل خط، ط سنة ١٩٦٧ »

استنتج ايبان ومسز مائير ان مخاطرة الاقتراح الامريكى اقل من المخاطرة برفضه فان التوصل الى وقف كامل لاطلاق النار سيؤدى الى استمرار الحرب مع مصر ، واحتمال التورط مع الاتحاد السوفييتى وهبوط التأييد الامريكى لاسرائيل . مع ذلك فان بيجين راى فى ذلك خيانة للقضية ، وقال امام اعضاء جاحال بالكنيست « شلت يمينى قبل أن أوقع على مثل هذه الوثيقة » . وحذر بيجين من قيام مظاهرة معادية لمشروع روجرز لمنع حدوث ميونيخ أخرى فى الشرق الاوسط » . من اجل الحفاظ على الوطن التاريخى فان اسرائيل ستعتمد على « أنفسنا ، على جنودنا وعلى البناء » . كان جاحال يريد وقف اطلاق النار ولكنه يرفض الموافقة على أية مفاوضات حول الانسحاب حتى يتحقق السلام . وحاولت مسز مائير اقناع بيجين أن اسرائيل لا يمكنها الحصول على نصف الصفقة دون نصفها الآخر . كذلك فانها لن تتوقع الحصول على اى اسلحة من الولايات المتحدة . كانت اجابة بيجين ان الامريكيين لم يقدموا اسلحة الى اسرائيل بسبب طيبة قلوبهم فان اسرائيل قد فعلت لامريكا اكثر مما فعلته امريكا لاسرائيل . اعربت مسز مائير عن سخطها فى مذكراتها :

« لم استطع افهامه انه على الرغم من أن الالتزام الامريكى تجاه بقاء اسرائيل كان كبيرا بالتأكيد فاننا كنا نحتاج الى مستر نيكسون ومستر روجرز أكثر بكثير مما يحتاجوننا ولا يمكن اقامة سياسات اسرائيل بالكامل على افتراض أن اليهود الامريكيين سيعملون أو يستطيعون اجبار مستر نيكسون على تبنى موقف ضد ارادته او تقديره . ولكن جاحال الذى اسكرته كلماته الجوفاء اقنع نفسه أن كل ما علينا أن نفعله هو مواصلة ابلاغ الولايات المتحدة اننا لن نخضع لاى ضغط مهما كان واذا فعلنا ذلك لمدة طويلة وبصوت عال هذا الضغط سيتلاشى يوما ما » .

لم يكن جاحال يقف كوحدة متراصة كما اعتقدت رئيسة الوزراء . كان الليبراليون يتعاطفون مع موقف بيجين المعارض للانسحاب ولكنهم لم يكونوا يريدون ترك الائتلاف بسبب موضوع ما زال افتراضيا . كان اريخ دولزين

احد وزراء جاحال ورئيس اللجنة الليبرالية المركزية المتحدث باسمهم ضد العودة الى المعارضة . يقول : « اننا لا نتأثر بالبيانات أن رأينا الاساسى هو اننا سنترك الائتلاف فقط اذا اتخذت الحكومة « قرارا » بالانسحاب . لنبقى فى الحكومة حتى نتأكد انه لن يكون هناك « انسحاب » . تبنت اقلية فى حيروت بما فيهم عيزرا وايزمان وجهة النظر ذاتها . وكتب يقول : « كنت مقتنعا ان اذعان اسرائيل لمشروع روجرز سيكون كارثة . ولكن لنفس ذلك السبب على وجه الدقة اقتنعت أنه يجب علينا أن نبقى فى الائتلاف والا نترك الوزارة اتخاذ قرار حول ذلك المشروع دون وزراء حيروت » . ولكن ما كان بيجين ليغير من موقفه . كانت الكلمات بالنسبة له فى مثل صلابة الافعال ، فكان يرى انه بمجرد ان توافق اسرائيل على « الانسحاب » فانها ستقف على الحافة المنحرفة المؤدية الى التخلى عن « ملكية اجدادنا » . ان التنازل عن الحق اليهودى فى الارض ليس الا خطوة قصيرة من التنازل عن الارض ذاتها . استخدم بيجين كل قواه لحث حيروت على البقاء فى الائتلاف ، ولكنه لم يكن لديه نفس التأثير على الليبراليين .

حسم الموضوع خلال اجتماع مشترك للجنة المركزية لكل من حيروت والليبراليين فى مبنى البالاس المصمم القومى . قام كل حزب بارسال ١١٧ مندوبا . حاولت مسز مائير التأثير على نتيجة الاجتماع بالسماح لاعضاء جاحال فى الكنيست بالتصويت ضد روجرز فى الكنيست دون الاضطرار الى ترك الائتلاف . يقول دالزين فى مجال روايته لذكرياته : « حاول بيجين بشدة اقناعنا . لم يكن يحاول اللجوء الى التهديد معنا ، لم يكن يغضب كان يحاول دائما الاقناع ، حاول جاهدا ولكنه لم ينجح » .

كان التصويت بالاقتراع السرى بوضع أوراق التصويت فى صناديق خاصة . وصل التوتر الى اقصاه عندما جرى تفريغ الصندوق الاخير فى الساعة الثالثة صباحا . فاز بيجين بأقل اغلبية يفوز بها فى حياته حيث حصل على ثلاثة اصوات بين ٢٣٤ صوتا . صوت نحو ثمانية من المنشقين الليبراليين مع حيروت . يعتقد دالزين انهم كانوا يصوتون ضد زعامتهم اكثر من تصويتهم ضد بيجين . صوت عدد اقل من منشقى حيروت بالبقاء فى الائتلاف . وقبل الليبراليون الحكم بدلا من ابعاد جاحال عن الائتلاف ، واصر دالزين على انه يجب عليهم الوفاء بوعدهم : « لقد دخلنا الحكومة معا ويجب ان نخرج معا . لقد أعطينا كلمتنا ومهما كانت نتيجة التصويت فعلينا احترامها » . ولكن اذعان الليبراليين كان سياسيا واخلاقيا كذلك ، كان طويل الاجل وقصير الاجل كذلك ويرى دالزين انه « كان هناك احتمال واحد لايجاد بديل لحزب العمل وكان ذلك معا . وهذا هو سبب تشكيلنا لجاحال . من الناحية التاريخية كان من الخطأ القول اننا تركنا الحكومة ولكن كان من الصواب اننا لم ننفصل عن حيروت » .

استقال مناحيم بيجين وخمسة من زملائه فى جاحال من الوزارة فى ٤ اغسطس سنة ١٩٧٠ ، وهو اليوم الذي أبلغت فيه جولدا مائير الامريكيين والكنيست أن اسرائيل قبلت القرار رقم ٢٤٢ « بكافة بنوده » بهدف تحقيق — من بين أشياء أخرى — « انسحاب القوات الاسرائيلية من اراضى احتلت فى حرب سنة ١٩٦٧ » . انهار الحائط الذى أعتقد بيجين انه بناه حول شعب اسرائيل ولكنه رفض أن يكون طرفا فى الهدم ، وأعلن أمام جمع من زملائه فى حيروت أنه لم يكن أكثر سلاما مع ضميره مثلما هو الآن . كان قرار الحكومة انتصارا لحمائم حزب العمل ولكن ارتياحهم لترك جاحال للائتلاف كان يشوبه ندم طفيف . كتب أبا ايبان بسخاء غير عادى — وهو من أكثر الحمائم اعتدالا : « ترك رحيل بيجين وزملائه البارعين مائدة مجلس الوزراء أكثر اندماجنا وهدوءا ، ولكننا افتقدنا نكهة وحيوية الجدل الفكرى » .

كان الانقسام محتما ان عاجلا او آجلا ، فى السياسة الاسرائيلية فان حكومات الوحدة الوطنية أفضل فى صنع الحرب من صنع السلام . ما زالت آثار هذه الاحداث مثارا للحدس والخلاف . فزعمت مسز مائير أن حرب يوم كيبور سنة ١٩٧٣ اثبتت صحة قرارها ، فبدون ذلك القـــرار لم تكن اسرائيل مؤهلة لمواجهة الهجوم المفاجئ للمصريين والسوريين . حافظ الرئيس نيكسون على وعده ووصلت الى اسرائيل بالفعل طائرات الفانتوم وغيرها من الاسلحة الامريكية بين سنة ١٩٧٠ وسنة ١٩٧٣ ويعتقد اريخ دالوين انه اذا كان جاحال قد ظل فى الحكومة فان الحرب ما كانت تحدث قط « بعد تركنا الحكومة توقفت لجنة الأمن الوزارية . كان بيجين واحـدا من العوامل الرئيسية فى هذه اللجنة ، وكان الامن مجال اهتمامه الرئيسى . كانت الحكومة ستكون اكثر وعيا بالموقف الامنى وما كانت ستعتمد على شـــخص اسطورى مثل ديان باعتباره ضمانا لكل شىء . ويرى الليبراليون كذلك انهم اذا كانوا قد انفصلوا عن تحالف جاحال فان بيجين ما كان يستطيع الفوز فى انتخابات سنة ١٩٧٧ . ولكن هذا يفترض أن افتراق الســـبل ما كان يمكن تغييره الى عكسه . ولكن هناك شىء لا يقبل الجدل وهو أن توقعات بيجين لم تتحقق . وافقت اسرائيل على القرار رقم ٢٤٢ بما فى ذلك مبدأ الانسحاب ولكن سواء أكان ذلك خيرا أو شرا فان اسرائيل لم ترغم على التخلى عن بوصة واحدة من أرض اسرائيل غرب الاردن .

الفصل الخامس عشر

وحـــدة أم اخفـــاق

أعاد ارتداد جاحال من حكومة الوحدة الوطنية برئاسة جولدا مائير فى شهر اغسطس سنة ١٩٧٠ موضوع السلطة فى مواجهة المبدا الى جـدول اعمال حيروت . كان مناحيم بيجين فخورا بأن حزبه صدق عهده مع ناخبيه والتزامه بأرض اسرائيل غير المقسمة كان سعيدا ليصيب بالاحباط كل اولئك الصحفيين الاذكياء ورسامى الكاريكاتير الذين كانوا على اتم استعداد فقط للسخرية قائلين : « انك لا تستطيع اخراج جاحال من الحكومة حتى ولو ببلدوزر » .

أن أولئك الناس ذاقوا حلاوة المنصب الوزارى (المكتب والسيارة) ولن يتخلوا عن المنصب (أو تلك الاشياء) .. ولكن اعضاء حيروت الآخرين الاكثر شبابا كانوا اقل رضى واقل ميلا الى القناعة بحياة متقشفة ورعة .. أصبح عيزرا وايزمان قائدا لحركتهم ، كان الجنرال السابق رجل افعال لا اقوال كان يشارك بيجين فى وطنيته اليمينية . وكان يعتقد أيضا أن التخلى عن دعوى اسرائيل فى الضفة الغربية لنهر الاردن كان يعنى القبول بتسوية مذلة ولكنه كان يفتقر الى الدعامة الايديولوجية التى كان يتمتع بها زعيمه سلك وايزمان مجال السياسة لتنفيذ اشياء هى انهاء احتكار الماباى ، وعدم العباده عنـد ضريح جابوتنسكى كان من « الصابرا » ابن اخ اول رئيس لاسرائيل حـاييم وايزمان كانت جذور صهيونيته فى حيفا وليس فى بريست ـ ليتوفسك ، وفى قوات الدفاع الاسرائيلى وليس فى الارجون ، فايى ليومى . وباعتباره مهندس السلاح الجوى الاسرائيلى الحديث عرف احساس الرضا النابع عن القيـادة والانجاز ، وبمجرد أن أدرك أنه لن يصبح قط رئيسا للاركان فانه أصبح تواقا الى نقل نشاطه الى الحياة المدنية .

لم يكن هناك شىء أكثر اشباعا لغروره من المهرجان الذى اقامه بيجين للترحيب به بين صفوف حيروت أو من الانتقال السريع من صفوف الجيش الى مائدة الوزارة ولكن هذه السعادة الغامرة لا يمكن أن تدوم .

كان بيجين يريد وايزمان كنجم ، وكبطل حرب وكصائد للاصـوات ، وكاحد رجال الحاشية وليس منافسا له ، وكان حيروت ما زال حزبه وهو وحده الذى بيده تقرير سياساته واهدافه .

برز الصراع خلال مؤتمر الحزب فى تل ابيب فى شهر ديسمبر سنة ١٩٧٢ بدأ بيجين الهجوم من البداية محذرا المتمردين ومؤيديهم أن نجاح التحـــدى

لسلطته ربما يرغمه على التقاعد وقال « انني سأجد أنه سيكون اكثر من الشعب العمل مع لجنة مركزية غير مقبولة لدى . كان ذلك مسرحية مألوفة ولكنها نجحت مرة أخرى . فهم المندوبون الايماءة واعطوا الموالية أغلبية الثلثين فى اللجنة المركزية . بعد تعرض وايزمان لهجوم مدمر من بيجين لم يجد أمامه خيارا سوى الاستقالة من رئاسة اللجنة التنفيذية للحزب التى كان بيجين قد عينه فيها وقال « لقد تعلمت بعض الدروس الهامة للغاية عن المسيرة الديمقراطية » وتساءل فى حديث خاص مع بيجين عما كان قد رغب قط فى الانتقال من المعارضة الى الحكومة فرد زعيم الحزب قائلا : اننا نخلص للمبادىء وليس لمقاعد الوزارة » . كان ذلك فيما يتعلق ببيجين نهاية المناقشة ، اصر بيجين على موقفه وفشلت كافة المحاولات التى بذلت للصلح بينهما . كان بيجين وثقا كما لو كان قد تملك حكمة احد انبياء العهد القديم ولم يكن يساوره أى شك . كتب يقول فى صحيفة « معاريف » أننا لم نخطىء قط ، لقد حكمنا دائما على الاشياء بطريقة صحيحة ، ولهذا فاننا لم نتغير قط لاننا لم نحتاج الى التغيير قط .

وبنفس الروح استبعد بيجين مجرد تشجيع المعارضة داخل حيروت باعتبارها امرا غير ديمقراطى . ويستطيع وايزمان أن يهاجم بعنف من مقاعد الاقلية فقط . « ان هذه حركة أشخاص سلبيين ، خائفين من التغيير أنها لا تبرز صورة حركة سياسية حيوية » وعندما شعر بيجين بالانتصار الكامل عهد الى حاييم لاندو ، تابعه الامين القديم فى الارجون بتوجيه الضربة القاضية، كتب وايزمان فى كتابه « على أجنحة الملائكة » : « لا تروى لى الحكايات حول تجديد الحركة عندما يكون هدفنا جميعا هو السلطة ، لو نظرنا الى بنيان الحزب وتسلسله الهرمى وطبيعة العلاقات على مستوى القمة يتضح أنه لم يكن هناك مجال أمام مخلوق مثلى » .

ووصل فى مجلد آخر من مذكراته الى استنتاج أن حيروت كان مكانا صغيرا لحفظ التوابل المعرضة للخطر .

فى هذه الفترة قام القائد القديم للارجون بزيارته الأولى غير السعيدة الى بريطانيا وهى الزيارة التى أظهرت جميع غرائزه المولعة بالقتال . كان الزمن قد مضى وكان مستعدا لنسيان الماضى ولكن البريطانيين أو بالأحرى صحافتهم وأعضاء البرلمان المؤيدين للعرب لم ينسوا . ففى مقال بعنوان : « زيارة قاتل » ذكرت صحيفة « صنداى اكسبريس » قراءها بشنق اثنين من الجنود البريطانيين . وقالت أن بيجين لم يلق عقابه قط على وحشيته ، كما قالت :

« ان من الامور البالغة الغرابة ، ان يرغب بيجين فى زيارة بلد يكن له هذا القدر من الكراهية بل والأكثر غرابة هو تصريحاته

التى قال فيها أنه يشعر أنه قد مرت فترة زمنية كافية وأنه يتوقع استقباله بكرم الضيافة التقليدى أي نوع من الناس يظننا ؟ ان أحدا لا يستطيع أن يعيش الى الابد مع الغضب والظمأ الى الانتقام.

وفي بريطانيا هناك حقيقة نوايا طيبة ضخمة تجاه اسرائيل ولكن ليس هناك نوايا طيبة تجاه القتلة . هـــل يتخيل بيجين حقيقة أنه حتى بعد مضى ربع قرن ، فان الشعب البريطانى سيكون تواقا للترحيب بقاتل لم يلق جزاءه ؟ » .

ونشرت صحيفة « التايمز » نقدا لاذعا يشبه دير ياسين بمذبحة ماى لاى فى فيتنام وركزت صحيفة « الجارديان » هجومهـــا على الوقت الراهن حيث قالت : « ان هدفه هو سحب التأييد من حكومته المستعدة للتفاوض من أجل الانسحاب وما يقوم به مستر بيجين يجعل مشكلة الشرق الاوسط أكثر تعقيدا ويزيد من احتمال نشوب حرب . أنه ليس عاملا مساعدا أو موضع فخـــــر لاسرائيل » .

انتهز بيجين كل فرصة للرد على الصحافة ، فى الراديو وفى التليفزيون وعندما سأله أحد الصحفيين ماهو شعوره عندما يجـــد البوليس البريطانى يحرسه بدلا من مطاردته أجاب « هذه واحدة من أمتع فترات حياتى وأظن أن هذا مؤثر للغاية . ان رجال البوليس لديكم مخلصون للغاية وعندما أبلغ أن بعض السفراء العرب طلبوا من الحكومة البريطانية تسلمه لمحاكمته باتهامات عن جرائم حرب ارتكبها فى دولة عربية رد مبتسما : « سأكون أول عضو من الكنيست يقوم بزيارة دولة عربية ، ربما يكون هذا بداية مفاوضات مباشرة للتوصل الى سلام دائم وعادل . على الرغم من التهديدات بتفجـــير قنبلة ، والمظاهرات المعادية والاسئلة التى وجهت اليه فى المجلس رفض بيجين الغـــاء رحلته التى استغرقت ثلاثة أيام ولكن دعت معالمات التهديد التليفونية مديرى فندق رويال جاردن وسنترال هول ، ووستمنيستر الى الغاء الاجتماعات العامة الهامة التى رتبها حيروت البريطانى . وعند عودته الى اسرائيل وصف بيجين الزيارة بسعادة ، وقال « أنها كانت أروع ثلاثة أيام فى حياتى » ولكن ذاكرة العدو القديم التى لم تغفر له تركت لديه مذاقا مريرا . فبرغم كل شئ فان هناك زعماء وطنيين آخرين من الذين وصموا بالارهاب خلال الأيام الغـــابرة للامبراطورية البريطانية من أمثـــال جومو كينياتا ، والأسقف مكاريوس .. ولكنهم يستقبلون الآن باحترام فى لنــــــدن وكذلك الامبراطور هيروهيتـــــو امبراطور اليابان . لم يكن بيجين يحتاج الى اثارة شعوره بالاضطهـــاد حتى يشتم المعاداة للسامية .

كان الجنرال ايريل شارون مثله مثل عازر وايزمان يمينيا متطرفا وربما شديد الغرور أيضا بما لايمكنه بالتأكيد من تحقيق طموحـــه العسكرى تحت حكومة العمل ، وكان شارون قد ترك الخدمة فى الجيش فى أوائل شهر يوليو سنة ١٩٧٣ وانغمس فى سياسات جاحال واختار بدلا من حيروت الحزب الليبرالى لا لسبب الا أنه يبدو أكثر استعدادا للاغراء فخلال شهرين غـــير من وجهة اليمين الديمقراطى الاسرائيلى ـ ودفع مناحم بيجين خطوة حاسمة فى اتجـاه رئاسة الوزراء • لم يكن هدفه مجرد تحويل جاحال الى حزب للحكومة ولكن توسيع قاعدته حتى يمثل بديلا لهيمنة العمل •

واقترب شارون من تحقيق مهمته بنفس الحماس الذى اكتسب تملق قوات مظلاته وخوف رؤسائه • كان سياسيا مبتدئا لا يتسم بالتواضع • كان يشق طريقه بحذر وتملق وكان يرفض كلمة لا وخلال اسبوعين منح حيروت بركاته لكتلة « ليكود » (الوحدة) الجديدة وهى تضم حزبى جاحال بالاضافة الى الوسط الحر بزعامة شامويل تامير والقائمة الرسمية وهى جماعة منشقة من جماعة منشقة من منشقى بن جوريون الذين لم يعودوا الى العمل • وعلى الرغم من تحفظاته على تامير المتمرد الذى كان قد طرده من حيروت فى سنة ١٩٦٦ • كان بيجين من أكثر مؤيدى شارون حماسة • فالشريك الاكبرسيظل حزب حيروت وسيظل حيروت هو بيجين ولم يكن شارون يشكل أى تحد لهيبة الزعيم •

وعلى الرغم من دفعه للمفاوضات فانها تحولت الى شىء كريه وسارت على نحو بطىء حتى شهر سبتمبر • تجادل الحزبان الصغيران حول من سيحتل المركز الخامس والثلاثين أو السادس والثلاثين فى القائمة المشـــتركة لانتخابات الكنيست المقرر اجراؤها فى ٣٠ أكتوبر رد اليميلاخ ريمالت وهو زعيم ليبرالى صبور ومثقف على تامير بعنف قائلا : « ان أى شخص يراوغ للحصول على المركز الخامس والثلاثين فى هذه المرحلة من المحادثات لا يريد الليكود حقيقة « ولاسباب تكتيكية غير بيجين مفاوضى حيروت فوضع يروهانان بادير الموالى القديم الذى لم يستطع أن يغفر لتامير تمرده فى قرية مكابايا بدلا من بنجامين هاليفى المؤيد صراحة لليكود • عمل تامير بقوة ليحصل لنفسه على المركز الخامس بدلا من الثامن • أما عازر وايزمان الذى شجعه احتمال التوصل الى تحالف أوسع على الصلح مع بيجين فكان يشعر بالغثيان لدرجة أنه انسحب مرة أخرى • وكتب يقول فى خطاب أرسله الى الزعيم حيروت :

« اننى لم اشترك قط فى مثل هذه العملية القبيحة والمخزية التى وقعت فى جماعة من المفترض أن تكون مثالا للامانة والزعامة •

ولست أعفى نفسى من اللوم • لقد ساهمنا جميعا فى خلق هذا المشهد السلبى • اشتركنا جميعا فى التنازع حول مقاعد الكنيست بتبادل القذف

والأكاذيب الرهيبة . ان ما حدث خلال الأسابيع القليلة الماضية أكد فشلنا فى تقديم الزعامة وأشعر أنه من الضرورى ، من أجل الصحة ـ العامة ـ أن أترجل من عربة الحزب التى كنت أجلس فيها وأعود الى الخمول السياسى من أجل البحث عن الذات ـ والبحث عن طريق سياسى . »

ولم يكن بيجين فى حالة نفسية تسمح له بالدخول فى مواجهة أخرى مع القائد السابق للقوات الجوية . ورد قائلا « أعتقد أنه يتعين على كل شخص التصرف وفقا لضميره وفهمه وذلك بدلا من مناشدة وايزمان البقاء . ثم سمح بيجين لمساعديه بتسرب أنباء الخطابات المتبادلة الى الصحافة .

كان ايريل شارون يتمتع بصلابة أكثر كان يهدىء ويستحث ويكـــره محترفى الحزب على الوحدة : « اما كل شىء أو لا شىء » وبينما الانتخابات على الابواب فى ١٦ سبتمبر سنة ٧٣ ، تم التوقيع على اتفاق ليكود . قال أحـد زملاء شارون من الليبراليين وهو بين الاعجاب والصدمة « أنه اغتصب أربعة أحزاب » .

تنبأ بعض المعلقين الاسرائيليين أن تشكيل الكتلة الجديدة سيعنى بداية النهاية لمستقبل بيجين . كتب بيجين مقالا ساخرا فى صحيفة « معاريف » كان ممكنا أن تتحقق رغبتهم ولكن كان ممكنا كذلك نفس القدر أن يصابوا بخيبة الأمل . وفى نفس الوقت فانه حدد الأهداف الثلاثة الرئيسية بأنها : الحصول على أغلبية فى الكنيست تسمح برفض اى اقتراح ـــ باعـــادة تقسيم أرض اسرائيل والقيام بمبادرة عملية للقضاء على الفقر ، والاندماج لايجاد بديل لحزب العمل . ومضى يقول فى عشية السنة اليهودية الجديدة : « ولكن بالنسبة للان فان أحدا من بيننا ليس فى طريقه الى بداية نهايته السياسية اننا جميعا فى بداية سنة جديدة وربما ـ من يعرف ؟ ـ فى بداية عهد جديد .

أثبت بيجين أنه أقرب ما يكون الى نبى أكثر ممـا توقع هو أو توقع قراؤه .

وفى ٢٦ سبتمبر ، عشية السنة الجديدة قام موشى ديان وزير الدفاع بجولة فى الجبهة الاسرائيلية فى مرتفعات الجولان ، كانت هناك تقارير معلقة حول تدعيم سوريا لقواتها المسلحة ولانه شاهد بنفسه امر بتعزيزات محدودة للقوات الاسرائيلية فى الجولان ، . ثم ابلغ الاركان العامة « لدينا على الحدود الاردنية مستوطنات مدينة وليس اعداد وعلى الحدود المصرية لدينا عدو وليس لدينا مستوطنات . وعلى الحدود السورية لدينا الاثنين واذا ما وصل السوريون الى مستوطناتنا فان هذا سيكون نذيرا بوقوع كارثة . بعد ذلك بأحد عشر يوما . فى يوم كيبور وهو من اقدس الايام فى التقويم اليهودى قامت الجيوش المصرية والسورية فى نفس الوقت بالهجوم على الجولان وقناة السويس .

وعلى الرغم من الدلائل المنذرة بالسوء فان اسرائيل لم تكن مستعدة تماما • وللمرة الاولى منذ سـنة ١٩٤٨ كانت تخوض حربا يائسة دفاعا عن بقائها القـومى •

وحدد السياسيون صفوفهم وعاد ايريل شارون الى الجيش وقاد احدى الفرق العسكرية التى اعاقت الهجوم المصرى ثم قاد قوة الهجوم التى أعادت المعركة مرة أخرى عبر القناة وكانت جولدا مائير قد اطلعت بيجين باعتباره زعيما للمعارضة على تقارير المخابرات الاسرائيلية بأن الغزو وشيك الوقوع ومع ذلك فانه دهش مثل غيره عندما فتحت الجيوش العربية النـار • فى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر قبل الموعد المتوقع بأربع ساعات كان زعيم حيروت يصلى فى معبد مقر حزبه فى تل أبيب عندما أبلغته ابنته يائيل بالانباء . امتنع بيجين طوال الأسابيع الثلاثة التى استغرقتها الحرب عن انتقاد الحكومة أو القيادة العليا عن الخطأ الذى كاد أن يسبب كارثة للبلاد . لم يكن هذا هو الوقت المناسب لمعارضة مسئولة لانتهاز الفرصة لجمع اصوات للحزب ، ونكنه كان ينتظر فقط فرصة مناسبة . ولكن مع تحديد موعد اجراء الانتخابات فى نهاية العام ومطالبة الأمة برؤوس « المذنبين » • أمسك بيجين بهراوته وطالب خلال مناقشة فى الكنيست فى ١٤ نوفمبر باستقالة مسز مائير وتساءل المرة تلو الأخرى بعبارة — عبرية — منغمة : « لماذا لم تقومى بتعبئة الاحتياطى قبل يـوم كيبور ؟

لماذا لم تقومى بتحريك التعزيزات الى الجبهات ؟

يمكنك القول فليبارك الله الأمة التى لديها هؤلاء الجنود الذين يقاتلون دفاعا عنها . ولكن لا يمكنك القول فليبارك الله الامة التى لديها تلك الحكومة لتقوها « أصيبت رئيسة الوزراء بالصدمة ازاء تدفق بلاغة بيجين بتلك السهولة• وكتبت تقول (: ليته كان قد تلعثم أو تردد . كان المتحدثون من المعارضة يتحدثون عن اقتراب كارثة ، عن الرجال الذين قتلوا أو أصيبوا بالعجز عن أشياء فظيعة ، ولكنهم يتكلمون بسلاسة دون توقف وشعرت بالغثيان » .)

كان الشعور القومى يقترب من بيجين أكثر من مسز مائير . كانت عائلات القتلى تقذف ديان على القبور • تلاشت فقاقيع حرب ١٩٦٧ والثقـة المبالغ فيها بتفوقها العسكرى — وقعت الحكومة والجيش فى كمين من صنع ايديهم لقد افترضوا أنه طالما أن العرب لا يستطيعون كسب حرب فانهم لا يستطيعون بدء حرب وأثبت منطق الشرق الاوسط أنه اعتقد من ذلك •• فعلى الرغم من أن الجيش قلب الموائد على الغزاة المصريين والسوريين فى نهاية الامر الا أن ثقة النفس لدى اسرائيل قد اهتزت بعنف ووجه معظم الناس اللوم للحكومة وخاصة ديان الذى كان يتعين أن تجعله خبرته العسكرية فى موقف التأهب للاخطار .

لم يخض بيجين قط حملته فى ظروف اكثر ملائمة ولكن نتيجة الانتخابات التى أجريت فى ٣١ ديسمبر كانت مخيبة للامال عاقب الناخبون حزب العمل ولكنهم لم يطردوه • فاز الحزب الحاكم وحلفاؤه بأربعة وخمسين مقعدا فى مقابل تسعة وثلاثين لليكود • كان ذلك يعنى فقد العمل لستة مقاعد وفوز أحزاب الليكود بسبعة مقاعد وهو أفضل انجاز حققه ولكن كانت اصوات المعارضة مقسمة فازت حركة حقوق المواطنين بزعامة شولمتى ألونى بثلاثة مقاعد وهى قائمة يسار ــ وسط دخلت الانتخابات فى آخر دقيقة .

لم يكن الاسرائيليون مستعدين تماما لقبول حكومة برئاسة بيجين ولكن الاتجاه كان قد أرسيت دعائمه . وكان ليكود يتمتع بشعبية كبيرة بين الشباب الناخبين فى الجيش أما اليهود الشرقيين فى المدن النامية ومهاجرى الموشاف والاحياء الفقيرة فى المدن فكانوا يعيبون خلافهم فى جماعة المباى التى بذلك لهم الوعود بتوفير السكن والاعمال والخدمات الاجتماعية وكانت انتخابات سنة ١٩٧٣ أول نذير بوقوع زلازل .

الفصـــل السادس عشر

« زلازل صـــيف »

خاض بيجين انتخابات الكنيست الثامنة وهو مصمم على الفوز بينما كان حزب العمل الذى حكم بصفة مستمرة على راس ائتلاف متجانس فى حالة فوضى وقد ابرزت حرب يوم كيبور انه ليس قادرا ، وانه تولى الحكم كثيرا جدا . وكما لو كان توليه للحكم قد اصبح أمرا مسلما به .

أدى انتصار سنة ١٩٦٧ الى تآكل يقظة الحكومة وبدأت المحسوبية التى كان يسمح بها على نطاق واسع خلال مرحلة الريادة تتحول الى فساد . اهتزت قيادة العمل وان لم تفلت تماما . وكان عدم الرضا عن اداء الحزب ينتشر الى ماهو أبعد من صفوف الناخبين المعارضين التقليديين عند افتتاح دورة الكنيست. فى يناير سنة ١٩٧٤ كان هناك الكثير مما يحارب بيجين من أجله . وعلى الرغم من تنبؤ القليلين بفوز ليكود عند اجراءنا انتخابات قادمة فان التحالف الجديد كان يبدو بديلا معقولا ، كان بيجين يقود كتلة ليكود المكونة من تسعة وثلاثين عضوا يمثلون ار٣٠٪ من مجموع الناخبين وكان من الصعب تجاهله او التعامل معه على أنه مجرد مثير للقلاقل على هامش السياســية الاسرائيلية . أصبح المقاتل السرى القديم لين العريكة فى أسلوبه وان لم يكن فى افكاره واصبح اكثر امتلاء ، حلق شاربه . كان شعره يلمع ، وتوقف عن تدخين سجائره التى أعتاد عليها . واشتهر فى الكنيست بأنــه برلمانى بــارع ومجتهد ليس فقط على المنصـــة بــل فى قــاعة اللجــان وفى قــاعة طــعام الاعضــــاء . كان على طبيعته مع كافــة زملائه الاعضــــاء من الاحــزاب الاخــرى ، متفتح على الصحافة ، ومرحبا بالزائرين الاجانب وعلى لسانه دائما عبارة ترحيب : « أهلا بكم فى بلدنا » . اثبتت الثلاث سنوات التى قضاها فى حكومة الوحدة الوطنية انه يمكن أن يكون شخصا بناء مثلما هو شخص انتقادى . وعلى الرغم من استقباله العدائى فى لندن فى سنة ١٩٧٢ . فان زعيم المعارضـــة أصبح ضيفا يلقى الترحيب فى احتفالات الســـفير البريطانى بعيد ميلاد الملكة ســــنويا .

وفى الوقت الذى كانت فيه اسرائيل ما تزال تدفع ثمن رضائها عن نفسها بعد اكتوبر لم يعدم بيجين أهدافا يهاجمها . وان بيجين يكون فى أفضل حالاته كخطيب وكرجل استعراضى عندما يهاجم . وفى أعقاب الكارثة الكئيبة التى خسرت فيها اسرائيل سياسيا وان لم تخسر فى ميدان المعركة بدت انتقاداتـــه اللاذعة مشروعة اكثر مما سبق ، وكان الكثيرون يشاركونه شكوكه .

ومع ذلك فان التاريخ سيثبت أنه كان مخطئا فى شكوكه فى تأكيد الرئيس أنور السادات رغبته فى السلام وعدم ثقته فى دبلوماسية هنرى كيسنجر فى الشرق الأوسط لقد أصبح ممكنا نتيجة « للعبور العظيم » أن تتوصل مصر وهى اكبر دولة عربية الى اتفاق مع اسرائيل وتضع اتفاقيات سيناء فى سنة ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ الاساس للحيلولة دون وقوع غزو جديد . ولكن ما كان بمقدور أكثر المتنبئين جسارة أن يتنبأ بانه خلال خمس سنوات سيقتسم بيجين والسادات جائزة نوبل للسلام .

وسط رياح باردة ومطر منهمر فى الليلة التى قامت فيها اسرائيل بأول انسحاب لها أعلن بيجين أمام ٤٠٠٠٫ شخص تظاهروا احتجاجا على الانسحاب وكانوا يحملون المظلات فى أحد ميادين تل أبيب : « ان هذه مظاهرة ضد سياسة المظلة لشمبرلين » التقط ايريل شارون الذى كان قد تحول من الجيش الى السياسة ونجم تلك الليلة ، اصداء محاولة التهدئة واتهم الحكومة بأنها تضيع أفضل أوراق اسرئيل قائلا : (« ان جيشنا المنتصر ينسحب تحت زعامة حكومة منهزمة وانهزامية من أرض دفعت فى سبيلها حياة الالاف ولم نحصل فى مقابلها على شىء ») .

كان الليكود يتحدث بصوت واحد على الرغم من انه لم يكن قد اندمج فى حزب واحد . واعرب اليملينج ريمالت زعيم الليبراليين عن خوفه من ان تقوم جولدا مائير بقيادة اسرائيل الى الانسحاب حتى حدود سنة ١٩٤٨ . واضاف شامويل تامير تحذيرا ضد ميونيخ أخرى فى الشرق الاوسط . وفى الكنيست بدأ بيجين اطلاق اسم « الادارة الانتقالية » على الحكومة . وبدا يتحدى مرارا بقليل من التردد (متذكرا عملهما المنسجم فى حكومة الوحدة الوطنية) . واقتناع ديان أن السادات يسعى باخلاص للسلام . وتساءل من قال ذلك لك لدرجة أنك ضللت هذه الأمة ؟ « ان الحكومة لم تكن تقلل من قواتنا أنها كانت تقلل من أمن اسرائيل . زادت شكوك بيجين تجاه كيسنجر بسبب أصل وزير الخارجية اليهودى قال بيجين ، يجب تذكير كيسنجر انه ليس أول يهودى فى التاريخ يصل الى مركز كبير . لقد عانى يهودا أخرون أيضا من عقدة أنه ربما يوجه اليهم الاتهام لمحاباة اخوانهم اليهود ولهذا ساروا فى الاتجاه العكسى تماما « وقال ان هذه عبودية فى وسط الحرية » وعندما سأله أحد اعضاء الحكومة عما اذا كان يستطيع مواجهة كيسنجر بمثل هذا الحديث أجاب بيجين : « أننى سأفعل بالتاكيد » .

لكن على الرغم من كل ذلك فان بيجين لم يكن محصنا ضد أن تصيبه عدوى السلام ففى خلال مؤتمر حيروت فى سنة ١٩٧٥ الذى افتتح وسط احتفال رمزى فى كيريات عربة . وهى مستوطنة يهودية فى ضواحى الخليل، قدم بيجين مشروع سلام الى العالم العربى يتكون من ثمان نقاط ويشمل

هدنة لمدة ثلاث سنوات فى البر والبحر والجو واجراء مفاوضات للتوصل الفعلى لمعاهدات سلام بين اسرائيل وجيرانها تقضى بتجديد الحدود النهائية ، ومحاولة لايجاد حل انسانى لمشكلة اللاجئين العرب ومطالب اليهود الخاصة بملكياتهم التى تركوها عند مغادرة البلاد العربية الى اسرائيل . ولكن النمر لم يغير جلده . ففى نفس الخطاب دافع بيجين عن « العقيدة التى كرسنا لها حياتنا ، الحق اليهودى فى كل أرض اسرائيل .

واضاف بيجين يقول انه اذا لم يتم التوصل الى سلام فانه يتعين على اسرائيل الا تقوم بمزيد من الانسحاب الذى عمل فقط على اقتراب العدو من مراكز السكان الاسرائيليين وعرض للخطر أمن اليهود . ان الانسحاب بدون سلام تدمير لكل فرصة لتحقيق السلام » .

أثبتت حكومة جولدا مائير بحق أنها ادارة انتقالية وعلى الرغم من أن لجنة تحقيق « أجرانت » التى قامت بالتحقيق فى نواحى القصور التى ادت الى حرب اكتوبر ، القت باللوم على الجنود أكثر من السياسيين فان ثقة الجماهير فى الحرس القديم بدأت تضعف . وبمجرد توقيع اتفاق فصل القوات الاول مع سوريا فى أواخر مايو سنة ١٩٧٤ رضيت رئيس الوزراء التى كانت تشكو من المرض بالتقاعد بشرف ولحق بها موشى ديان وزير الدفاع ، ولكن رغبة الجماهير فى رؤية وجوه جديدة قوبلت بتصعيد جيل آخر من قيادات حزب العمل وليس باجراء تغيير للحزب أو على الاقل تشكيل حكومة وحدة وطنية ثانية وهو ما كان يطالب به بيجين . سمى اسحق رابين ، وهو من مواليد اسرائيل والذى عمل سفيرا لاسرائيل فى واشنطن بعد تقاعده من منصب رئيس الأركان الى رئاسة الوزراء بعد ستة أشهر فقط من وجوده فى الكنيست ، كان اسمه يقترن بالنجاح ، حرب الستة أيام والفترة المثمرة فى العلاقات الاسرائيلية — الامريكية واكثر من ذلك فان اسمه لم يقترن بأزمة حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ كان على ليكود أن ينتظر اجراء انتخابات أخرى قبل أن يأمل فى تولى السلطة .

لم يضطرب بيجين بشدة فهو قد استطاع لمدة ستة وعشرين عاما فى مقاعد المعارضة ان يترك بصمة واضحة . كان اريل شارون اقل صبرا ، ان الحياة البرلمانية بتقاليدها المهذبة والثرثرة لساعات بلا معنى لم تجذبه . وقد اكتسب خلال عمله فى الجيش سمعة بأنه شخص مستقل ، ومقاتل يجسد الروح العدوانية لقوات الدفاع الاسرائيلى وشخصية انفرادية يطلق النار أولا ثم يناقش بعد ذلك . ففى خلال حرب السويس لم يخضع شارون للاوامر وهبط مع قوات مظلاته فى ممر تلا .

وكانت تلك العملية مكلفة وغير ضرورية قتل فيها ثمانية وثلاثين اسرائيليا واصيب مائة وعشرين وقد اتهمه اربعة ضباط من مرؤسيه (تولى اثنان منهما فيما بعد رئاسة الاركان وتولى آخر

رئاسة الموساد) بأنه يقوم بارســال رجاله الى حتفهم لاجـل مجـده الشخصى . كتب موشى ديان رئيس الاركان فى مذكراته فى سنة ١٩٥٦ أن شارون لم يقدم الى المحكمة العسكرية لان الجيش الاسرائيلى لا يعاقب قائد لانه قام بالكثير بل للتقصير فى عمله . وكان شارون قد دخل ميدان السياسة فى سنة ١٩٧٣ لان مستقبله العسكرى وصل الى ذروته . ولم يكن يسعى الى التقاعد بهدوء ولكن كان يسعى الى السير فى طريق جديد يضع فيـه بصمته الذاتية على الامة .وعندما بدا أن ذلك لم يتحقق تخلى عن مقعـده فى الكنيست وقبل قيادة احدى وحدات الاحتياط . وفى يونيو سنة ١٩٧٥ أصبح شارون مستشارا لشئون الامن لزميله السابق فى السلاح اسحق رابين وعندما اتضح كذلك أن ذلك عمل تافه وعندما ادرك أن هذا لن يمنحه فرصة أخرى لتولى رئاسة الاركان قفل راجعا الى مزرعته فى صحراء النقب . وكان على ليكود ، أو هذا ما كان يبدو ، أن يواصل طريقه بدون الرجـل الذى حثـه على الوحدة .

خيب أول رئيس وزراء لاسرائيل من « الصبرا » آمال الكثيرين الذين علقوا آمالهم عليه . أثبت رابين أنه مفاوض عنيـد ما كان كيسنجر يضغط للتوصل الى اتفاق ثان حول سيناء ومنح الاتفاق الذي وقعه فى سبتمبر سنة ١٩٧٥ اسرائيل أساسا أفضل للدفاع عن نفسها أكثر من ذلك الاتفاق الذى حاول وزير الخارجية الامريكى فرضه عليه فى مارس .

لم يدخل الجيش المصرى ممرات الجدى ومتـلا الاستراتيجية كمـا أن التحركات شرق قناة السويس تتم مراقبتها بمحطات انذار مبكر اسرائيلية — أمريكية ولكن اتهام بيجين بأن رابين غير موقفه السابق وجـد آذانـا صاغية بين البسطاء الذين رأوا فقط أن اسرائيل تتخلى عن المضايق وحقول بترول أبو رديس المربحة دون وعد مصرى بانهاء حالة الحرب وأن رئيس الوزراء كان يعادى الامريكيين بدون داع خلال العملية . وفى نفس الوقت شعر الحمائم بالحزن بسبب اتجاه رابين المتشدد ازاء الضفة الغربية .

كان يســاوره القلق مثل بيجين من اخطار وجود دولـة فلســطينية وبرفضه اقتراح من الملك حسين بالتفاوض من أجل التوصل الى اتفاق لفصل القوات فى أريحا شبيه بالاتفاق فى سيناء ومرتفعات الجـولان تـرك الاردن دون دفاع فى مواجهة العرب الراديكاليين الذين اقنعوا مؤتمر الرباط للدول العربية باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعى الوحيـد للشعب الفلسطينى .

كان الانتصار الباهر الذى حققه رابين هو عملية الانقـاذ فى مطـار عنتيبى فى يوليو سنة ١٩٧٦ كانت عملا بطوليا لم يسبق له مثيل فى الاقـدام والمهارة وفى الحس الســياسى والتخطيط العســكرى على حد سواء ولكن

زعماء العمل أحجموا عن سرقة الاضواء من قوات المظلات بالخروج بمكاسب سياسة من العملية ، ولكن بيجين الذي لم يقم بأى دور فى العملية اللهم الا احترامه لثقة رئيس الوزراء التى أولاها اياه باطلاعه على العملية لم تكن لديه مثل تلك الموانع .

ذهب الى مطار بن جوريون حاملا زجاجة ويسكى لتحية الرهائن العائدين وكان معظمهم من الاسرائيليين من مواليد المغرب والذين كانوا فى طريقهم الي باريس على متن الطائرة المختطفة فما كان من الرهائن ومن عائلاتهم الا أن حملوه على الاكتاف وبدءوا ، يهتفون بيجين كما لو كان بطل الساعة .

وعلى الصعيد الداخلى لم يكن لرابين أصدقاء كثيرين كان الاسرائيليون يحترمون عقليته التحليلية ، وحذره كجندى ولكنهم وجدوا انه شديد الانطواء مع زملائه ومع الجماهير كئيب الى حد يثير السخرية خلال خطبه ومقابلاته التليفزيونية . كان يفتقر الى قرون من استشعار السياسى والصبر على خلق القيادة النافعة ، لم يكن يستطيع دائما فى عزلته التى فرضها على نفسه اكتشاف الخطر فى وقت مبكر فقد تآمر عليه من وزارة الدفاع شيمون بيريز الذى هزمه للفوز فى زعامة العمل ولكنه لم يعرف كيف يواجهه .

وعلى الرغم من جذور عائلته فى حركة العمل فان رابين أمضى سنوات تكوينه فى الجيش . يستطيع القائد حتى فى قوات الدفاع الاسرائيلى كملجأ أخير أن يفرض رتبته ويتوقع أن يطاع ولكن رابين وجد أن السياسة لا تسير على هذا النحو ولذلك وجد الطريق صعبا .

ازداد الاحساس أن العمل يفقد سيطرته ، جاءت الفضيحة تلو الفضيحة ارتكبها رجال آخرون ويرجع تاريخها الى أوج أيام بنحاس سابير وزير المالية العملى ورجال السياسة البارع الذي اكتسب سمعة أنه يسيطر على الاقتصاد الإسرائيلى من نوتة صغيرة ، سوداء اللون . وقد حكم على أحد الذين كان يشملهم بحمايته وهو ميشيل تاسور مدير المجلس البلدى الإسرائيلى بالسجن خمسة عشر عاما بعد اعترافه بانه مذنب بأربعة عشر تهمة وهى الرشوة ، والسرقة ، وخيانة الثقة وتحويل غير قانونى للنقد ، واجراء مبادلات غير قانونية فى النقد الاجنبى ، وتزوير المستندات وشملت هذه الاعمال ملايين من الدولارات المقدمة من المستثمرين الاجانب لتدعيم الصناعة الاسرائيلية ، كذلك فان أشير يادلين مدير نقابة كوبات هوليم التى تعانى من مشاكل مالية وكان (سواء لسوء الحظ وربما لسوء التقدير) مرشح رابين ليكون محافظا لبنك اسرائيل ، حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات

بتهمة الرشوة وتقديم اقرارات ضريبية كاذبة ، ورفض القاضى ما زعمـــه أشير بانه قام بتحويل بعض تلك الأموال الى حسابات حزب العمل .

كما أنتحر افراهام أوفير وزير الاسكان وسط أنبا غير مؤكـدة أنه قام بالاستيلاء على أموال لنفسه خـلال ادارته لشركة التنمية التابعة للهستدروت كان ذلك مادة ـ صالحة للمتهكمين والمعارضين ، كانوا يقولون أن السـلطة افسدت حزب العمل ولم تحدث الاشاعات المضادة حول سوء تصرف حيروت فى أموال تل ـ هاى الا تأثيرا ضئيلا أو أنهـا لم تحـدث أى تأثير .

وسط هذا المناخ من الانحلال الاخلاقى عمد الحزب الدينى القـومى والذى ظل لمده ثلاثين عاما أكثر الشركاء التصاقا بحزب العمل ، الى تضخيم موضوع انتهاك اجازه يوم السبت لاسقاط الائتلاف . كانت اسرائيل بعد ظهـر يوم ١٠ ديسمبر سنه ١٩٧٩ ، تحتفل باستلام أول ثلاث طائرات مقـاتله من طراز اف ـ ١٥ العملاقه من مصانع ملكدونيل دوجلاس وبينما كانت الطائرات الثلاث تقوم باستعراضات جوية أمام المجتمعين من كبار الشخصيات صـاح رئيس الوزراء فى فرح : « ان هذا يوم عطله يوحى لنـا بالايمان والثقـة التى نحتاجها ـ الثقه فى قوتنـا والايمان فى مستقبل أفضل » .

واضاف الجنرال موردخاى جور رئيس الاركان : « أن دوله اسرائيـل اليوم دولة مختلفه وقوات الدفاع الاسرائيلية قوات مختلفة . ولسـوء حظ رابين فان طائرات أف ـ ١٥ وهى أكثر الطائرات المتقدمة التى تسـلمتها اسرائيل حتى ذلك الوقت وصلت فى وقت خطر قريب من يوم السبت ، وخاطر الضيوف بانتهاك القانون الدينى بقيادة سياراتهم خلال العـوده الى منازلهم بعد حلول الظلام . تقدم بوالى أجودات اسرائيل وهو حزب متطـرف صغير كان خارج الائتلاف اقتراحا بعدم الثقة . وعند طرح الاقتراح للتصـويت فى ١٤ ديسمبر امتنع عن التصويت تسعة أعضاء من بين الاعضاء العشره من الحزب الدينى القومى على الرغم من الاعتذار الذى قدمه رابين . تراجعت الحكومة ، ولكن قام رئيس الوزراء باقالة الوزراء الثلاثة من الحزب الدينى القومى مؤكد : « ان الحكومة التى لا تستطيع الالتزام بمبدأ المسئولية الجماعية لا تستطيع العمل كحكومه » .

بعد ذلك بأسبوع لم يعد واثقا من حصوله على أغلبيـة . فاستقال من رئاسة الوزارة ودعا الى اجراء انتخابات مبكرة

فى النظام الاسرائيلى فان هذا القول أسهل من العمل لانـه يتعين ان يصدر الكنيست تشريعا بتحديد موعد الانتخابات ويخوض كل حزب مساومات ضخمة قبل نشر قائمة مرشحيه ويسمح للموظفين العامين وضباط الجيش بمائة يوم للاستقالة وتقديم انفسهم لقار الترشيح للانتخـابات ويستغرق طبـاعة

أوراق التصويت أسابيع غير محددة . فى هذه الحالة تحدد موعد الانتخابات فى ١٧ مايو — وهو وقت كاف لوقوع فضيحة أخرى كفيلة بوضع مسمار آخر فى نعش حزب العمل وفى نعش أول رئيس للوزراء من « الصبرا » .

فقبل شهرين من الانتخابات فى ١٥ مارس نشر مراسل صحيفة « هآرتس » فى واشنطن أن ليا زوجة رابين لديها حساب بالدولار فى أحد البنوك الامريكية بعد أن أنهى زوجها جولته الدبلوماسية فى سنة ١٩٧٢ . ويعد هذا انتهاكا للقوانين — الاسرائيلية فى تداول النقد .

واصر أهارون باراك المحامى العام اقامة الدعوى ضد مسز رابين لان المبلغ لا يقل عن ١٠٫٠٠٠ دولار . ولا أحد فوق القانون فقبل منتصف الليل بقليل فى يوم الخميس ٧ ابريل والجماهير تنتظر فوز نادى ماكابى تل أبيب فى بطولة كرة السلة الاوروبية بفارق نقطة واحدة أعلن رئيس الوزراء فى التليفزيون والاذاعة انه ينسحب من المعركة الانتخابية ويتحمل مسئولية متساوية بالنسبة لحساب زوجته فى البنك وعلى الرغم من أن الدستور يمنع استقالته من رئاسة الوزراء فى حكومة انتقالية فانه عهد بواجباته وترشيحه على راس قائمة العمل الى شيمون بيريز وزير الدفاع أما ليا رابين فقد قامت بدفع غرامة تعادل ٢٧٫٠٠٠ دولار .

خاض الليكود انتخابات سنة ١٩٧٧ باسم مناحم بيجين ولكن زعيم الحزب لم يشترك فى الحملة الانتخابية الا بأدنى قدر . وكان ذلك اختيارا من ناحية وضرورة من ناحية أخرى . فخلال الاسبوع الاخير من شهر مارس وكان مازال باقيا على الانتخابات شهرين تقريبا أصيب بيجين بأول أزمة قلبية واكثرها خطورة ودخل أحدى مستشفيات تل أبيب ولكن استراتيجية ليكود كانت قد تحددت قبل ذلك بكثير . وكانت تلك أول انتخابات تجرى فى اسرائيل بالوكالة فقد تم تعيين عازر وايزمان الذى كان قد عاد الى الحزب لادارة الحملة واصر على ادارتها بشروطه بمساعدة اليعيزر زورابين وهو وكيل اعلانات مشهور . حث وايزمان المراسلين بعد أن أطلق طلقة البداية : « اقرأوا ما بين السطور وابحثوا عن ما ليس هناك » .

وكتب يوسف جوئيل فى صحيفة « جيروزاليم بوست » : « مالم يكن هناك هو ذلك الجزء من الصورة السياسية لليكود وحيروت الذى يشك فى أنه نفر الكثير من الناخبين فى الماضى حتى لا يحصل على نصر انتخابى . لم يكن هناك هجوم غير ضرورى ولا اية اشارة الى موضوع الاراضى التى تحتلها اسرائيل والتى تثير الخلاف .

ظل بيجين اكثر مصادر القوة رواجا بالنسبة لليكود ولكنه اصبح اكثر اعتدالا — رجل لا يخاف الناخب المتردد . يقول وايزمان : « أنه رجل أمين

لا يهتم بالاشياء التافهة فى تلك الايام انه يعيش بتواضع وليس لمجرد تحقيق أهداف علاقات عامة ، ولا يضيع وقته سدي فى الحديث عمـــــا يؤيده وعما يعارضـــه .

أصبح بيجين ديمقراطيا ، مقاتلا (منـــــذ سن السادسه عشر كرس مناحيم بيجين كل جهده ، وموهبته وقدراته لقضية واحدة ، توطيـــــد اقدام الشعب اليهودى على أرضه) أنه الرجل الشريف (المتواضع ، ذو العمــــل الخالص) . ورجل العائـــلة ، كان التناقض واضحا بينه وبين معارضيه من حزب العمل ، ولم يكن الليكود فى حاجة الى كشفها ، فقد كان الناخبـــــون مدركين تماما للفضائح الاخيرة ولسمعة بيريز فى الالتواء والتنـــــاقض ، كان بيجين يظهر وهو يداعب احفاده ، يخطب ، ويزور الجيش ، ويحمل حفيـــده الطفل عند الاحتفال بختانه . وفى المقابل أخذ العمل يسخر من بيجـــــين : « اكتشف الليكود اكتشافا خطيرا وهو ان بيجين انسان بالفعل .

وأعلن الياهو بن اليعازر رئيس لجنة دعاية ليكود المشتركة أمام عمال الحـــــزب :

« ايهاد المسادة أننى أريد أن اقدم لكم وعن طريقكم شكل الحياه تحت حكم الليكود ، تحت حكم مناحيم بيجين ، ستكون بلادا جميلة ، وسيكون من دواعى السرور والفخر العيش فيها ، حيث لا تكون هنـــــاك رغبة فى الاضراب وحيث يخجل الشخص من السرقة سيكون هناك احترام بين اليهودى والاخر، بلاد لا يشعر أبناؤها بالخجل من كونهم يهود أو صهيونيين . اننا سنقوم بتعليم الشباب حتى تصبح الخدمة لصالح الدولة وفى الجيش أو فى اي جهاز وطنى آخر شرفا وامتيازا .

لم يرد اى ذكر للاراضى المحتلة ، أو للحقوق اليهودية أو للخدمـــــة أو الشهداء القدامى وهم يعلقون على المشنقة . ولكن كان « بيين » مــــــازال يسيطر على السياسة من وراء الكوليس لقد تخلى عن الحملة الانتخابية لعازر وايزمان ورجاله الجدد ، ولكن لم يتخل عن الحزب .

ويشهد ابن اليعازر « أن برنامج الحزب كان دائما من وضعه فى سنة ١٩٧٧ ، كما فى السنوات السابقة كان يحدد الخط السياسى خاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية والمشكلة الفلسطينية والسلام والحرب ، ويهـــــــودا والسامــــــرا ».

خرج بيجين من المستشفى ومن مناظرة تليفزيونية مع شيمون بيريز — وهى بدعة أخرى فى الانتخابات الاسرائيلية ـ ظـــــافرا . لم يستطع النقاد تحديد الفائز النهائى كان بيريز متحفظا خلال المناظرة بينما صال بيجين خلالها وجال . ولكن ما كان يهم الليكود هو أن المناظرة اخمدت أى شكوك حول صحة

بيجين ، كان مقاتلا — غير متوترا مازحا . وكان واضحا أنه متمالك لنفسه ومادته ومثير لدهشة بيريز باقتباسه عبارات من أقوال وزير الدفاع نفسه .

اظهرت استطلاعات الرأى النهائية أن حزب العمل مازال متقدما تقدما طفيفا ولكن ليكود كان يكتسب أرضا بسرعة وقال واحدا على الاقل ممن شملهم الاستطلاع أن بيجين ربما ينجح اذا ما حصل على دفعة . ولكن لم يأخذ رأيه بجدية سوى عدد قليل من المعلقين . لكن الادعاءات القديمة تموت بسرعة . فعلى الرغم من كل شيء كان العمل يمر فى لحظاته الاخيرة كحزب يشكل حكومة . كان بيجين مازال فى دور النقاهة ولكنه تجول فى مراكز التصويت خلال النهار . ثم عاد الى منزله فى تل أبيب الواقع فى شارع روزينيوم ليستريح مع زوجته اليزا وابنتيه ماسيا وليا وصديقين من أصدقاء العائلة القدامى ، ماكس ويهوديت فيرير . وبعد أن تناولوا عشاءا بسيطا ، شاهدوا التليفزيون فى الحجرة الضيقة التى يستخدمها بيجين وزوجته كحجرة معيشة ، ونوم ومكتب . وكانت هناك حجرة نوم أخرى فى الشقة التى عاشا فيها منذ سنة ١٩٤٦ اشترك فى النوم فيها أولاد بيجين الثلاثة خلال فترة المراهقة . وهناك ايضا صالة صغيرة . وحمام ومطبخ كان ابن بيجين بنجامين يدرس فى الولايات المتحدة للحصول على الدكتوراة فى الجيولوجيا وكان اكثر اولاد بيجين ميلا الى السياسة ولكنه اقل حبا للظهور وهو شاب يقدر خصوصيته .

فى الساعة الحادية عشرة مساءا بعد انهاء التصويت مباشرة أدهش حاييم يافين كبير مذيعى التليفزيون الأسرائيلى المشاهدين بالتنبؤ بفوز ليكود اعتمادا على غيبة التليفزيون غير الرسمية للتصويت وفى شارع روزينيوم لم تستطع بنات بيجين السيطرة على انفعالاتهما ولكن والدهما استقبل الانباء بهدوء بل يشك فالنتيجة لم تكن نهائية ولا رسمية بعد وتسترجع ماسيا ذكرياتها فتقول : « كان والدينا أكثر هدوءا وخاصةوالدتنا — جلس والدى فى كرسيه المفضل مرتديا روب دى شامبر على قميص وبنطلون .. أخذنا نتجاذب أطراف الحديث كما لو أن شيئا خاصا لم يحدث .

تجمع حشد كبير من الناس خارج المنزل ، حرس من البوليس ، دلائل التغيير اتخذوا اماكنهم لحماية رئيس الوزراء الجديد ، كان بيجين مازال ينتظر كان الوقت مبكر جدا للاحتفال . عندما وصل سكرتيره السياسى يهيل كاديشاى فى الساعة الواحدة والنصف ظهرا لدعوته للذهاب الى مقر الحزب الذى يقع على مسيرة خمس دقائق اجاب بيجين : « مازال امامنا وقت ، ان هذا مجرد تخمين من الاولاد فى التليفزيون » وجده وراءه فى قلعة جابوتنيسكى « كان مرتديا ملابسه ولكن بدون رباط عنق أو سترة » .

ذهب ليحلق ذقنه ثم عاد ومضى يشاهد التليفزيون وفى نحو الساعة الثانية والربع فقط قرر أن الوقت قد حان للذهاب الى مقر الحزب وعندما أصبحت النتائج واضحة .

احتشد المئات من مؤيدى ليكود فى الطابق الثانى من قاعة الاستقبال فى شارع الملك جورج . حاول عازر وايزمان ابعاد بعض اعضاء الحزب غير المهمين ولكن كانت تلك ليلة طال انتظارها ، ولم يكن احد منهم يريد أن تفوته ذروتها . عندما امتلأت نشرات التليفزيون بأنباء الانتصار غابوا فى دوامة من الصدمة والابتهاج الغامر هل يمكن أن يحدث هذا حقيقة ؟ جييف شافيتس ، مهاجر امريكى شاب جنده — الليبراليون للعمل فى مكتب صحافة ليكود ، انضم بحماس الى الصخب والمرح : « اننا نحتفل جميعا ، لقد عملنا بجد وكسبنا الانتخابات » . فجأة قام أحد أعضاء الارجون القدامى بامساكه من تميصه كان شديد الغضب وساله : « من انت انك كنت هنا من عدة شهور فقط ، أما أنا فقد انتظرت ثلاثين عاما من أجل هذا » .

سرت الاشاعات المتناقضة بيجين سيأتى ، لا لن يأتى واخيرا فى نحو الساعة الثانية والنصف وصل الزعيم وعائلته كان بيجين يبدو نحيفا وضعيفا نتيجة للازمة القلبية الاخيرة . حاول مساعدوه حمايته من اندفاع الجماهير ولكنه عانق بسعادة سميحا ارليخ الزعيم الليبرالى وعازر وايزمان مدير حملة ليكود الانتخابية . أوقف أحد الحراس اليزا وابنيها على الباب . كان بالداخل ما يكفى من الأشخاص بالفعل استعطفته الابنة قائلة : « هذه أمى مسز بيجين ، أتينا مع أبى مع بيجين » لم يتأثر الحارس لكلامها حتى جاء لانقاذهم ايسحق شامير الذى اصبح فيما بعد وزير الخارجية وخلفا لبيجين فى النهاية . وعلى المسرح انضم بيجين الى الحشد فى غناء : « يحيا شعب اسرائيل » مصفقا بيديه على أنغام الوطنية . كان الجميع يتدافعون ليكونوا على مقربة منه بقدر الامكان . السياسيون والعاملون فى الحملة الانتخابية على أمل الظهور فى الصور التاريخية والافلام السينمائية ، أمكن فى النهاية افساح مكان ووقف بيجين بمفرده . تحت صورتين كبيرتين لجابوتنيسكى وهيرتزل . أخرج غطاء أسود للرأس من جيب بذلته شهدت اياما افضل وكتابا أسود صغيرا أخذ يتلو منه الترانيم كان الخطاب الذى القاه بعد ذلك مسالما بصورة غير متوقعة ، لازهو بالانتصار ولا تهديدات . أقتبس بيجين فقرات من خطاب ابراهام لنكولن الذى القاه عند توليه الرئاسة للمرة الثانية . « بدون حقد على أحد ، بالخير للجميع ، بالثبات فى الحق لان الله يهدينا لرؤية الحق فلنسعى لاتمام العمل المنوط بنا ، تضميد جراح الامة .. » وشكر اليزا للسنوات التى كرستها من عمرها للوقوف الى جانبه مقتبسا كلمات من النبى زيرمياح : « اننى اذكرك ، عطف شبابك حب معتقداتك عندما يتبعنى فى التيه ، فى أرض لم ينبت

بها زرع » وبعد استرجاع ذكرى جابوتنيسكى دعا بيجين كافة الاحـــزاب الصهيونية بما فى ذلك حزب العمل ـــ للاشتراك فى حكومة وحدة وطنيـــة اختلط أعضاء وانصار ليكود وسط صخب وضجيج رجـــــال البوليس ، والصحفيين ، والمصورين ، غادر بيجين المكان على غير توقع كما حضر محاطا بالمساعدين الحريصيين عليه جاء زلزال الصـــــيف ومضى ، أبعد الناخب الاسرائيلى ورثة بن جوريون وانتخب ورثة جابوتنيسكى وأصبح الخارجون هم الممثلون للنظـــام .

فاز ليكود فى انتخابات سنة ١٩٧٧ بأغلبية متواضعة وخسرها العمل بهبوط مدمر ارتفع نصيب بيجين من مجموع الاصوات بنسبة ٢ر٣٪ نقط وحصل حزبه على ثلاثه واربعين مقعدا بالمقارنة بتسعة وثلاثين مقعدا حصل عليها فى سنة ١٩٧٣ وقل نصيب العمل بنسبة ١٥٪ عقب انخفاض مماثل فى ســـنة ١٩٦٩ ، وسنة ١٩٧٣ أى انه فقد أكثر من نصف مؤيديه فى الانتخابات التى جرت مرتين خلال السبعينات وانخفض تمثيل العـــمل فى الكنيست من واحـــد وخمسين بالاضافة الى ثلاثة من النواب العرب المنضمين للحزب فى دورة ١٩٧٣ الى اثنين وثلاثين بالاضافة الى نائب عربى واحد فى ســنة ١٩٧٧ كان اكبر الانتصارات فى سنة ١٩٧٧ تلك التى سجلها حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ، وهو حزب جديد للوسط بقيادة ايجال يادين عالم الاثار السادا وجنرال سابق ، حصلت قائمة يادين على خمســـة عشر مقعدا . (٦ر١٪ من مجموع الاصوات) فى أول معركة انتخابية يخوضها الحزب . وعلى الرغم من وجـــود شاموئيل تامير المنشق عن ليكود اليمينى على قائمة حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير فان القدر الاكبر من التأييد حصل عليه من الناخبين المنحررين من وهم العمل والذين سمحوا لانفسهم برفاهية الوقوف ضد الحزب كانـــوا يعاقبون العمل دون ـــ أو هكذا تخيلوا ـــ مكافأة ليكود . حصل يادين على اصوات من الليبراليين فى ليكود وأحزاب وسط أصغر ولكن نتائج انتخابات ســـنة ١٩٧٧ اكدت تغييراً جذريا اكثر بكثير مما احدثته الطبقـــــة المتوسطة الساخطة تمثل فى تحول فى الولاء الذي كان يهدد بتغيير وجه الحياة الســـياسية فى اسرائيل على مدى جيل بأكمله . لقد صوت اليهود الشرقيون بقلوبهم بدلا من جيوبهم وكان اليهود الشرقيون يشكلون بالفعل نصف اجمالى عدد السكان وسيصبحون قريبـــــا نصف عـــــد الناخـــبين فى المـــــدن الناميـــــــة ، والقـــرى والمـــدن غـــير الكبيرة حيث يشــــكل اليهـــــود الشرقيـــــون (اليهود الذين نشأوا فى الدول التى تتحدث العربية) اغلبية ساحقة حصـــل ليكود على ضعف الاصوات التى حصل عليها العمل . بينما حصلت الاحزاب الدينية على أصوات اقل وفى المدن التى جميع سكانها من اليهود الشرقيين مثل أوفاكييم ونيتيفوت فى الجنوب وكيريات شمونة وبيت شـــعين فى الشمال زاد

عدد الاصوات التى حصل عليها ليكود بنسبة ١١٪ بينما قل نصيب المعراخ بنسبة ١٧٪ (حصلت الاحزاب الدينية نسبة الـ ٦٪ الباقية) كان الاتجاه مماثلا فى المدن التى يسكنها خليط من اليهود الشرقيين واليهود الغربيين ، ولكن بالاتجاه الى ليكود بنسبة معاكسة لعدد الغربيين وكلمـــا زاد عدد اليهود من أصل امريكى أو أوروبى كلما قل الاتجاه الى ليكود . أما القدس التى تسكنها اغلبية من اليهود الشرقيين وجماعة دينية كبيرة فقد اعطت لبيجين دفعة قوية ، وقللت تل أبيب التى تسكنها أغلبية من اليهود الغربيين نصيب بيجين من الاصوات بنسبة ٢٪ فقط وأعطت يادين ١٣٫١٪ وفى حيفا حيث يشكل اليهود الغربيون الأغلبية الساحقة قل نصيب ليكود بالفعل بنسبة ٢٪ من عدد أصوات المدينـــة .

ترجع محاولة استمالة اليهود الشرقيين واليهود السافرديم (أولئك الذين طرد اجدادهم من اسبانيا فى سنة ١٤٩٢) الى فجر حركة التصحيح كاحدى الحركات الصهيونية . قام جابوتنيسكى بزيارتهم وتعهدهم بل انه اضاف لغة لادينو (اليهودية ـــ الاسبانية) الى لغاته العشر . وحث الحركة الصهيونية على اعطائهم نصيبا متكافئا فى الاستيطان فى الارض واثنى على نطقهم للغة العبرية وسارت الارجون زفائى ليومى على نهجه وجندت لخدمة اليهود الشرقيين فى الوقت الذى ركزت فيه الهاجاناه والبالماخ على سكان الكيبوتزات وخاصة من بين خريجى المدارس العليا من اليهود الغربيين .

وبعد اقامة الدولة جند بيجين نفسه مدافعا عن اليهود المظلومين المفدين الذين ينظر اليهم اخوانهم باحتقار وعرف حيروت نفسه على انه حزب الفقراء المفدين والمقهورين « ويروى بيجين أن احد الهاجاناة ساله ذات مرة كيف استطاعت الارجون حل مشكلة الجماعات اليهودية الشرقية ، فاجابه ان الارجون ليست لديها مثل هذه المشكلة :

> « لكن لانه أصر على أن أشرح له ذلك وفهمت ما الذى كان يضايقه ، أوضحت له أنه خلال القتال السرى كانت المراكز العليا يجرى توزيعها دون تفرقة فى الاصل عندئذ فهم . هذه هى الطريقة التى يحل بها المرء المشكلة ، ويتغلب عليها ويتوصل الى الحل الكفيل بانهاء المشـــكلة » .

فى الحقيقة فان كلا من الارجون وحيروت كانا أبطأ مما زعم بيجين فى اعطاء السلطة لليهود الشرقيين ، كشىء منفصل عن القيام بدور نشط . كانت القيادة العليا من الارجون قاصرة على الأوربيين وحتى فى سنة ١٩٧٧ رشح ليكود عددا أقل من المعمل من اعضاء الكنيست من اليهود الشرقيين على الرغم من أن بيجين كان أكثر كرما فى تعيين وزراء من اليهود الشرقيين فى وزارته .

سعى بيجين منذ الايام الاولى للهجره الجماعية بعد سنة ١٩٤٨ للحصول على اصوات الناخبين . كان يقوم بجولات فى خيام المهاجرين دون أن يبدو أنه يتفضل عليهم . لم يتوقف قط عن أن يكون يهوديا بولنديا ، ولكنه كان يخاطب اليهود الشرقيين بلغتهم العاطفية العميقة ذاكرا الله دون أثارة للعواطف . لم يلقنهم نماذج جابوتنيسكى ولكنه كان يدعو الى القوة اليهودية ويحتقر تأسيس العمل الصهيونى كان هدفه تحقيق شىء واحد وهو أن بيجين واحد منهم ولا يهم ماذ يأكل أو كيف يلبس .

ان حزب العمل لايلومن الا نفسه . كان ايدلوجيتة فرع من الثورات الوطنية والاشتراكية التى وقعت خلال القرن التاسع عشر فى أوروبا كان هدفه هو خلق نموذج جديد لليهودى ، الفلاح ، للعامل وللبناء ، كان اساسه علمانيا ، وهو انكار متعمد لقيم الجيتو . كان اليهود الشرقيون يعيشون فى ايقاع أبطأ كانوا فى توافق مع تقاليدهم لم يتعلم شبابهم من أجل أحداث التغيير . جاءوا الى اسرائيل من منطلق التقوى أو الضرورة . شعر زعماء العمل بالذعر من تدفق اليهود الشرقيين الى اسرائيل لخوفهم من أن يحولوا الدولة الى دولة « شرقية » وبدون سؤال القادمين الجدد عن المكان الذى يفضلون الذهاب اليه أرسلوهم لتعمير الحدود وملء الاماكن الخالية . لقد ذهب الرواد الى هناك كذلك ، ولكن وفقا لارادتهم الحرة . عملت حكومات العمل على اسكان المهاجرين وايجاد اعمال لهم — ولم يكن هذا انجازا سيئا ولكن بطريقة توحى دائما بالتنازل .

استوعبوهم فى سياسات المبانى ، فى شبكة الوظائف والادارة ولكن كمرءوسين وليس كرؤساء . تشكل الجيل الاول الذى كان عاطلا عند وصوله الى اسرائيل بطابع واحد كانوا يذعنون للقوة الحاكمة كما لو كانوا يفعلون فى شمال افريقيا أو العراق ، ولكن داخل بيوتهم كانوا يعربون عن استيائهم منها، وكان أطفالهم يسمعون .

صاح احد الشباب : « جاء والدى من شمال أفريقيا » فى كيبوتز أموز آوز الجديدة عندما تسلم ورقة للذهاب الى احدى المدن النامية : « حسنا ، من المغرب ماذا اذن ؟ ألم يحصلوا على احترام الذات ؟ لا ؟ قيمهم ؟ ايمانهم ؟ أننى لست شخصا متدينا ، أننى اسافر يوم السبت ولكن والدى ، لماذا يسخرون من ايمانهم ؟ لماذا نظفوهم بالليزول فى ميناء حيفا ؟ لماذا ؟ .

أصبح الجيل الثانى اسرائيليا لم يعودوا يدينون بشيئا للعمل وعرفوا كيف يؤكدون ذاتهم . علمهم بيجين أن ليس فيهم شىء يخجلون منه . ولكن فى الوقت الذى اعاد لهم كرامتهم أجاز كراهيتهم لليهود الغربيين الاشكانزيم وكل مايمثلونه ، السلبى والايجابى كذلك ، الطاقة الخلاقة والتبلد الثقافى ، المؤسسات الديمقراطية وادعاء التفوق . كان ينثر الريح .

الفصل السابع عشر

تجـربة ثقـة رهيبـة

« ان هذه ليست أراضى محتلة لقـد استخدمتم هذا التعبير لمـدة عشر سنوات ولكن منذ مايو سنة ١٩٧٧ آمل ان تبدأوا فى استخدام كلمة الأراضى المحررة . ان لكل يهودى الحق فى الاستيطان فى هذه الأراضى المحـررة من الأرض اليهودية » . خلال ثمان وابعين ساعـة من فوزه فى الانتخابات اعلن بيجين تحـذيرا الى المجتمع الدولى الذى اذهلته مفاجآت انتخـاب بيجين ، أن بيجين رئيس الوزراء سيكون هو نفسه الزعيم الدائم للمعارضة . عقـد بيجين مؤتمرا صحفيا مرتجلا خلال زيارته لمجموعة من المستوطنين العسكريين فى « قادوم » بالقرب من « نابلس » ، أكبر المدن العربية فى الضفة الغربية وكانت تلك المجموعة قد تم نقلها الى قادوم داخل حدود معسـكر للجيش ، بعد اقامة مستوطنة رمزية اطلق عليها ايلون مدراخ ، كتحدى لحكومة العمل ، وسط انقاض سابستا المذكورة فى التوراة . وكانت زيارة بيجين قد تم ترتيبها مقدما للاحتفال بوضع لفائف الشريعة فى معبد قادوم . ولكن الانتخابات حولتها الى حدث اعلامى وبداية استيعاب المتمردين من جماعة جوش امونيم فى بنية ادارة الضـفة الغـربية . وعـد بيجين المستوطنين : « خلال أسـابيع أو شـهور قليلة سيكون هناك الكثير من المسـتوطنات مثل ايلون ماروخ ، وقال : « لن تكون هناك حاجة الى قادوم » عندما سأل أحد الصحفيين رئيس الوزراء المقبل عما اذا كانت حكومته ستقوم بضم الاراضى فقال : « اننـا لا نستخدم كلمة ضم ، انك تضم أرضا أجنبية ، وليس بلدك نفسها « وسأله آخر ، أكثر فطنة فى استخدام لغة الصهيونية الجديدة : « هل سيطبق القانون الاسرائيلى فى الضفة الغربية » . وبخه بيجين قائلا : « قل يهودا والسامرا . استخدام الاسم دائما » . كانت الالفاظ واضحة تماما ، ولكن بيجين أخذ يتلاعب بمضمون السؤال : « انهذه مسالة تقديرية ، عندما تتشكل الحـكومة فاننا سنذهب الى الكنيست ونطلب اقتراعا بالثقة ثم نقوم بدراسة الخطوات التى يمكن اتخاذها » . كان بيان ليكود الرسمى حول الضم اقل لياقة . ظهر سبب حـذره هذا بعد اسـبوع وقد ادهش ذلك حـزبه كما ادهش المعارضـة والأمة باسرها .

دعا بيجين موشى ديان ، الذى كان قد اعيد انتخابه للكنيست على تذكرة العمل الانتخابية للعمل وزيرا لخارجيته . وعلى الرغم من عودته الى المستشفى لمعاودة متاعبه من مرض القلب ، قاوم بيجين المطالب القوية التى قدمهـا الليبراليون لاسناد المنصب اليهم . يزعم أريخ دلزين انه بينما لم يكن هناك

تعهد شخصى من بيجين فانه كان هناك اتفاق بين حيروت والزعماء الليبراليين بين بيجين وسيمحا أرليخ على ان يتم تقسيم المناصب الاربعة الكبرى بين حزبيهما حيث يحصل حيروت على رئاسة الوزراء والدفاع ويحصل الليبراليون على المالية والخارجية . توقع الليبراليون ان يحافظ بيجين على الاتفــاق ، ولكن افكاره الآن كانت تسبق سياسات الائتلاف ، كذلك لم يلق بالا الى رد الفعل الغاضب الذى ابداه حزب العمل والصحافة وتجدد المظاهرات المعادية لديان التى نظمتها العائلات التى نكبت بفقد ذويها فى حرب يوم كيبور والتى قامت بالقاء الحجارة على شقة بيجين فى شارع روزنيوم . كان مقتنعا ان سـمعة ديان فى الخارج مازالت عالية حتى ولو لم يغفر له مواطنوه . كان الرجل ذو الرقعة على عينه مازال مستر اسرائيل . قال بيجين من فراشه فى المستشفى :

« تررت ترشيح مستر ديان لمنصب وزير الخارجية ، بعض النظر عن كافة الاعتبـارات الحزبية ، لاننا نحتاج خلال السـنوات القادمة الى وزير خارجية يتمتع بمكانة واحترام عالمى ، ولا يساونى الشك فى ان مستر ديان سيحظى باحترام شديد بين السفراء ، ووزراء الخارجية وغيرهم من الزعماء وهذا امر بالغ الاهمية بالنسبة لعلاقات اسرائيل مع الشعوب القريبة والبعيدة » .

لم يكن غصن الزيتون الذى مده بيجين للعرب حيلة دعائية . كان يريد استكشاف الاحتمالات وخاصة مع مصر . وعلى العكس كان مرتابا فى نوايا السادات ولكنه كان يريد الآن اختبارهم بنفسه . فاذا أثبت السادات اخلاصه فانه سيكون من السهل التوصل الى سلام مع مصر اكثر من « الشعوب القريبة» الأخرى . لم تكن سيناء جزءا من أرض اسرائيل . كان اختيار ديان اعترافا من ليكود بانه ليس لديه مرشح لمنصب يقارن بديان فى مقدرته أو خبرته . فمن بين وزراء ليكود المحتملين لم يكن هناك أحد سوى عيزرا وايزمان الذى كان وزيرا فى حكومة الوحدة الوطنية التى رأستها جولدا مائير . أكد تعيين ديان كذلك الاستمرارية . وهو ما أكده احتفاظ بيجين بكبار العاملين فى مكتب رئيس الوزراء والذين كانوا على صلة وثيقة بسلفه من حزب العمل : مثل دان باتير المتحدث الرسمى ، ويهودا افينر مستشار علاقات الدياسـبورا وكاتب خطب رئيس الوزراء التى يلقيها بالانجليزية والبريجيدير — جنرال افريم بوران السكرتير العسكرى وايلى مزراحى مدير مكتب رئيس الوزراء . كان يريد أن يظهر للعالم أن انتقال الرئاسة اليه كان انتقالا ديمقراطيا وليس انقلابا قامت به حفنة من الارهابيين المتقاعدين .

كان ديان قد ترك منصبه مع مسز مائير فى سنة ١٩٧٤ ولكنــه استعاد مقعده فى الكنيست وكان أحــد أعضاء الهيئة التى وضعت برنامج حـزب العمل لانتخـابات سنة ١٩٧٧ . واجاب على التساؤلات بقوله انه طالما خدم الدولة تحـت شخصيات عملاقة مثل بن جوريون وجولدامائير فانه لن يقوم

بدور ثانوى تحت امرة زعمـــاء أصغر (واقل) مثل اسحق رابين وشيمون بيريز . ويبدو انه كان يعد بيجين واحـــدا من جيل الابطـــال حتى ولو كان أكبر بسنتين فقط من ديان . كانت جذور وزير الدفاع السابق عميقة فى حركة العمـــل . ولد ديان فى داجانيا وهى أول كيبوتز . وكبر فى ناحلل وهى أول موشاف . ولكنه كان دائما ذئبـــا وحيدا ، رجـــلا غير ثابت الولاء لا يعترف بالديون الشخصية أو الفكرية . كانت لديه ثقـــة لا تهتز فى حكمه الشخصى ، ولكنه لا يسمح قط لهذه الثقة أن تتحول الى عقيدة ثابتة . أثبت التقاعد انه شىء أصعب مما كان يتوقع . فاذا كان هناك ما يمكن عمله فانه يريد أن يشارك فيه ولكن ليس بدون شروط . كتب ديـــان يقـــول : « قدرت انـــه سيتعين علىَّ اسرائيل قريبا أن تتخـــذ قرارات خطـــيرة ستشكل مستقبلها واننى اذا استطعت أن اشترك فى تقرير السياسة فاننى استطيع ممارســة تاثير ضخم على قرارات الحكومة تلك . كانت العقبة بالنســـبة لديان هى مصير الضفة الغربية وقطاع غزة . كان ضد ضمهما وبالمثل كان يعـــارض عودتهما الى السيادة العربية . كان يحلم بتســـوية مؤقتـــة ترضى على نحو ما كل من اسرائيل والاردن دون اللجـــوء الى الابتكارات الاوروبيـــة مثـــل الحـــدود الوطنية . وافق بيجين بنـــاء على توصية ديان ان لا يتـــم ضـــم الاراضى « فى الوقت الذى تجرى فيه المفاوضات » وان يستمر الســـكان العرب فى ارســـال مندوبيهم الى البرلمان الاردنى وتلقى مساعدة مالية من الدول العربية عن طريق عمـــان . تبنى ديان سياسة « الجسور المفتوحة » فى ســـنة ١٩٦٧ وكان لا يريد أن يشهد موتها بعـــد عشر سنوات . وقـــد ارضت تعهدات بيجين التى اكدها فى جناحه بالمستشفى ديان . وكتب الى أحـــد المنتقدين فى احدى الكيبوتزات يقول :

« ان البديل عن ترتيبات أمنية مع العرب سيكون هو الحرب بالتأكيد . هل يمكن أن تكون حكومة برئاسة بيجين افضـــل لاسرائيل بدونى ؟ واذا ما انضمت اليها فهل ستكون هناك فرصة لتحقيق أهدافنا ـــ كما أراهـــا ؟ هل لدى ، فى الحقيقة حلا لمشكلة ـــ نزاعنـــا مع العرب وهل سأكون قادرا على العمل وفقا لتصوراتى فى مثل هذه الحكومة ؟ اذا كانـــت الاجـــابة على السؤال الاخير بالايجاب فهل يتعـــين على ، رغـــم ذلك ، ان أرفض عرض بيجين ؟ »

كانت المقامرة قد بدأت . من الصعب تصـــديق ان ديان تردد طويلا فى اتخـــاذ قـــراره . قال لزميـــل من أعضـــاء الكنيست عن حـــزب العمـــل وهو جاد ياكوبى : « كان السؤال الذى كان على أن اواجهـــه هو ماذا كان قبولى لعرض بيجين والعمل معه يمكن أن يغير بشكل أساسى الموقف لصالح اسرائيل : » . كان ديان مختالا بدرجـــة كافية ليجيب بدون تردد بنعم وليثبت انه على صـــواب .

لم يكن عرض بيجين على ديان مفاجئا . فقد جرت محاولات أولية لجس النبض خلال الايام الاولى من الحملة الانتخابية عندما قام زعيم حيروت بزيارة الى فيلا ديان فى تل أبيب فى حى الضباط المتقاعدين فى زاحالة . ووفقا لرواية ديان فانهما كانا يبحثان عرضا بان يدخل ديان الانتخابات على قائمة ليكود ، لكنه رفض لان بيجين كان لا يستطيع خلال تلك المرحلة اعطاءه التأكيدات التى كان يسعى للحصول عليها حول الضفة الغربية وقطاع غزة . اقترح بيجين أن يتركا الباب مفتوحا . وخلال احدى مناقشات الكنيست بعد ذلك بخمس سنوات فسر رئيس الوزراء تلك المحادثات تفسيرا مختلفا قائلا ان موشى ديان قام بالمبادرة وتطوع من تلقاء نفسه باعلان استعداده للعمل تحت رئاسة بيجين اذا قام بتشكيل حكومة قادمة . يضيف يهيل كاديشاى ان محاولات الاستكشاف استمرت بعد دخول بيجين مستشفى اتشيلوف فى شهر مارس . ووفقا لكاديشاى فان بيجين دخل الى المستشفى لاجراء فحص عام وانه أصيب بأول أزمة قلبية خلال زيارة ديان له .

على الرغم من تعاونهما فى حكومة الوحدة الوطنية فان المغزل بين بيجين وديان كان مسألة عقلية بحتة . يقول نافتالى لافى الذى كان متحدثا باسم ديان فى حكومتى مائير وبيجين ان ديان لم يكن يحمل الحب لزعيم حيروت :

« كان يقدر تصميمه ، قوته والطريقة التى كان يعرف كيف يمارس بها هذه القوة . كان ديان يقدر أكثر من أى شىء آخر اخلاص بيجين ليهودا والسامرا على الرغم من ان دوافعه للحصول عليهما باعتبارهما جزء من أرض اسرائيل لم تكن قبل دوافع ديان . ولكنه كان يكره أسلوب بيجين ، لغته الطنانة ، ومبالغاته مما كان يعتبره تمثيلا رخيصا . كان يعتقد ان بيجين لا يفهم العرب ولا يعرف كيفية التعامل معهم وكيفية التوصل معهم الى اتفاق معقول لا يجرح كرامتهم ، اتفاق يعطيهم أقصى ما تستطيع اسرائيل عرضه عليهم « دون القيام بمخاطرة ضخمة بامننا نحن » .

كان ديان يقبل حلا سياسيا لا تكون فيه الضفة الغربية جزءا من اسرائيل . كان تعلقه بالاماكن هناك لا يعنى اننا علينا أن نستولى عليها . كان ديان مستعدا لان يعيش آخرون هناك وفقا لاسلوب حياتهم ولكنه كان شديد الخوف من أن يتحول حكم العرب الى شىء لا يمكننا السيطرة عليه . كان يعارض الضم بشدة ويجب أن يكون اليهود حساسين فى الا يضموا أشخاصا أجانب ومعادين وارغامهم على أن يكونوا اسرائيليين . ان الفلسطينيين فى الضفة الغربية يجب الا يكون لديهم جيش خاص بهم أو دعوة جيوش عربية أخرى . وخلاصة الامر ، ان ديان كان مستعدا لاعطائهم الكثير . وكان يفضل اعطاء الاردن دورا كبيرا فى اقامة مجتمع يتمتع بالحكم الذاتى .

اما فيما يتعلق بموقف بيجين ازاء ديان فان أحــد موظفيه وصفه على هذا النحو : « أنه قام بتعيين ديان أولا وقبل كل شيء بسبب سمعته الدولية • وكان ايضا يكن احتراما لديان ، ذلك الاحترام الــذى يستحقه كل من كان جنرالا بارزا فى القوات المسلحة الاسرائيلية . كان يتسامح فى رغبــة ديان فى الاستقلال بآرائه » •

استغرقت اسرائيل وقتا طويلا فى تشكيل حكومة مثل الوقت الذى استغرقه اجراء انتخابات عامة . كان على بيجين ان ينتظر ثلاثة أسابيع بعد فــوزه فى الانتخــابات قبل أن يستكمل الرئيس افراهام كاتزير مشاوراته الشــبيهة بالطقوس مع جميع الاحزاب الثلاثة عشر التى حصلت على مقاعد فى الدورة التاسعة للكنيست ، ثم عرض عليه رئاسة الوزارة . وخلال تلك الفترة قام بيجين بتغيير سياسة حزب العمل فى ابقاء المستوطنات اليهودية بعيدا عن المــدن الجبلية فى يهودا والسامرا حيث يتركز معظم عرب الضفة الغربية ، وانتزع موشى ديان من مقاعد حزب العمل وخرج من المستشفى التى دخلهــا للمــرة الثانية دون اعراض تذكر سوى التهاب فى الغشاء المحيط بالقلب .

فى مقر الرئيس الاسرائيلى فى القدس التقطت الصــور لبيجين وهــو يصافح رئيس الدولة ويقبل مســز نينا كاتزير • كان يتصرف بشهامة كما لو كان أحد نبلاء العصور الوسطى • ومن منزل الرئيس ذهب الى الحــــائط الغربى حيث وضــع غطاء الرأس الاسود . كان بيجــين أول رئيس وزراء يعين هويته باعتباره يهوديا اكثر منه اسرائيليا . كانت الدولة بالنسبة له هى أرض اليهود وليس فقط تلك الاقلية من الجنس البشرى التى تصــادف ان تعيش هناك . وبالنسبة له فان اليهــــودية لا يمكن ان تنفصل عن الديانة اليهودية . كانت الزيارة عملا من أعمال التكريس قام بها رجــل يعتبر نفسه حاكما بين اليهود وليس مجرد رئيس وزراء اسرائيل . وعندما ذهب الى هناك مرة اخرى بعد انتخابات سنة ١٩٨١ ارتدى غطاء الرأس الذى أصبح شارة مستوطنى جوش امونيم .

كان يجب مرور أسبوعين اخرين قبل أن يستعد بيجين لتقديم حكومته الى الكنيست وحلف اليمين . كان السؤال الاساسى موضــع الخــلاف فى مفاوضات الائتلاف المطولة هو عما اذا كان فريق الحكم سيضم حزب ايجال يادين الجديد ـــ الحركة الديمقراطية من اجل التغيير ـــ الذى خرج من أول انتخــابات يخوضها وهو ثالث أكبر الاحزاب بعــد ليكود والعمــل . كان الديمقراطيون تواقين للحكم ، كانوا حركة اصلاحية تعهدوا باحيــاء الامــة بعد انتشــار الفساد والمصالح الذاتية خلال حكم حزب العمل فى السنوات الاخيرة . كانت القوة الدافعة لبرنامجهم هى السياســـة الداخليــة وليس الخارجية على الرغم من انهم أعلنوا عن تأييدهم للتوصل الى تسوية حــول

الاراضى فى الضفة الغربية . كان زعماء الحركة يشملون الخارجين عن اليمين وكذلك عن اليسار . كانوا يحتاجون الى تولى الحكم ، والى فرصة لتحقيق نتائج ليوفوا بوعودهم للناخبين . لم تكن المعارضة كافية وما كانت يمكن أن ترضى طموحات رجال مثل يادين وشمويل تامير . كانت المشكلة ان بيجين يستطيع تشكيل ائتلاف قوى دون مقاعد الديمقراطيين الخمسة عشر . كان التوصل الى اتفاق مع الحزب الدينى القومى ، واجودات اسرائيل ، شديد التطرف سيعطى ليكود — مدعما بايريل شارون — الذى حصل على مقعدين بقائمة خاصة ولكنه سرعان ما أنضم الى حيروت — اثنان وستون مقعدا من مجموع المقاعد فى الكنيست البالغة مائة وعشرين . فاذا استقال ديان من عضوية العمل فانه سيحتفظ بمقعده فى الكنيست ، فعندئذ سيرتفع عدد المقاعد الى ثلاثة وستين مما يعطى بيجين اغلبية ستة على الاقل (عضو مستقل آخر هو شمويل فلاتو شارون الذى كان مطلوبا بتهمة جنحة مالية فى فرنسا وعد بتأييد الحكومة ولكن كان ليكود حريصا على ابعاده) .

استطاع بيجين مناورة يادين تعضده تجربة ثلاثين عاما من الخداع الحزبى . كان يريد الديمقراطيين فى الائتلاف ، أنهم سيعملون على توسيع قاعدة الائتلاف حتى لا يستطيع أحد اتهامه بأنه يقود تحالف من الايديولوجيين اليمنيين والمتعصبين النظريين . كانوا سيمنحونه أمنا فى عدد المقاعد ولكنه كان يريدهم وفق شروطه . اعترض يادين على تعيين ديان وعلى اتفاق بيجين مع وزير خارجيته المرشح حول صيغة الضفة الغربية . سارع زعيم ليكود باجراء المفاوضات وأرغم يادين على التركيز على موضوعات السياسة الخارجية والامن . طالب يادين بسحب العرض المقدم لديان لتولى الخارجية وأن يترك الائتلاف الاحتمال مفتوحا أمام التوصل الى تسوية حول الاراضى ولكنه لم يكن ندا لبيجين . فوضت اللجنة المركزية لليكود زعيمها مواصلة التفاوض للتوصل الى أوسع ائتلاف ممكن ، وقررت بالتحديد أن أى قرار باسناد الوزارات ستنتظر حتى المرحلة النهائية من عملية التفاوض . وفى نفس الوقت أخذت اللجنة المركزية مذكرة باقتراح بيجين بأنه يجب تولى ديان لوزارة الخارجية . وقال سيمحا أرليخ ليهدأ المتشككون : « اننا سنتكلم عن هذا عند تعيين المناصب » . لم يتغير شىء فى التطبيق . كان بيجين يريد ديان وفى النهاية ما كان باستطاعة أحد مخالفته ولكن هذا أعطى الديمقراطيين ذريعة للعودة الى مائدة الوزارة . وبالمثل فان بيجين وافق على عدم ضم الضفة الغربية ، واكد استعداد حكومته للاشتراك فى محادثات السلام فى جنيف عندما تعقدها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى على أساس قرارى مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، ٣٣٨ . كان بيجين قد قام قبل ذلك بسبع سنوات بسحب حزبه من حكومة الوحدة الوطنية بسبب موافقة جولدا مائير على القرار رقم ٢٤٢ . كان التعهد بالتخلى عن تلك الموافقة غير ملائم

بالنسبة لحمائم الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ولكنه شجع أولئك الذين كانوا يحتاجون للتشجيع . قدم بيجين وزارته الى الكنيست فى الموعد المحدد ولكنه ترك ثلاثة مقاعد خالية بصفة مؤقتة للديمقراطيين . وبعد اربعة شهور أثمرت حيلة بيجين التى توصل اليها بالصبر والتهديد والاغراء كما أرادها بالضبط . انضم يادين الى الائتلاف كنائب لرئيس الوزراء ولم يكن يملك سوى حق التأخير (وليس الفيتو) حول بناء مستوطنات جديدة فى الضفة الغربية والقيام بدور اسمى كمنسق للسياسة الاجتماعية . ارتفعت أغلبية بيجين من ستة مقاعد الى ستة وثلاثين بين عشية وضحاها بينما واصل حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ، ببراءة ، طريق الحلول الوسط والتفسخ حتى أصبحت الحركة لا تعدو أن تكون ذكرى وتحذير عندما حان الوقت للدعوة الى انتخابات اخرى فى سنة ١٩٨١ .

دفع بيجين عن طيب خاطر ثمنا باهظا فى مقابل أصوات الاحزاب الدينية خاصة أصوات أجودات اسرائيل الذى كانت تسيطر عليه من خارج الكنيست هيئة من الحكماء الموقرين . كان الحزب الدينى القومى ، حاملا لواء الصهيونية الدينية يكافح دائما من أجل الحفاظ على الوضع القائم فى التوازن بين ما هو علمانى وما هو مقدس فى الدولة اليهودية . وقد حال دون السماح بادخال الزواج والطلاق المدنى وحافظ على الاحتكار المؤسس للتيار الارثوذكسى المتشدد فى اليهودية ، وقاوم الاتجاه الى الابتعاد عن مراعاة الشعائر اليهودية فيما يتعلق بيوم السبت فى الخدمات العامة . كان حزب أجودات اسرائيل يسعى الى المضى أبعد من ذلك وتغيير التوازن لصالح الثيوقراطية (حكومة دينية) . كان الحزب يجاهد من أجل ذلك لانه — بالاضافة الى الحصول على الاموال العامة من أجل نظام تعليمه الخاص — كان دافعه الوحيد للدخول الى الساحة السياسية . كانت السياسة الخارجية وسياسة الامن خارج ادراكه . كانت لدى بيجين موانع أقل مما كانت لدى رؤساء الوزراء من حزب العمل للتوصل الى تفاهم ، كان يعلن بسعادة — أنه « أحد المؤمنين فى اسرائيل » . بالنسبة له كان هناك نوع واحد من اليهودية ، واسرائيل مدينة لاجيال من اليهود الاتقياء باحترام قيمتها وممارساتها . كانت جميع فقرات اتفاق الائتلاف الموقع فى ٩ يونيو سنة ١٩٧٧ الثلاث والاربعين ما عدا عشر فقرات تتناول التطبيقات والمزايا الدينية . وخلال أول حكومة لبيجين وجدت الفتيات من « العائلات المحافظة » من السهل الهروب من الخدمة العسكرية وأصبح من الصعب الاجهاض فى حدود القانون وفرضت قيود على الاطباء فى القيام بتشريح الجثث مما ادى الى حدوث عجز فى الكلى وغيرها من « قطع الغيار » اللازمة لعمليات زرع الأعضاء . ومنع النشاط التبشيرى المسيحى .

بعد أربع سنوات من حرب يوم الغفران شعر بيجين بالرضا لانه استطاع اقامة ائتلاف حاكم لم تكن أسسه ثابتة فى الداخل فقط ولكنه كان

جديرا بالثقة بدرجة كافية تردع اى دولة معادية من التفكير فى اعادة الكرة وتكرار ما حدث فى أكتوبر ٠ كانت وزارته تضم فى وقت من الأوقات خمسة جنرالات متقاعدين هم : يادين ، وديان ، ووايزمان (الذى كوفىء باسناد وزارة الدفاع اليه لنجاحه فى ادارة الحملة الانتخابية) وشارون (الزراعة والمستوطنات) وماثير اميت (رئيس المخابرات السابق تم انتخابه على قائمة حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير وعمل لفترة قصيرة وزيرا للنقل) ٠

اثار تولى بيجين لرئاسة الوزراء عاصفة من التوجس والعداء فى الغرب خاصة فى بريطانيا حيث ثارت ذكريات الارجون زفاى ليومى كما لو كان لم يحدث شىء منذ سنة ١٩٤٨. كتب لويس هيرين فى صحيفة « التايمز » اللندنية يقول : « ان مؤسس اسرائيل يجنى ثمار الارهاب . الارهاب يؤتى ثماره ويجب تشجيع عرفات » . وكتب عضو قديم فى الوحدة السادسة المحمولة جوا الذى فقد احد رجليه فى هجوم قامت به الارجون فى ناتانيا الى السفارة الاسرائيلية يقول : « اذا جاء بيجين الى هنا فاننى سأقتله » وفى الولايات المتحدة اعربت صحيفة « نيويورك تايمز » عن قلقها ازاء السياسات فى الشرق الاوسط .

أما « التايم » فقد اثارت شعور بيجين بجنون العظمة وعندما نصحت قرائها بأن « بيجين يتطابق مع فاجن » .

ذهل بيجين من ذاكرة العالم القوية ، والرفض العنيد لرؤية الارجون من خلال عيون قائدها . وطلب اعتذارا من شبكة تليفزيون سى . بى . اس الامريكية لوصفه بالارهابى السابق ٠ وأجيب الى طلبه وقال لاحد المذيعين الاسرائيليين الذى أجرى معه مقابلة :

« اذا قدمنى احد على اننى ارهابى وقدم ياسر عرفات على انه فدائى مقاتل فاننى لا أحمل له سوى الاحتقار . لقد حاربنا لتحرير شعبنا عندما كان يتعرض للابادة فى أوروبا . واعتقد ان ردود الفعل الغبية هذه ستتلاشى عندما اشكل الحكومة . وانا مدعو للاجتماع بالرئيس كارتر فاذا لم تتوقف حتى حينذاك فاننى سأعرف كيف أتصرف » .

كان الاسرائيليون من كافة القناعات السياسية يقدرون بوضوح اكثر من الاجانب انهم قد انتخبوا اول رئيس وزراء ايديولوجى ، الرجل ظل يردد نفس الاغنية لمدة اربعين عاما ويعنى كل حرف فيها : « انه سيكون مستعدا لتأييد كل كلمة حتى آخر دولار او آخر قذيفة » انه جدير بالثقة لدرجة مخيفة ، وفى الحقيقة فان بيجين جاء الى السلطة وهو أوضح من أى من اسلافه ولكنه كان يعترف صراحة انه يتطلع الى مؤرخيه المفضلين وكتاب السير الذاتية لامداده بالجمل المأثورة للاستشهاد بها فى خطبه . ظل عالمه هو

عالم المؤتمر الصهيوني . كانت رؤيته غير واضحة ، وعرقية . كان يبقى من أجل المعاناة اليهودية ويدعو الى التمسك بالكرامة اليهودية ويفخر بالقوة اليهودية . فاذا كان مستعدا لاجراء محادثات مع العرب للتوصل الى سلام فانه يفعل ذلك من منطلق القوة وليس من منطلق الضعف . وقال عند تقديم وزارته الى الكنيست فى ٢٠ يونيو لن تطلب من اية دولة الاعتراف بحقها فى الوجود :

« ان اله آبائنا هو الذى منحنا حق الوجود منذ وميض فجر الحضارة الانسانية منذ ما يقرب من اربعة آلاف سنة . ومن اجل الحق الذى جرى فى الدم اليهودى من جيل الى جيل ، دفعنا ثمنا له فى تاريخ الامم . حقيقة أن هذه الحقيقة لا تمحى أو تضعف حقنا بل على العكس . ولهذا فاننى أؤكد مرة أخرى أننا لا نتوقع أن يقوم أحد بالنيابة عنا بالاعتراف بحقنا فى الوجود فى أرض أجدادنا . انه اعتراف مختلف ذلك المطلوب بيننا وبين جيراننا ، اعتراف بالسيادة وبالحاجة المشتركة الى حياة يسودها السلام والتفاهم ، ان هذا هو الاعتراف المتبادل الذى نتطلع اليه وسنبذل من اجله كل جهد ممكن » .

وفيما يتعلق بالعلاقات مع الولايات المتحدة وضع بيجين تفرقة بين الرؤية والسياسة . كان يؤكد ان اسرائيل حليف ومصدر قوة . فأمريكا تحتاج اسرائيل بنفس القدر الذى تحتاج به اسرائيل الى امريكا . خلال أزمة سنة ١٩٧٧ حول مشروع روجرز سخرت جولدا مائير وأبا ايبان من « سذاجة » بيجين . ولكن بالنسبة للموضوعات التى تهمه كان رئيس الوزراء الجديد مستعدا للتودد الى أمريكا ومقاومة ضغطها فى نفس الوقت . كان مصمما على تثبيت حدود أرض اسرائيل نهائيا . ومهما كانت حقائق القوة فانه نادرا ما كان يلجأ الى الخداع ، ولم يوضع استعداده « لاكل السمن الصناعى » اذا لزم الامر موضع الاختيار قال أحد خبرائه فى الشئون الامريكية « انه مقتنع كلية أن الشعب الاسرائيلى سيواصل المسيرة معه ، كان يؤمن بقوة الاقناع ، بالكلمات ، بقدراته على الاقناع . اننى ليس لدى شك اطلاقا فى أنه اذا حدثت مواجهة مع الولايات المتحدة حول موضوع ذى أهمية بالغة بالنسبة له فانه لن ينحنى » . خلال زيارة بيجين الاولى الى واشنطن فى يوليو سنة ١٩٧٧ حثه الرئيس جيمى كارتر على اظهار مرونة حول الضفة الغربية فما كان من بيجين الا أن قام ببسط « خريطة للامن القومى » أحضرها معه تحسبا لهذه اللحظة وأخذ يشرح المخاطر الناجمة عن السماح للمدفعية العربية بالعودة الى حدود ما قبل سنة ١٩٦٧ . وقال للرئيس كارتر الذى شعر بالارتباك ، « اننا شعب ثلاثى » وكان يعنى أنه من بين كل ثلاثة يهود قتل يهودى فى الهولوكوست النازى . ومضى يقول « لم يكن باستطاعة الرجال اليهود الدفاع عن نسائهم كان عليهم أن يسلموهن الى القاتل . ثم بدأ يقول :

« لقد اخذت على نفسى عهدا .. » ثم انفجر فى موجة انفعال . وعندما حذره كارتر فى نفس الجلسة فى حجرة اجتماع الحكومة الامريكية فى البيت الابيض من المضى فى برنامج الاستيطان الضخم الذى وعد بالقيام به فى الاراضى المحتلة قدم له رئيس الوزراء قائمة معدة مسبقا بعدد المدن الموجودة فى الولايات المتحدة وتحمل اسماء عبرية مثل ساليم والقدس وتساءل قائلا : « ماذا ستقول اذا قال حكام تلك الولايات انه لا يمكن أن يعيش يهودى فى تلك المدن ؟ . كان مسئولو السفارة الاسرائيلية المصاحبين لبيجين للمرة الاولى يعرفون أن هذه لا يمكن أن تكون كلمة اسرائيل الاخيرة ، واصيبوا بالانزعاج ازاء حدة كارتر حول موضوع المستوطنات وعندما عادوا من البيت الابيض الى بلير هاوس ، قصر الضيافة الفخم سألوا رئيس الوزراء عما ينوى القيام به ، رد بيجين قائلا انه سيقوم ببناء المستوطنات كما هو مخطط .وتنبأ بأن الامريكيين سيتحمسون لمدة ستة اشهر ثم يعودون الى الحالة الطبيعية .

كان أول حاكم عربى يتقرب اليه بيجين فى بحثه عن السلام واكثرهم قابلية وتفتحا هو الملك حسين ملك الاردن . كان وزراء اسرائيليون يقومون بالاجتماع به سرا منذ ماقبل حرب سنة ١٩٦٧ عندما كان لايزال يحكم الضفة الغربية والقدس الشرقية واستمر الحوار خلال حكومات ليفى اشكول ، وجولدا مائير واسحق رابين .أما أكثر المقابلاتوجها لوجه فقد قام بها ايجال آلون وزير الخارجية الراحل الذى اجتمع بالملك أربع عشرة مرة ، بينما اجتمع به رابين ووزير دفاعه شيمون بيريز ثمان مرات . واجتمعت به مسز مائير لاول مرة فى باريس قبل حرب الايام الستة عندما لم تكن رئيسة وزراء بعد ، وفى اسرائيل بعد ذلك عندما اصبحت رئيسة للوزراء . ويضيف نافتالى لافى أن ديان قد تحدث الى الملك « عدة مرات » بما فى ذلك عدد من المرات عقب استقالته كوزير للدفاع فى سنة ١٩٧٤ . وخلال فترة حكم رابين عقدت كل الاجتماعات فى اسرائيل . ويقول أحد شهود العيان أنه على الرغم من أن تلك الاجتماعات لم تحقق اية نتائج فانها كانت اجتماعات جميلة ، ومناقشات حرة ، مفتوحة وودية بين جنتلمان وآخرين على شاكلته .

وفور تولى السلطة ، ألمح بيجين عن طريق الوسطاء الى انه يرغب فى الانضمام الى اجتماعات حسين .

القسم الثالث

وجاء الرد من عمان بالرفض القاطع الامر الذى أغضبه كثيرا . وعلى الرغم من ذلك فقد فوض ديان فى حضور اجتماع خاص مساء يوم ٢٢ أغسطس بعد أن تخلص وزير الخارجية الاسرائيلى من حارسه الخاص بدخوله منزلا آخر من خلال الباب الامامى والتوارى فى سيارة كانت فى انتظاره فى الخلف .

وعلى الرغم من أن المحادثات استمرت ليوم آخر بناء على طلب الملك حسين ، الا أنها لم تكن مثمرة بالمرة . وقال الملك أنه نفض يده من الضفة الغربية والمشكلة الفلسطينية . وأعلنت الدول العربية ان منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . واذا كانوا لا يريدونه ، فبوسعهم ادارة دفة شئون الفلسطينيين بدونه .

وكتب ديان يقول ان محاولة ايجاد ترتيب مناسب ومتفق عليه لمشكلة الضفة الغربية وقطاع غزة هى محاولة تتسم بعدم الاكتراث فيما يبدو .. وفى الاجتماع الثانى ، أوضح الملك حسين موقفه بشأن احتمال تقسيم الضفة الغربية بين اسرائيل والاردن ، اى تسوية اقليمية .

وقد رفضها على الفور ، اذ أن أى ترتيب للسلام يقوم على أساس تقسيم الضفة الغربية من شأنه أنه يعنى أن يوافق حسين على ضم جزء منها الى دولة اسرائيل ، وقال يجب أن أفهم أنه بصفته ملكا عربيا لا يمكنه أن يقترح حتى على شعب قرية واحدة أن يقطعوا أوصالهم مع أشقائهم العرب ويصبحوا اسرائيليين . وسيتم النظر الى موافقته على خطة من هذا القبيل على أنها خيانة . وسيتعرض للاتهام بأنه باع أرضا عربية الى اليهود حتى يستطيع توسيع مملكته .. وقال ان الحل الوحيد لتحقيق السلام هو أن تعود اسرائيل الى حدود ما قبل شهر يونيو عام ١٩٦٧ .. وفيما يتعلق بمسألة السيادة ، يجب أن نعيد الى الاردن كافة الاراضى التى استولينا عليها فى عام ١٩٦٧ .

وصرح ديان لمساعديه عندما عاد الى القدس بأنه لم يندهش لموقف حسين ولم يندهش كذلك رئيس الوزراء . وطبقا لما ذكره أحد أصدقاء بيجين المقربين ، فان بيجين لم يعتقد أبدا أن أية تسوية اقليمية ستغرى حسينا على التفاوض .

لقد كان يريد أن يستريح ضميره ، ويحصل عليها بعيدا عن نظامه ، وجس نبض حسين . ولم يؤمن ديان بذلك على اية حال . وقد عرفنا موقف حسين من المحادثات السابقة ، واستوضحه بيجين من جدول اعمال ديان ولو كان حسين قال نعم ، لما تغير شيء . الا أنه لم تحدث حتى المقامرة نفسها . اننا نعرف الرد مسبقا .

وطبقا لما ذكره مصدر مطلع ، فانه على الرغم من ذلك ، اوحى ديان قبل ان يفترقا بأن الملك قد يجتمع مع بيجين . ورد حسين بانه لايرى جدوى من ذلك ، فآراء بيجين معروفة تماما . وفى حدود ما هو معروف كان اجتماع ديان هو آخر اجتماع يحضره العاهل الاردنى مع وزير اسرائيلى . وكان بيجين على استعداد للبحث فى اى مكان آخر .

الفصل الثامن عشر

السلام وفق شروطنـــا

كان ذلك بعد الثامنة من مساء التاسع من نوفمبر عام ١٩٧٧ وكان الياهو بن اليسار ، مدير عام مكتب رئيس الوزراء وعميلا سريا سابقا يحمل درجة الدكتوراة فى التاريخ ويطلق لحيـــة سوداء تشبه لحيـــة تيودور هيرتزل ، كان يقرأ وهو مضطجع فى سريره فى شقة بالقرب من مسكن الرئيس فى القدس. وكان ذلك اليوم يوما طويلا ومرهقا . وقد خرق المقاتلون الفلسطينيون وقف اطلاق النـــار عبر الحدود اللبنانية وتسببوا فى قتـــل مدنى اسرائيلى وجرح خمسة آخـــرين بصواريخ كاتيوشـــا وردت القـــوات الجوية بقصف استمر خمسا وستين دقيقة لمخيمات الفلسطينيين وكان العنصر البارز فى أخبـــــار التليفزيون المسائية تتناول المزاعم والمزاعم المضادة حـــــول الاصابات بين المدنيين وكذلك تأكيدات رئيس الاركان بأن اسرائيل سوف تحترم وقف اطلاق النار اذا ما فعل الجانب الآخر الشىء نفسه وتلقى بيجين تقارير عن الحادث وادلى أيضا بمشورته ولم يكن هناك شىء جديد فى نشرة أخبـــــار التليفزيون وكان فى استطاعة بن اليســـــار ان يسترخى ولكن لم يكن هــــــذا الاسترخاء ليطول أمده .

فلقد دق جرس الهاتف الى جوار السرير . وكان المتحدث هو عنـــان صفاوى ، محرر شئون الشرق الاوسط فى صحيفة جيروزاليم بوست . وكان صفاوى قد تابع الاستماع الى اذاعة حيـــة (على الهواء) من اذاعة القاهرة لخطاب أنور السادات الذى وجهه فى افتتاح الدورة السنوية للبرلمان المصرى المسمى « مجلس الشعب » وبعـــد أن أعلن استعداده للتوجه الى مؤتمـــر فى جنيف والذى يحاول الامريكيون احياءه من جديد ، وبعد أن هاجم اسرائيـــل لجدلها حول كل كلمة وكل فصلة وكل شرطة ، القى السادات قنبلة لقد قال أنه مستعد لان يذهب الى نهاية العالم من أجل محادثات السلام . وقال السادات « ان اسرائيل سوف يصعقها أن تسمع انى أخبركم باستعدادى للذهاب الى اسرائيل نفسها الى الكنيست ، لا تباحث معهم من اجل ان احول دون جرح جندى مصرى واحد . أعضاء مجلس الشعب ، ليس لدينا وقت نضـــيعه » . ولقد قوبل هذا العرض الذى قدمه الرئيس السادات بالنـــداء الحمـــــاسى « الله أكبر » من الاعضاء . لكن بعض الذين استمعوا له لم يتنبهوا كثيرا لمـــا قال أو اعتبروا ما قاله نوعا من الصيغ البلاغية فى الخطابة تماما كما اعتبروا تهديد السادات منذ اربع سنوات مضت بالتضحية بمليون جندى مصرى فى سبيل استعادة الارض العربية من الغاصب الصهيونى . لكن حرب يوم

الغفران قد علمت أنان صفاوى ان الرئيس فى العادة يعنى ما يقول . وقد ذهب الى بيجين ليعلمه بالقضية وليعلم رد فعل بيجين لها .

كان بن اليسار غير مصدق لما سمع، لكن هذا المسئول الاسرائيلى لم يرد ان يستبعد ما سمع استبعادا تماما .

لقد سألته « هل أنت متأكد من أن هذا هو ما أعلنه السادات ؟ أننى لا اصدق « فبالرغم من كل ما نعرفه مقدما الا أننى دهشت من سماع السادات على استعداد للحضور الى القدس . ورد قائلا أنه متأكد كل التأكيد . وسأله عما اذا كان قد تلقى برقيات من وكالات الانباء . ورد بأنه لم يتلق بعد اى رسالة . وقلت « أرجوك أن تتأكد فاذا ما كان هذا صحيحا وصح ما أعلنه السادات فعليك ان تكتب اليه بأنه سيلقى كل الترحاب فى القدس .

وفى اليوم التالى نشرت صحيفة جيروزاليم بوست قول أحد كبار مساعدى رئيس الوزراء مناحم بيجين بأن السادات سوف يلقى كل الترحيب هنا وانه سوف يستقبل استقبالا لائقا . لكن الاسرائيليين كانوا أو لا زالوا مترددين فى مواجهة هذه المبادرة بجدية . ولم تنشر صحيفة جيروزاليم بوست رواية صفاوى بعناوين رئيسية .. فى الصفحة الاولى . ولم يعكر بن اليسار أمسية بيجين بهذه الاخبار ولكنه انتظر حتى بعد الساعة السابعة من صباح اليوم التالى . ولم يذع راديو اسرائيل بيان رئيس الوزراء بأن السادات سوف يلقى الترحيب الا فى الساعة الثامنة صباحا ولكن الاحتمالات لم تزل تبدو غير واقعية . ولما كان السادات قد استمر فى وضع التأكيد كله على مؤتمر جنيف وطلبه بتعهد اسرائيل مقدما بالانسحاب من كل الاراضى المحتلة ، فان الحيرة قد أصابت اسرائيل آخذة فى الاعتبار أيضا أن جميع المقابلات السابقة بين الاسرائيليين والزعماء العرب كانت كلها سرية ابتداء من زيارة جولدا مئير للملك عبدالله ١٩٤٨ الى مقابلة ديان لحفيد الملك عبدالله بعد تسعة وعشرين عاما . وكانت اسرائيل مدركة تماما للحساسية العربية لدرجة استخدام الرقابة العسكرية للحفاظ على سرية هذه اللقاءات.ولكن ماذا عليك أن تفعل اذا ما سمعت رئيس اكبر دولة عربية يعلن جهارا أنه مستعد للحضور الى القدس ومخاطبة الكنيست ، فهل سوف يؤذيه بين شعبه أن يتلقى دعوة علانية ، ان بيجين شأنه شأن سابقيه قال مرارا أنه مستعد للذهاب الى أى مكان من أجل محادثات السلام وفى اى وقت . وعلى أية حال فان مصر لا زالت فى حالة حرب مع الدولة اليهودية رسميا . فكيف يمكن استقبال عدو فى عاصمة دولة لا يعترف بها ومما زاد الامر حيرة عدم وضوح الرؤيا فى اشارة السادات . فالى اى شىء كان يهدف ؟

وبالرغم من العلاقات الحارة التى أقامها بالفعل مع جيمى كارتر ، الا أن السادات لم يستشر الامريكيين مقدما حول اعلانه هذا فى مجلس

الشعب . وطبقا لما قاله سيروس فانس وزير الخارجية الامريكية انه أخطر الرئيس قبل اعلانه بيوم واحد عن تفكيره فى الذهاب الى اسرائيل . ونظرا لانه قد موم فكرة عقد مؤتمر قمة فى القدس الشرقية يضم الدول الخمس الدائمة العضوية فى مجلس الامن ومنظمة التحرير الفلسطينية وكذلك اسرائيل وجيرانها المباشرين ، فان رسالة كهذه لم تقبل بمعناها الواضح الظاهرى . ولكن ما ان ادلى بتصريحه هـــذا حتى اصبحت الولايات المتحدة ساعى البريد السعيد على حد قول صموئيل لويس السفير الامريكى فى تل أبيب .

وجاءت الرسائل وعادت عن طريق القنوات الدبلوماسية وعن طريق أعضاء الكونجرس الذين زاروا المنطقـــة ، وبصـــورة حيـــوية عن طريق الصحافة . وفى اذاعة باللغة الانجليزية موجهة الى السفير المصرى — سك بيجين هذا القسم للامتين ، « لا حروب جديدة ولا سفك للدماء ولا تهديدات بعد اليـــوم » واجرى كرونكليت وبربرا وولتز المعروفين بلقائهما فى التليفزيون الامريكى مع النجوم والقادة ، لقاء مع كل من الســـادات وبيجين . وأضاف هذا اللقاء المزيد الى الكرنيفال السائد فى المنطقة وان كان بعض الدبلوماسيين المغرضين قد اشاروا الى أن هذا ليس بالطريقة الوحيـــدة او الرئيســـية للاتصالات بين القدس والقاهرة . وكان لقاء كرونكايت هو أول لقاء مشترك عن طريق القمر الصناعى من نيويورك وقال السادات انه لابـــد من أستلامه لدعوة مكتوبة . ووافق بيجين على ارســـل هذه الدعوة . واستجاب السادات لذلك بقوله انه ســـوف يكون مستعدا للذهاب الى اسرائيل فى أقـــرب وقت ممكن . وفى الخامس عشر من نوفمبر بعث بيجين برسالة الى القـــاهرة عن طريق حامل رسائل أمريكى قال فيهـــا :

« بالاصالة عن حكومة اسرائيل فان لى الشرف ان أقدم لكم دعـــوتى الودية للحضـــور الى القدس وزيارة بلدنا . ان استعداد سعادتكم للقيـــام بمثل هذه الزيارة كما عبرتم عنها فى خطابكم لمجلس الشعب المصرى ، قـــد قوبل هنا بالاهتمام العميق والايجابى شأنها شأن بيانكم بانكم ترغبـــون فى مخاطبة أعضاء برلماننا ، الكنيست ، ومقابلتى . فاذا ما قبلتم دعوتى ، وهذا ما آمله ، فسوف تجرى الترتيبات لكى تخاطبوا الكنيست من فـــوق منبـــره وسوف تمكنوه ، اذا ما رغبتم فى ذلك ، من مقابلة مختلف المجموعات البرلمانية ، المؤيدين منهم للحكومة والمعارضين لها . ودعنى أؤكـــد لكم ، سيدى الرئيس ان البرلـــان والحكومة والشعب فى اسرائيـــل ســـوف يستقبلونكم بـــكل احترام ومحبـــة » .

وجاء رد السادات بنفس الايجابية فقد اخبر وفدا أمريكيا من مجلس النواب مكونا من أربعة عشر عضوا انه يعتبر الزيارة المقتـــرحة « مهمـــة مقدســـة » وانه ســـوف يذهب فى اقرب فرصـــة ممكنة . ثم استطرد قائلا :

« وعلينا أن نفعل المستحيل لكسر الحلقة المفرغة التى أخذ العرب والاسرائيليون يتحركون فيها لمدة ثلاثين عاما . وهذا من أجل الاجيال القادمة . ومن هنا جاءت قدسية هذه المهمة . واننى اذا لم أحاول كسر هذه الحلقة المفزعة فان الله سوف يحاسبنى وكذا سوف تحاسبنى الأجيال القادمة .

وبالنسبة لى فان ٧٠ ٪ من الصراع العربى ـــ الاسرائيلى سببها مشاكل نفسية و ٣٠ ٪ ترجع الى أسباب مادية . وعلينا أن نتغلب على المشاكل النفسية ثم نتجه الى الأسباب المادية . ومن أجل ذلك فسوف أذهب الى الكنيست . واذا ما لزم الامر فسوف افتح باب المناقشة مع أعضاء الكنيست المائة والعشرين لتزويدهم بالحقائق المجردة هنا فى المنطقة ـــ أى وجهة النظر الاخرى ـــ حتى يستطيعوا ان يقرروا لانفسهم » .

ولقيت الزيارة الوشيكة الوقوع صدى فى نفس بيجين وتقديره لذاته وفى احساسه المعيب للتاريخ . فهذه المحادثات من شأنها أن تبرهن لاولئك الذين تساورهم الشكوك على أن حكومته تسير فى الطريق السليم « وأشار فى الخطاب الذى أدلى به أمام اللجنة المركزية لحزب حيروت الى أنه يتوقع دعوة مقابلة لزيارة العاصمة المصرية وقال .. هناك تبادلية فى هذه الامور ، وبمشيئة الله سأزور القاهرة فى يوم من الايام ، وسأشاهد أيضا الاهرام . وعلى أية حال ، فاننا ساعدنا فى بنائها » . واحتاج رئيس الوزراء الى ثمانية عشر شهرا من الديبلوماسية فقد اقتنع بأن أبناء اسرائيل لم يبنوا الاهرامات .

ان مبادرة السادات لم تولد من فراغ ، فقد ساعد فى مولدها حاكمان من طرفين متضادين على المسرح الدولى وهما رئيس شيوعى وملك عربى ، ففى شهر أغسطس ، بعد عودته من واشنطن ، قام بيجين بزيارة رسمية الى رومانيا ، وهى الدولة الوحيدة من دول الستار الحديدى التى احتفظت بعلاقات دبلوماسية مع اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ . وقد قضى ثمان ساعات فى اجتماع مغلق مع نيقولاى شاوشيسكو ، زعيمها المتشدد وان كان مستقلا فى رأيه . وذهب السادات وراء بيجين الى بوخارست ، وكان يتوق لسماع انطباعات شاوشيسكو عن رئيس الوزراء الاسرائيلى الجديد . وهل هو متعصب كما يبدو ؟ واكد له شاوشيسكو بأن بيجين يريد حلا . والح السادات على السؤال القائل « هل بيجين أمين وهل هو زعيم قوى بدرجة تمكنه من العطاء ؟ وكان رد الرئيس الرومانى على السؤالين هو أجل » .

وكان ذلك كافيا بالنسبة للسادات ، الذى كان مصمما على كسر سلسلة حروب الشرق الاوسط . وكان لديه أسبابه القوية التى تدعوه لتقوية

الروابط الدبلوماسية والاقتصادية مع الولايات المتحدة ، الراعى التقليـــدى لاسرائيل ٠

وقام الرئيس الشيوعى بدوره ، وجاء الآن دور الملك العربى ٠ لقد كان الملك الحسن ملك المغرب رئيس الدولة العربى الأكثر قبولا لفكرة اجراء حوار مع اسرائيل ٠ وزاره اسحق رابين ، بصفته رئيسا للوزراء متنكرا باستخدام شعر مستعار ونظارة شباب ٠ وفى شهر سبتمبر ، بعد جلسة تمهيدية مع ممثل كبير للموساد وهو جهاز المخابرات ، وجه الملك دعوة الى موشى ديان لزيارة القصر الملكى فى مراكش ٠ وبناء على طلب من وزير الخارجية ، أرسل الملك الحسن رسالة للقاهرة تقترح عقد لقاء مصرى اسرائيلى على مستوى عال ٠ وفى غضون أربعة أيام من عودة ديان الى القدس ، جاء الرد بأن المصريين على استعداد لذلك ٠ واقترحوا عقد اجتماع اما بين السادات وبيجين أو بين حسن التهامى نائب رئيس الوزراء المصرى فى ذلك الحين وموشى ديان ٠ وعلى الرغم من التحفظات التى أبداها ديان ، فان بيجين كان مستعدا للتوجـــه فورا الى اجتماع القمة ، الا أن المصريين فى ذلك الحين أعادوا النظر فى الموضـــوع ٠ واستقر الرأى على اجراء المحـــــــادثات بين ديان والتهامى فى الرباط يوم ١٦ سبتمبر ٠

وبالرغم من أنه كان من المفترض أن تكون تلك المحادثات سرية ، فقد كان الأمريكيون على علم بها من خلال المغرب فيما يبـــدو ٠ وتوقف وزير الخارجية فى أوروبا وهو فى طريقه للولايات المتحدة ، واختفى فى بروكسل وانطلق بطريق البر الى باريس ثم بطائرة خاصة الى المغرب ، بعد أن وضع شعرا مستعارا وشاربا ونظارة شمسية على عينيه طوال الطريق ٠ أما مسز راشيل ديان ومساعد وزير الخارجية فقد اتجهوا الى نيويورك على متن الطـــائرة (سابينا) واعتذروا للطيار هنرى ليفى الذى كان قد تم انقاذه من الطـائرة سابينا المختطفة فى مطار اللد فى عام ١٩٧٢ عندما كان ديان وزيرا للدفاع وكان يتطلع لمكافأته على ضيافته ٠

وعلى الرغم من احترام كافة المجاملات ، فان النجاح لم يحالف مؤتمـــر الرباط ٠ وقال التهامى أن السادات وافق على فتح حوار مع اسرائيل ، الا أنه لن يجتمع مع رئيس وزراء اسرائيل ويصافح يده الا بعد أن يقبل بيجين مبدأ الانسحاب الكامل من الاراضى المحتلة ٠ وكان الانسحاب الاسرائيلى هو المشكلة الأساسية ، وكان يشمل كما حدث قضايا السيادة والشرف الوطنى وبقـــاء السادات فى السلطة ٠ وكان ديان فاترا ولكن غير ملتزم وكان عليه أن يرد على رئيس الوزراء ٠ وعلى نحو كان متوقعا ، عندما فعل ذلك ، رفض بيجين تقديم أى تعهد بالانسحاب الشامل ٠ والتزم التهامى بقوله ، وهـــو مسلم متشدد لايشعر بالمودة تجاه اسرائيل ٠ وأبلغ ديان بأنه لن ينعقد أى اجتماع

للقمة حتى يجلو آخر جندى اسرائيلي من الأرض العربية • وتقرر اجراء جولة ثانية من المحادثات بين ديان والتهامي بمجرد أن يتلقوا تعليمات جديدة من القدس والقاهرة • الا أن السادات لم يكن لديه صبر على الديبلوماسية السرية البطيئة • وكان يشعر بضيق تجاه التفاصيل وبعدم اكتراث تجاه البروتوكول• وكان عرضه الخاص بالذهاب الى القدس ضربة نموذجية كبيرة ومذهلة اجتازت حاجز الشك التاريخي وأعلنت التحدى بجرأتها وبساطتها • الا أنه أيا كانت توقعاته ، لم يكن بمقدور هذه المبادرة وحدها تبديد نسبة السبعين فى المائة التى تمثلها الأسباب النفسية فى الصراع العربى الاسرائيلي بل انها فجرت بالكاد نسبة الثلاثين فى المائة التى تمثلها الاسباب المادية •

وبالنسبة لمعظم الاسرائيليين كانت زيارة السادات خيالا تحول الى حقيقة وعندما وصل الى مطار بن جوريون بعد انتهاء السبت اليهـــودى يوم ١٩ نوفمبر عام ١٩٧٧ ، كان مضيفوه ما زالوا يمزحون حول استحالتها وارتجالها نقل قائد فرقة موسيقات الجيش النشيد المصرى من اذاعة القاهرة • وقام صانع الاعلام فى القدس بصناعة المئات من الاعلام المصرية ذات اللون الاحمر والابيض والاسود • وقام احد اصحاب المطابع بتقديم ملصوق تذكارى باللغة العبرية والعربية والانجليزية مكتوب عليه كلمة «السلام» وتنافست أشهر وأرقى فنادق القدس الثلاثة على ارضاء زبائنهم المصريين والتشريف بهـــم بحللهم الملكية (وكانت من طراز الملك داود) وأعلن وكيل احدى المنشآت عن مبنى فاخـــر مكون من أربع عشرة حجرة • فى مكان مناسب وبشروط يمكن التفاوض حولها يصلح لان يكون مقرا للسفارة المصرية وعرضت « متاجر السلام » المعـروفة تخفيضا قدره ١٠٪ على جميع المبيعات من متاجرها •

وأعلن مذيع التليفزيون وهو يلهث فى مكبر الصوت بينما كان الرئيس المصرى ينزل درجات سلم الطائرة بيونج ٧٠٧ ان عهدا جديدا قد بدأ « • وردد أحد مذيعى الراديو « اننى أراه ولكننى لا أصدقه » وكانت جولدا مائير واقفة بين علية القوم الذين جاءوا لاستقبال السادات • وقال لها السادات « سيدتى» لقد انتظرت طويلا مترقبا لحظة لقائك • وردت السيدة البالغة من العمر ثمانين عاما والتى صلت ودعت فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ أن يأتى اليوم الذى ينتبه فيه أحد القادة العرب ويحزن على موت شباب بلاده وسقوطهم فى ســـاحة القتال « وأنا انتظرت طويلا مترقبة لقاءك • وها قد حان الوقت وها أنا فى انتظارك « وتوقف الرئيس لحظة ثم بدأ يصافح المستقبلين وانغمر فى مناقشة حية مع آريل شارون الجنرال الذى تحول الى رجل سياسة وهو الذى غير مجرى حرب يوم الغفران بعبوره قناة السويس • وكان رئيس الأركان جنرال موردخاى جور قد حذر الأمة فى مقابلة صحفية أثارت جدلا كثيرا من أن يكون السادات

قد خطط لشن هجوم مفاجيء تحت ستار زيارته لاسرائيل : وقال قد تكون العملية كلها مجرد خدعة • وعندما قدموه للسادات ابتسم السادات وقال « اننى لم أكن أخادع »ووقف الرئيسان كاتزير رئيس دولة اسرائيل والسادات رئيس مصر وكتفاهما متلاصقان والى جانبهما وقف مناحم بيجين بينما أخذت فرقة الموسيقى تعزف النشيدين الوطنيين للبلدين وفيما بعد أخذت المدفعية تطلق ٢١ طلقة تحية للضيف • وتقدمت المسيرة الى القدس ثمانى عشر حمامة بيضاء أطلقت فى الجو ووقف ما يقرب من ٢٠٠٠٠ اسرائيلى وقد غمرتهم البهجة يستقبلون الموكب عند أبواب العاصمة بالخبز والملح وأناشيد السلام • وأخذت الأجراس تدق بينما اقترب موكب سيارات الليموزين من فندق الملك داود وأخذت حشود أخرى من الجماهير تنشد باسم السادات • وبعد ما آثاره وصول السادات من المشاعر • وبعد جولته صباح يوم الأحد فى المدينة القديمة وأدائه صلاة الظهر فى المسجد الاقصى كانت الكلمات التى ألقيت فى الكنيسست هى قمة هذا الحدث • وبالرغم من التوقعات التى سادت المجلس الذى ازدحم بأعضاء البرلمان السابقين والحاليين وبالدبلوماسيين وبالمحررين ومراسلى الصحف فقد أوضح السادات وبيجين للحاضرين ولكل من استمع اليهما فى أرجاء العالم أن السلام لن يتحقق عن طريق الخطب وما لم يعتزم أى من الزعيمين أى شيء غير عادى بصورة كافية يمكن أن يحفز الطرف الثانى على تغيير موقفه • فقد كان السادات مصرا على أن يحقق السلام بشروط مصرية • ولم يكن بيجين بأقل منه فى شروطه الاسرائيلية واذا ما حكمنا على أداء الاثنين وممارستهما فى العلاقات الدولية نجد ان السادات قد ربح بسهولة مدهشة • فقد بدأ متحديا ومرحا • وهكذا أخذت اسرائيل موقف المدافع • وكان بيجين متعبا ولم يقل شيئا غير متوقع • وهذا شأنه دائما حيث لا يكون فى أحسن حالاته عندما يلقى خطابا رسميا • فهو لم يقدم اى فكرة جديدة ، وليس هذا فحسب بل انه لم يجد كلمات جديدة للتعبير عن الافكار القديمة •

وفى خطابه الذى القاه باللغة العربية والذى استغرق خمسا وخمسين دقيقة عبر السادات بأسلوب اكثر دقة من ذى قبل عن استعداده لقبول اسرائيل كحقيقة واقعة فى حياة الشرق الاوسط . وقال : « اننا نرحب بكم لتعيشوا بيننا فى سلام وامن . ولكى يتم تحقيق السلام مع العدل اقترح قيام حدود آمنة ضد العدوان وأية ضمانات أخرى دولية قد ترغب اسرائيل فيها • وفى مقابل ذلك تلا السادات قائمة كاملة بالمطالب العربية باستثناء ملحوظ وهو اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . وأصر السادات وهو يجفف العرق من على جبهته والجزء الاصلع من رأسه على الانسحاب الاسرائيلى الكامل من الاراضى العربية التى تم احتلالها بالقوة بما فى ذلك القدس . بالارض ليست قابلة للتفاوض انه لن

يتنازل عن بوصة واحدة أو حتى مجرد قبول مبدأ المساومة حـــول الارض . وينبغي أن تكون القدس مدينة حرة ومفتوحة لجميع المؤمنين . وينبغي الا يحرم منها أولئك الذين اعتبروها موطنا لهم لعدة قرون . وفوق ذلك أكد الرئيس المصرى أنه يوقع اتفاقية سلام مصرية ـ اسرائيلية منفصلة وكذلك فانه لن يتفاوض على ترتيب جزئي آخر سوف لا يكون من شأنه سوى تأجيل الوصول الى حلول حقيقية وبالرغم من تجاهله لمنظمة التحرير الفلسطينية الا أنه وصف المشكلة الفلسطينية بانها لب وجوهر النزاع . وأكد قائلا أنه سوف يكون خطأ خطيرا تجاهل الحقوق الفلسطينية الخاصة بحقهم فى اقامة دولة وفى حقهم فى العـــــودة .

وقاوم بيجين كل اغراء بالتفاوض من فوق هذا المنبر . وقال أحـــد السفراء الغربيين وكان حاضرا هذه الجلسة أن الامريكيين قد حذروا رئيس الوزراء الاسرائيلى من الانزلاق الى هذا الموقف . واعلن بيجين عن رغبته فى قيام سلام حقيقى يتضمن تسوية كاملة بين الشعب اليهودى والشـــعوب العربية دون الانزلاق فى ذكريات الماضى . وعلى اية حال فانه قد عرض على السادات دراسات التاريخ اليهودى الحديث مشيرا الى مغزى مذبحة حرب الاستقلال عام ١٩٤٨ والتى قال عنها انها فرضت على اسرائيل الضعيفة بواســـطة جيرانها العرب الأقوياء وأردف يقول : « ان الجيل الذى تعرض للابادة قد أقسم على الا يعرض الشعب اليهودى مرة اخرى للخطر . وقال رئيس الوزراء أن السادات يعلم أن مواقفهما من مسألة الحدود مواقف مختلفة متباينة ولكـن لا يعنى هذا أنهما لا يستطيعان التفاوض . واقترح أن يتفاوضـــا على كل موضوع خلاف والا يضع أى من الطرفين شروطا مسبقة وقال « اننا سـوف نتفاوض كانداد . فليس بيننا مهزوم ومنتصر » .

وبناء على مبادرة من بيجين تصافح الزعيمان فى نهـــاية خطاب رئيس الوزراء الذى القـــــاه بالعبرية والــذى اســـتغرق أربعين دقيقة . ولكن كان هناك شعور بخيبة الامل بين الصحفيين وبين أعضاء المجلس . وربما ما كان ينبغي توقع حدوث معجزات . وبدلا من حدوث معجزات فقد تم تحديد الخطوط الفاصلة للسلام . وفى مؤتمر صحفى مشترك فى اليوم التالى انهى السادات زيارته . بان وضع المسئولية والعبء كله على أكتاف بيجين قائلا :

« ادعو الله ان يرشـــــد خطوات رئيس الوزراء بيجين وخطوات الكنيست ، ذلك لاننا فى حاجة ماسة لاتخاذ قرارات صعبة وحاسمة . وانما قد حملت نصيبى بالفعل بقرارى الحضور الى هنا وانى فى انتظار القرارات التى سوف يتخذها رئيس الوزراء بيجين وكذلك الكنيست » .

واصبح هذا يتردد كثيرا على السنة المصريين . فلقد قدم الرئيس التنازل الاكبر بذهابه الى القدس وبالاعتراف باسرائيل مغامرا بحياته فى مصر وفى العالم العربى كله . واليس هذا هو غاية ما كان يطمع ويتوق اليـــه الاسرائيليون دائمــــــا ؟ والآن قد حان الوقت لمقابلة ذلك بالمثل . وعلى أية حال فانه من الصعب الاعتقاد بـــان الســـادات كان يتوقع احراز نصر بسهولة هــذا فضـــلا عن وجود عنصر التمثيل فيما اقدم عليــه . ولم يكن يؤخذ فى الخارج على محمل البراءة . وهو لم يكن بأقل من بيجين فى سجله التآمرى . وبالرغم من انه يكره ويمقت التصرف المكتوب والمخطط الا انه ماكان لينطلق فى تصرفه بناء على وحى الســـاعة فكل مبادراته ابتداء من عبور أكتوبر ثم توجهه الى القدس انما هى قائمة على الحسابات . وكان محقا فى توقعه من حدوث استجابة اسرائيلية كريمة وهى المقابل الذى يمكن أن يلوح بها فى وجوه منتقريه من العرب ولكن بعد ثلاثين عاما من الحرب فانه سيكون من السذاجة توقع انهيار الجدران امام اول نفخه فى النفير .

وكان بيجين ، شأنه شأن معظم الاسرائيليين يذكر تاريخ السادات المتعدد الالوان . فهذا نشاطه المؤيد للنازية اثناء الحرب العالمية الثانية ، وهــذا دوره فى الثورة الناصرية ضد الملك فاروق ، ثم شنه حرب يوم الغفران . لكن بيجين استبعد عداءه الغريزى ضد الزعيم المصرى الا عندما كان يشعر بأن السادات يلعب لعبة قذرة . ففى اجتماعاته الخاصة مع رجاله كان يسمح لكراهيته بالظهور فكان يقول « أن السادات كاذب » وكان بيجين يميل الى احتقار العرب بصفة عامة ولذلك فانه كان يحتقر السادات بصفته عربيا . ولكن فوق هذا كله فان بيجين يدرك ان السادات يريد السلام وانه ركب المخاطر من أجل ذلك . ولقد لخص يحيل قديش موقف رئيس الوزراء بأنه موقف «الاحترام والشك » وفى احدى المناسبات عندما حثه احد اصدقائه بان يفتح عينيه على السادات المراوغ والمخادع اجاب قائلا : « لقد وهبنا الله القدير عقولا نحن أيضا » . وكان بيجين يصدق دعايته هو نفسه حول تعرض اسرائيل للخطر . وكان مصرا على الا يتخذ اية خطوة قد تعرض الدولة اليهودية للخطر . وحتى لو كان بيجين لايشارك جنرال جور فى شكوكه العميقة الا انه لم يكن على استعداد ليأخذ صداقة السادات بثقة تامة . لكن كان الزعيم المصرى عــدوا لفترة طويلة . وكان بيجين فى حاجة الى دليل عملى على حسن نية السادات . وهو ايضا لم يكن يحب أن يبتعد كثيرا عن خلصائه فى حزب حيروت الذين آزروه فى حملته ضد حكومة العمل حول اتفاقيات سيناء . لقـــد كانوا فى حاجة الى التاكيد وكانوا فى حاجة الى الوقت لكى يلحقوا ببيجين . وفوق ذلك كله فان بيجين كان مصرا على الا يقع فى شرك سلام شامل قد يؤدى الى اعادة تقسيم ارض اسرائيل انه كان يريد السلام ولكن ليس على حساب كل شىء حارب من

أجله في الانتخابات وفي الحكومة · ان السلام مع مصر له جاذبية خاصة لعدة أسباب . فمصر اكبر دولة عربية وأكثرها قوة . وبدون مصر فلن يستطيع العرب شن حرب . ان سيناء على عكس الضفة الغربيه وقطاع غزة يمكن التخلى عنها طالما امكن الابقاء عليها خالية من القوات المصرية والمطارات العسكرية . هذا وكان بيجين يأمل في التوصل الى وسيلة يمكن بها الاحتفاظ بالمستوطنة اليهودية وبالرغم من احتجاجات السادات ضد ذلك وبالرغم من تشاؤم ديان تفاوضت اسرائيل على افتراض ان مصر سوف تكون قانعة بتحقيق سلام منفصل . ان كل ما يريده السادات وكان يسعى اليه هو استعادة أرضه السليبة ومساعدة امريكية فى حل مشاكل مصر الاقتصادية الرهيبة . فاذا ما كان السادات فى حاجة الى دليل يقدمه على انه لم يتخل عن الفلسطينيين فان بيجين سوف يحاول ان يقدم له هذا الدليل .

وبهذه الروح توجه بيجين الى الاسماعيلية فى أعياد الميلاد سنة ١٩٧٧ فى اول زيارة له لمصر وثانى قمة مع السادات . واذا كان الاسرائيليون قد توقعوا استقبالا حارا وتلقائيا فى مدينة القناة كالذى استقبل به السادات فى القدس فانهم سرعان ما اصيبوا بخيبة أمل · لقد تاججت المشاعر فى طائرة العال ٤٤٧ التى انطلقت من مطار بن جوريون عندما أحاطت احدى المضيفات بذراعيها برقبة بيجين وقد انفجرت فى البكاء . لقد كان زوجها قد سقط صريعا على الجبهة المصرية فى حرب سنة ١٩٧٣ لكن المناخ فى مطار أبو صوير العسكرى كان باردا بصورة واضحة فلقد أرسل السادات بنائبه حسنى مبارك لاستقبال الجانب الاسرائيلى . ولم تكن هناك اعلام ولا موسيقى ولا اناشيد . وعند الوصول الى الاسماعيلية سمع عزرا وايزمان رفيقه ديان وهو يهمس لبيجين « أنظر ليس هناك علم واحد اسرائيلى وليس هناك لافتة واحدة ترحب بقدومنا » وعلى نقيض ذلك كانت الاسماعيلية تعج بالصور واللافتات والملصقات والاعلام واقواس النصر ولكنها تمجد مصر ورئيسها وليس هناك اى مظهر لنجمة داود او اية صورة لبيجين ، وليس هنك اى ترحيب بالانجليزية او العبرية . هذا النمط الواحد اخذ يكرر نفسه طوال أشهر المفاوضات . ولكن الاسماعيلية قد صدمت الاسرائيليين اكثر من اى استقبال آخر . ذلك لانها كانت اول بلد عقد فيها اجتماع على مستوى الوزراء · وكان المصريون العاديون وسائقو التاكسى والجرسونات وأصحاب المحلات التجارية كرماء ولطفاء وكانوا يقابلون الاسرائيليين بكلمة سلام ــ وشالوم العبرية · ولكن مصر ظلت مجتمعا مغلقا

وقال احد محررى الصحف العربية ان السلطات كانت تسعى الى اقامة صلح دنيوى يرضى العقل ولا يرضى النفس وكان السادات لا زال يرمى ببصره الى العرب والى العالم الثالث ولقد ادهشه الا تقف الى جانبه اكثر الدول العربية اعتدالا مثل الاردن والعربية السعودية بعد زيارته للقدس . وقال

بطرس غالى وزير الدولة المصري للشئون الخارجية ان هذا قد انعكس على موقف السادات الشخصى تجاه بيجين .

ان اولى الاتصالات بين السادات وبيجين لم تكن بالامر السهل . ان الاتصال الجيد هو الذى تحقق مع عزرا وايزمان فقط . انه كان الوسيط بين بيجين والسادات . وحتى لحظة توقيع معاهدة السلام فى مارس ١٩٧٩ لم تكن العلاقات بين بيجين والسادات طيبة . وبعد توقيع المعاهدة بدأ السادات يثق فى بيجين ـــ لكنك فى امكانك ان تثق بدون اية عواطف ـــ وكان هناك دائما تحفظ فى علاقاتهما .

وبعد بدايتين زائفتين على مستوى أقل حاول بيجين فى الاسماعيلية ان يأخذ المبادرة من اجل اسرائيل . لقد حصل السادات على تقدير العالم كله وخاصة فى الولايات المتحدة حيث رحبت ادارة كارتر بأخلاصه وصراحته الواضحة وجاذبيته وتعقله . وبدت اسرائيل وضيعة التفكير ومتمسكة بالنظريات . ورد بيجين على ذلك بمشروع سلام اسرائيلى كان يأمل فى ان يكون جذابا بنفس المستوى . وفى سيناء اقترحت اسرائيل انسحابا اسرائيليا مرحيا ومتوازنا بعملية نزع للسلاح على ان تبقى المستوطنات اليهودية فى نتوء رفح وان يظل الجيش الاسرائيلى مسئولا عن الدفاع عنها . اما فى الضفة الغربية وقطاع غزة فان العرب الفلسطينيين الذين عاشوا فى ظل الحكم الاسرائيلى منذ سنة ١٩٦٧ سوف يمنحون « حكما اداريا ذاتيا » فى ظل مجلس منتخب . وتحتفظ اسرائيل بالسيطرة على الامن والنظام العام وان يكون المواطنون الاسرائيليون احرارا فى اقتناء الأرض والاستيطان فى هذه الأراضى . ونصت المادة ٢٤ على تمسك اسرائيل بحق السيادة هناك . ولكن لما كانت هناك مزاعم أخرى بهذا الحق فان اسرائيل تقترح ترك هذه المسألة مفتوحة واقترحت المادة السادسة والعشرين الأخيرة مراجعة الاتفاقية كلها بعد خمس سنوات . ولكن فى المناقشات التالية التى جرت بين الامريكيين والمصريين اتضح ان بيجين يعتبر هذا الحكم الادارى الذاتى ترتيبا نهائيا وليس مرحلة انتقالية مؤدية للاستقلال وهذا هو كل ما يمكن ان يطمع فيه الفلسطينيون .

ورفض السادات الشقين من هذا المشروع الاسرائيلى واصر على عدم بقاء أى اسرائيلى ، مدنى أو عسكرى ، فى سيناء . أما بالنسبة للضفة الغربية وقطاع غزة فقد طالب المصريون بانسحاب اسرائيلى كامل وبأن يقرر الفلسطينيون مصيرهم بأنفسهم وبعدم توقيع سلام منفصل . وفى مناقشاتهما الخاصة قال السادات لبيجين : « لا أستطيع أن أوافق على تسليم بوصة واحدة من الاراضى العربية . انها مقدسة ورد بيجين بقوله : « سيدى الرئيس اننى لا استطيع إن أتنازل عن بوصة واحدة من أرض اسرائيل ، انها مقدسة » .

وعاد ديان الى اسرائيل وهو راض لان الزعيمين لم يقطعا المحادثات ، وهو قانع أيضـا بان مصر جـادة « لقد اقلقنى كثيرا الثمن الذى تصر مصر على الحصـول عليـه منا وهـو الانسحاب الكامل من سيناء ، والالتزام بالانسحاب الكامل من الضفة الغربية ومن الجـولان وقيام دولة فلسطينية . ولقد أدركت وجود مشاعر عميقة من وراء هذه الكلمات . انهـا لمَ تـكن مجـرد كلمات تلقى . وساورنى الشـك فى أن اسرائيـل عليهـا أن تواجه بديلين كلاهما صعب فاما أن تقـدم تنازلات قوية ثقيـلة أو انهـا لا تصل الى معاهدة سـلام مع مصر » .

لقد صاغ بيجين مشروعه للحكم الـذاتى فى سرية كاملة . ففى أول الامـر أملى صيغة المشروع باللغة العبرية ثم أعـاد كتابته باللغة الانجليزية وبخط يده هو . ولمـا كانت كتابة رئيس الوزراء معروفة بعـدم الوضوح للجميع الا للقلة القليلة لذلك فقط طلب من يهـودا افنـير المتخصص فى قراءة خط بيجين أن يكتب نسخة واضحة من هذه الخطة . وحمـل بيجين هذه النسخة معه فى رحلة استكشافية لكل من واشنطن ولندن حيث حـاول أن يعرض آراءه على كل من كارتر ورئيس وزراء بريطانيا جيمس كالاهان . ولقـد وجـد كلا الرئيسـين هذه الوثيقة اسـاسا مشـجعا للتفاوض .. ولكنهما أصيبا بالاحباط والقلق عند سـماع بيجين يترجم آراءهما التى أسرا بهـا الى بيجين الى موافقة وتأييد وكانت هـذه أولى المناسبات العـديدة التى شعر فيها كارتر أن بيجين يرتكب خدعة معه . وفقط عندما وصـل بيجين الى واشنطن سمح للفريق المرافـق لـه بنسـخ الخطـة على الآلة الكاتبة .. بوساطة سكرتيرة فى السـفارة الاسرائيلية كان بيجين حريصـا للغـاية على تجنب أية مخاطرة بتسرب أى شىء ولو ضئيلا عن المشروع .

وقد كره عزرا وايزمان ، وزير الدفاع فى حكومة بيجين هذا الاسلوب الذى تنتهجه الحكومة القائمة على السرية البالغة . ولم يكن مقته لهـذا الاسلوب مرجعه الى أنه كان يترك فى الظل فحسب بل أن نقـده لهـذا الاسلوب قد يلقى ضوءا على أسلوب بيجين كرئيس للوزراء فقال .

« لا يعمل بيجين بالاشتراك مع الحكومة انما هو يعمل من خلال مكتب تابع لـه .. وزعماء على مثل هذه الشاكلة لا يحتاجون الى مستشارين . انهم يستغنون عن المستشارين المساعدين . ومثله غير قادر على أن يأخذ فى اعتباره وجهات نظر او مقترحـات لا تتطابق مع فلسفته الاساسـية . والناس الذين يعملون بالقرب من بيجـين لا يقـدمون مقترحات مختلفـة أو يقدمون سلسلة عريضة من البدائل . وهذا يعود الى تجربتهم السابقة ، تلك التجربة التى علمتهم أن مثل هذه البدائل ليست أمامهـا أية فرصـة لان تأخذ مكانها من التنفيذ . ويعود هذا أيضـا الى أن بيجين قـد اختـار

مساعديه من نمط معين من الاشخاص والهويات السياسية المعينة . انهم يفكرون كما يفكر هو . لقد تعلموا تخمين ما يريده بيجين وهم يتنافسون فى تقديم واقتراح الآراء التى يحبها بيجين ويفضلها ، وبذلك يحوزون على موافقته » .

وعلى الفور ادرك وايزمان الذى أصبح من حمائم الحكومة أن بيجين يرى فى الحكم الذاتى وسيلة لتحديد الحكم الاسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة بدلا من ان يكون أول خطوة نحو قيام دولة فلسطينية . ويقول وزير الدفاع ان هذا هو السبب الذى من أجله لا يتشاور بيجين مع أى شخص قد يحاول أن يبعده عن طريقه هذا .

وبالرغم من ان الحكم الذاتى فشل أمام أول اختبار له فى الاسماعيلية فقد ظل الاطار لجميع المفاوضات التى تلت ذلك بين اسرائيل ومصر حول المسألة الفلسطينية ولم يكن السادات راضيا عن هذا المفهوم برمته ولكنه لم يتقدم بأى بديل قد يهيىء فرصة للتوصل الى حل متفق عليه وكذلك لم يفعل الامريكيون . لقد نجح بيجين فى تحديد شروط الحوار .

وتدهور العلاقات بين اسرائيل وكل من مصر والولايات المتحدة فى الاشهر الثمانية الاولى لعام ١٩٧٧ من سيىء الى أسوأ . ونظرا للهوة بين دولتى الشرق الاوسط أصبحت أمريكا شريكا فى المفاوضات لا غنى عنه ولا بديل له . وصمم بيجين بانه الطرف السيىء وانه « عقبة فى سبيل السلام » لكنه لم يتزحزح عن موقفه الاساسى . وقال بيجين للجنة المركزية لحزب حيروت فى شهر يوليو : « أعتقد أننى عقبة حقيقية — ولكننى عقبة فى طريق الاستسلام — الى جانب رفاقى فى الحكومة وفى الكنيست وفى الحركة » . ووعد منتقديه فى حزب حيروت وكذلك مؤيديه فى الحزب بأن مشروع اسرائيل للسلام سوف يفتح الآفاق أمام السلام والامن واستقرار أرض اسرائيل .

وعندما فاز بيجين فى انتخابات سنة ١٩٧٧ أدركت واشنطن موقفه المتطرف من مسألة الارض ، ولكن وزارة الخارجية الامريكية كانت تميل الى التقليل من مدى التزامه بأرض اسرائيل التى تمتد من البحر الابيض الى الاردن ويقول هارولد سوندرز مساعد وزير الخارجية الامريكية السابق لشئون الشرق الاوسط ان وزارة الخارجية تلقت المشورة من اناس يعرفون أن بيجين يمكن أن يكون أيضا سياسيا براجماتيا (عمليا) . وقد أوضح سوندرز ذلك بقوله :

« لقد تم اقناعنا باننا نستطيع أن نعمل معه ، واننا لن نتوقع بالضرورة الاصطدام بحائط صخرى من الايديولوجية . اننا كنا نعرف انه حازم فى وجهة نظره وكنا نعرف وجهة نظره هذه . وقد قيل لنا انه فى مناسبات

سابقة فى الحياة السياسية الاسرائيلية قد أدرك الحاجة الى تغيير وجهة نظره فى مواجهة الرياح السياسية العاتية واعتقد اننا لم نتبين على التو الاختلافات بينه وبين الحكومة السابقة والمصاعب فى زحزحة بيجين » .

وقد استطاع ويم كاندت مستشار كارتر للامن القومى لشئون الشرق الاوسط أن يرى بثاقب وبعد النظر قوة بيجين فى معرفته لما يريده ومعرفة مدى استعداده لان يدفع مقابل ما يريده . فقد قال :

« يتميز بيجين بأشياء لا تجدها عادة فى السياسيين انه يتميز بوضوح ادراك — لما يريد أن يفعله وكذلك ادراك للحقائق السياسية وكيفية التعامل معها . انه يعلم ان عليه أن يناور . وفى بعض الاحيان كان عليه أن يؤجل المناورة ولكنه لم يفقد قط وضوح رؤية هدفه . انه كان يعرف دائما الى أين هو سائر ، ولكنه كان قادرا تماما على التكييف التكتيكى من حين لآخر لقد كنت دائما اذهل من كفاءته السياسية اذا ما أخذنا فى الاعتبار أكذوبة الارض وأيضا القوى التى كان عليه أن يتعامل معها .

ومن الامثلة على قدرته على المناورة صراحته الواضحة فيما يتصل بالضفة الغربية أثناء محادثاته مع كارتر فى ديسمبر سنة ١٩٧٧ عندما كشف عن مشروعه الخاص بالحكم الذاتى . لقد كتب الرئيس كارتر فى مذكراته : « بدأ بيجين اكثر ليونة مما كنت أتوقع ولكننى اكتشفت ان كلماته الطيبة لها العديد من المعانى الامر الذى لم يدركه مستشارى ولا أنا فى ذلك الوقت » . واشتكى المصريون من أن بيجين قد أدخل الايديولوجية فى المفاوضات . ولقد انزعج بطرس غالى من براعته فى التحول من النهج القانونى الى المنهج الجدلى وغير من ذلك بقوله :

« يتفاوض بيجين كما لو كان محاميا . انه مزيج من المحامى والبرلمانى البارع . انه يستطيع أن يمزج ما بين الجدل القانونى والجدل الديماجوجى وأيضا الجدل الايديولوجى . ويستطيع أن ينتقل من مجال الى آخر طبقا لاستراتيجيته الخاصة فاذا ما وجد نفسه ضعيفا فى المناقشة القانونية فانه يقفز الى المنهج الديماجوجى أو الايديولوجى ولقد اعتاد على هذا النوع من المناقشة البرلمانية فهو مجادل جيد . وهو يستخدم نفس التكتيك فى المناقشة الخاصة كما فعل على منبر الكنيست » .

ومن الصعب القول بما اذا كان هذا الاسلوب أسلوبا محسوبا ومسيطرا عليه ، وما اذا كان متطابقا مع عواطف حقيقية أو مشاعر دينية . وليس ذلك هو الحال مع عزرا وايزمان أو مع رجل دين مثل يوسف بورج (وزير الداخلية وزعيم الحزب الدينى القومى والذى ترأس الفريق الاسرائيلى للحكم الذاتى) . فلا تراودنا نفس المشاعر . فلدى بورج وبيجين نفس المزيج من العقيدة الدينية

والصهيونية . وكل منهما رجل دين . لكن بيجين بفضـــــل المنهج الدرامى والمسرحى .

لم يدرك المصريون بسرعة أن ايديولوجية بيجين ليست نسيجا خارجيا طعم بها بل هى جذع الشجرة ذاتها . فالرجل هو الايديولوجية ، والايديولوجية هي الرجل وعندما سأله مراسل « البى بى سى » المخضرم مايكل الكنز كيف يريد أن يذكره التاريخ أجاب بيجين : « على أننى الرجل الذى رسم حدود أرض اسرائيل والى الابد » . لم يكن هذا طموحا اكتشفه فى شيخوخته . فمنذ صباه فى بولندا عاش بيجين فى دير حركة جابوتينسكى الثقافى والفكرى . ولم يكن له حماس خارجى مثل شغف ديان بعلم الحفريات . ولم يكن له تاريخ منفصل من تاريخ وايزمان فى القوات الجوية أو تاريخ يعقوب مريدور فى المهام الخارجية . لقد كان بيجين سياسيا طوال الاربع والعشرين ساعة من اليوم . ويستطيع أن يكون مرحا ولكنه نادرا ما يكون مسترخيا. ان اجتماعاته ونزوعه الى العيش مع الآخرين انما هو نتاج مهنته التى تملى عليه أن يكون مترقبا ويقظا ذلك أن النضال كان شغله الشاغل وبدرجات متفاوتة من الطلاقة يعرف بيجين تسع لغات هى العبرية والابيدشية والبولندية والروسية والانجليـــــزية والالمانية والفرنسية والاسبانية واللاتينية وفى شبابه كرس نفسه لدراســـــة الآداب الكلاسيكية الاوروبية.وفى مرة أرسل برقية الى زوجة الرئيس السادات يصحح لها سوء اقتباسها من مسرحية الملك لير (لشكسبير) ولكنه قرأ قليلا ولم يقرأ شيئا البته فى الادب الحديث بعد ابسن . وفى سنوات المعارضة كان يجب أن يقرأ فى التاريخ والتراجم . ولكنه هجر الكتب تماما عندما أصبح رئيسا للوزراء. وان كان قد قرأ مذكرات كيسنجر ونيكسون وهو فى المستشفى .

وهو يتصفح معظم الصحف العبرية وكذلك ما يقرب من نصف دستة من الصحف الامريكية والاوروبية . وقبل أن يصبح رئيسا للوزراء كان يذهب مرتين فى الاسبوع الى السينما خاصة لمشاهدة الافلام الغربية . وكان يتسلل الى مقعده فى السينما بعد اطفاء الانوار وكان يتسلل خارجا قبل أن تضــــاء الانوار ايذانا بانتهاء العرض . وهو مولع بالاذاعة والتليفزيون وكان مسلسل دالاس من العروض المفضلة لديه ، بعد نشرة أخبار الساعة التاسعة . ولكنه نادرا ما يحضر حفلا موسيقيا أو يتوجه الى المسرح أو صالات العـــــروض الفنية . ويوما عندما اشترك فى اداء احدى الاغنيات قالت له ابنته حاسيا أنه أفضل فى القاء الخطب من الغناء . وهو يعيش حياة مقتصدة غير متزمته ذلك لان أى شىء فاخر أو دخل فى الطعام أو فى الزخرف فهو غريب عنه . لقد كان ببجين رجلا من جيل الصحراء بصورة لا يمكن تغييرها أو شفاؤه منها .

ومنذ الايام الاولى لمبادرة السادات تبنى الممثلون الاسرائيليون الثلاثة الرئيسيون — بيجين وديان ووايزمان — ادوارا منفصلة ولكنها مكملة بعضها

للبعض الآخر . فقد وضع رئيس الوزراء الاهداف وأسلوب الدبلوماسية الاسرائيلية وهو الذى اتخذ القرارات . أما ديان فقد كان دائم البحث والتنقيب عن تسوية الخلافات واعادة تحديد بنود الاتفاق محاولا انتزاع التنازلات من زعيمه ومقدما بعض الافكار . ولم يكن اسهام وايزمان بأقل أهمية فى الفترة التى سبقت مؤتمر كامب ديفيد ، فقد عمل على استمرار الاتصالات الشخصية . وفى أدنى نقاط المفاوضات ظل وايزمان هو الاسرائيلى الذى كان فى امكان المصريين التحدث معه . وهو الاسرائيلى الذى اقنع السادات بأنه لا زال فى الامكان التوصل الى السلام . وكان وايزمان أول اسرائيلى باستثناء بيجين ، قابله الرئيس المصرى على انفراد أثناء زيارته للقدس . وقد قال السادات لرئيس الوزراء بيجين : « اننى أحب عزرا » وقد مضت عدة شهور بعد ذلك قبل أن ينطق اسمه (عيزر) بصورة صحيحة .

وكان ديان ووايزمان مصرين تماما على الا يدعا فرصة السلام هذه تفلت من أيديهم . وبالرغم من أن وزير الدفاع كان عضوا فى حزب حيروت الا أن اخلاصهما لرئيس الوزراء ولمبادئه ومثله لم يكن بالاخلاص الذى لا حدود له . وكان هذا ميزة وايضا نقيضة فى نفس الوقت . لقد مكن هذا من تحقيق نوع من المرونة ولكنه فى نفس الوقت كان تحذيرا لرئيس الوزراء لان يحكم قبضته عليهما .

لقد كان ديان يحظى باصغاء الامريكيين له أما وايزمان فقد كان على صلة طيبة بالمصريين . وكان سيروس فانس يشعر بالقلق ازاء غليان وحماس وايزمان الشديد وقد قال :

« ان عيزر رجل شديد الجاذبية ، وشديد الحماس وكفء الا انه ينزع الى أن يكون شديد التفاؤل بصورة مبالغ فيها انه لا يواجه الحقيقة بصورة كافية . وهذا مالاتستطيع أن تتهم به ديان . فديان يستطيع أن يرى كل المآزق والشراك . وأحيانا ما يجرف وايزمان الحماس ولذلك فاننى كنت أشعر براحة أكثر عندما انتزع شىء من ديان ذلك لانك تشعر بأنه يرى الحقيقة المجردة القاسية . ولم اكن لاشعر بهذا الشعور مع عيزر . أننى شديد الميل الى عيزر وأنا متأكد انه وزير دفاع رائع ولكن ليست لديه الطاقة التى لدى ديان » .

وفى مجلس الامن القومى قال وليم كوانت عن ايزمان أنه نافد الصبر فى مواجهة مجادلات بيجين الشرعية والقانونية وفى مواجهة ما كان يقوم به بيجين من صياغة واعادة صياغته للاتفاقية . لقد كان وايزمان يتوق الى التوصل الى اتفاق . وكما قال كوانت انه كان مستعدا لان يقول فى أى لحظة من لحظات المحادثات : « دعونا نوقع ونخرج من هنا » .

لكن أحد كبار الدبلوماسيين الامريكيين ، الذين لا زالوا يتعـــاملون مع مشاكل الشرق الاوسط ، ولذلك ينبغى أن يظل اسمه مجهولا ، قد قال ان السلام ما كان ليتحقق بدون اشتراك هؤلاء الاسرائيليين الثلاثة .

« لقد كان اسهام وايزمان هو منع الاحباط الذى كان يشعر به المصريون وخاصة السادات من دبلوماسية بيجين ومنع الغليان بحيث لا تدمر عمليـة السلام . لقد نجح المرة تلو الاخرى فى الحفاظ على استمرار العـــلاقات الشخصية بين القادة الاسرائيليين والمصريين واعطائهم الامل فى الاستمرار حتى بعد أن يكونوا قد فقدوا كل امل » .

ونادرا ما كان المصريون يشعرون بالراحة فى تعاملهم مع ديان . وقـال المتحدث الرسمى باسم ديان وهو نفتالى لافى : « لقد كان هنلك برود يخيم على العلاقة بين ديان والسادات منذ اللحظة الاولى التى التقيا فيها فى مساء يوم السبت من شهر نوفمبر عندما نزل السادات من الطائرة » .

لقد قال له السادات : « لاتقلق فكل شىء سوف يسر سيرا طيبا » . وفى السيارة التىاقلت ديان ود. بطرس غالى الى القدس سأل ديان بطرس غالى قائلا :

هل أنتم مستعدون لتوقيع سلام منفصل ؟ واجاب بطرس غالى : « لا » وقال ديان انه أساء فهم رد فعل العرب . ونقل بطرس غالى هذا الحوار الى السادات والى الامريكيين . وفسر الســـادات ذلك على انه يعنى أن ديان لا يثق فيه . وقال أحد مساعدى السادات ان السادات لم يكن يشعر بارتياح فى وجود ديان . فقد كان يشعر بأنه الاسرائيلى الذى لا تستطيع كسبه . لقد كان كل من السادات وديان سياسيا داهية . ولم يكن أحدهما يثق فى الآخر كثيرا . ولذلك فان ديان لم يشترك فى ذلك النوع من العلاقة المصطنعة التى قامت بين وايزمان والسادات .

ويقول بطرس غالى ان ذلك لايعود الى ذكريات المضريين لحرب ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ أو الى شهرة ديان فى المراوغة والخداع . ان ما باعد بينهما هـو ماعرف عن ديان من انه خليط من الخجل والغطرسة . ولعب وايزمان دور الوسيط بين السادات وديان وكذلك بين السادات وبيجين . ويذكر غالى قائلا :

« انه — ويقصد وايزمان — قد يقول ان ديان يشعر بالاكتئاب . فما رايكم فى دعوته على العشاء أو مارايكم فى الاتصال به هاتفيا ؟ انه قد يقول اشياء كهذه : « انتى فى وضع صعب . لقد رأنى السادات اربع مرات . وديان رجل خجول ولكنه لم يقابل السادات . « أن بيجين يكن احتراما شديدا لديان كرجل من رجال الصابرا (اليهودى المولود فى فلسطين) وكجنرال . انه ينصت لديان ويستمع اليه ولكن ليس بالقدر الكافى . لقد كان لى مع ديان محادثات طويلة

وكثيرا ما كان يقول : « لا استطيع ان اعدك بشىء فلو كنت اعمل مع بن جوريون لكان فى استطاعتى ان اعطيك ردا فى خلال ساعتين » . لكنه لم يكن قط يعقد مقارنة مع بيجين . ولكن هذه المقارنة كانت تفهم ضمنا . فالاسرائيليون يمكنهم ان يطلقوا النكات على بعضهم ولكنهم لم يتصفوا ابدا بعدم الاخلاص . ولم اشعر ان ديان كان يتفادى تعليماته . لقد كان ديان كبير المفاوضين وكان يتفاوض بقدر من الخيال . وكان محددا ودقيقا كمفاوض . ولم يعد قط بشىء لايستطيع تحقيقه . لقد كان يريد ان يحدد مايعنيه ومانقصده نحن .

لم يكن ديان بالرجل غير المخلص أو غير الوطنى ولكنه كان يدرك ان بيجين على استعداد لتقبل الفشل . ولعله يكون الوحيد الذى يدرك ذلك فى الفريق الاسرائيلى . وعندما كان السادات يضع ثمنا مرتفعا للسلام كان بيجين يقول « لا » ويتحمل النتائج وحاول ديان جاهدا ان يحد من امكانات وحدود التفاهم والقبــول ومن اساليبه المحببة ان يقنع الاخرين — مثل وايزمان أو الامريكيين — يعرض وجهات نظره وافكاره على انها وجهات نظرهم وافكارهم . ومن اساليبه كذلك وخاصة فى الظروف الصعبة ، ان يقدم صيغة وسطا بصمته الشخصية موضحا للمصريين وللامريكيين انه لا يلزم الحكومة بذلك ثم يتحدى بيجين فى ان ينكر أو يعترض على وزير خارجيته .

كان اول ناتج ملموس لقمة الاسماعيلية هو التوصل الى اتفاق بتشكيل لجنتى عمل احداهما سياسية والاخــرى عســكرية وذلك لمباشرة تفاصيل المفاوضات وبدأ عمل اللجنة السياسية بصورة ماسوية فى القدس فى السابع عشر من يناير . لقد زار الرئيس كارتر السادات فى اسوان فى اوائل ذلك الشــهر حيث اعلن عن نظرية امريكية جديدة عن المشكلة الفلسطينية . لقد قال : « ينبغى ان يكون هناك قرار حول المشكلة الفلسطينية بجميع جوانبها . وينبغى ان تعترف المشكلة بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وان تمكن الفلسطينيين وتتيح لهم الاشتراك فى تقرير مستقبلهم بانفسهم » وكانت هذه الصيغة قد وضعت بعناية كبيرة بحيث لاتثير استنكار الاسرائيليين ورفضهم . وكان أول رد فعل فى القدس هو : « اننا نستطيع ان نقبل ذلك » . ولكن بيجين اوضح ان اسرائيل لن تقبل اعلان كارتر هذا على انه غطاء لاعطاء الفلسطينيين حق تقرير المصير .

« اننا لانحوم حول الموضوع . ان تعبير تقرير المصير كما هو مفهوم فى القانون الدولى يعنى قيام دولة فلسطينية ، واننا لن نوافق على قيام هذا الخطر المميت بالنسبة لاسرائيل » .

لقد فشلت محادثات القدس منذ وصول الفريق المصرى الى مطار بن جوريون لقد رحب ديان بوزير خارجية مصر محمد ابراهيم كامل بما اسماه هو الترحيب العام المهذب المعتاد فى مثل هذه المناسبات . وبدلا من أن يرد بنفس الاسلوب اخرج كامل ورقة من جيبه وقرأ منها مطالب مصر المتشددة :

« انه لن يكون هناك سلام للارض ، ولن يكون هناك سلام مع انكار الحقوق القومية للشعب الفلسطيني وعلى رأسها حق تقرير المصير » .

وبدلا من استمرار هذا الخلاف الذى نشب فى المطار انتظر ديان حتى صباح اليوم التالى . وفى اجابة لسؤال عدائى فى مؤتمر صحفى قال من الافضل ان تنسلب مبادرة السلام من بين اصابع ايديهم بدلا من ان ينتزع امن اسرائيل وسلامتها من بين ايديهم . ان اسرائيل لن تتفاوض والمسدس مصوب الى راسها . وكان هذا امرا صعبا للغاية على المصريين لتقبله . ولكن بيجين اضاف الى هذه الاساءة فى حفل عشاء في ذلك المساء ، رغم ان رئيس الوزراء ووزير الخارجية كامل قد اتفقا سرا على وقف حرب الكلمات هذه ، فقد القى بيجين خطابا سياسيا محددا فيه الشروط التى لن تقبلها اسرائيل وهى : اعادة تقسيم القدس ، واقامة دولة فلسطينية والعودة الى حدود ماقبل سنة ١٩٦٧ . وكتب ديان فى مذكراته :

« وفى تدفقه البلاغى اساء بيجين عن غير قصد الى محمد ابراهيم كامل بوصفه اياه بانه شاب صغير وهو غير مدرك ان مثل هذا الوصف يبدو فى اذن المستمع العربى وصفا تحقيريا . وعندما جاء دور كامل ليلقى كلمته وكان مضطربا ويشعر بالاساءة التى وجهت اليه فانه بدلا من ان يقرأ الخطاب المعد مسبقا قال بتسلطة ان مكان مناقشة الموضوعات التى اثارها رئيس الوزراء هو اللجنة وليس هـذا المكان . ثم جلس ولـم يرفع كوبه فى نخب رئيس اسرائيل » .

وعلق وايزمان فيما بعد « ان بيجين كان مقتنعا تماما بانه يحمل الحقيقة فى جيبه الخلفي » . ولم يستطع بيجين مقاومة اغراء اعطاء كامل درساء فى التاريخ اليهودى ومحاضرة فى فن سياسة الدولة .

وفى مساء اليوم التالى فاجأ السادات الجميع بما فيهم وفده فى اسرائيل باستدعاء وزير خارجيته كامل الى القاهرة . وعاد المصريون على عجـــل وفى حالة من الارتباك . ولم يعرف الاسرائيليون ولا الامريكيون عندئذ ما اصاب المصريين . وجاء فى تفسير رسمى من اذاعة القاهرة ان السادات تصرف هكذا عندما اصبح واضحا من التصريحات التى ادلى بها بيجـين وديـان ان هدف اسرائيل هو تأمين التوصل الى حلول جزئية لا يمكنها ان تحقق سلاما شاملا عادلا ودائما . وفى طريقه الى مطار بن جوريون اخبر كامل ديان ان الرئيس السادات قد اساءه كلمات بيجين . وقال : « وليس مرجع ذلك ما قاله بيجين فى خطابه ولكن لانه القى مثل هذا الخطاب منتهكا بذلك الاتفاق الذى تم التوصل اليه قبل ذلك بساعات ثلاث فقط ، وهو الاتفاق الذى ارسل به كامل تقريرا الى السادات ووافق عليه السادات .

وزادت العلاقات سوءا نتيجة لموضوع المستوطنات الوهمية فى صحراء سيناء . وكان ايريل شارون وزيرا للزراعة ومسئولا مسئولية خاصة عن سياسة المستوطنات . وكان جنرالا متقاعدا يعرف شبه جزيرة سيناء اكثر مما يعرفها أحد غيره فى الحكومة الاسرائيلية ولقد حارب فى سيناء ثلاثة حروب وتقلد منصب قائد الجبهة الجنوبية . وكان بيجين يستشيره فى الشئون الاستراتيجية وشئون المستوطنات . وبينما كان رئيس الوزراء فى واشنطن فى ديسمبر سنة ١٩٧٧ اتصل به شارون تليفونيا واكد على ان تقوم اسرائيل بملء الثغرات فى خط المستوطنات الاسرائيلية فى سيناء . ففى ضوء مطالب مصر المتطرفة كان يريد ان يعزز موقف اسرائيل التفاوضى . ولقد أوضحت تجربة سنة ١٩٤٨ ان موقع المستوطنات عامل هام وحاسم فى رسم الحدود . ونفس الشىء يمكن تطبيقه اذا ما كانت اسرائيل تتفاوض للحفاظ على شريط فى شمال سيناء . وكان بيجين مقتنعا بهذا الراى . فكلف شارون بالسير قدما فى هذا المخطط . وكانت وجهة نظر وزير الزراعة شارون هى اقامة مستوطنات وهمية مكونة من برج للمياه وخندق للامن وبيوت متنقلة على عجلات وذلك فى المواقع الحساسة ودون ان يضع فيها اكثر من قوة رمزية .

وشجب وايزمان هذا المشروع عندما عرض على مجلس الوزراء فى وقت متاخر واصفا اياه بانه صورة ممسوخة سيئة لتاريخ المستوطنات اليهودية فى اسرائيل . وعلى اية حال فقد حظى هذا المشروع بالموافقة الاجماعية وبدىء العمل فيه . ولم يصدر اى بيان فى هذا الشأن ولكن اذاعة اسرائيل حصلت على هذه القصة واذاعتها . وكان المصريون والامريكيون غاضبين من هذا المشروع الذى اعتبروه محاولة لاجهاض المفاوضات . وترك شارون وحده لتحمل حدة الانتقادات وما اثارته فكرة المستوطنات الوهمية هذه من سخرية . ولم يخف بيجين دوره فى تكليف شارون بالمضى قدما فى تنفيذ هذا المشروع . وسرعان ماخبا الموضوع كله واختفى لكنه ترك مذاقا مرا . ولم تكن هذه هى المرة الأخيرة التى سار فيها بيجين خلف شارون فى حقل من الألغام . لقد كان سريع الاذعان للخبرة العسكرية وكلفه ذلك كثيرا من المفاجاة السياسية . ولم تكن وجهة وايزمان القائلة بأن هذه المستوطنات الوهمية تكلف اسرائيل فرصة الابقاء على المستوطنات فى سيناء وربما أيضا المطارات العسكرية ، بالوجهة المقنعة . لقد كانت الأرض تعنى بالنسبة للسادات تماما ما تعنيه لبيجين . فقد كان السادات مصرا على استعادة كل سيناء حتى آخر بوصة منها . ويستطيع الاسرائيليون ان يأتوا الى سيناء كسياح ولكن لا كمستوطنين او كجنود فى حامية .

وبالرغم من هذا الفصل الاضافى فقد ظلت البؤرة الاساسية للمناقشة هى الأرض ــ الفلسطينية المحتلة ، الضفة الغربية وقطاع غزة . وقد وصلت المحادثات مع الولايات المتحدة الى درك اسفل جديد فى مارس من عام ١٩٧٨!

عندما زار بيجين واشنطن مرة أخرى وحاول الامريكيون استخدام قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ كمتلة لتحريك مقاومة اسرائيل لأى حل وسط بالنسبة للارض . وقد اعترف بيجين بأن حكومته ملتزمة بقبول الحكومة السابقة لهذا القرار .

لقد قال : « ينبغى الالتزام بالمعاهدات والاتفاقات » وقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ينص على الانسحاب من أراضى محتلة وعدم السماح بالاستيلاء على الأرض عن طريق الحـــرب . ولكن مستشـــارى بيجين لم تروعهـــم مثل هذه الاعتبارات . انهم يجادلون بأن القرار لم يحدد الانسحاب من كل الأراضى ، وان حرب عام ١٩٦٧ كانت حرب دفاع عن النفس بالنسبة لاسرائيل (ولذلك فان التغيير فى الحدود أمر مسموح به) ، وان سيادة الأردن على الضـــفة الغربية لم تحظ قط باعتراف المجموعة الدولية . وفى حفل وداع أوضح كارتر ما وصفه بلاءات بيجين الست . وقال ديان « بالرغم من ان كارتر قد تكلم بنغمة مملة الا انه كان هناك غضب فى عينيه الزرقاوتين الباردتين . وكانت نظرته حادة مثل الخنجر . ان وصفه لموقفنا وصف صحيح فى أساسياته ولكن لم يكن فى استطاعته ان يعبر عن ذلك الموقف بصورة أكثر عدوانية . واختتم كارتر حديثه بقوله « ان بيجين قد أصبح عقبة كئودا فى طريق تقدم المفاوضات» واذا لم يحدث تحرك فى الجانب الاسرائيلى فلن يكون هناك ســلام . وهذه اللاءات هى :

— لا نرغب فى الانسحاب السياسى أو العســكرى من أى جــزء من الضفة الغربية .

— لا نرغب فى وقف اقامة مستوطنات جديدة أو توسيع المســتوطنات القائمة بالفعل .

— لا نرغب فى سحب المستوطنين الاسرائيليين من سيناء أو حتى تركهم هناك تحت حماية الأمم المتحدة او حماية المصريين .

— لا نرغب فى الاعتراف بأن قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ينسحب من منطقة الضفة الغربية وقطاع غزة .

— لا نرغب فى منح العرب الفلسطينيين سلطة حقيقية أو صوتا فى تقرير مستقبلهم لدرجة انهم يستطيعون الاختيار بين البدائل المحددة عاليه (الارتباط مع اسرائيل أو الاردن أو استمرار فى اقامة حكومة انتقالية خاصة بهم) .

وبعد ذلك بأسابيع ستة عندما عاد بيجين الى واشنطن للاشتراك فى احتفال امريكا بذكرى استقلال اسرائيل كتب كارتر يقول : « اعتقد انه لن يتخـــذ الخطوات الضرورية لجلب السلام لاسرائيل — انها فرصة قد لا تتكرر أبدا » وحاول بيجين ان يؤكد الموقف الايجابى لاسرائيل لكنه ترك لديان استكشاف

طريق لتقدم المفاوضات . ولم تستطع محاولته الأولى نحو تحقيق موقف أكثر مرونة سوى اذابة القليل من الثلج . لقد وضع وزير الخارجية أربعة مبادىء للسياسة الاسرائيلية هى :

١ ـ ان قرار رقم ٢٤٢ اساس للتفاوض بين اسرائيل وجيرانها العرب : مصر والأردن وسوريا ولبنـــان .

٢ ـ ان مشروع اسرائيل للسلام والذى يتضمن حكما ذاتيا ليهـــودا والسامرة ولقطاع غزة مشروع يتفق مع مبادىء القرار رقم ٢٤٢

٣ ـ اذا تقدم العرب مقترحات مقابلة فان اسرائيل سوف تناقشـــها بما تستحقه .

٤ ـ ان قرار ٢٤٢ يطالب باجراء مفاوضات .

وهذا العرض الجديد تم رفضه باعتباره مناورة فى العلاقـــات العامة . وبدا السادات فى وضع تواريخ نهائية (وفى رواية انه حدد شهر يوليو وفى رواية اخرى انه حدد شهر اكتوبر) وبدا فى التحدث عن خيار الحرب . وخرج وايزمان من اجتماع لمجلس الوزراء ليعلن انه اصدر أوامره للجيش ليستعد للمعركة . وفى مناسبة اخرى مزق وزير الدفاع ملصوقا عن السلام . وفى اجابة عن اسئلة أمريكا قال بيجين فى الثامن عشر من يونيو ان اسرائيل راغبة بعد خمس سنوات من الحكم الذاتى فى الضفة الغربية ان تتدارس وتتفق على صيغة مســتقبل العلاقات بين الاطراف « وهذا يبعد كثيرا عن مطلب أمريكا بأن تكون اسرائيل مستعدة لمناقشة السيادة بعد فترة انتقالية ، رفض المصريون هذه الصيغة على انها مثل آخر على تصلب بيجين وعناده .

ولم يجعل ديان الوضـــع أفضـــل بقوله أن معظم الوزراء الاسرائيليين قد رفضوا الزام اسرائيل بأن تقرر بعد خمس سنوات الوضع الدائم لهــذه الأراضى ذلك لانهم يعتبرون الادارة الذاتية هى الاطار الدائم لهذه الأراضى .

وكان من المتوقع أن ترفض اسرائيل اقتراحا مصريا باعادة الضفة الغربية وغزة للعرب لفترة مؤقتة وحاول السادات فى أوائل يوليو ان يذهب من ورا بيجين لعقد محادثات فى النمسا مع وايزمان وزعيم حزب العمل شيمون بيريز ولكن رئيس الوزراء بيجين وضع حدا لذلك بأن أعلن بحدة قائلا : « ينبغى أن يوجه الحديث الى انا « وحذرت الحكومة السادات قائلة ان جميع الاتصالات فى المستقبل ينبغى ان تجرى مع بيجين أو من يحدده كممثل له .

« ان سلطة التفاوض مع مصر أو مع اى دولة فى حالة حرب مع اسرائيل انما هى قد أعطيت للحكومة ولمن يمثلونها . وسوف يكون مستوى التمثيل فى عملية المفاوضات متساوية . وسوف يراس رؤساء الدول أو من يخولونهم من الوزراء فريق المفاوضات » .

واول خرق لحائط العناد المتبادل جاء نتيجة لاجتماع غير ناجح بين وزراء خارجية كل من أمريكا واسرائيل ومصر فى قلعة ليدز فى كنت . وكانت هذه احدى المناسبات التى جرب فيها ديان حظه . فلقد سلم وزير خارجية أمريكا سيروس فانس مذكرة عبر فيها عن وجهة نظره الشخصية « وقال انها مقدمة « على مسئوليتى الخاصة » واقترح فيها أن تعلن اسرائيل استعدادها لمناقشة مسألة السيادة على الضفة الغربية وغزة بعد خمس سنوات من الحكم الذاتى .. وفى نفس الوقت كرر أن اسرائيل لن تنسحب ابدا الى خطوط ما قبل سنة ١٩٦٧ حتى مع ترتيبات الامن ولكنها سوف تناقش أية اقتراحات عربية محددة من أجل السلام تقوم على الحل الوسط بالنسبة للارض وغضب بيجين من فكرته هذه ومن تمرده وعصيانه .

واستجاب وزير الخارجية بأن عرض على بيجين الخيار بين أن يؤيده أو يطرده أن يتحمله بشروطه هو أن ينال منه :

« لقد أخبرت رئيس الوزراء أن ما قلته وكتبته انما يعكس موقف الحكومة ، على حسب مفهومى ، ولذلك فاننى لن امتعض أو استاء اذا ما هو أو الحكومة ابطلته أو سحبته . اننى سوف اقبل بحكمهم واخطر فانس طبقا لذلك ـ وأضفت قائلا : اننى على أية حال لست بمستطيع أن أدير المفاوضات دون أن يسمح لى بأن أتقدم بالافكار والمقترحات ، بينما أؤكد انها تمثل وجهات نظرى الشخصية التى ربما قد لا توافق عليها الحكومة . وكان هذا موضوعا كثير الترديد حيث كنت أنا وبيجين مصرين على موقفنا حياله . ولم أكن مستعدا لان اتصرف بصورة أخرى . وكان بيجين يعلم هذا تماما . وكان السبيل الوحيد المفتوح أمامه اذا ما اصر على ان أحذو حذوه هو أن يبحث له عن وزير خارجية غيرى » .

لكن الوقت كان مبكرا جدا فى حكومة بيجين لان يتخذ رئيس الوزراء مثل هذه الخطوة العنيفة المتطرفة بالرغم من أن ديان قد ذهب بعيدا وأبعد بكثير من موقف الحكومة وكانوا جميعا يعلمون ذلك . وكان بيجين لا يزال فى حاجة الى ديان . ولدهشة وزير الخارجية اقترح بيجين ان تؤيد الحكومة مذكرته لسيروس فانس وان تعرض هذه المذكرة على الكنيست الموافقة عليها . ولقد حصلت المذكرة على موافقة ٦٤ عضوا مقابل ٣٢ عضوا وذلك فى ٢٤ يوليو . وقال ديان بكثير من الرضى والقناعة « ان المذكرة التى قد قدمتها الى فانس فى قلعة ليدز قد أصبحت وثيقة رسمية تمثل موقف اسرائيل » وبالرغم من الجمود المستمر فان « صيغة ديان » قد مهدت الطريق أمام مغامرة الرئيس كارتر اليائسة والمعروفة باسم « قمة كامب ديفيد » . ومرة أخرى سمح بيجين لجنرال سابق بأن يثير غضبه ويضايقه ، ولكن هذه المضايقة ، هذه المرة كانت فى موضوع وقضية أكثر رقة ولطفا .

الفصل التاسع عشر
معسكر اعتقال فاخر

كتب زبيجنيو بريجينسكى مستشار الامن القومى فى مذكرة سرية للرئيس جيمى كارتر يوم ١٨ يوليو عام ١٩٧٨ ما يلى : « يبدو لى أنه اذا خرجنا على رؤوس الاشهاد وجانبنا النصر ، فستتعرض سياستنا فى الشرق الاوسط لحالة من الفوضى الشديدة ، كما أنه سيتم رفض السادات وآخرين معه أو انهم سيتحولون الى اتجاه راديكالى وبعبارة أخرى . اذا خرجنا على الملأ فلابد أن نفوز » . وعقد الرئيس ، وهو يدرك تماما المخاطر التى ينطوى عليها مثل هذا الموقف ، مؤتمر قمة مع الزعيمين المصرى والاسرائيلى فى كامب ديفيد ، وهى استراحته الرسمية فى تلال منطقة ميرلاند التى تبعد عن واشنطن سبعين ميلا . وخلص الى انه من الافضل العمل من خلال بيجين وليس ضده .

وبدأ المؤتمر يوم ٥ سبتمبر وانتهى بعد ذلك بثلاثة عشر يوما ، كانت الوفود الثلاثة خلالها فى حالة من الاعياء الجسدى والذهنى الشديد كان ذلك المعسكر الذى تحيط به أشجار كثيرة ، قد اقيم من أجل فرانكلين د . روزفيلت خلال الحرب العالمية الثانية . وقام الرئيس ايزنهاور بتغيير اسمه من شانجرى لاه الى كامب ديفيد وفقا لاسم حفيده الاكبر . ووجد (عيزرا وايزمان) ذلك المكان يثير الشعور بالخوف من الاماكن المغلقة رغم ما يحيط به من طيور السنجاب أما موشى ديان ، فلم يشعر بالارتياح فى قلب النباتات الغريبة وبساط أوراق الخريف البنى اللون المائل الى الذهبى . وكان الشيء المغرى فى ذلك المكان هو انه من الممكن الابقاء على الصحافة وروادها فى وضع حرج يضطرون معه للدفاع عن انفسهم . وكان الزعماء الثلاثة ورفاقهم ينعمون فى ذلك المكان بعالم خاص من الكبائن والممرات وملاعب البولينج والتنس وحمام سباحة وقاعة للبلياردو وسينما وبعد أن عاد ديان من مهمة استطلاعية وقدم تقريرا عن سياج الامن المخيف ، اطلق (بيجين) عليه اسم « معسكر الاعتقال الفاخر » . ولما كانت مدة بقائهم هناك طويلة فقد تندر (بيجين) بقوله ان عليه أن يرسل الى هارب جماعة الارجون القديمة « يلكوف مريدور » لتهريبهم . وسلم الاسرائيليون بان الكبائن موضع تجسس ، لكن بريجينسكى أصر على عدم وجود شيء من هذا القبيل واستبعدت توصيته .

كانت كامب ديفيد ملعبا أمريكيا ، ولم يلعب التنس أو البولينج سوى عدد قليل من الاسرائيليين أو المصريين ، اذا لعبوا على الاطلاق . وكان كل

من السادات وديان يقوم بنزهات منفصلة على الاقدام كل يوم .وركب وايزمان دراجـة للمرة الاولى منذ طفولته . اما الاسرائيليون الاصغر سـنا فلعبوا البلياردو كثيرا وشاهدوا السينما . ولعب بيجين الشطرنج مع بريجينسكى ، واعطى بيجين . سواء كان بمحض الصدفة او عن قصد ، مستشار الامن القومى انطباعا بانه لم يلعب منذ ثمانية وثلاثين عاما . ووجد البروفيسور البولندى الاصل ان « بيجين » يلعب بطريقة منظمة وعدوانية الى حـد ما ، وان كانت مدروسة استراتيجيا . وتحـدث الرجـلان باللغة الانجليزية وليس بلغـة طفولتهم وشدت المنافسة بينهما انتباه « ديـان » الذى كان يتفرج عليهما من حين لآخـر .. وكتب يقـول : ان اللعب برهن على انه مواجهة ميدانية وليس شكلا من التسلية السلمية ، حيث كان يستميت كل منهما على هزيمة الآخـر . وطمس الغموض النتيجة مثلها فى ذلك مثل الكثير مما حـدث فى كامب ديفيد ، انه لامر عادى أن تكون اللعبتان الاوليان متساويتين . وزعـم بريجينسكى انه فاز باللعبة الثالثة وما تلاها من أدوار . الا انه طبقـا لمـا ذكره يهييل قاديشاى فانهما لعبا دورا رابعا فاز به بيجـين وبذلك أصبحت النتيجة متساوية . واتصل هاميلتون جوردان كبير مستشارى الرئيس كارتر برئيس الوزراء تليفونيا ليهنئه . وقال لو كان بريجينسكى هو الذى فاز لمـا كان بوسعهم الحديث اليه .

كان الامريكيون يعلمون ان اجتماع القمة كان مقامرة ، الا انهم اساءوا تقدير الاحتمالات . وحدد البيت الابيض للمباحثات ثلاثة أيام مع احتمال مدها ليوم رابع لو احرز المؤتمر تقدما بشأن مبادىء السلام . واعترف كارتر بعـد ذلك قائلا انه ما كان هناك شخص يحلم بوجودهم هنا طوال ثلاثة عشر يوما فى اجتماعات مضنية وغير مشجعة ، ودون أن يلوح فى الافق احتمال النجـاح الا فى الساعات الاخيرة . ولم يكن هناك توازن فى المفاوضات فى اكثـر من ناحية . وكان كل من بيجين والسادات قد وصل الى كامب ديفيد ولديه تصميم على خوض مساومة صعبة ، الا ان الزعيم الاسرائيلى كانْ يتمتع بميزة وحـده من بين الزعماء الثلاثة الذى يمكن أن يتوقع الفشل برباطة جأش . وهنـاك الكثير من الاسرائيليين الذين سيشعـرون بخيبة أمل مريرة ، ومن بينهم كبـار الاعضاء فى وفده ، الا أن بيجين سيشرح لهم أنه فعل كل شىء لتحقيق السلام اللهم الا التضحية بأرض اسرائيل وحينئذ سوف يوحد الليكود صـفوفه وستخرج حكومته سالمة من هذا الموقف ، وستظل اسرائيل محتفظة بسيناء . ومن ناحية أخرى لم يكن (كارتر) وسيطا نزيها . وكتب يقول « يبـدو ان السادات يثق فى كثيرا ، بينما لا يثق بيجين فى بالقدر الكاف . وبالمثل انه لامر حقيقى أن الرئيس الامريكى كان يثق فى السادات كثيرا وكان يشك فى بيجين . وصرح فى حديث صحفى قدمه لمجلة التايم قائلا : اننى لا أحاول حتى أن انكر اننى موال للسادات .. « انه صريح تماما ، وشجاع وكريم وبعيد النظر »

وكان مستعدا لتجاهل التفاصيل وتحقيق سلام يعود بالفائدة عليه ، وعلى مصر » . وكان كارتر مستعدا لان يتسامح مع السادات اكثر مما يتسامح مع الزعيم الاسرائيلى . ويرجع ذلك من ناحيه الى ان السادات أطلعه مسبقا على بعض أوراقه — بينما يرجع من الناحية الاخرى الى أنه استسلم لسحر السادات . كما أن مطالب السادات لم تكن أقل تطرفا من مطالب بيجين ، لكنه ترك المساومة لمستشاريه وسهل له ذلك الاحتفاظ بموقف رجل السلام المنطقى والشجاع . وعلى العكس من ذلك ، كان بيجين اكثر المفاوضين الاسرائيليين تعنتا ، اذ كان يدقق فى كل كلمة وعلامة ترقيم ويواصل الليل بالنهار . وعندما دعت (روزالين كارتر) ، زوجة الرئيس الامريكى الزعماء الثلاثة مجتمعين بان يطالبوا العالم بالانضمام اليهم فى الصلاه من أجل النجاح ، أصر بيجين على مشاهدة النص . كان (بيجين) صعب المراس كما كان مزعجا وواسع الاطلاع أما السادات فهو رجل ذو ثقافة مختلفة لها وقعها وقيمها ذات المذاق الخاص . وكان من الضرورى أن تكون هناك تجاوزات ، وكان السادات يريد من كارتر أن يقوم بالترويج لافكاره نيابة عنه لكن بيجين رفض على الدوام أى شىء من هذا القبيل . وهو يستطيع التصدى للسادات حتى النهاية ، لكنه رفض التصدى للامريكيين بنفس الصورة . وأثناء المفاوضات توسل (بيجين) لكارتر الا يقدم مقترحات مصرية صنعت فى أمريكا ، واتخذ السادات موقف الهجوم منذ اليوم الثانى . فقدم ما اعترف به كارتر بأنه مشروع جديد للغاية « لتحقيق سلام شامل ملىء بكافة العبارات العربية الطنانة غير المقبولة » وهو يطالب ضمن اشياء أخرى ، بانسحاب اسرائيلى من كافة الاراضى المحتلة وازالة جميع المستوطنات الاسرائيلية ونقل سلطتها الى عرب الضفة الغربية وقطاع غزه ، مع توفير فترة انتقالية مدتها أربعة أعوام يقوم الاردن خلالها بالاشراف على الضفة الغربية وقطاع غزة ، بالتعاون مع ممثلين منتخبين بطريقة حرة من الشعب الفلسطينى يتولون ممارسة السلطة المباشرة على الادارة » . وقبل انتهاء الفترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة أعوام بستة شهور ، يمارس الفلسطينيون حقهم الاساسى فى تقرير المصير وتتم مساعدتهم على انشاء كيان وطنى لهم » . أما اسرائيل فستتم مطالبتها بالانسحاب من شرق القدس الى خطوط الهدنة التى كانت قائمة عام ١٩٤٩ علاوة على عودة السيادة والادارة العربية الى القطاع العربى . وأخيرا طالب السادات بأن تدفع اسرائيل تعويضا كاملا وعاجلا عن الضرر الذى ترتب على العمليات التى تقوم بها قواتها المسلحة ضد السكان المدنيين والمنشآت المدنية ، بالاضافة الى استغلالها للموارد الطبيعية فى الاراضى المحتلة . وهذا المطلب الاخير من شأنه أن يشمل تعويضا عن ملايين البراميل التى قامت اسرائيل بضخها من حقول بترول سيناء منذ عام ١٩٦٧ . واختار بيجين الا يتمرد فى أول اجتماع مشترك له ، وتصرف كل من بيجين والسادات بأحسن ما فى وسعهما ، لدرجة أن كارتر اعتقد بأن بيجين قد خفف من موقفه ازاء التشدد فى وثيقة السادات ، التى

وصفها لعدة أيام بعد ذلك بأنها دليــــل على الموقف غير المنطقى من جانب المصريين .

وفى اليوم الثالث ، وبعد التشاور مع زملائه ، رفض بيجين الوثيقة تماما ، وابلغ كارتر بأن ذلك يحمل رائحة دولة منتصرة تفرض النصر على الطرف المهزوم وقال ان هذه الوثيقة لا تمثل أساسا صحيحا للمفاوضـــات . وكان الســـادات يريد سلاما مع اسرائيل لا يكون هشا فحسب وإنما يكون قدريا أيضا . وفيما برهن على أنه آخر جولة وجها لوجه فى قمة كامب ديفيد ، قام بيجين بتشريح مقترحات السادات فقرة فقرة . ورد السادات على ذلك قائلا انكم تريدون الارض ، ومصر تقدم لاسرائيل الامن ، وليس الارض . وقال كارتر « لقد زال التحفظ واحمرت الوجوه وانتهت المجاملات واللغة الدبلوماسية . ولقد اغفلوا فى أغلب الظن أننى كنت موجودا » . وقبل أن ينفضوا من اجتماعهم بعد ثلاث ساعات من المناقشة المكثفة ، اشتكى السادات من أن المشاعر الو ية التى تحققت بعد زيارته للقدس قد تلاشت » لانه لم يعد هناك حد أدنى من الثقـــة منذ أن تصرف بيجين بنية سيئة « وعند استئناف الاجتمـــاع فى وقت لاحق من النهار ، تبادل الزعيمان المحادثات بسرعة انتهت الى طريق مسدود بشـــان المستوطنات . وقال السادات ان الشعب المصرى لن يقبل أبدا أى انتهـــاك لاراضيه أو لسيادته ، وأجاب بيجين بأنه ليس هناك سبيل يستطيع به اقنـــاع حكومته أو شعبه بازالة المستوطنات أن نقل المستوطنين من شأنه أن يعنى سقوط حكومته . وعند ذلك وقف السادات وهدد بالانسحاب من الاجتماع ومن مؤتمر القمة . واعترض كارتر طريقه الى البـــــاب وطلب من كليهما وقف المحادثات . ووافق بيجين على الفور ، ووقف السادات وهو يستشيط غضبا قبل أن يومىء برأسه ، ثم خرج بدون أن ينطق بكلمة أخرى . ورأى الامريكيون الآن بصورة أكثر وضوحا من ذى قبل . أنه يتعين عليهم الامســـــاك بزمام المبادرة . وظل السادات فى حجرته الخاصة وهو عابس الوجـــه ، وابلغ مستشاروه بريجينسكى بأن الرئيس يفكر فى العودة الى الوطن . ورفض بيجين التزحزح بشأن القضيتين الرئيسيتين المتعلقتين بمستوطنات سيناء وتطبيق القرار رقم ٢٤٢ على الضفة الغربية وقطاع غزة ، الا أنه تخلى عن ما اعتبره كارتر بمثابة تلميح بالمرونة عندما قال للرئيس الامـــريكى : «اننى لن أوصى شخصيا أبدا بازالة المستوطنات القائمة فى سيناء » .وليس هذا مثل القـــول بأنه لن يذعن أبدا لازالتها . الا ان بيجين كان مصمما على موقفه بشأن الاراضى الفلسطينية المحتلة . وهاجم كارتر فى نقطة ما رئيس الوزراء بقوله : « ان ما تريد أن تفعله هو أن تجعل الضفة الغربية جزءا من اسرائيل » وأجاب بيجين على ذلك قائلا : « ان الحكم الذاتى شىء والسيادة العربية شىء آخر . ولن تشـــمل مبدأ القـــرار ٢٤٢ الذى ينص على عدم جواز الاستيلاء على الارض بالحرب » . وقال نقلا عن المزامير « أوه ياقدس لو انساك » . وقال بيجين

لكارتر شلت يمينى قبل ان أوقع على مثل هذه الوثيقة » . وعلى الرغم من التعب المتزايد ، أعدالامريكيون مشروع اتفاقهم فى اليوم الخامس . وفى اليوم التاسع أدركوا انه لن يصدق عليها أى من الجانبين بدون ادخال تعديل كبير عليها . وقدم بيجين بيانا موجزا غير أساسى أوحى فيه بأنهم قد يعودون جميعا الى بلادهم . وحينذاك اتخذ كارتر خطوة غير تقليدية أدت فى النهاية وان كانت ببطء وتذبذب الى التوصل الى اتفاق . فقد أنشأ فريق عمل يضمه هو وسيروس فانس وآهرون باراك المدعى العام الاسرائيلى وأسامة الباز وكيل وزارة الخارجية المصرية للشئون الخارجية . ولم يتم السماع عن قيام رئيس دولة بالتفاوض حول التفاصيل بهذه الطريقة مع خبيرين منيين ، كان عليهما حينذاك التنقل جيئة وذهابا لاقناع رؤسائهم بالفقرات المتفق عليها . الا أن ذلك كان مجديا .

والى جانب ديان ، ظهر (باراك) كأحد أبطال الفريق الاسرائيلى وفى عام ١٩٧٨ كان أستاذا للقانون فى ريعان شبابه فى الواحدة والاربعين من عمره وكان مرشحا بالفعل لمقعد المحكمة العليا لكنه ظل مدعيا عاما طيلة فترة محادثات السلام . وعلى الرغم من أن حكومة حزب العمل هى التى كانت قد عينت (باراك) ، فان بيجين كون شعورا غير عادى بالاحترام تجاه مواهبه كعالم ضليع فى القانون . وكان (باراك) مثله فى ذلك مثل ديان ووايزمان متعطشا للسلام . وقد استغل كل مهارته ومكانته لكسر مقاومة بيجين ، وتأثر سيروس فانس ، بصفته زميلا له فى المحاماة بنوعية ذهن (باراك) وقال عنه انه رجل على درجة عاليةمن الحساسية والراى الصائب . ولا يمكن تقييمه بشىء فى كثير من النقاط الصعبة فى المفاوضات . وهو لديه موهبة عجيبة فى استخدام الكلمات ، ويستطيع دائما أن يضع نفسه فى مكان الشخص الآخر ، ثم يحاول أن يجد سبيلا لارضاء حاجة ذلك الشخص الاخر بدون أن يضر بالمصالح الحيوية لبلاده . وسأتفق أنا وديان على طريق الألتفاف حول المشكلة ، وسيجد (باراك) بدوره الكلمات اللازمة لتوفير الطريق للالتفاف حول العقبة أو تخطيها .

ووجده (ويليام كوانت) خبير الرئيس لشئون الشرق الاوسط اسرائيليا تعلم بنجاح كبير كيفية التاثير على الموجات الطويلة لبيجين .. لقد عمل بأناة فى المضمون والصياغة ولعب فى الاغلب لعبة تلمودية فى تغيير العبارات ، بدون أن يكون قلبه فى الحقيقة حاضرا فيها . ولم يكن يعتقد فى الواقع أن هذه الاشياء من الامور التى تستحق الخلاف حولها الا أنه أدرك ايضا انه أمر هام للغاية اقناع بيجين . وهو على استعداد لان يقوم بالكثير من الصياغة واعادة الصياغة والتفكير فى الصيغ التى قد يقبلها بيجين .

وبوحى ديبلوماسى أمريكى آخر يعرف **بيجين** وباراك بأن كارتر استغل اهتمام باراك بالاتفاق وبالمرونة . وقد أوضح ذلك بقوله :

« اقنع الرئيس الامريكى (باراك) بالتقدم بسبل للتعبير عن المفاهيم والمضامين الغامضة بلغة قانونية وعندئذ يستطيع باراك أن يبررها لبيجين بلغة قانونية ويقنعه بان هناك تفسيرا قانونيا . ومشروعا من شأنه أن يحمى موقف بيجين رغم ما يكتنفها من غموض . وهناك عدة مواضيع فى النص تتجلى فيها قدرة (باراك) على ان يفسر لبيجين كيف يمكن تفسير احدها بحيث أصبح معناه (اكس) فى حين انك ربما تعتقد من شكله الظاهرى أنه يعنى (واى) ، الامر الذى أعطى لبيجين تبريرا ليسمح له بتقديم هذه التنازلات ، عندما قرر تقديمها بدلا من فقدان الاتفاق . وليس بوسع أى شخص آخر أن يفعل ذلك . وفى الوقت نفسه ، كان ديان يناقش الاسباب الديبلوماسية أو السياسية لقبول مثل هذه الامور ، الا أن بيجين لابد أن يكون لديه تبرير قانونى لارضاء نفسه ونظرته الخاصة للمبادىء القانونية » .

وساهم أيضا المدعى العام فى تحقيق التقارب مع المصريين ، بالرغم من من انهم لم يكونوا متأكدين مثل الامريكيين من مدى نفوذه . وقال (بطرس غالى) ان (باراك) نجح فى خلق جو من الثقة القانونية » ، مثلما خلق وايزمان جوا من الثقة الانسانية » . لقد وثقنا فى باراك عندما قال « اننى اريد هذه الكلمة فى المادة الرابعة من اجل كذا أو كذا » .

وعلى الرغم من ذلك لم يتخل بيجين ابدا عن السيطرة على الاستراتيجية للمفاوضات . وقد حدد القضايا التى يمكن أن يتوقفوا عندها . وقرر الوقت والسبيل لتقديم تنازلاتهم تلك التى يمكن أن تعطى . وقال أحد الشهود الامريكيين أن (بيجين) أظهر شعورا رائعا بالوقت . وقد كان متمكنا من معرفة عنصر التوقيت ومتى تحين اللحظة الاخيرة للتوصل الى حل وسط . وقد حقق مقابل تقديم تنازل صغير أكثر مما يستطيع أن يحقق مفاوض آخر من أى نوع مقابل تقديم ما هو أكثر من ذلك . ويتذرع رئيس الوزراء بصبر العالم كله وفى بعض الاحيان يبدو أنه يلعب لعبة الاستنزاف لذاتها ، ويفقد منظر الغابات من أجل الاشجار . ولقد وجده كارتر صارما وغير خيالى . وذكرت (روزالين) زوجته لبريجينسكى ان الرئيس قد اطلق على بيجين اسم (المعتوه) ، وهو لفظ كان كارتر أمينا جدا لدرجة أنه لم ينكره عند مواجهته به على شاشة التليفزيون الاسرائيلى خلال زيارته الخاصة القدس فى شهر مارس عام ١٩٨٣ .. الا أنه فى نهاية محنة كامب ديفيد التى استغرقت ١٣ يوما لم يشك أحد فى أن ثمة منهجا فى جنون بيجين . ويصف فانس بيجين بانه .. واحد من أبرع لاعبى البوكر فى العالم الذين شهدهم .

وهو يستطيع أن يعرض قلبا جريحا بطريقة مؤثـرة للغاية : وقـد اظهر كل مشاعر الالم وعدم التصديق عندما قال : « كيف يمكنك أن تتوقـع منا قبول موقف من هذا النـوع ؟ » ، وحينـذاك يجلس هنـاك دون أن يسجل على وجهه شيئا . انه يحـاول ويصمد فى وجه خصمه حتى النهـاية ، وهو عنيف يستطيع البقاء بعد اى شخص آخر على الجانب الآخر للمنضـدة اذا استلزم الامر وهذه جميعا صفات المفاوض الماهر ، او لاعب البوكـر الماهر للغـاية .

وكان بيجين واضحا جدا فى أهدافه ودقيقا للغاية فى تفكيره وقد قـدم بعض المطالب التى كان على استعداد للتضحية بها . واستطيع أن أتذكر عددا من مرات عندما قال فيهـا ان ذلك شىء لن نتفق أبدا على حـل وسـط بشـأنه ، وفى وقت لاحق من نفس اليوم ، بعـد أن دق على المـائدة ، غير تفكيره . وقد اكتشفت ذلك فى وقت مبكر الى حـد ما ، ولذلك لم اقبـل أبدا تصريحاته التى يقول فيهـا : « اننى لن استسلم ابدا بشـأن هذه النقطة » ، وخلصت الى أن ذلك جزء من أسلوبه وهو لا يعنيه .

رفض بيجين التفاهم بشـأن ثلاث قضايا وهى : مسـتوطنات سـيناء وصياغة القرار ٢٤٢ (الاستيلاء على الارض بطريق الحرب) وأخيرا القدس . وعلى الرغم من التقدم الذى احرزته مجموعة العمـل التى انشأها كارتـر والفريق المماثل الذى يضـم وزراء الخارجية تحـت اشراف بريجينيسكى ، أوشك اجتماع القمة على الانهيار مرة أخـرى فى اليوم العاشر واليـوم الحادى عشر . وظهـر الاسرائيليون كجبهـة موحـدة من أجـل الابقـاء على المستوطنات ، فى حين رفض المصريون السماح ببقائها ، وبدأ كارتـر فى اعداد خطط لانهـاء المؤتمر وتقليل الضرر الى الحـد الادنى وقد حـدد يوم الاحد ١٧ سبتمبر على انه الموعد النهـائى . والاعتراف بالفشل أفضـل من السماح لاجتماع القمة بأن يمـوت ببطء . وحـزم السادات ومساعدوه حقائبهم وطلبوا من الامريكيين توفير طائرة هليكوبتر لهم . وتبادل الرئيس المصرى حديثا حادا مع ديان ، الا انـه استجاب لآخـر نداء شخصى من جانب كارتر . وشـعر بعض الامريكيين المتشككين بأن السـادات يمارس التمثيل . وهو لا يحتاج الى الكثير لاقناعه . وقال (ويليـام كواندت) ان هناك جزءا فى السادات يتقمص شخصية الممثل . « وهو يعلم ان كارتـر سريع التأثر بذلك النوع من ندائه العاطفى » .

وحدثت بعض المفاجآت على المسرح . فقد تنازل وايزمان ، الذى تمثل دوره حتى ذلك الحين فى الابقـاء على توهج الجمرات ، عن المطارات العسكرية

فى سيناء مقابل تعهد من جانب (هارولد براون) وزير الدفاع الامريكى ببناء بدائل لها فى صحراء النقب . واتفق (باراك) واسامة الباز على ازالة عبارة « عدم جواز الاستيلاء على الارض بالحرب » من النص الرئيسى ، ونشر القرار كاملا على انه ملحق بـه ملحوظة فى المقدمة بأن كلا الطرفين يوافق على القرار ٢٤٢ بجميع أجزائه . « وتجرع (بيجين) عبارة » الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى » التى كان قد أصر من قبل على أنها ستمثل خطرا مميتا لاسرائيل . وبعد محاضرة ادلى بها على رفاقه حول الاصل اللاتينى لكلمة « مشروع » تساءل قائلا « هل يمكن أن يكون الحق » غير مشروع ؟

الا أن النزاع حول مستوطنات سيناء لا يمكن حله بدون حدوث معجزة . وظهرت هذه المعجزة فى الشكل المروع والمستبعد لارييل شارون ، وهو بطل الحرب المحبب الى بيجين والمسئول عن الاستيطان . واقترح الجنرال افراهام تامير قائد التخطيط العسكرى فى عهد وايزمان الاتصال تليفونيا بشارون واعطائه تقريرا عن أزمة كامب ديفيد واقناعه بحث بيجين على الجلاء عن المستوطنات . وكان (وايزمان) يساوره الشك فيما اذا كان (شارون الروح المحركة خلف برنامج الاستيطان ، سيتعاون أم لا ، الا أنهم لن يخسروا شيئا . وفوض لتامير بأن يجرب حظه).

« وبعد ذلك ببضع ساعات قليلة ، كان بيجين البالغ التأثر يبلغ الوفد الاسرائيلى بان آرييل شارون قد اتصل به تليفونيا . والشىء الذى أدهشه أن شارون كان يحبذ اجلاء المستوطنات اذا كانت هى العقبة الاخيرة فى طريق تحقيق اتفاقية السلام . وقال شارون لرئيس الوزراء .. اننى لا أرى أى اعتراض من الناحية العسكرية على اجلائها .

وتأثر بيجين ، الا أنه كان مازال رافضا بشأن التخلى عن المستوطنات ، وان حجته فى الابقاء عليها قد بنيت على أسس امنية وكان نتوء (رفح) يمثل منطقة عازلة لها قيمتها بين سيناء التي ستتم اعادتها الى مصر وبين اللاجئين الفلسطينيين فى قطاع غزة البالغ عددهم ٤٠٠ر٠٠٠ شخص ، وهى أرض تجنيد خصبة للارهابيين . ولكن الامن لم يكن اهتمامه الوحيد ، اذ أن رئيس الوزراء ، مثله فى ذلك مثل الكثير من الاسرائيليين من مختلف المذاهب السياسية يشعر بانزعاج لفكرة استئصال المستوطنين من جذورهم . ويتعارض ذلك مع المزاج الوطنى . وهو متأفف من أن يضع سابقة للضفة الغربية ومرتفعات الجولان . الا أنه فى المقام الاول كان بيجين يخشى من أن يؤدى التخلى عن المستوطنات الى حدوث انقسام فى صفوفه ، الامر الذى حدث بالفعل على وجه السرعة .

وعندما اجتمع الرئيس كارتر في اليوم الثاني عشر ، كان (بيجين) مازال يحاول جاهدا الفوز . واقترح التفاوض مع السادات بشأن كل مسألة اخري معلقة لتحقيق معاهدة للسلام في غضون ثلاثة شهور . وحينذاك سيطرح مسألة الاستيطان على الكنيست . وابلغه كارتر ان ذلك امل ميئوس منه ، ولن يقبله السادات ابدا . وكتب الرئيس يقول .. من الواضح ان ذلك كان مؤلما جدا بالنسبة لرئيس الوزراء مناحم بيجين .. ، وكان يصيح بكلمات مثل .. انذار « مطالب مبالغ فيها » و « انتحار سياسى » ومع ذلك فى النهاية وافق بيجين على ان يطرح على الكنيست فى غضون اسبوعين القضية التالية : « اذا تم التوصل الى اتفاق بشأن جميع قضايا سيناء الاخرى ، هل سيتم سحب المستوطنين ؟ » ورفض طلب كارتر بان يتخذ موقفا محايدا خلال هذه المناقشة ، لكنه تعهد تاجراء تصويت حر .

كان بيجين يأمل فى الفصل بين التصويتين بحيث يكون أحدهما حول اتفاق السلام بينما يكون الآخر حول المستوطنات وتوقع أغلبية برلمانية ساحقة للتصويت لصالح اتفاق السلام واغلبية أصغر ضد ازالة المستوطنات . الا ان مناوراته باءت بالفشل على يد حزب العمل المعارض الذى كان يحتاج الى تأييده والذى اصر على اجراء تصويت واحد يشمل كلا من الاتفاق والجلاء عن المستوطنات . ومن غير المتصور ان يتوقع برلمانى له خبرة بيجين بالموافقة على جل التصويت الواحد على المشروعين دون عواقب وخيمة ، او انه كان سيرضى المصريين او الامريكيين . الا ان تدخل حزب العمل قدم له عذرا . ولم يقايض مناحم بيجين بالمستوطنات اليهودية فى حين فعلت المعارضة ذلك . ان ذلك لم يقنع أحدا لا يريد أن يقتنع ، الا انه انقذ ضمير بيجين وربما كان ذلك هو المقصود تحقيقه .

والتزم بيجين بكلمته . وتم اجلاء مستوطنات رفح ، بما فى ذلك مدينة (ياميت) النموذجية ــ بتكلفة عاطفية ومالية كبيرة ، في الموعد المقرر فى شهر ابريل عام ١٩٨٢ . وانتهى بصورة اقل ودية المطلب الامريكى الذى يطالب بتجميد النشاط الاستيطانى الاسرائيلى في الضفة الغربية . وقضى كارتر وفانس اكثر من ست ساعات مساء يوم السبت الثانى عشر وهما يناقشان قضيتهم مع بيجين وديان وباراك . ومن العسير المتوقع بأن يأخذ العرب مفاوضات الحكم الذاتى مأخذا جديدا اذا استمر الاستيطان اليهودي بلا ضوابط ورفض الإسرائيليون التوقيع على مثل ذلك التعهد مع السادات كجزء من اطار الحكم الذاتى من اجل السلام . واصروا على أن الاستيطان فى الضفة الغربية ليس من شأن مصر . وفى النهاية وافق بيجين على ان يكتب خطابا الى كارتر يتم نشره بين وثائق المؤتمر . وبعد ذلك بخمسة اعوام ، مازالت الاطراف المتبقية تجرى مناقشات مع ماتعهد به رئيس الوزراء . هل هو تجميد طويل

الامد ، ام انه تجميد محدد لمدة ثلاثة شهور ؟ وهل يرتبط بمفاوضات الحكم الذاتى أو بمفاوضات التوصل الى معاهدة سلام اسرائيلية ؟ . واقتنع كل من كارتر وفانس بأن بيجين قد خدعهما . وكلا الجانبين لديه شهود موثوق بهم ، الا يروون قصصا عكسية تماما .

وطبقا للرئيس ، تم الاتفاق على انه لن يتم انشاء اية مستوطنات اسرائيلية جديدة بعد التوقيع على « اطار السلام » وعلى ان قضية المستوطنات الاضافية ستحلها الاطراف المعنية خلال المفاوضات ، ويؤكد فانس الذى سجل ملاحظات خلال الاجتماع ، التفسير الذى قدمه كارتر .

فطبقا لمذكراتى ، فان هذا الاطار كان مرتبطا بمفاوضات الحكم الذاتى ولم نفترض ان المفاوضات الخاصة بمعاهدة السلام والحكم الذاتى ستنتهى فى آن واحد وفى وقت قصير نسبيا . وكان هناك امل فى ان نستطيع احراز تقدم بشأن الحكم الذاتى اكبر مما حدث بالفعل ، الا اننا ادركنا جميعا انها ستكون مهمة شاقة جدا . وجذور المشكلة اعمق من ذلك بكثير . وقد شهدنا استمرار المفاوضات فى خط متواز وان كان منفصلا . وهى لم تتوقف على بعضها البعض .

وتلقى هارولد سوندرز ، خبير وزارة الخارجية الامريكية لشئون الشرق الاوسط تقريرا موجزا على الفور بعد الاجتماع الذى انعقد مساء يوم السبت ، اذ قدم له فانس مذكرة تلو الاخرى حول هذا الموضوع . وقد وضع المناقشة التى دارت فى هذا الاجتماع فى السياق التالى :

توجه كارتر وفانس الى الاجتماع وهما يعلمان مايريدان ويعرفان ايضا مصير نتيجتهما المفضلة التى توصلا اليها بشأن تجميد الاستيطان وما هو طبيعة تراجعهما . واختيارهما المفضل هو تجميد الاستيطان طوال الفترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة اعوام (للفلسطينيين) والتراجع هو الى تجميد بناء المستوطنات اثناء « هذه المفاوضات » الا انهما اشارا الى محادثات الحكم الذاتى ، على اساس النظرية التى تفيد بأنه اثناء محادثات الحكم الذاتى يكون على المتفاوضين معالجة تجميد الاستيطان خلال الفترة الانتقالية .

وعلى اية حال فانهما كانا يتحدثان فى تلك اللحظة حول فقرة فى هذه الوثيقة التى اصبحت اطارا للسلام ، وبكلمة اخرى الوثيقة التى تعالج اساسا المفاوضات المتصلة بالضفة الغربية وقطاع غزة . والعبارة التى كانوا يركزون عليها هى عبارة فى فقرة تتعلق بالمفاوضات المتصلة بالحكم الذاتى ثم بالوضع النهائى للضفة الغربية وقطاع غزه .

وقال مناحيم بيجين رئيس الوزراء انه لايستطيع الموافقة على وثيقة بشأن تجميد الاستيطان يوقع عليها الرئيس السادات . ان ذلك امر تقرره

الحكومة الاسرائلية ، وهو ليس بالامر الذى يكون للحكومة المصرية فيه اى رأى . وكان حل هذه المشكلة هو نفس حل المشاكل المماثلة بشأن قضـــــايا اخرى . وهو يجب ان يكون هناك خطاب جانبى . وفسر (فانس) ذلك لى بعد الاجتماع وطلبنى بأن أضع مسودة خطاب من رئيس الوزراء مناحيم بيجين الى الرئيس كارتر اشرح فيه موقف رئيس الوزراء ، ولذلك حذفت هذه العبارة من النص ووضعتها فى خطاب جانبى .

وسجل باراك ملاحظات كثيرة على الجانب الاسرائيلى . وكان قاطعـــا فى قوله ان النسخة الامريكية غير صحيحة .

« الشيء الذى تم الاتفاق عليه هو ان يكون تجميد المستوطنات لمدة ثلاثة شهور وان يرتبط بالمفاوضات الخاصة بابرام معاهدة سلام مع مصر . وهناك قيدان فى هذا الشأن (أ) انهٔ فى اطار معاهدة سلام مع مصر . (ب) وان مدته ثلاثة شهور . وهو لا يرتبط بالمرة بمفاوضات الحكم الذاتى .

واستشهد الاسرائيليون ايضا ببيان للسادات وهم يقدمون تقـــــريرا للمراسلين الامريكيين فى واشنطون يوم ١٩ سبتمبر ، اى اتفقنا على تجميـــد انشاء المستوطنات فى الثلاثة شهور القادمة ، وهى الفترة التى من المفترض ان يتم خلالها ابرام اتفاق السلام . ومع ذلك ، يدفع الامريكيون بان السادات لم يكن حاضرا عند التوصل الى اتفاق ولم يكن طرفا فيه . وعلى الرغم من ذلك فان مافهمه من أولئك الذين كانوا حاضرين يؤيد ما تقوله الرواية الاسرائيلية .

وبعد ان تحدث كارتر فى واشنطون عن تجميد لمدة خمسة اعوام ، طالب المراسلون فى مطار بن جوريون من ديان ان يقدم لهم تفسيرا ، . وكان عائدا على التو الى اسرائيل مع وايزمان تاركين بيجين فى الولايات المتحدة . ويبدو ان الرد الذى قدمه وزير الخارجية يستهدف طمس المسألة وليس توضيحها .

ان تقديرنا وتقدير رئيس الوزراء هو ان فترة استمرار المفاوضات حول موضوع يهودا والسامرة يجب لا تستغرق فترة تزيد عما يتراوح بين شهرين الى ثلاثة شهور .. فى حين تم تحديد فترة استمرار المفاوضات حول القضية المصرية الاسرائيلية ثلاثة شهور ، اما فترة استمرار المفاوضات الخاصـــة بالقضية الفلسطينية فلم يتم تحديدها بالمرة . لكن لنفترض انها ستستغرق بالفعل ما يتراوح بين شهرين وثلاثة شهور . فخلال هذه الفترة من المفاوضات بعد ان اوضحنا الامور مع اسرائيل (من كامب ديفيد) ، ظهر انه لا توجد فى الحقيقة اية قضية ملحة لانشاء مزيد من المستوطنات خلال شهرين او ثلاثـــة شهور ، وربما بعد هذه الفترة أيضا . وذلك أمر كان قائما حتى اذا لم يـــكن هناك اتفاق وحتى اذا لم يتم طرح المسالة .. اما فيما يتعلق بفترة الخمســـة اعوام ، ففى حدود ما اعرفه ، ليست هناك عبارة فى هذا الشان فى الاتفاق ».

وزاد الارتباك والحيرة سوءا ، ولكن لعل الكلمة الاخيرة للفصل فى هذه المسألة مع صول فينوويتز ، الذى عمل بعد ذلك رئيسا للفريق الامريكى فى مفاوضات الحكم الذاتى . قال : « لقد قرأت جميع الملاحظات التى دونها كارتر عندما تم تعيينى كمبعوث خاص فى الشرق الاوسط . ولقد تأثرت بالاجهاد الذى كانوا يعملون فى ظله ، وباحتمالات سوء الفهم ، ولاسيما بشأن مسألة معقدة مثل المستوطنات .

ومن العسير أن نتصور أن بيجين كان سيذعن عن دراية لتجميد غير محدد النهاية فى الضفة الغربية ، ولاسيما بعد أن استسلم فى سيناء . أن ذلك من شأنه أن يتعارض مع غرائزه ومع اهتماماته كزعيم لحزب اثقلته بالفعل مبادرة السادات . بل أنه من المتصور تماما أن يتلاعب هو وديان بالمسألة .

وبحلول فجر اليوم الثالث عشر الموافق يوم ١٧ سبتمبر ، كان كارتر قد اقتنع بأن الصفقة مضمونة . وقدمت كامب ديفيد اطارين ، أحدهما بشأن معاهدة السلام بين مصر واسرائيل والآخر بشأن السلام فى الشرق الاوسط . وسيحتاج ملء الاطارين الى الكثير من المساومة الصعبة الا ان اجتماع القمة قد حقق مهمته . وانتصرت الولايات المتحدة ، مثلما نصح بريجنيسكى بانها يجب أن تنتصر . غير ان اليوم الثالث عشر جلب معه عقبة فى اللحظة الاخيرة . وكان من المتفق عليه عدم الاشارة الى قضية القدس البالغة الحساسية فى النص نفسه . وفى احدى المراحل ، عندما اقترح الامريكيون أن ترفرف راية عربية او مسلمة على المسجد الاقصى ، الذى يوجد فى موقع المعبد اليهودى ، حذرهم بيجين من أن نفس الفكرة اثارت فيه ارتجافات قلبية . وفى يوم ١٧ سبتمبر كان الامريكيون لا يتحدثون الا عن تبادل الرسائل التى احتفظ فيها الزعماء الثلاثة — كارتر وبيجين والسادات — بمواقفهم العادية بشأن المدينة المتنازع عليها . وتبنت النسخة الامريكية لغة البيانات التى أدلى بها المندوبون المتلاحقون فى الأمم المتحدة ، ورفضت الاعتراف بضم اسرائيل لشرق القدس بعد حرب الايام الستة . وبمجرد أن سمع بها بيجين أعلن انه لن يوقع على اية وثيقة أبدا اذا كتبت الولايات المتحدة اى خطاب من هذا القبيل للسادات . وفجأة عادت الاتفاقية برمتها الى بوتقة الانصهار الا أن كارتر لم يكن مستعدا لان يدعها تنتهى فى هذه المرحلة . وحل المشكلة بخليط من عمليات الصياغة (وقد حذف كل اشارة معينة تشير الى الضم الاسرائيلى وقال ببساطة أن المندوبين الامريكيين فى الامم المتحدة قد أوضحوا السياسة الامريكية وطلب بيجين منه التوقيع على بعض الصور الفوتوغرافية الخاصة باحفاده . وأصدر كارتر تعليماته الى سكرتيره ليعرف اسماءهم ويوقع على كل صورة على حدة . وعندما حملهم الى حجرة بيجين تأثر الزعيم الاسرائيلى وحكى له بدوره عن كل حفيد منهم على حدة . وبعد ذلك قبل النسخة الجديدة كالحمل . وماذا

يستطيع الجد الفخور باحفاده أن يفعله خلاف ذلك ، ولا سيما عندما يحقق مــــــراده ؟

وانتهت كامب ديفيد بمسحة من الارتياح والتصالح . وقام انسادات بزيارة ودية لبيجين ، وكان ذلك أول اجتماع لهما فى غضـــــون عشرة أيام . وحينذاك قام زعيما الشرق الاوسط . وأعلن الرئيس ان هذه هى أول مرة يشعر فيها بالسرور وهو يغادر كامب ديفيد الى واشنطون . واخيرا جاءت آلات التصوير والمراسلون ليمارسوا مهامهم . وتم التوقيع على الاتفاقيتين اللتين تمثلان الاطارين ورد رؤساء الدول الثلاثة على الاسئلة باحسن مافى وسعهم وهكذا وقعت اسرائيل ومصر على أول اتفاق للسلام بينهما .

ولقد خاض بيجين مساومة صعبة كما خطط على الدوام ، الا انه قدم نصيبه من التنازلات . ووافقت اسرائيل على الجلاء عن شبه جزيرة سيناء كلها بما فى ذلك حقول البترول والقواعد الجوية والمستوطنات مقابل معاهدة السلام . وكان رئيس الوزراء يشعر فى مشاوراته الخاصة مع موظفيه وفى تصريحاته العلنية ايضا بأن اسرائيل تتخلى عن ارصدة حقيقية وتتلقى شيئا غير حقيقى من مصر . ولهذا السبب اصر بيجين على ضمانات جوهرية قوية للحدود الجنوبية لاسرائيل. وفقد بيجين نتيجة لتضحيته على مضض بمستوطنات سيناء تأييد بعض اصدقائه القدامى المقربين اليه . وانسحب من ذلك الموقف (شمويل كاتز) خبير القانون الدولى الذى ينتمى فى الاساس الى جماعة (ارجون زفاى ليومى) وكذلك فعلت ايضا (جيولا كوهين) آخر اعضاء (جماعة شتيرن) التى تضاهى عاطفتها تجاه ارض اسرائيل عاطفة بيجين نفسه . وهناك آخرون مثل (يوحنان بادر) المحارب القديم ابتعدوا عن زعيمهم بطريقة أكثر ذكاء .

وفى غضون ايام من التوقيع على اتفاق كامب ديفيد كان بيجين يتباهى للجمهور ، اليهودى الامريكى بانه لم يوافق على تقديم شىء للفلسطينيين اكثر مما قدمه فى الاسماعيلية فى شهر ديسمبر عام ١٩٧٧ ، واثار ذلك الزعيم غضب ادارة كارتر ، التى اعترفت بانه كان يحاول اثناء الاردنيين وغيرهم من العرب « المعتدلين » عن مساندة السادات واثناء الفلسطينيين فى قطاع غزة والضفة الغربية عن القيام بالدور المخصص لهم ، وكان بيجين قد قدم فى كامب ديفيد فى الواقع اكثر مما قدم فى الاسماعيلية . ووافق على ان المفاوضات يجب ان تتم على اساس القرار رقم ٢٤٢ فى كافة اجزائه « لحل » المشكلة الفلسطينية بجميع جوانبها » ، وكان من المقرر ان تبدأ المفاوضات بعد ثلاثة ايام « لتحديد الوضع النهائى للضفة الغربية وغزة وعلاقاتهما بجيرانهما » وأن تنتهى هذه المفاوضات بنهاية الفترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة اعوام . وتعهد بالتوصل الى حل من شأنه ان يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ومطالبه

العادلة » . وتم توجيه دعوة للاردن للانضمام الى هذه المفاوضات وتم السماح له بأن يضم وفده فلسطينيين « كما هو متفق عليه من الطرفين وكان من المقرر ان تنسحب القوات الاسرائيلية من الأراضي وتنتشر وحدات محدودة في «مواقع امنية معينة » : ولم يتم تحديد المسئولية عن الامن والنظام العام ، بينما اتيحت للفلسطينيين امكانية تشكيل « قوة شرطة محلية قوية ، يمكن ان تضم بين صفوفها مواطنين أردنيين » .

وكان الكثير من هذه النقاط في صورة تصريحات وبيانات غير دقيقة ، ولم تكن شيكات يتم حملها الى المصرف لصرفها . وكان بيجين قد دونها بغموض وحذر شديد لم يلحظه الامريكيون او المصريون . فعلى سبيل المثال ، فان « السلطة التي ستتولى الحكم الذاتي » والتي سيقوم الفلسطينيون بانتخابها لأنفسهم قد اشير اليها ست مرات في اطار الاتفاق وفي واحدة فقط من هذه المناسبات الست وهي المناسبة الرابعة أضيفت كلمات «المجلس الاداري» بين اقواس بناء على طلب اسرائيل . الا ان ذلك كان كافيا لان يشير اليها بيجين بعد ذلك على انها « المجلس الاداري » وهو شيء اكثر تواضعا مما كان يريده الامريكيون والمصريون ويعتقد (وليم كوانت) ان الوفد الاسرائيلي تعمد ترك المسألة الفلسطينية حتى آخر يوم في كامب ديفيد ليتجنب تقديم التزامات محددة . وقال كوانت ان باراك الذي يتمتع بضمير حي قال انه كان يتعين عليهم اعطاء الضفة الغربية من الوقت مثلما اعطوه لسيناء لكن كل شخص كان يريد العودة الى وطنـه .

وعلى الرغم من ذلك كله ، اتاحت كامب ديفيد للفلسطينيين افضل فرصة دبلوماسية منذ عام ١٩٤٧ . وكان هناك كل شيء يمكن التفاوض حوله بمساندة المصريين والامريكيين وكان من حسن حظ بيجين انهم لم يدعوه الى تنفيذ وعيده — وانهم سمحوا له ببناء دفاعاته . وكان اكبر خطأ وقع فيه الامريكيون انهم لم يربطوا الضفة الغربية وقطاع غزة بمعاهدة السلام الاسرائيلية المصرية ، بحيث تتوقف كل منها على الاخرى . والقى (بريجينيسكى) اللوم في ذلك الاخفاق على اذعان كارتر للصيغ الغامضة التي استخدمها بيجين . وكتب يقول ان ذلك سيعود لمطاردتنا ، في المراحل القادمة من المفاوضات . وكان الاسرائيليون لهم أولوياتهم الخاصة . وقال (الياهو بن ـ اليسار) الذي كان مكلفا بصفته مديرا عاما لمكتب رئيس الوزراء بصياغة استراتيجية اسرائيلية محكمة لمفاوضات الحكم الذاتي ان بيجين ينظر الى سيناء على انها تعويض عن الوجود الاسرائيلي فيهودا والسامرا وبانتهاء حكم بيجين فيشهر سبتمبر عام ١٩٨٣ ،كانيستطيع النظر الى كامب ديفيد بارتياح . لقد كان السلام مع مصر وان كان فاترا قائما لم يمس ، وكذلك الأمر أيضا بالنسبة لقبضة اسرائيل على أرض اسرائيل .

كان قد تم اقناع المصريين بقبول صفقة كامب ديفيد بالدفع بان كل شيء سيكون مختلفا فى غضون خمسة اعوام . وقال : بطرس غالى أن « روح كامب ديفيد هى نوع من الهدنة ، وان شخصا آخر خلاف بيجين هو الذى سيتخذ القرارات ، لقد اقتنعنا تحت تأثير ديان ووايزمان ان بيجين قبل ذلك للحصول على السلام . وتم تهدئة شكوك الامريكيين بطريقة مماثلة . وطبقا لما ذكره (فانس) ابلغ بيجين الامريكيين بانه لن يشرف ابدا على نقل بوصة واحدة من يهودا والسامرا الى سيادة اخرى ، وان هذه الاراضى ملك لاسرائيل . الا انه اضاف قائلا : « ربما ياتى اخرون بعدى يكون شعورهم مختلفا . وفى نهاية فترة الخمسة اعوام لن اكون موجودا . والشيء الذى لم يذكره رئيس الوزراء هو انه سيبذل كل ما فى وسعه ليتاكد من انه لم يترك شيئا كثيرا ليتم نقله الى الغير .

الفصل العشرون

منح جائزة قبل الاوان

بدلا من الشهور الثلاثة التى كان قد تكهن بها بابتهاج فى شهر سبتمبر ، استغرق الاستنزاف الديبلوماسى ستة شهور لتحويل كامب ديفيد الى معاهدة سلام بين مصر واسرائيل . وحاول كلا الجانبين خدش بعض التنازلات التى ندموا على تقديمها فى استراحة (ميريلاند) . وبدأت اسرائيل برنامج طوارىء « لتدعيم » المستوطنات القائمة فى الضفة الغربية ، بالرغم من ان الكثير من عمليات التوسع كانت مستوطنات منفصلة فى كل شىء الا الاسم وقامت لجنة حكومية فرعيسة ، يرأسها مدير عام مكتب رئيس الوزراء ، (الياهو بن اليسار) بازالة بريق تعريف اسرائيل للحكم الذاتى حتى يقل ما يمكن ان يتفاوض حوله الفلسطينيون . وعلى سبيل المثال ، كان من المقرر ان تبقى اراضى الدولة وموارد المياه تحت السيطرة الاسرائيلية . وذلك من شأنه الابقاء على خيار الاستيطان اليهودى قائما ، فى الوقت الذى يحتفظون فيه باستخدام اسرائيل لحق الفيتو بشان توسيع القرى والمدن العربية . ولم تتم مناقشة مثل هذه التفاصيل فى كامب ديفيد ، حيث تم النظر اليها على انها متشابكة للغاية بحيث لايمكن ان تشكل اطارا عاما . وسارع الاسرائيليون بملء الفراغ ولاسيما بعد ان جعلتهم محاولة الامريكيين كسب ود الملك حسين واقناعه بالانضمام الى عملية السلام يلتزمون جانب الحذر واصيبت ادارة كارتر بخيبة امل لان السادات أغفل التوقف فى عمان ليقوم بالمهمة بنفسه . وقامت الادارة بالتعويض عن ذلك بتسليم اجابات مكتوبة على الاسئلة الأردنية بشأن دلالات كامب ديفيد ، بالاضافة الى نسخة تم تقديمها لبيجين كدلالة على النية الطيبة . وشعر بعض الديبلوماسيين الامريكيين بالاسف فيما بعد لان ديبلوماسيتهم كانت مكشوفة الى هذا الحد ، الا انه لم يكن بمقدور سيروس فانس ووكيل وزارته (هارولد سوندرز) اللذان احضرا الرسائل الى الشرق الأوسط ايجاد بديل آخر مشرف . ولم يكن هناك شىء فى الاجابات لم تعرفه اسرائيل بالفعل ، الا انهم أوضحوا التفسيرات الامريكية بشأن قضايا مثل وضع القدس — التى جاهد بيجين للابقاء عليها خارج وثائق كامب ديفيد . ورد رئيس الوزراء الاسرائيلى على ذلك بالتهديد بنقل مكتبه الى شرق القدس العربية . وعلى الرغم من تودد الولايات المتحدة ، فان الملك حسين والزعامة المنتخبة للضفة الغربية اعطيا ظهرهما لكامب ديفيد . وكانوا يفتقرون الى القوة والجراة التى تمكنهم من القيام بمقامرات السادات . وحاول الرئيس المصرى التعويض عن موقفه بجعل المعاهدة تتوقف على التقدم الذى يتم احرازه بالنسبة

للفلسطينيين ، الا أن بيجـين الذى كان قد تجنب الوقـوع فى ذلك الشرك فى كامب ديفيد لن يقع فيه الآن .

وصدقت الحكومة الاسرائيلية على اتفاقيات كامب ديفيـد التى حصلت على موافقة احد عشر صوتا ومعارضة صوتين وامتنع عن التصـويت حاييم لاندوا نائب بيجين الاكثر اخلاصـا . اما الكنيست فقد صـدق عـلى الصفقة ، التى تشمل الجلاء عن مستوطنات سيناء ، بعـد مناقشة استغرقت ١٧ ساعة وانتهت فى الساعة الثالثة صباح يوم ٢٨ سبتمبر . وكانت نسـبة التصويت ٨٤ صوتا ضد ١٩ صوتا وامتناع ١٧ . ومن بين الاصوات الـ ٨٤ التى قالت « نعم » لم يقدم اعضـاء الائتلاف منها سوى ٧٤ صوتا . اعطى الاعضاء الليبراليون فى كتلة ليكود أصواتهم لصالح الاجراء ، الا ان حـزب حيروت قد انقسم على نفسه ولم يعط الا ما دون النصف وما كان بيجـين ليفوز بالتصـويت بدون مساندة حزب العمل المعارض . وسحب عضوان من حزب حيروت كان من المقرر ان يشغلا منصبين رئيسيين فى حكومـة بيجين الثانية ــ وهما اسحق شامير وموشى آرينز تاييدهما وامتنـع عن التصويت شامـير وزير الخارجية فى المستقبل فقـد صوت ضـده وكان شامير فى ذلك الوقت رئيسا للكنيست (فى اسرائيل يظل رئيس الكنيست سياسيا للحزب وله حق التصويت) وكان ارينز يشـغل منصب رئيس لجنة الشئون الخارجية والدفاع فى الكنيست . وهنـاك أشخاص آخرون فى كتلة ليكود امتنعوا عن التصويت من بينهم وزير المالية القادم (ايجـال هورفيتز) وخليفته (يورام اريدور) بالاضافة الى (ايتـان ليفى) رئيس العمليات فى جماعة (ارجـون زفاى ليومى) . وفى واشـنطون ، اشار الرئيس كارتـر فى يومياته الى أن التصويت كان دلالة لافتة للنظر على الشجاعة ، الشجاعة السياسية من جانب مناحيم بيجين رئيس الوزراء ، الذى كان عليه أن ينتهك التزاماته السابقة طوال حياته ويخرج عن أصدقائه وحلفائه الذين قدموا لـه العـون والحماية خلال ايامه الثورية . ولم يكن الرئيس الامريكى سعيدا الى حد كبير بالنتائج . لقد اظهرت عمليات الانشقاق مدى الضغط الذى شـكله اتفاق كامب ديفيد على ولاء حيروت للقائد القديم . كما رفض بيجين وامنـاء حزبه طلبا بتقديم الاتفاقيات للجنة المركزية قبل عرضها على الكنيست الا ان ثقل الانشقاق فى صفوفه دعم اعتزام الرئيس الا يتقدم شبرا واحدا عما وقع عليه فى يوم ١٧ سبتمبر . وكبح جماح عملية السـلام واصر على توسيع نطاق المسئولية الى اكبر حـد ممكن فى الحكومة بالنسبة للقرارات التى يتم اتخـاذها فى المسـتقبل .

ومع ذلك ، فمن الناحية الرسمية ، مهدت الاصوات فى الحكومة والكنيست الطريق امام استئناف المفاوضات . وكانت الحكمة التقليدية السائدة هى أنـه

تم حـل ٩٨ ٪ فقط من المشكلة ، مع ترك ٢ ٪ ليتم تسويتها قبل التوقيـع على معاهدة السلام . وتوجه موشى ديان وعزرا وايزمان الى واشنطون لحضور مؤتمر (بلير هاوس ، الا انهما سرعـان ما وجدا انه ليس امامهما ولا أمام المصريين المقابلين لهما حرية للمنـاورة . وتدخلت الحـكومة فى القدس فى كل مرحلة . وبعد اتفاق كامب ديفيد انخفضت درجة ثقة زملائهم فى وزير الخارجية ووزير الدفاع أكثر من أى وقت مضى . وكانت تتم اعادة كل نقطة الى قاعدتها الاصلية . وبرهنت القضـايا المستعصية على انها تتمثل فى وضـع تاريخ محدد لانشاء نظام للحكم الذاتى فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، وربط معاهدة السلام بالحكم الذاتى ، واستمرار حصول اسرائيـل على بترول سـيناء ، بالاضافة الى اصرار بيجين على أن تكون لمعاهدة السلام أولوية على التزامات مصر بالنضال الى جانب اشقائها العرب فى أى حرب تنشب فى المستقبل مـع الدولة اليهـودية .

وفى منتصف شهر نوفمبر ، بعد مرور عام واحـد على زيارة السادات الى القدس قبلت اسرائيل المشروع الامريكى الاول ، اما مصر فكانت مازالت تتمسك بالرفض . وادت نسبة الـ ٢٪ الاخيرة المتبقية من المشـكلة الى نقـل المفاوضات الى شتاء ١٩٧٨ — ١٩٧٩ الكئيب . وتم ايفاد سيروس فانس للشرق الاوسط للقيام بدبلوماسية مكوكية . وذهب ديان الى بروكسـل لاجراء محـادثات مع مصطفى خليل رئيس الوزراء الذى كان قد عـاد فى ذلك الحين مـرة أخرى الى كامب ديفيد . ورفض بيجين دعوة للذهاب الى واشـنطون لاجراء محادثات مع مصطفى خليل واصر على الا يتعامل الا مع السـادات . وعلى الرغم من المنصب الذى كان يتمتع به مصطفى خليل فهو لم يكن الطـرف المناظر له . واخيرا امكن اقناع بيجين بزيـارة كارتر على أمل ان يلحق به السادات ، بينما استمر ديان فى محادثاته مع رئيس الوزراء المصرى بالتدقيق فى كل فقرة فرعية . واثار (بيجين) مخاوف فى وزارة المالية عنـدما تعهـد فى احدى لحظاته الخيرة على شاشة التليفزيون الامريكى بأن اسرائيل ستقوم بالسـداد حتى آخر سنت من الثلاثة بلايين دولار التى من المقرر ان تتلقـاها اسرائيل من الولايات المتحـدة لاعـادة نقل توزيع قواتهـا من سـيناء الى النقب . وكانت وزارة المالية تعتمد فى حساباتها على أن يتخـذ ثلث اجمـالى ما تحصل عليه على الاقل شكل منحة وليس شكل قرض . وكانت الايماءات تعنى لبيجين الكثير على الدوام أكثر مما تعنيه الارقام .

وقبل أن يستطيع اى فرد أن يكون واثقا من النجاح بفترة طويلة ، اعلنت لجنة نوبل انها تمنح جائزة السلام الخاصة بعام ١٩٧٨ لكل من مناحم بيجين وأنور السادات . وكان النرويجيون على الاقل مازالوا يراهنون على كامب

ديفيد . وتلقى الزعيم الاسرائيلى الانباء مساء يوم الجمعة الموافق ٢٦ اكتوبر ، الا انه لـم يـرد علانيـة حتى نهـاية يوم انسبت عنـدما كان يسـتضيف (ارتور روبينشتين) عازف البيـانو على الشاى فى مقره فى القدس فى ملتقى شارعى بلفور وسمولينسكين ، وتبادل السادات وبيجين التهانى تليفونيا . وكانت الجائزة هى الوسلم النهائى للاعتراف الدولى لرئيس الجماعة السرية ، الا انها جاءت فى وقت حرج بالنسبة للسادات ، الذى يدرك بعـدم ارتيـاح عزلته فى العالم العربى وحساسية موقفه فى مصر .

وطار بيجين واليزا الى اوسلو يوم ٩ سبتمبر ومعهما حاشية من الأقارب والاصدقاء وشخصيات اسرائيلية ويهودية أمريكية . وبقى السادات فى منزله ، وارسل سيد مرعى مساعده الخـاص ليتسلم الجـائزة نيابة عنه . وكسب الديبلوماسى المصرى المرموق قلوب مضيفيه النرويجيين عندما وقف عند مطار اوسلو فى درجة حرارة اقل من ١٨ درجة مئوية وشكرهم على استقبالهم الحار . اما عائلة بيجين فقد تم نقلهـا من المطار الى القصر الملكى فى طائرة هليكوبتر حمراء وبيضاء اللون تحرسها طائرتا شرطة هليوكوبتر مسلحتان . ولم ينتهز النرويجيون هذه الفرصة ، فقد بقى الفائزان بجائزة نوبل للسـلام بصـورة طبيعية فى أحد الفنادق وتلقيا جائزتهم فى قاعة جامعة اوسلو . وفى ذلك العام بقى بيجين وزوجته فى القصر الملكى وجرى الاحتفال فى اليوم التالى فى حصـن (اكرشوس) الذى يعود الى القرن الرابع عشر والقصر والحصن من اكثر الاماكن تحصينا فى البلاد . اما سيد مرعى فقد بقى فى جراند اوتيل .

واستضاف الملك (أولاف الخامس) عائلة بيجين على العشاء فى جناحه الخـاص من القصر وكان أعضـاء العائلة المالكة قـد قرأوا كتـاب « الليالى البيضـاء » وكانوا تواقين لسـماع تجارب بيجين فى معسـكر العمـل السوفيتى (وعلى اية حال كان الكتاب اكثر أمنـا من كتاب التمـرد) . الا ان حيوية المناسبة قد انقضت نتيجة لوفاة جولدا مائير فى اسرائيل ونتيجة للشعور بأن الجائزة هى شيء تافه سـابق لاوانه . وقال معلق اسرائيلى يحب التماثيل والايقونات ان الشيء الذى يريده شعب اسرائيل ليس جوائز السـلام وانمـا هـو السلام نفسه وتساءل قائلا « أين الطفل ثمرة الاتفـاق » وفى القلعـة النرويجية الكئيبة التى ينتشر فى شرفاتها حراس مسلحون وكلاب بوليسية ، لم يثر حديث الموافقة على الاتفاقية الذى أدلى به بيجين دهشة أحـد ، وهو رابع حديث يقـراه من نص مكتوب فى غضـون ثلاثين عاما من الخطـابة الارتجالية المتدفقة . ارتفعت نبرة الكلمات وهـو يتذكر الستة ملايين شخص الذين راحوا ضحية الابادة ، وحظى (جابوتينسكى) و (جاريبالدى) ما يستحقانه من تكريم . واصر بيجين على أن شعب اسرائيل فاز أيضـا بالجائزة وليس فقط رئيس وزرائه .

ورفع يده ممسكة بحقه فى الجائزة ومقدارها ٨٥٫٠٠٠ دولار معلنا تبرعه به لمؤسسة اسرائيلية تقدم منحا للطلبة المتطوعين الذين يقومون بتعليم الاطفال المتخلفين .

وفى الخارج فى الشارع الملىء بالصقيع ، تقدم عدة آلاف من الشباب النرويجى فى عملية احتجاج يحملون فيها المشاعل خلف اثنى عشر شخصا من العرب يحملون رايات فلسطينية . وكان كثير من هؤلاء الشباب النرويجى يرتدون الكوفية على رؤوسهم وكانوا يهتفون قائلين : «بيجين ارهابى ساندوا منظمة التحرير الفلسطينية » ! .

ونجا السادات بصورة أو بأخرى من غضبهم . ورفضت وزارة الخارجية النرويجية باعلانها حيادها الخاص بمنطقة الشمال ، السماح للمتظاهرين بعقد اجتماع للتعبير عن الاحتجاج فى قاعة جائزة نوبل التقليدية بالجامعة ، الا انها اوردت نبأ المسيرة فى بيانها الرسمى حول احداث اليوم .

وكانت زيارة الرئيس جيمي كارتر لكل من القاهرة والقدس فى شهر مارس عام ١٩٧٩ محاولة أخيرة يائسة كان الرئيس يقامر بمكانته فى التوصل الى اتفاق . وقد أزعجه عدم الثقة المتبادل وعدم الانسجام الشخصي بين بيجين والسادات . وكان بيجين فى اكثر حالاته بخلا عندما ذهب الى واشنطون فى بداية الشهر وفى اول اجتماع لهم فى المكتب البيضاوي فى البيت الأبيض وجد كارتر رئيس الوزراء الاسرائيلى «قويا للغاية وسلبيا وواثقا من نفسه فيما يبدو » وحذره من النتائج العكسية للفشل ومن الخطر النهائى الذى سيهدد اسرائيل اذا سمح بيجين لبلاده بان تصبح معزولة عن العالم بسبب تعنتها أو قيامها باعمال عدوانية أو القاء بيانات « وذهبت الولايات المتحدة الى أقصي ما تستطيع عمله بتقديم لغة وسط ، الامر الذى تحسر عليه الرئيس ووصفه بأنه «رد غير ايجابى من الناحية العملية من جانب اسرائيل» وقال بيجين فى اليوم التالى انه لم يخلد الى النوم ليلة أمس نتيجة لشعوره بالقلق تجاه النقد القاسي الذي صدر من الرئيس. وكانت النتيجة التوصل الى حل وسط بارع بشأن أولوية التزامات مصر (تجاه اسرائيل والعرب) وهو الامر الذى يعنى شيئا للقدس بينما يعني عكسه للقاهرة . وكان اذعان بيجين بمثابة اعتراف تكتيكى بأنه على الرغم من أن القضية نفسها حرجة ، الا انها لن تتقرر بقصاصة من الورق . واذا حدث أن اضطرت مصر للاختيار بين السلام والتضامن العربي القومى ، فلن تتأثر بفقرة فى المعاهدة . واذا انضمت الى جبهة الحرب ، فستنتهي المعاهدة نفسها .

وسافر كارتر الى القاهرة وهو يدرك تماما أن الرحلة التى لا تحقق شيئا ستجسد الفشل ، الا انه ليس بوسعه أن يرى طريقا افضل الى الامام .

وكان السادات مستعدا لتقديم المساعدة وعرض تبادل السفراء مع اسرائيل مقابل الارض واشار الى اتفاق لبيع البترول عن طريق الامريكيين . وكانت المقارنة أكثر وضوحا عندما ذهب الرئيس الى القدس . وأبلغ بيجين كارتر بانه لن يوقع حتى بالحروف الاولى من اسمه على الاتفاق بدون أن يعرضه أولا على الحكومه والكنيست وسأله الرئيس عما اذا كان يريد السلام حقيقة. وكتب يقول في مذكراته .. لقد كان انطباعى أنه فعل كل شيء بوسعه لعرقلة التوصل الى اتفاق باستساغة واضحة « وكان بيجين فيما يبدو يعـرقل المعاهدة وبدء محادثات الحكم الذاتى » . وكان كل همه الاحتفـاظ بكافة الاراضى المحتلة باستثناء سيناء ، وبدا غير مكترث بمأسـاة العرب الذين يعيشون محرومين من الحقوق الاساسية فى ظل الحكم الاسرائيلى .

وكان بيجين متوترا بصورة لا مثيل لها ، ومؤمنا بالقـدر ومصمما على ألا يملى أحد عليه شيئا عندما جاء كارتر لالقاء حديث فى اجتماع خاص للحكومة فى صباح اليوم التالى . ووقف منتصبا ليلفت الانتباه ومعه اثنان من مساعديه ينتظرون الترحيب بالضيف عند باب مبنى مكتبه . وسمعه أحدهم وهو يغنى بلا نغم من بين أسنانه المطبقة قائلا (آنى ما أمين) وهى الترنيمة اليهودية للايمان وتعنى (اننى أؤمن) وهى نفس الترنيمة التى كان يغنيها الآلاف من ضحايا هتلر وهم يدخلون غرف الغـاز . وذهب كارتر فى نفس اليوم الى (ياد فاشيم) وهو النصب التذكارى للابادة فى جانب جبل (هيرتزل) . وخلال اجتماع الحكومة صرح الرئيس للوزراء الاسرائيليين بأنه يتعين عليهم أن يوافقوا . وحينذاك قاطعه بيجين قائلا : « سنوافق على ما اتفقنا أن نوافق عليه » . وطبقا لما ذكره شاهد اسرائيلى أجاب كارتر بقوله : « أننى أفهم » وانتهى الاجتماع بوصول اسرائيل والولايات المتحدة الى طريق مسدود بشأن مسألتين : وهما مبيعات البترول المضمونة وطلب مصر الخاص بفتح مكتب اتصال فى غزة ، التى كانت تحكمها فى الفترة من عام ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧

وتجلى نفاد صبر الرئيس فى حديث أدلى به بعد ظهر ذلك اليوم أمام الكنيست وقال فيه ان « شعب البلدين على استعداد الآن للسلام » . « ولم يبرهن الزعماء بعد على أننا على استعداد للسلام لدرجة تدفعنا لانتهـاز هذه الفرصة » . وتم تقديم هذه النقطة ببراعة ، لكن لم يكن هناك أحد فى المجلس يساوره أى شك بشأن أى الزعيمين الذى كان يدور فى خلده . وكان رد بيجين يتعرض لمقاطعة مستمرة من أقصى اليسار وأقصى اليمين . وتم طرد (جيؤلا كوهين) ناقدته الوطنية الشديدة الصخب من الكنيست بعد رفضها السـماح لرئيس الوزراء بالمضى قدما . وصاحت وهى على البـاب تقول « ساواصل نضالى » وشعر الامريكيون بالصدمة نتيجة للضجة بالرغم من انهم تظاهروا بانهم تاثروا بحيوية الديمقراطية الاسرائيلية . وقال سيروس

فانس « لقد شهدنا البرلمان البريطانى » ، لكن ذلك أســـــوأ من البرلمان البريطانى ، وكان ذلك يوما مفعما بالضجيج » .

ولاحظ الصحفيون الذين يتسمون بالتبصر أن موشى ديان غادر بـــاب المجلس وصعد الى أعلا ليهمس الى وزير الخارجية فى قاعة الزوار المرموقين. لقد جاء ليعتذر عن هذه الضجة التى يمكن تفسيرها بأنها أعمال فظة موجهة للرئيس . الا أن مهمته التى قام بها الى الدور العلوى كانت أيضـــا بدايـــة لمبادرة خاصة أدت فى غضون ٢٤ ساعة الى اتفاق ومعاهدة ســـلام ، واقترح وزير الخارجية اجراء حديث هادىء فى وقت متاخر من النهار ووافق سيروس فانس . وعلى أية حال كان من المقرر أن يجتمعا فى لقاء آخر بين الحكومـــة والامريكيين (وهذه المرة بدون الرئيس) . وطلب ديان من بعض رفاقه البقاء بعد مغادرة الامريكيين . واتفق الوزراء معه على أن اسرائيل لا يسعها أن تترك الرئيس يعود الى الوطن خاوى الوفاض من رحلته . وطبقا لما ذكـــره (نافتالى لافى) المتحدث باسم ديان ، فان ديان لم يكن يريد أن يثير عــــداء كارتر . وفى المقام الاول ، لم يكن يريده ان يشعر بأن اسرائيل هى السبب فى اخفاقه » . وقد كان يرى أيضا فى أفكار كارتر بعض الضوء ، وشىء يمكن تطويره وهو التزام أمريكى بضمان امدادات البترول ووضع غزة . وشـــعر ديان بأنه يستطيع الفوز باتفاق ، وطلب من شمويل تامير وزير العـــدل أن يصيغ عبارة من شأنها أن تلزم الولايات المتحدة بشأن امدادات البترول .

وعندما ذهب ديان ليرى فانس فى غرفته بالفندق بعد ذلك الاجتمـــاع الحكومى ، عرف كلاهما أن الخلافات الحقيقية ليست هامة للغاية ، الا أنه من الصعب لم شمل الاجزاء معا مرة أخرى . وطبقا لما ذكره أحـــد موظفى بيجين ، كان ديان أحد الرجال القليلين الذين يستطيعون اقناع رئيس الوزراء بقوه الحجة بتغيير تفكيره ، الا أن وزير الخارجية فضل التسلل فى هذه المرة . وقال فانس « اننى أعلم انه حصل من بيجين على بعض من حرية التصرف لكننى شعرت بأنه من المرجح كان يلح على التحرك على نطاق أوسع . وانني مقتنع بأن عليه أن يقنع بيجين بأفكاره بعد ذلك . وفيما يتعلق بقضية غـزة اقترح ديان اقناع المصريين بعدم الاشارة فى هذه المرحلة الى مكتب الاتصال. وهم يستطيعون على الدوام اقتراح اجراء انتخابات مبكرة فى غزة أثنـــاء مفاوضات الحكم الذاتى . وأكد أيضـــا على أنه بمجرد أن تبدأ اسرائيل فى الانسحاب من سيناء وتسود العلاقات الطبيعية سيصبح بمقدور كل مصرى السفر الى غزة بتأشيرة اسرائيلية . وتقبـــل فانس ذلك بشرط أن تلتقى اسرائيل مع السادات فى منتصف الطريق بشأن مبيعات البتـــرول . وكان المصريون يشعرون بحساسية تجاه مكافأة اسرائيل على سيناء ببيع بترولها بسعر منخفض وأدرك ديان مشكلتهم . وبعد ذلك درس هو وفانس دلالات

الضمان الامريكى . وأصر ديان على فقرة فى معاهدة السلام تنص على أن اسرائيل من حقها شراء البترول مباشرة من مصر ، وخلاف ذلك تظل مصر تحترم المقاطعة العربية . وستقتنع اسرائيل بحق شراء البترول المصرى بأسعار السوق . بالاضافة الى ضمان أمريكى مدته عشرين عاما للتعويض عن العجز اذا توقفت الامدادات . وبناء على اقتراح وزير الخارجية وجه كارتر دعوة اليه والى بيجين لتناول الافطار فى فندق الملك داود فى اليوم التالى. وتقررت الصفقة أثناء تناول عصير البرتقال وبدلا من المقامرة بازعاج بيجين ، ترك ديان لفانس أن يحتل مكان الصدارة فى تقديم أفكارهما . وأعاد وزير الخارجية الى الاذهان ما يلى :

« لقد اخذنا على عاتقنا فى صباح ذلك اليوم بحث الموضوع كما لو كنا نمسك بزمام المبادرة ، وأعتقد أن هذه هى الطريقة التى كان يريدها موشى ديان . وفى تقديرى فانه من المرجح أنه قدم ما توصلنا اليه الى بيجين باعتباره مبادرة أمريكية الى حد كبير . وقد تركت له الامر ليقدمه الى بيجين بالطريقة التى يفضل تقديمه بها » .

واتت استراتيجية ديان بشأن المبيعات بثمارها . ففى حفل توديع الرئيس فى مطار بن جوريون تمتم بيجين الى كارتر قائلا : « لقد نجحتم . واجتمع الرئيسان الامريكى والمصرى فى مطار القاهرة ، ووافق السادات بالفعل على تبادل السفراء فى وقت مبكر (وهى ايماءة للعلاقات الطبيعية) ووافق على مد خط للانابيب من حقول البترول الى اسرائيل والكف عن الدعاية المناهضة لبيجين (المناهضة للسامية فى اغلب الاحيان) فى الصحف المصرية . ولم يشعر مستشارو السادات بالثقة تجاه الصفقة ، الا انه قطع عليهم الطريق كالمعتاد بقوله « ذلك مرض بالنسبة لى » . واتصل كارتر ببيجين تليفونيا وتم الاتفاق على ان يجتمع الزعماء الثلاثة معا من جديد حاملين معهم انباء طيبة لحضور حفل التوقيع على المعاهدة فى البيت الابيض يوم ٢٦ مارس . وفازت اسرائيل بأول معاهدة سلام لها ، وكان من الجائز الا يصل بيجين ابدا الى هذه النقطة بدون ترتيبات ديان ووايزمان وباراك ، الا انه كسب الثقة بالقيام بالمخاطرات السياسية وبتحديد التضحيات التى سيقدمها والتى لن يقدمها . وعلى الرغم من الصور الفوتوغرافية المبتسمة الا أنه لم يكن سوى عدد يسير من الاصدقاء على الطريق . وكان تعليق كارتر على هذه المشاركة المثيرة للسخط هو « اننى لم اتمتع فى الغالب ابدا بمفاجاة سارة فى معاملاتى معه » .

وكان السادات أكثر سخاء بمجرد أن صدق بيجين باعادة العريش ، العاصمة المغبرة لسيناء ، الى مصر فى يوم ٢٥ ابريل . وطبقا لما ذكره

بطرس غالى نائب وزير خارجية مصر الدائم فان السادات حينذاك فقط بدا يثق فيه . وقدم بيجين ما التزم به . وتمت مكافآته بصورة مناسبة فى حملـــة انتخابات عام ١٩٨١ عندما قبل السادات دعوة لحضور اجتماع قمـــة فى شرم الشيخ كان من شأنه ان يكون عملا استعراضيا صرفا . وقال غالى : كان السادات يؤيد اعادة انتخاب بيجين . وفى تقديره فان فوز بيجين سيكون افضل بالنسبة لمصر ، كانت أولويته هى الانسحاب من سيناء . وقد اعتقد انه بدأ العملية مع مستر بيجين ومستر بيجين قدم فى المرة الأولى وسيقدم فى المرة الثانية . وكان لطيفا مع بيجين ليضمن استكمال الانسحاب من سيناء .

وترك آخر جندى ومدنى اسرائيلى الارض المصرية يوم ٢٥ابريل عام١٩٨٢ أى بعد مرور ثلاثة أعوام على اعادة العريش . وفى ذلك الحين كان السادات قد اغتاله المتعصبون المسلمون وحل محله نائبه حسنى مبارك. اما مناحيم‌بيجين فكان‌لايزال رئيسا لوزراء اسرائيل، ومازال يحكم‌الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة . واندثرت فى الرمال مفاوضات الحكم الذاتى . وكانت المصالحة الاسرائيلية المصرية اشبه ببرعم اوقف الصقيع نموه وظلت الحدود مفتوحة ، الا ان المرور كان فى اتجاه واحد ونادرا ماكان السائحون‌المصريون يزورون اسرائيل اما التجارة فكانت مجمدة ، وتلاشت العلاقات الثقافية . الا ان معاهـــدة السلام اجتازت اختبار الحرب اللبنانية عام ١٩٨٢ . وبعد مذبحة مخيمى صابرا وشاتيلا ، استدعى حسنى مبارك الى الوطن سفيره فى اسرائيل لاجراء مشاورات غير محدودة . ومع ذلك ، لم يتم اغلاق السفارة والحدود ولم تصلصل مصر بالسلاح وظلت « اولوية الالتزامات » سارية المفعول . وفى شهر نوفمبر عام ١٩٧٧ كان الناس فى شوارع القدس يأملون فى شيء اكثر .

الفصل الواحد والعشرون

فرق تسد

كان مناحم بيجين مخلوقا متقلب المزاج . وكانت الحكومة تتأرجح مثل البترول بين اليأس والرجاء ، وبين الشلل والنشاط المحموم طبقا لحالة رئيس الوزراء العقلية والجسدية ، ولقد شهدت السنتان المتدتان بين معاهدة السلام مع مصر والانتخابات العامة فى ٣٠ يونيو عام ١٩٨١ هذا التذبذب فى أشد صوره . وظل بيجين الشخصية المسيطرة ولم تكن الحكومة لتستطيع أن تفعل شيئا بدونه . وكذلك فان الحكومة لم تكن تستطيع أن تفعل شيئا وهو على راسها . ولقد استقال اشد الوزراء استقلالية فى الفكر وهما موشى ديان وعزرا وايزمان فى اكتوبر عام ١٩٧٩ وفى مايو عام ١٩٨٠ على التوالى . فلم يعد بيجين فى حاجة لديان لخبرته أو لشهرته . فهو لم ينس خروج ديان على النظام اثناء مفاوضات السلام . وسرعان ما ادرك ديان انه لم يسمح له بعد ذلك بان يمارس دبلوماسيته الخاصة . ولقد هاج وايزمان وغضب وثار وماج وتزايد شقاؤه لان بيجين كان يعرض السلام للخطر بنظرته الصارمة لموضوع الحكم الذاتى الفلسطينى وكتب وزير الدفاع فى خطاب الاستقالة يقول : « بالنسبة لشعب اسرائيل كانت ايام مليئة بالثراء والامال فى فترة توليكم رئاسة الحكومة . ولقد امن الشعب بالحكم وامن بالسلام . ولم يكن الشعب هو الذى توقف عن الايمان بالسلام .

وفى نفس الوقت فان فشل سمحا ارليخ فى سياسته الاقتصادية القائمة على السوق الحرة ، قد اصبح فشلا يزداد وضوحا يوما بعد يوم . وحل بيجال هورفتز محل وزير المالية وهكذا انفجرت الاسطورة القائلة بان رجال الاعمال الاحرار كانوا يعرفون كيف يرعون ويعتنون بالاقتصاد . وكانت لدى هورفتز الذى تحول بسرعة وثبات ناحية اليمين بعد أن اختلف مع الحركة العمالية فى بداية عهد بن جوريون ، الشجاعة لان يفرض القيود الضرورية على الانفاق العام . وقد عرف باسم « ليس عندى » أو « لا أملك شيئا » . لكن جهوده لم تثر الا سلسلة من الازمات داخل الحكومة . وكانت تنقص هورفتز القدرة على اجبار زملائه فى الحكومة على الموافقة على أسلوبه . أما رئيس الوزراء فكان غير مبال . لقد كان شغل بيجين الشاغل هو النضال من أجل أرض اسرائيل » ومعركة من أجل الحفاظ على الوفاق بين الائتلاف وحزبه .

وفى النصف الثانى من عام ١٩٨٠ غرق بيجين فى واحدة من دوامات اليأس . وكان فى هذه المرحلة قد عانى من ثلاث أزمات قلبية ومن حالة

شلل خفيفة . وقد برزت أثار هذه الازمات . واخـذ الوزراء يشتكون من عجزه عن القيادة . ووجـده الزائـرون فاتر الشـعور غـير مبال ومنعـزلا وعاطفيا . وفى اغلب الاحيـان كان لا يعرف من هم هؤلاء الزوار ولا لمـاذا أتوا . وجـاء وفد من « رابطة الصحافة الاجنبية » يسجل دور بيجين بصفته قائما بأعمال وزير الدفاع بعد استقالة وايزمان ، ولكنه خرج من مكتبه فى حالة احباط واشفاق . وقد اقتنعوا تماما بأن بيجين كان يخبو نجمه بسرعة كبيرة . وقد أكد الشهود العسكريون ما أشيع فى الصحافة الاسرائيلية بأنه كان ينام اثنـاء مناقشاته معهم . والقول بأنه كان يعانى من الاثار الجانبيـة للادوية التى تعاطاها لمعالجة قلبه قول بعيد عن الدقة . لقد كان بيجين يتعاطى بانتظام علاجا مضادا لتجلط الدم . وعندما سأل احـد مساعديه دكتور ميرفن جوتسمان طبيب رئيس الوزراء الخاص عن أثر هذا العـوج اجابه الطبيب بأن هـذه الادوية لا تؤثر فى قدرة بيجين العقلية . لقـد كان متعبا بسبب مرضـه واكثر ما يمكن أن تفعله هذه الادوية هو أن تصيبه بالنعاس . وقد نصـحه الاطباء بان يقصر عمله اليومى على اربع ساعات فقط . وقال أحـد رجـال مكتب بيجين أن رئيس الوزراء قد استمر فى تسيير الامـور الهامة للدولة وهـو على فراشـه فى المستشفى بعد اصابته بأزمة قلبية .

« انه ابدا ما بلغ من العجز الى حد الاستسلام . وفى احـدى المـرات وكان فى المستشفى بعـد اصابته بسكتة خفيفة ، اخبرنا الاطبـاء انـه ليس من المحتمل استعادة قوة ابصاره فى عينـه اليسرى . ولكنه ظـل يملى المذكرات والخطابات . وبعد شهرين ، وفجأة وهو فى مكتبه برئاسـة الوزراء استعاد بصره قوته السابقة وقال : « اننى اسـتطيع أن ارى — بوضـوح تـام » . ولم يكن هنك ما يـدل على انه كان واقعـا تحت تأثير الادويـة والعقاقير . انه رجـل يخضع لاحواله المزاجية والتى تسـير جنبا الى جنب مع كيانه العاطفى . اننى لم اره قط وهـو اثنـاء عمله اليـومى خاضـعا لنظام أدوية مكثف وصارم . واننى لم اره قط ينظر الى ساعة ليتناول جـرعة دواء كل ساعتين » .

وفى اثناء أحد اجتماعات مجلس الوزراء وعندما غرق فى حالة من حالات الوسوسة اقر وزير الداخلية يوسف بورج ورقة لاحـد زملائه جـاء فيهـا : « اذا كان هذا ما تفعله هذه الحبـوب فاننى اريد مثلهـا لى » . وفى مناسبة اخرى ، وعندما كان بيجين فى اسـوأ حالاته دخـل الى قاعـة الكنيست واتجـه فورا الى مقعد زعيم المعارضة والذى ظـل يشغله حتى عام ١٩٧٧ . وجـاء أحد رجال الكنيست واوضح له فى لطف الخطـأ الذى وقع فيه وقـاده الى مقعده الحقيقى كرئيس لمجلس الوزراء .

كانت حكومة مناحم بيجين هى الاولى فى التاريخ البرلـمانى الاسرائيلى التى تواجـه فيه اجراء انتخـابات مبكرة وباختيارها . وقد اتخـذ هـذا

القرار فى يناير عام ١٩٨١ وذلك بعد أن اعترف هورفنز بالهزيمة فى محاولته خفض ميزانية التعليم ونقل مجموعة رائى التى يراسها وتتكون من ثلاثة رجال الى جانب المعارضة . وكانت أغلبية الحكومة قد انخفضت الى ثلاث أصوات فى تصويت الثقة قبل ذلك التاريخ بشهرين فقط . وعندئذ فضل بيجين ان يرجع الى الشعب بدلا من أن يتشبث بالبقاء تحت رحمة الجماعات المنشقة والانتهازيين . وبالرغم من احتجاجات المعارضة فانه حدد موعد الانتخابات يوم ٣٠ يونيو وخرج رئيس الوزراء من اجتماع خاص لمجلس الوزراء وهو يبدو اكثر اشراقا ومرحا من أى وقت منذ عدة أشهر . ولكن احتمالات تشكيل بيجين لحكومة جديدة بدت قائمة وغير محتملة ووضعت قياسات الرأى العام حزب العمل فى مركز متقدم كثيرا حتى ان مستر شيمون بيريز ظهر وكأنه سوف يكون بعد نهاية الانتخابات أول زعيم اسرائيلى يحقق اغلبية ساحقة . لقد خسر بيجين وزيرين للمالية فى غضون ثلاثة عشر شهرا . كان بيجين فى سنة ١٩٧٦ قد هاجم حكومة اسحق رابين المترنحة لانها تركت التضخم يصل الى ٣٥ ٪ ووعد بان يخفض هذه النسبة الى النصف .

وفى عام ١٩٨٠ ارتفعت أسعار السلع الاستهلاكية بمعدل ١٣٢٫٩ ٪ واخذت الفجوة بين الاغنياء والفقراء فى الاتساع واشارت الدراسات الى ان ما لا يزيد عن ٣٠ ٪ من اليهود الشرقيين الذين ادلوا بأصواتهم فى صالح بيجين سنة ١٩٧٧ يزمعون تأييده هذه المرة . أما المنشقون عليه فانهم لم يكونوا راضين عن اداء حكومته فى الناحية الاقتصادية والاجتماعية بالرغم من انهم كانوا لا يزالون يؤيدون سياسته الامنية وسياسته الخارجية وسياسته ازاء المستوطنات . والشىء الذى جذب قليلا من الانتباه فى يناير هو أن ٣٧٪ من مجموع الناخبين لم يكونوا قد قرروا بعد أى المرشحين ينتخب . وأوضح قياس للرأى العام نشرته صحيفة ها أرتز اليومية انه بالرغم من ان ٥٥ ٪ يريدون تغييرا فوريا للحكومة ، الا أن ٣٩٫٧ ٪ من الناخبين لم يكونوا يعتقدون ان حزب العمل فى امكانه أن يكون أحسن حالا فى المجال الاقتصادى . لقد كان الاسرائيليون قد تحرروا من سحر بيجين ولكنهم لم يتكتلوا وراء بيريز . لقد كان امام ليكود ما يحاربون من اجله وأمامهم متسع من الوقت يبلغ ستة أشهر .

ان احياء ليكود لم يضع أساسه بيجين إنما الذى وضعه خليفة هورفنز وهو يورام اريدور وهو من جيل سابق سنة ١٩٤٨ . وكان اريدور أول وزير مالية اسرائيلى يحمل درجة علمية فى الاقتصاد . ولكن هذا لم يمنعه من أن يقدم برنامجا انتخابيا دفع بالتضخم الى أعلى أكثر من ذى قبل ويصل بميزان المدفوعات الى الخط الاحمر . ولا شك ان أساتذته قد

علموه انه لا يمكن علاج التضخم عن طريق تشجيع المستهلكين بالاندفاع نحو شراء السلع الكمالية . ولكنه كان سياسيا يدرك أن هذا هو السبيل نحو كسب الاصوات . وأدت ــ التخفيضات فى الضرائب الى خفض سعر التليفزيون الملون بنسبة تتراوح ما بين ١٠ و ١٥ فى المائة وخفض سعر السيارات الجديدة بنسبة تتراوح ما بين ١٠ و ١٧ فى المائة . وخفض الاسعار بنفس النسبة المئوية على الادوات والمعدات المنزلية والاثاث . وأعلن وزير المالية أن ضريبة الشراء المفروضة على النبيذ الحلو سوف تخفض الى النصف فى أول يوليو . وهو اليوم السابق للانتخابات . وفى خلال شهر أعلنت الغرف التجارية أن الاسرائيليين قد تقدموا بطلبات شراء ٨٠٠٠ سيارة جديدة و ٦٠٠٠٠ جهاز تليفزيون .. وجميع هذه السلع مستوردة من الخارج . واستأجر تجار الجملة طائرات الجامبو لمواجهة هذه الطلبات . ولقد ارتفعت مبيعات لسيارات وحدها بنسبة ٤٠٠ فى المائة . وكتب ماتى جولان فى صحيفة ها أرتز يقول ان سياسة اريدور قد نجحت :

« لقد بدأ الناس يسألون انفسهم هل سيدفعون غاليا بعد الانتخابات بسبب سياسة اريدور الاقتصادية الانتخابية كما يقول لهم خبراء الاقتصاد وكانوا ينصتون لما يقوله هؤلاء الخبراء ويهزون رءوسهم فى شك . فالاسرائيلى العادى لا يفهم كثيرا فى شئون الاقتصاد وهو بالتأكيد لا يفهم السياسات الاقتصادية طويلة الاجل . واليوم تنخفض الاسعار وهذا هو مايهمه . وحزب العمل لم يكن يعرف كيف يتصرف . فكيف له أن يقف ضد خفض الاسعار ولم يكن يعرف كيف يقف فى وجه هذه السياسة الاقتصادية غير المسئولة وغير الملجمة والتى وضعت من أجل الانتخابات » .

وسمع أحد المشترين فى القدس وهو يقول : « ان كل فرد يعلم اننا سوف ندفع الثمن فى نهاية الامر ولكن رغم ذلك فاننا نشترى . وربما لن تكون هناك فرصة كهذه الا فى الانتخابات القادمة . وبدت سياسة اريدور هذه تنعكس على قياسات الرأى العام . وفى منتصف شهر مارس بدأ حزب ليكود يستعيد الاصوات التى كان قد فقدها بينما كان حزب العمل يناضل من أجل الاحتفاظ بمواقفه . ولكن لا زالت الهوة بين حزب العمل وحزب ليكود واسعة، الا ان خطا جديدا قد بدأ يظهر . وبدأ الناخبون الشرقيون فى حسم موقفهم . ولقد أعطاهم اريدور الفرصة للعودة الى حظيرة ليكود . ولما تردد الاستراتيجيون فى حزب العمل فى الظهور فانهم بذلك قد أتاحوا الفرصة للحكومة لتأخذ المبادرة فى يدها .

وعند هذه النقطة من الحملة الانتخابية برز بيجين الى الوجود مرة أخرى كأقوى ما يكون منذ عودة لازاروس . ففى مقابلة اذاعية بمناسبة ذكرى

الثالث والثلاثين لمولد اسرائيل تفاخر بيجين بانه يشعر انه افضل من أى وقت مضى خلال السنوات الاربع الماضية ومنذ ان تولى رياسة الحكومة وقال معللا ذلك « لاننى فى قلب المعركة الآن » . كان حزب ليكود قد احــــرز النصر فى انتخابات سنة ١٩٧٧ معتمدا على اسم بيجين ولكن بدون ظهور الرجل نفسه ذلك لانه فى الشهرين الاخيرين من انتخابات عام ١٩٨١ حارب الحزب معتمدا على اسم بيجين وبشروط بيجين . ولجأ بيجين الى منبر الخطابة للمرشحين فى الانتخابات حيث أخذ يطمن أعداءه القدامى الواحد تلو الآخر بدءا بالحركة العمالية التى عاملته هو ورفاقه بالاحتقار لقرابة تســــعة وعشرين عاما والالمان الذين قتلوا ستة ملايين يهودى والشــيوعيين الذين بعثوا به الى معسكرات الاعتقال (الجولاج) والبريطانيين الذين علقوا مقاتلى جماعته فى المشانق . وكان رد فعل دائرته الانتخابية فى الاحياء الفقيرة فى المدن وفى المدن النامية المبعثرة مشوبا بالعاطفة وعنيفا فى معظم الاحيان . لقد كان بيجين ملكا لاسرائيل والخروج عليه ضرب من الخيانة . وكتب أحد محررى الصحف فىاسرائيل يقول : « يمكنك ان تقول لى أنك لن تشترى سيارة مستعملة من بيريز أما أنا فانى لن استأجر بيجين ليلاعب طفلى لانه سوف يخنقه » .

وكان أول عمل من اعمال التهديد وقع فى احتفال للجالية اليهــودية المغربية فى حديقة فى القدس فى نهاية عيد الفصح لقد جاء بيريز لكى يقــدم تحيات حزب العمل للجالية اليهودية القادمة من شمال افريقيا لكن الشــبان أخذوا يهزأون من ذكر اسمه والقوا عليه البرتقال والطماطم بمجرد أن صعد الى منبر الخطابة . واجبر على ترك المكان قبل أن ينطق بكلمة واحــدة . وانتشر العنف فى طول البلاد بينما تجاهل بيجين جميع الدعوات التى وجهت اليه ليكبح جماح اتباعه . واشعلت خطبه النار وزادت من تأججهــا وفى اجتماع شعبى لحزب العمل فى بتاح تكفا فى منتصف شهر يونيو أخذ ما يقرب من ٢٠٠ شخص من اتباع ليكود يصيحون فى وجه بيريز قائلين « بيجين ، بيجين ، ملك اسرائيل » . واخذوا يدحرجون البراميل المملوءة بالنفــايات والمشتعلة ويدفعون بها الى وسط الحشد البالغ عشرة آلاف ، واخـــذوا يحطمون النوافذ فى المقر المحلى لحزب العمل . واصيب ثمانية عشر شخصا والقى القبض على ٢٦ شخصا . وفى مواجهة مماثلة وقعت فى القــدس تم تهديد أحد مندوبى الصحف الاسرائيلية اذا ما ذكر اسم زعيم الجماعة التى رفضت السماح لبيريز بالحديث . واصبح العنف والكراهية هما المحــور الرئيسى فى الحملة الانتخابية . واستغل حزب العمل صورة لاحد مؤيــدى حزب ليكود وهو يلوح بمطواة فى اجتماع حضره بيجين . وأعادوا طبع صور الهجوم الذى وقع عام ١٩٥٢ على الكنيست . لقد قسم بيجين ، اليهودى البولندى ، البلاد الى شرق وغرب ولم تكن قد انقسمت كذلك من قبــل . وقويت الكراهية والاحقاد على الجانبين . وبالنسبة لليهود الغربيين كان

اليهود الشرقيون يشكلون تهديدا بدائيا للديمقراطية الاسرائيلية . وبالنسبة لليهود الشرقيين فان اليهود الغربيين متغطرسين ادعياء يخشــون فقــدان امتيازاتهم ، وهم أوربيون غرباء فى الشرق الاوسط . لقد كان صراعا بين الثقافات السياسية المختلفة كما هو صراع بين هذه الاصـــــول العرقية والعنصرية المختلفة . ولقد اتهم شلومو هيلل ، وهو زعيم عمالى ولد فى العراق ، رئيس الوزراء بأنه يدفع البلاد نحو الفاشية لقد كان هناك جو من التحفــز الاجتماعى الاشتراكى. وقد علمتنا التجارب بأن هذين العنصرين اذا ما امتزجا أديا الى الفاشية . ولقد كان بيجين يناشد القطاع الادنى من الجماهير

وبنفس هذه النشوة المتصاعدة دفع رئيس الوزراء بخطبة اسرائيل الى حافة الحرب مع سوريا وبعث بقواته الجوية لتصف المفاعل النــــووى العراقى . وانتشى بهذين الحدثين كبرهان على أنه هو الوحيد الذى يعرف كيف يتعامل مع العرب . وفى أبريل شنت ميلشيا الكتائب اللبنانية والتى دربتها اسرائيل ، هجوما فى شرق لبنان مهددة المواقع السورية بالقرب من مدينـــة زحلة الاستراتيجية . وكان رد فعل السوريين القصف المركز واعلن بيجين ان اسرائيل لن تقف مكتوفة اليدين فى وجه هذه الافعال الاجرامية من الدولة المجاورة لبنان . وضربت قواته الجوية قواعد الفدائيين الفلسطينيين فى جنوب لبنان . وفى ٢٨ ابريل اسقط طائرتين هليكوبتر سوريتين وقد وصفت هاتان الطائرتان بانهما من طائرات الهليكوبتر المهاجمة وان كان بيجين قد اعترف بعد ذلك بأسبوعين بأنهما كانتا تنقلان قوات واسلحة . وبرر التدخــــل الاسرائيلى بانه نتاج التجارب التاريخية وأثر من آثار اليهودية .

ولقد سأل السفير الامريكى صموئيل لويس ما أذا كان قد قرأ كتــــاب آرثر مورس بعنوان « بينما مات ستة ملايين » والذى سجل عدم اكتـــراث العالم الحر لعملية افناء يهود اوروبا واخبر رئيس الوزراء لجنة الشـــئون الخارجية والدفاع فى الكنيست بانه قرأ هذا الكتاب ست مرات وقال :

« فى كل مرة قرأت فيها هذا الكتاب لم اكن أخجل من انسياب الدموع من عينى عندما كنت اتخيل كيف اهمل شأن شعبنا اليهودى وترك وحده . لقد قتلهم الالمان لكن العالم تركنا نلقى مصيرنا . وقلت للويس » أريد ان أقول لك أننا دولة يهودية ولنا تجاربنا الخاصة بنا ، وأننا لن نسمح تحت أى ظــرف من الظروف ، للسوريين محاولة تحويل المسيحيين فى لبنان الى ما كان عليه اليهود فى أوروبا فى الاربعينات . ان السوريين مع الارهابيين يعاملون المدنيين تماما كما كان يفعل النازيون . انهم لا يهتمون اطلاقا بالرجال أو النســـاء أو الاطفال » .

وعلق اثنان من سياسى حزب العمل ، والاثنان كانا رؤساء اركان سابقين فى الجيش،وهما اسحاق رابين وحاييم بارليف قائلين فى تعجب ان مافعله السوريون لايشبه فى شىء النازية . ولم يكن هذا القياس او التمثيل ناجحا . واصر بيجين على انه بالرغم من أن السوريين لم يقيموا غرف الغـاز للمسيحيين اللبنانيين الا ان دباباتهم ومدفعيتهم تقوم بنفس العمل . وكان مناسبا لاهداف بيجين ان ينسى ويتجاهل ان اسرائيل هى التى سلحت الكتائبيين وانهم هم الذين تسببـوا فى هذا القصف . وكان يتكلم وكأن الحرب الاهلية اللبنانية لم تقع ابدا . ورد السوريون على اسقاط طائراتهم الهليكوبتر بان دفعوا بصواريخ سام — ٦ المتحركة الى وادى البقاع . وكانت هذه هى أول مرة يضعون فيها هذه الصواريخ فى الاراضى اللبنانية وطالب بيجين بسحب هذه الصواريخ قائلا انها تهدد حرية عمليات القوات الجويـة الاسرائيلية فوق لبنان . ومما اثار قلق العسـكريين المحترفين انزلاق لسان بيجين فقد اعلن وسط حماس الجماهير فى اجتماع ليكود انه مالم يعمل السوريون على ازالة هذه الصواريخ فان اسرائيل سوف تبعث بقواتها الجوية لتدميرها . واصاب المسئولين عن الامن الذهول . وكتب هيرشى جودمان المراسل العسكرى لصحيفة جيروسالم بوست يقول :

« لماذا اخطر بيجين السوريين بان رد فعل اسرائيل سيكون عن طريق الجو ؟ لقد كان السوريون قد أكملوا لتوهم نشر بطارية مسلحة الى جـانب صواريخهم على الحدود السورية اللبنانية ـ ذلك لانهم لم يكونوا يعرفون ما اذا كان الهجوم المحتمل سيأتى عن طريق البر او الجو او عن طريق الاثنين معا »

وفى اليوم التالى ضاعف بيجين الاساءة عن طريق الكشف فى الكنيست عن أن الاوامر قد صدرت الى القوات الجوية بان تقتلع بطاريات صواريخ سام ٦ فى ٣٠ ابريل لكن هذه المهمة قد الغيت بسبب السحب الكثيفة . لقد كان بيجين رئيس للوزارة وفى نفس الوقت قائما باعمال وزير الدفاع فان معلوماته كانت دقيقة وايضا مدمرة . وقال رئيس سابق لمخابرات القوات الجوية وهـو العميـ ياشياهو باركت فى مقابلة تليفزيونية انه خلال خدمته فى الجيش لمدة خمسة وعشرين عاما لايذكر أن اسرار العمليات قد نشرت بهذه الصورة . وان اى فرد فى الجيش لو فعل ما فعله بيجين لوجهت اليه تهمـة الاخلال الخطير بالأمن . ونقل عن ضابط آخر قوله : «لقد قدم للعدو وعلى طبق من ذهب ماكان سوف ينفق على الحصول عليه سنوات ملايين الجنيهات وحتى لو فعل ذلك كأنه لن يكون متاكدا من صحة ما حصل عليه من معلومات . والخطأ الذى ارتكبه بيجين انه بتحليله للطقس فى اليوم الذى كان مفروضا فيه ان تدمر القوات الجوية الاسرائيلية الصواريخ السورية ، مكن السوريين من معرفة الظروف الجوية التى فى ظلها تستطيع القوات الجوية الاسرائيلية ان تعمل ومتى لاتستطيع ذلك . وبذلك تم

الكشف عن حدوث عمل الطائرات الاسرائيلية وكذلك عن عشرات من حالات اخرى من التفاصيل التى يمكن استنتاجها من هذه المعلومة . ومثل هذه المادة كانت تراقب مراقبة دقيقة فى الصحافة الاسرائيلية . ولم يكن رد الفعل لزلة بيجين وحماقته مجرد نشوب الجدل السياسى حولها ، بل ان اداء القوات الجوية ضد السوريين بعد ذلك بعام يبين ان الضرر قد وقع بصورة سريعة جدا.

وبعد الساعة الثالثة مباشرة من عصر يوم احد الموافق السابع من يونيو انطلقت مجموعة من ست عشرة طائرة من الطائرات الحربية الاسرائيلية المتقدمة فى طيران منخفض وسريع من قاعدة عصيون بالقرب من ايلات ، وقصفت المفاعل النووى العراقى خارج مدينة بغداد وعلى بعد ستمائة ميل وعادت الى قوعداها سالمة دون اية خسائر وكانت هذه الغارة واحدة من الغارات الجوية الدقيقة التخطيط والتنفيذ والتى اشتهر بها الاسرائيليون منذ حرب ١٩٦٧ وعملية عنتيبى وهكذا تراجعت فرص العراق لبناء قنبلة ذرية عربية بمساعدة فرنسا وايطاليا الى الوراء عدة سنوات . وقد خططت هذه الغارة على عجل لتكون انجازا انتخابيا كبيرا . وكانت حكومة بيجين قد اتخذت هذا القرار من حيث المبدأ فى اكتوبر الماضى واختير بعض من افضل الطيارين الاسرائيليين للتدريب منذ ذلك التاريخ . وقد تم اختيار الطائرات وادخلت التعديلات على التكتيك الذى سوف تتبعه هذه الطائرات بصورة تقلل من مخاطر اكتشافها واعتراضها اثناء عبور طائرات اف ــ ١٦ المقاتلة وطائرات اف ــ ١٥ الصحراء العربية وكانت طائرات اف ١٦ المقاتلة متعددة الادوار تحدد الهدف وتصيبه بقنابل زنة ٢٠٠٠ رطل بينما كانت طائرات اف ــ ١٥ المقاتلة المتقدمة تقدم مظلة واقية لحماية هذه الطائرات . واعلن بيجين عن هذه العملية بعد يوم واحد من وقوعها . وكان يوم احتفال الحصاد اليهودى المسمى « شافوت » بعد ان اتهم الاردنيون الطائرات الاسرائيلية بمساعدة ايران فى حربها ضد العراق حليف الاردن . وبالرغم من انه لم يكن هنك اى ذكر للمفاعل الا ان بيجين اتخذ من هذا ذريعة كافية للاعلان عن قصة تدمير المفاعل العراقى وقد تكون هناك ميزات دولية فى اخفاء اسرائيل تورطها فى هذه العملية لكن بيجين كان دائما يميل الى العلانية . وكان توقيت العملية متأثرا بقرب الانتخابات .

وقد تم اخطار الامريكيين والاصدقاء الذين تساءلوا عن هذه العملية ان بيجين قد نفذها فى يونيو لانه لم يكن متأكدا من الفوز فى الانتخابات وكان لايثق فى خلفائه من حزب العمل ان يقوموا بتنفيذها ان هم فازوا فى الانتخابات وكان هذا احد هذه الاعتبارات . كذلك فان ما اثار قلق رئيس الوزراء هو تهديدات المفاعل العراقى . فلم يكن يراود الاسرائيليون اى شك فى ان الرئيس صدام حسين يزمع صنع قنبلة ذرية. ولكن الشهود القريبن من بيجين قالوا كان يريد عملية كهذه لاغراض انتخابية . وكانت الاغلبية من المستشارين الخبراء يعتقدون ان

هذا المفاعل لن يكون تهديدا حقيقيا قبل مرور ثلاث سنوات ولكن الاقلية من هؤلاء الخبراء ومستشارى الحكومة كانت توافق على ان هذا المفاعل سوف يكون كذلك فى يوليو عام ١٩٨١ . اما الرأى السائد بين رجال المخابرات فى واشنطن فكان يرى ان ذلك سوف يحدث بعد عام واحد . وكان بيجين مقتنعا بان قصف المفاعل بعد ان يشكل تهديدا حقيقيا سوف يترتب عليه الالاف من الضحايا نتيجة للاشعاع فى بغداد .. ولم يكن مستعدا لتحمل مسئولية كهذه . وعلى اية حال فان كلمة واحدة من خبير اسرائيلى يقول فيها ان تهديد المفاعل قد يبدأ بعد شهر واحد كافية لان يتخذ رئيس الوزراء قرارا بقصفه .

وقال له المخططون العسكريون أن مخاطر الفشل ضئيلة جدا . وعلى أسوأ الظروف فقد تضطر هذه الطائرات الى العودة أو أن تصاب واحدة أو اثنتان منها وهى فى طريق عودتها أو من الصواريخ المنصوبة فى بغداد وكانت القوات الجوية واثقة من ان فى استطاعتها حل مشكلة المدى (وهى مشكلة الوصول الى بغداد والعودة على ارتفاع منخفض الحاجة الى اعادة تزويدها بالوقود) . واذا ما كان هؤلاء المخططون على صواب فعندئذ تصبح مخاطر فشل هذه العملية على الانتخابات غير ملموسة . وكذلك استبعدت مخاوف وشكوك مدير المخابرات العسكرية ، جنرال ييهوشوا ساجوى ، من ان تؤدى هذه العملية الى تعميق الفجـــوة والازمة بين اسرائيل والولايات المتحدة . وكذلك لم يأخذ برأيه القائل بأن العراق فى حاجة الى خمس سنوات قبل ان يستطيع انتاج قنبلة نووية ، وعندئذ سيكون امام اسرائيل متسع من الوقت لمحاولة الوسائل غير العســـــكرية . وكان جنرال ساجوى يلقى تأييدا لرأيه هـذا من الأغلبية فى القيادة العسكرية ولكن ثلاثة من مؤيدى التنفيذ المبكر للعملية كانت لهم الغلبة وهم مناحم بيجين ، ووزير الزراعة اريل شارون . ورئيس الاركان المعروف بقوة شكيمته جنرال رافائيل ايتان . ولكى يحيد اثر التحفظـــات السياسية داخل الحكومة فان بيجين حول اتخاذ قرار بالنسبة للتوقيت الى لجنة فرعية ثلاثية مكونة منه ومن شارون ومن وزير الخارجية اسحق شامير وثلاثتهم من الصقور المتشددين .

وما ان اخبروه بما قاله الأردنيون اصدر بيجين تعليماته الى المتحدث الرسمى الناطق باسمه أورى يورات بأن يعلن عن نجاح العملية الاسرائيلية ، وكان يورات جديدا فى هذه الوظيفة حتى ان المحـــرر المسئول فى الاذاعة الاسرائيلية لم يتعرف على صوته . ولذلك تردد فى اذاعة القصة حتى قام رئيس قسم الاخبار باذاعة اسرائيل ايمانوئيل هالبرن وهو قريب لبيجين بالتأكد من القصة من رئيس الوزراء وانها ليست خدعة . واذيعت القصة كنشرة اخبارية خاصة فى الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر .

وفى مؤتمر صحفى فى اليوم التالى استبعد بيجين الشجب العالمى للغارة مصرا على ان اسرائيل قد تصرفت من منطلق الدفاع القومى عن النفس واتهم الرئيس صدام حسين بالتآمر لتركيع اسرائيل ولتدمير وجودنا ومستقبل وطننا . وزعم انه باستطاعة العراق ان يدمر تل أبيب الكبرى ومركز الصناعة الاسرائيلية والحياة الزراعية والثقافية والتجارية بثلاث قنابل فقط مما القيت على هيروشيما فى سنة ١٩٤٥ . وقال ان ما يقرب من ستمائة الف ضحية سوف تقع فأين هو هذا البلد الذى يمكن ان يحتمل مثل هذا الخطر ؟ انه لن تكون هناك اية مذبحة أخرى فى تاريخ الشعب اليهودى .. انها لن تقع قط .. اننا سوف ندافع عن شعبنا ضد أى عدو . ان كابوس آرثر مورس لن يتكرر ثانية . لم يكن بيجين دائما هكذا مع الارقام التى يدلى بها . ولقد تقابل مع مراسل لوكالة رويتر فى حفل فى السفارة البريطانية واخبره بأن القنابل الاسرائيلية قد دمرت معملا سريا على بعد أربعين مترا تحت سطح الأرض . وعندما ظهرت الدهشة على الوجوه كرر بيجين هذا الزعم ، وعندما سئل لماذا لم يكشف عن ذلك من قبل اجاب : « ولماذا اعطيكم كل شىء مرة واحدة ؟ وشرح المتحدث باسم رئيس الوزراء أورى بورات ان العراقيين كانوا يفعلون الاشياء التى لا يريدون اكتشافها فى حجرة تحت الأرض . وفى اليوم التالى اتصل بيجين هاتفيا بمراسل رويتر باتريك مس واعتذر له عن تضليله وقال له انه قد علم الآن ان المعمل كان يقع على بعد اربعة أمتار تحت سطح الارض . وثمة مواقف أخرى حرجة . فقد ناشد يتزاك هوفى رئيس المخابرات العامة (الموساد) الساسة الاسرائيليين علنا بألا يفشوا اسرار اتصالات اسرائيل بأجهزة المخابرات الأجنبية ويكشفوا عن معلومات سرية أمكن الحصول عليها منها . ولم يكن فى حاجة الى تحديد اسماء هؤلاء الساسة . كما أخطأ وزير الخارجية فى الاستشهاد بأقوال صدام حسين فى بيان وزع على الصحافة والبعثات الاسرائيلية بالخارج . ولكن لم يكن هناك ادنى شك فى أن الغارة على المفاعل الذرى قد رفعت من صورة بيجين كزعيم يستطيع فى ان يتخذ القرارات الشجاعة وتنفيذها على الفور . وكان الاسرائيليون يشاركونه الرأى فى ان تهديد المفاعل الذرى قد تمت ازالته وبقى حزب العمل فى شجار وجدل حول التواريخ التى يمكن ان يصبح فيها هذا المفاعل تهديدا واقعا ، وهذا الجدل لم يكن يعنى شيئا بالنسبة للناخبين .

وفى قياس للرأى العام فى أواخر مايو وقبل الغارة على المفاعل باسبوعين استطاع حزب ليكود ان يتجاوز حزب العمل . واخذ التأييد للحكومة يتزايد فى السياسة الداخلية والخارجية والامن . وكان التأييد والتعاطف مع ايريل شارون فى تزايد بالنسبة لحملته لاقامة المستوطنات فى الضفة الغربية والتى كان التليفزيون التجارى يذيعها وفى الجولان التى تقوم بها القوافل فى الأراضى (المحتلة) والتى يديرها الوزير نفسه وتحت عنوان : « اننا على الخريطة » وزادت عملية بغداد من تقدم حزب ليكود لكن حزب العمل تراجع فى الأيام

الاخيرة القليلة من الحملة الانتخـابية . وركزت المعارضـة على العنف فى الانتخابات وهذا دفع الكثيرين من الناخبين الذين يقفون فى منتصف الطريق الى اعادة تقييم ما يؤمنون به من اسبقيات . فاذا ماكان هدفهم الرئيسى هو اخراج حزب ليكود فانهم لن يستطيعوا تحمل التصويت لصالح احد الاحزاب الصغيرة من اليسار أو الوسط . واستطاع بيريز ان يرتفع بموقعه نتيجـة لادائه الطيب فى مناقشة تليفزيونية مع بيجين وعن طريق ضم منافسه اسحق رابين الى فريق رئاسة الحزب . وكانت المحصلة هى حدوث سباق متقارب بين الحزبين الكبيرين لم يحدث مثله فى تاريخ اسرائيل . وفى لحظة مبكرة عندما كانت نتائج الانتخابات تدخل الى كمبيوتر التليفزيون ظهر بيريز وكانه هو الفائز . وحصل حزب ليكود على ٤٨ مقعـدا مقابل ٤٧ لحزب العمـل . وكان فارق الاصوات هو ١٠٫٠٠٠ صوت فى انتخابات أدلى فيها ما يقرب من مليونين بأصواتهم . وكان الفارق العرقى والعنصرى أكثر وضوحا عن سنة ١٩٧٧ . وقال محلل الانتخابات هانوش سميث :

« لقد حقق تحالف العمل مكاسب كبيرة فى جميع المدن التى بها أغلبية من أصل أوروبى . وعلى عكس ذلك فان أصوات حزب ليكود ظلت كما هى دون تغيير . وكان نمط التغييرات فى المكاسب الكبيرة التى حققها حزب ليكود فى المدن التى تسكنها أغلبية آسيوية ـــ افريقية . وهذا يدل على ان زيادة مقاعد حزب ليكود من ٤٥ الى ٤٨ ترجع الى كسب جديد فى أصوات الناخبين من الآسيويين والأفريقيين وخاصة فى المدن النامية » .

وكان قيام تآلف هذه المرة أكثر صعوبة مما كان عليه عام ١٩٧٧ لـكن بيجين كان مستعدا مرة أخـرى لأن يدفع الثمن فى صورة حـزب اجودات اسرائيل الأرثوذكسى المتطرف والحزب القومى الدينى وحزب شمال افريقيا الجديد المسمى « تامى » واصبح اكثر سهولة على طلبة مدارس البيشـيفا (مدارس التلمود) والمعلمين فى هذه المدارس تجنب الالتحـاق بالجيش أو فى الاحتياطى . واجبرت شركة الطيران « العال » على ان توقف طيرانه فى أيام السبت . وبالنسبة لبيجين فان تأييد الاحزاب الدينية له يستحق كل « شاقل » (العملة اليهودية) ولأول مرة قد فاز فى الانتخابات عن طريق غريزة الجماهير وعن طريق مهارته القديمة فى الحملات الانتخابية وبقى وكلاء الاعلانات فى اماكنهم . لقد حقق المستحيل ولم يفته النصر .

الفصل الثانى والعشرون

خيار الحرب

فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الاحد الموافق السادس من يونيو عام ١٩٨٢ شنت اسرائيل هجوما شاملا برا وبحرا وجوا على معاقل الفلسطينيين فى جنوب لبنان من البحر الابيض المتوسط حتى سفوح جبل الشيخ ...

وفى خلال ساعات انتقلت أخبار القتال من الميناءين القديمين صيدا وصور وما أن حل صباح اليوم التالى حتى رفرفت نجمة داوود على قلعة بيفورت ، وهى قلعة للصليبيين اقاموها فوق مدخل نهر الليطانى ، والتىمنها كان الفدائيون التابعون لياسر عرفات يلقون بظلهم على لسان الجليل وبذلك كانوا يعيدون المحاولات السابقة لاقتلاعهم من هذا المعقل .

وفى خلال أسبوع واحد كانت الدبابات الاسرائيلية عند أبواب بيروت . وهكذا تصاعدت هذه الغزوة الانتقامية الى حرب وصفها بيجين بأنها « حرب الخيار » ولاول مرة لم يحاول زعماء اسرائيل الاختفاء وراء شعار « ليس لدينا الخيار » .

لقد خططوا وانتظروا واختاروا الفرصة عندما لاحت لهم ولم تكن هذه حرب فتح واستيلاء على الاراضى كمطمع نهائى بل كانت حربا جلبت على رئيس الوزراء أشد العقاب .

لقد كانت المدرعات الاسرائيلية قد عبرت الحدود فى غضب قبل ذلك بأربع سنوات كانتقام لمذبحة ذهب ضحيتها اثنان وثلاثون مدنيا فى عملية اختطاف قافلة للسائحين على الطريق الساحلى بين تل أبيب وحيفا .

وكانت « عملية الليطانى لعام ١٩٧٨ » عملية تمت على عجل وفى غير نظام فى معظم الاحوال اكتسحت قواتها جنوب لبنان وقامت بتطهير حزام ملتو ضيق تم فتح هذا الحزام لصديق اسرائيل الرائد سعد حداد . وحتى ذلك الوقت كان الفدائيون ـ الفلسطينيون على مرمى البصر من القرى الاسرائيلية ولذلك فانهم قد جعلوا الحياة غير محتملة بالنسبة لجيرانهم من المسيحيين والشيعة المسلمين اللبنانيين .

هذا الاقتحام الاول قد تمخض عن قدر من السلام . وكان على المتسللين أن يتحدوا قوات الامم المتحدة المعسكرة فى المنطقة الفاصلة ، وكذلك ميليشيات سعد حداد المحلية وأيضا دوريات الحدود الاسرائيلية (التى كان بعضها يعمل

داخل لبنـــان) او ان يغامروا بشن الهجوم من البحر . ولقـــد أوضحت حرب استنزاف ثابتة ومصغرة وكانت قد تمخضت عن أزمة الصواريخ الســـورية فى صيف سنة ١٩٨١ أن الفلسطينيين كانوا قريبين جدا من اسرائيل ويهددون راحتهـــا .

وكان فى استطاعة قطع المدفعية السوفيتية الصنع من عيار ١٣٠ م . م وكذلك قاذفات صواريخ كاتيوشا المتحركة والتى كان فى استطاعتها أن تطلق اربعين صاروخا فى المرة الواحدة ، ضرب مدن وقرى الحـــدود كلما أرادوا ذلك .

واثناء حملة الانتخابات عام ١٩٨١ وعد بيجين بأنه لن تســـقط بعد ذلك أية صواريخ كاتيوشا على مدينة كريات شيمونة وهى مدينة متطورة فى الجليل أصبحت رمزا للخـــوف ورمزا للحياة المعطلة الممزقة .

وبعد شهر من اعادة انتخابه أدى هجوم جديد أعنف من أى هجوم سابق الى اجبار نصف سكان المدينة على هذا الحصول على عطلة مفروضة وأجبـــر النصف الاخر على أن يبقى فى المخابىء .

وهكذا تحول الاسرائيليون الى لاجئين فى ارضهم . ووضع الجيش الخطط لابعاد مدافع الفلسطينيين ، لكن هذه الخطط قـــد وضعت على الرف عنـــدما استطاع الوسيط الامريكى فيليب حبيب التوصـــل الى وقف لاطلاق النار . وهكذا برزت بذور الغزو الذى تم عام ١٩٨٢ .

وأكد تعيين ارييل شارون وزيرا للدفاع بعد انتصار ليكود فى الانتخابات أن هذه الخطط لن يتراكم عليها التراب . وكان بيجين قد قاوم كثيرا هذا الخيار لـــا عرف عن شارون من جموح وتصلب فى الرأى .

وكان كل من وزير الدفاع الجديد ورئيس الاركان رافائيل ايتان على اقتناع تام بأن لديهما الرد العسكرى على مشكلة منظمة التحـــرير الفلسطينية . وكانا يقولان أن ــ اسرائيل فى استطاعتها تدمير قوة عرفات وقاعدته فى لبنان وهى البلد الوحيد الذى لازال فى استطاعته العمل منه ــ بصورة مستقلة ــ ضـــد الدولة اليهودية ومن ثم يرفعون قبضتهم من على العـــرب الذين يعيشون تحت الحكم الاسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة .

وفى نفس الوقت يمكن اقامة حكـــومة صديقة فى بيروت برئاسة الزعيم الكتائبى بشير جميل والذى كانت اسرائيل قد رعته منذ منتصف السبعينات .

ولقى هذا المشروع استجابة لدى بيجين من الناحية الايديولوجية والناحية المزاجية . وبذلك تستطيع اسرائيل أن تؤكـــد قوتها ضد اخر أعدائهـــا الذين يريدون تدميرها . وعندئذ سوف يأخذ اليهـــود مصيرهم فى أيديهم .

أن رئيس الوزراء كان قد حصل على جائزة نوبل للسلام ولكنه لم يتخل عن جابوتنسكى . فهو ليس بالقديس وليس أيضا من معارضى الحرب ورافعى راية السلام .

وكان بيجين هو الذى عرض خطة الغزو على الحكومة فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٨١ ، وذلك بعد اسبوع واحد من ضم اسرائيل للجولان . وكان السوريون فى حالة غضب شديد وفضل رئيس الوزراء أن يواجههم فى لبنان بدلا من مواجهتهم على المرتفعات . وانصت الوزراء فى دهشة فى حين بدأ شارون ثم ايتان فى شرح أهداف « عملية شجر الارز » والتى نصت على اختراق اسرائيلى حتى طريق بيروت ـ دمشق وحصار بيروت ، والاتصال بالكتائبيين المسيحيين اليمنيين فى الشمال والنزول فى ميناء جونيه على بعد خمسة عشر كيلو مترا خلف العاصمة . وضغط بيجين للحصول على قرار بالتنفيذ لكن كثيرا من الوزراء عارضوا المشروع الامر الذى اضطره الى سحبه دون التصويت عليه .

وفى نفس الوقت عرض شارون مشروعه الكبير هذا مرتين على المسئولين الامريكيين وطبقا لما قاله أحد الذين استمع اليه : « لقد أعطى وجهه نظر شخصية ودقيقة لما يريد أن يفعله بالنسبة لمشكلة لبنان وقال بعناية أن هذه وجهة نظره بالفعل » .

ويزعم الدبلوماسيون الامريكيون انهم على الفور حذروا وزير الدفاع من مثل هذه الامور . وكلما أمكن لواشنطن رصد أية علامة عن حشود عسكرية اسرائيلية فى الشمال كانت تبعث برسائل تحذيرية قوية الى بيجين عن طريق سفيرها فى تل أبيب صموئيل لويس . وقد ساعدت هذه الرسائل على كبح جماح اسرائيل فى مناسبات أربع فى النصف الاول من عام ١٩٨٢ عندما تعرضت حكومة بيجين لاغراء شن الحرب .

كان رئيس الوزراء من بين الاغلبية فى الحكومة التى كانت تعارض شن حرب انتقامية على نطاق واسع ردا على غارة للفدائيين على مستوطنة محولا ، والتى تقع فى وادى الاردن ، وذلك فى نهاية شهر يناير ، وكذلك اعترض مرة أخرى فى شهر مارس عندما اقترح كل من شارون وأيتان اتخاذ مبادرة فى لبنان لاختبار نوايا المصريين قبل الجلاء النهائى من سيناء . ولكنه انضم الى الصقور فى نهاية الشهر عندما قتل احد الجنود الاسرائيليين من انفجار قنبلة يدوية فى غزة .

وعلى أية حال فقد كان بيجين وشارون يمثلان أقلية من اثنين ولم يحدث شىء وأدرك الامريكيون أن البندول يتذبذب تجاه اتخاذ عمل ما . ولم تنشر قط شروط فيليب حبيب لوقف اطلاق النار ولكن الاسرائيليين قالوا ان الهدنة تنسحب على العمليات الارهابية فى الداخل وفى الخارج ولا تقتصر فقط

على تلك التى تقع عبر الحدود اللبنانية ولكن الفلسطينيين كانوا يجادلون فى هذا المفهوم وكذلك فعلت الولايات المتحدة ولكن هذا المفهوم ظل عقيدة وايمانا بالنسبة لبيجين وشارون ·

ومرة أخرى اقترح وزير الدفاع ما وصف بأنه « مشروعه الكبير وذلك فى اوائل ابريل بعد أن قتل دبلوماسى فى باريس ولم يخف أبعاد هذا المفهوم الحقيقية عن مجلس الوزراء وان كان قد عزم على البدء بشن غارات جوية على قواعد الفلسطينيين · وقد تم تخطيط الحملة على أن تستغرق ثمان واربعين ساعة للوصول الى بيروت وطريق بيروت ـ دمشق وأن يبقى الجيش فى لبنان لمدة اسبوع واحد ولكن عندما عرض الامر على زعماء المعارضة قدر اسحق رابين أن اسرائيل سوف تحتفظ بكل لبنان لمدة تصل الى ستة أشهر · وعندما سأل رئيس الوزراء السابق الرئيس الحالى مناحم بيجين عما اذا كان على استعداد لقبول هذا الاحتمال أجاب بيجين بالنفى ووضع هذا المشروع على الرف مفضلين عليه القصف الجوى ·

وبعد تأجيلات متعددة أرسلت القوة الجوية فى العشرين من ابريل وذلك بعد أن قتل ضابط فى الجيش نتيجة لانفجار لغم وهو يقوم بدورية فى جنوب لبنان · ولم ترد منظمة التحرير الفلسطينية ولكن بعد اسبوعين قصفت منطقة الجليل كرد على موجة ثانية من الغارات الجوية الاسرائيلية ـ وكانت هذه اول عملية انتهاك فلسطينية على هذه الجبهة منذ الهدنة · واقترح بيجين عملية انتقامية واسعة المدى بالرغم من أن القصف كان على نطاق ضيق رمزى ولم يصب الاهداف بصورة متعمدة وكانت الحكومة منقسمة بالتساوى بين مؤيد ومعارض · ووافق بيجين على تأجيل العملية ·

ولكن تقرر أنه اذا ما قتل احد اليهود أو جرح على يد الارهابيين فى أى مكان من العالم فعندئذ سوف تعمل اسرائيل ·

ومرة أخرى عرض بيجين وشارون على زعماء المعارضة نوايا الحكومة ولكن عملية حجب المعلومات قد بدأت وسأل رابين وزير الدفاع شارون عما اذا كانت الخطة تتضمن صيدا التى تبعد ستين كيلو مترا شمالى الحدود وقدم وزير الدفاع ثلاثة ردود مختلفة وبعد ذلك بعام كتب رابين يقول :

« لقد كان واضحا انه لا يريد أن يقول الحقيقة ولقد أجاب هكذا : (اعتقد ذلك) ثم قال بعدئذ : (لا اتذكر على وجه التحديد) · وبعد ذلك قال : (سوف أذهب وأراجع الخطة)· وترك الحجرة فى وسط الاجتماع للتحقق من وجود صيدا فى الخطة · وعاد الينا ليقول (أنها تدخل فى الخطـــة) وسألته عن بيروت لكن أريل اعطانا الانطباع بأن صيدا هى الحد وعندما سأله عما اذا ما كانت

بيروت ضمن هذه الحدود وجاءت الاجابة (لا) وهكذا خدعت ، ولكن لم أكن أنا وحدى الذى خدع • لقد خدعت الحكومة وربما للحصول على موافقتها » •

وفي العشرين من مايو ذهب شارون الى واشنطن حيث تقابل مع وزير الخارجية الكسندر هيج» ومرة أخرى عرض شارون خطته لسحق الفلسطينيين وان كان لم يحدد الى أى مدى سوف يذهب الهجوم الاسرائيلى •

ويقول الدبلوماسيون الامريكيون أنه لم يذكر بيروت • لقد كان كل اهتمامه هو الا تشكو حكومة ريجان بعد العملية من أن اسرائيل قد فاجأتها كما فعلت بالنسبة للغارة على المفاعل العراقى وهيج مثل شارون جنرال متشدد قد تحول الى سياسى ولذلك فانه كان متعاطفا لقد كان يسعده كثيرا ان يرى منظمة التحرير الفلسطينية والتى كان يمقتها لانها اداة فى يد الكرملين ، وقد تمزقت أربا ، وفسر الاسرائيليون موقفه على أنه تشجيع بالسير قدما فى تنفيذ مخططهم • وقرأ أحد كبار المسئولين والذى كان ضد مشروع شارون ، بشيء من القلق برقية أرسلها الى القدس سفير اسرائيل فى أمريكا موشيه أرينز حول اجتماع شارون ـ هيج وكان رد فعل هذا المسئول هو « يا الهى ! انهم اعطونا الضوء الاخضر » •

وكان هذا قبل أن يصبح هذا التعبير أمرا شائعا وانكر هيج أعطاء موافقة على غزو لبنان لكن كبير مساعديه وهو وودى جولد بيرج قد اعترف بان وزير الخارجية قد قال بالفعل انه ليس من حق أى مسئول أمريكى أن يخبر حليفا لامريكا كيفية الدفاع عن نفســـه •

وقال أيضا : « ان أى شخص أصيب بدهشة من جراء تحرك اسرائيل فى لبنان أنما هو لم يكن يتابع الانباء عن كثب • وقال كذلك أنه اذا ما قـــررت اسرائيل أن تذهب فعليها أن تتأكد من أن رد الفعل سوف يكون مناسبا لاى استفزاز أثار وتسبب فى رد الفعل هذا » •

ويعترف مسئولون أمريكيون آخرون بأنه ما أن بدأت الحرب حتى تحرك الجانب العسكرى فى شخصية هيج وادرك المزايا التى يمكن تحقيقها • لقد كان يريد لهذه الحرب أن تنتهى فى وقت قصير ولكن أن تنتهى بنجاح •

وقال أحد الدبلوماسيين فى شهادته : « أن هيج لا يكن أدنى حب لمنظمة التحرير الفلسطينية • وكان متعاطفا مع الفكرة القائلة بأنه يجب اخراج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان • وكان يعارض أى وقف لاطلاق لنار يقع مبكرا اذا ما بدأت الحـــرب اننـا لم نرسم أى خطـــوط أو حدود ولكنه لم يكن فى يوم من الأيام متعاطفا مع فكرة مهاجمة أو قصف بيروت » •

ومرة أخرى انعكس حماس وزير الخارجية على البرقيات الدبلوماسية بين واشنطن والقدس . وفى احدى هذه البرقيات التى تم تبادلها وانتشارها على نطاق واسع بين المسئولين الاسرائيليين والمخططين العسكريين ما اقتبسه موشيه أرينز على لسان هيج حيث قال : « أنكم تقومون بعمل عظيم فى لبنان وانه لعمل يهم كل فـرد .

وأيا كانت نوايا وزير الخارجية فان اجابته « بلا » تبدو فى أذن الاسرائيليين كما لو كانت اجابة « بنعم » ومن الصعب الاختلاف مع زيف شيف عميد المراسلين العسكريين الاسرائيليين فى القول بأنه حتى اذا لم تكن هناك مؤامرة اسرائيلية امريكية فهناك مشاركة ضمنية بينهما .

« فالامريكيون وقد تلقوا معلومات مسبقة عن نوايا اسرائيل اختاروا أن ينظروا الى الناحية الاخرى ، مبدين تعليقات غامضة حول لبنان بحيث تستطيع اسرائيل تفسيرها على الوجهة التى تريدها .

وقد لخص أحد المخضرمين فى وزارة الخارجية الامريكية هذا بقوله : « اذا لم يكن هيج قد أعطى الضوء الاخضر فانه قد أعطى ضوءا كهرمانيا مشوبا بالاخضرار » .

وفى أوائل صيف عام ١٩٨٢ كان الوضع فى لبنان هو حالة حرب تنتظر المبرر لبدئها . وقبل منتصف ليلة يوم الخميس الموافق الثالث من يونيو بقليل قدمت الحركة القومية لتحرير فلسطين ، وهى جماعة متطرفة منشقة بزعامة صبرى البنا (ابو نضال) هذا المبرر . فقد قام أحد الفلسطينيين المسمى حسن السيد والبالغ من العمر الثالثة والعشرين ويعيش فى قرية بالقرب من مدينة نابلس بالضفة الغربية باطلاق النار على السفير الاسرائيلى فى لندن شلوموأرجوف ، ثلاث مرات فأصاب رأسه والجزء العلوى من جسمه بمسدس أوتوماتيكى بولندى الصنع عيار ٦٣ بينما كان خارجا من عشاء فى فندق دور شستر .

وكان الفريق الذى أطلق النار بقيادة نواف روسان وهو تاجر ولد فى الاردن . وقد عرف فيما بعد بانه ضابط كبير فى المخابرات العراقية . وكان الاعتقاد السائد بأن السفارة العراقية هى التى أمدته بالاسلحة . وعندما وصلت الانباء الاولى لمحاولة القتل الى القدس وكان بيجين نائما . وعندما تأكدت الاخبار أيقظه مساعدوه وأخبروه بما حدث وفى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى تكلم رئيس الوزراء هاتفيا مع جراح لندن هونورمان جرانت . وقد ذكرت الانباء أنه قد انتهى لتوه من اجراء عملية للسفير المصاب وعندما سأله بيجين عن حال السفير أجاب الطبيب : « لا أستطيع أن أعدك بأى شىء » ، ولا أستطيع أن أقول لك ما اذا كان سيعيش أم لا واذا ما عاش فكيف سيكون . »

ولقد واجه شلوموا أرجوف ساعات حرجة امتدت من اثنتى عشرة ساعة الى أربع وعشرين ساعة وفى بطء بدأ السفير يفيق ولكنه ظل مشلولا طريح الفراش . وكانت حياته بالغة السوء .

واستدعى بيجين الحكومة الى اجتماع عاجل وطارىء فى الساعة الثامنة والنصف صباحا . وكان قد قرر بالفعل أن اسرائيل لا تستطيع أن تدع هذا الاستفزاز يمر ... وقال أن السفير قد تم اختياره كهدف يهودى ولانه اسرائيلى ولانه رمز لدولة اسرائيل .

ان الرصاصة التى اصابت راسه قد صوبت الى راس دولة اسرائيل . وكان شارون فى الخارج فى مهمة سرية ولكن جنرال ايتان عرف ما هو متوقع منه . وبدعوة من رئيس الوزراء اقترح على الحكومة أن تقوم القوات الجوية بقصف تسعة أهداف فلسطينية فى بيروت وسبعة أهداف فى جنوب لبنان .

وعبر العديد من الوزراء عن تخوفهم من قصف العاصمة انهم يذكرون الضجة التى احدثتها عمليات قصف سابقة فى العام السابق . ووعد رئيس الاركان بأن تكون الاهداف مختارة بعناية لتجنب وقوع اصابات بين المدنيين . وبناء على اقتراح بيجين تم الاتفاق على خمسة أهداف وهى : ثلاثة قواعد للتدريب فى الجنوب وموقعان فى بيروت هما استاد رياضى حيث يضم مخزنا كبيرا للاسلحة الفلسطينية وآخر يضم تسهيلات تدريبية . وأدرك الوزراء انهم ربما يكونوا قد صوتوا كمقدمة تمهيدا لشن حرب . وحتى الحمائم فهم قد شعروا بانهم لا يستطيعون مخالفة بيجين المرة . وشرح ذلك أحدهم قائلا : « لقد قلنا مرات عديدة من قبل (لا) أما الآن ففى وجه هذه الدراما العالمية وفى وجه حالة بيجين العقلية المضطربة لا تستطيع أن ترفض » . اننا فهمنا أيضا أنه لا يمكن اغضاء الطرف عن محاولة القتل دون الرد عليها . اننا لم نكن متحمسين ، ولكننا كنا ندرك أن كرة الثلج لم يعد من الممكن وقفها .

وفى الفترة الاخيرة من ذلك اليوم قصفت الطائرات الاسرائيلية أهدافها وكما كان متوقعا جاء رد الفلسطينيين مماثلا .

وهذه المرة كانوا يصوبون ليصيبوا لا ليخفقوا فى اصابة الهدف . وانهالت أكثر من ثمانمائة قذيفة وصاروخ كاتيوشا على شمال الجليل . وسقط أحد هذه الصواريخ على كريات شيمونة بالقرب من سيارة يعقوب ميريدور وزير التنسيق الاقتصادى واصابتها عدة شظايا واتصل ميريدور برئيس الوزراء لينقل اليه المطالب المحلية بأن يفى بوعده الذى قال فيه « أنه لن تكون هناك كاتيوشا بعد الآن » وأجاب بيجين « انك تستطيع

أن تقول لهم أن كل شيء سوف يكون على ما يرام ولكنه حثه على الا يضيف شيئا ولكن ميريدور أدرك أن ميزان العمليات يتجه نحو القيام بعملية برية .

وأسرع شارون عائدا من أوروبا الى اسرائيل وتمت دعوة الحكومة الى الانعقاد فى الساعة التاسعة من مساء يوم السبت واطلع ايتان الوزراء على صورة مصغرة من عملية شجر الصنوبر وهى عبارة عن هجوم ثلاثى الشعب لابعاد مدفعية الفلسطينيين ورد شارون على تساؤلات زملائه من المتشككين قائلا أن العملية قد صممت لتحقيق السلام فى الجليل وليس لغزو بيروت .

وفهم الوزراء انه يتكلم عن حدود لا تتعدى على وجه التقريب أربعين كيلو مترا وهذا ما أكده بيجين الذى أكد لهم أنه ما دعت الحاجة الى الذهاب الى ابعد من ذلك فسوف تقرر الحكومة ذلك . وتم الاتفاق على ضرورة بذل كل جهد لتجنب المواجهة مع السوريين الذين لهم ما يصل الى ٣٠٫٠٠٠ جندى يرابطون فى شمال وشرق لبنان .

لكن كان اغراء السوريين على الانسحاب يشكل جزءا من خطة شارون ايتان وذلك لانهم كانوا يشكلوا مظلة واقعية لمدفعية الفلسطينيين . وقال شارون أن القوات الاسرائيلية سوف تصل الى خط الاربعين كيلو متر فى خلال اربع وعشرين ساعة وأن العملية سوف تنتهى فى خلال ثمان وأربعين ساعة . واعطى الوزراء موافقتهم الجماعية على الضربات الجوية وذلك فى خلال اجتماع يوم الجمعة . ولكن ثلاثة فقط احجموا عن الموافقة على الغزو .

وهؤلاء الثلاثة هم نائب رئيس الوزراء سمحا أرليش ، ووزير الطاقة اسحق برمان والاثنان من أحرار الليكود ، أما الثالث فهو يوسف بورج من الحزب الدينى القومى .

وانهى بيجين المناقشة بخطاب عاطفى . لقد قال أنه لم يقدم اقتراحه بقلب مسرور وقال أنهم يرسلون بجنودهم الى المعركة وأن كل شيء سوف يبذل لمنع وقوع اصابات لكن المعركة معناها وقوع خسائر والخسائر معناها حدوث ثكلى وأيتام .

والبديل غير المقبول لذلك هو حدوث ما حدث فى معسكرات الاعتقال فى اوشوتز وبينما كان بيجين يترك مكتبه ليطير الى الشمال الى مركز قيادة متقدم سمعه مساعدوه وهو يتمتم بكلمات وكأنه يصلى : « أدعو الا تقع خسائر » أن أصداء هذه العملية سوف تؤرقه لعدة شهور فيما بعد . .

وبناء على اقتراح من بيجين اطلق على هذه العملية اسم « عملية السلام فى الجليل « وقال البيان الذى صدر بعد بدء العملية أن الجيش قد صـــدرت اليه التعليمات بوضع السكان المدنيين فى الجليل بعيدا عن مرمى نيران الارهاب فى لبنان . ولم يكن هناك أى اشارة محددة لحدود الاربعين كيلو متراً . ولقد ذكرها شارون فيما بعد وكذلك ايتان عندما بدأ التشهير بها لاندفاع الجيش الاسرائيلى بعيدا الى الشمال ولم يكن يساور الوزراء أدنى شك فى أنهم وافقوا فقط على حدود أربعين كيلو متراً .

وقد قال بيجين مثل هذا فى خطاب للرئيس ريجان فى نفس اليوم وهو يوم الاحد السادس من يونيو لقد قال .

« لقد صدرت التعليمات للجيش بأن يبعد الارهابيين الى مسافة اربعين كيلو متراً الى الشمال حتى يمكن تحرير جميع المدنيين فى منطقة الجليـل من التهديدات الدائمـة لحياتهم .

ومنذ الطلقة الاولى لم يكن شارون ولا ايتان يزمعان الوقوف بالعملية عند حدود الاربعين كيلو مترا وقال ضباط من الاحتياط أن قائدا كبيرا قد أخبرهم فى أول يوم بأن الهدف هو قطع طريق بيروت ـ دمشق واقامة نظام جديد فى لبنان ورفض وزير الدفاع انكار هذه المزاعم عندما سأله احد نواب حزب شينو وهو موردخاى ويرشوبسكى .

وكان شارون قد حدد أهداف الحرب فى التليفزيون الاسرائيلى فى الخامس والعشرين من يونيو بأنها : القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية واخـراج الجيش السورى وعقد اتفاقية مع لبنان . ولم يقل شيئا عن حدود الجليل .

وفى الاول من اغسطس وفى خطاب أمام خريجى مدرسة عليـا كانوا سيلتحقون بالجيش قال :

« لقد ذهبنا الى الحرب ضد الارهاب ، ولازالة العائق الذى يهدد ويمنع التوصل الى وفاق بيننا وبين عرب أرض اسرائيل ، لقد ذهبنا للحرب حتى يمكننا أن نعيش فى سلام ، اليهود والعرب فى القاهرة وبير سبع ، فى يهودا والسامرة ، حتى يرفرف السلام بيننا فى أقرب وقت وعلى جانبى الاردن » .

وكان رئيس الأركان أقل دبلوماسية . ففى أوائل شـهر يوليـو اخبر الضباط ـــ والرجال فى وحدة على خط الجبهة أن القتال قد خلق الفرصـة الوحيدة فى هذا الجيل لتغيير الأوضاع لصالحنا فى الصراع من أجـل أرض اسرائيـل . وقـال :

أن تدمير واقتلاع القواعد الارهابية فى لبنان سوف يضعف المعارضـة الفلسطينية للوجود اليهودى فى أرض اسرائيل .

وفى مقابلة مع دوف جولد شتين فى صحيفة معاريف اعترف شارون بأن مجلس الوزراء وافق على الخطتين اللتين عرضهما تواضعا . ولكن قال انه كان يعتم أن هناك امكانية لان يتم فى النهاية تنفيذ الصيغة الاكثر طموحـــا من الخطتـــين .

وفى مقابلة اخرى مع نفس الصحفى اعترف ايتان بأن الحرب لم يكن يقصد منها مجرد تأمين قطاع يمتد الى أربعين كيلو مترا شمال الحدود وقال :

« لقد أصدر مجلس الوزراء تعليماته لجيش الدفاع الاسرائيلى بأن يبعد — الارهابيين عن الحدود الشمالية لاسرائيل وأن يدمر الارهابيين ويدمر مقـــار قيادتهم وتسهيلاتهم فى لبنان · وهناك ثلاثة أشياء لم يرد ذكرها فى تعليمات مجلس الوزراء : موضوع الاربعين كيلو مترا ، وموضوع بيروت ، وموضوع طريق بيروت — دمشق وعندما عرضت خطة الحرب على مجلس الوزراء عرضت الخطة بأكملها بما فيها محاصرة بيروت وقطع طريق بيروت ـ دمشق · وأقرت الحكومة هذه الخطة ولكنها أصرت فى تعليماتها للرئيس بأن يكون التحرك من مرحلة الى اخرى فى الحرب خاضعا للقيادة السياسية . وهكذا فقد تم تنفيذ كل مرحلة من الحرب وكل تحرك من مرحلة الى اخرى من طريق أخذ موافقة القيادة السياســـيه .

لم يكن هذا هو ما ظهر للحكومة . فمنذ اليوم الثالث للحرب شك منتقدو شارون فى انه قد تم التغرير بهم وتضليلهم . ولم يكونوا مقتنعين بتأكيـــدات رئيس الوزراء — المتكررة بانه فى هذه الحرب لن يحدث شىء مادون اخذ الموافقة عليه بخلاف ما حدث فى الحروب السابقة . وانضم موردخاى زيبورى ، وزير المواصلات من حزب حيروت الى هؤلاء المتشككين . لقد كان عسكريا محترفا وصل الى رتبة قائد لواء واشترك فى حكومة بيجين الاولى كنائب لوزير الدفاع وعندما كرر ايتان مزاعمه بعد ذلك بعام واحد بأن الحكومة هى التى فوضت الجيش منذ البداية لان يتعدى حدود الاربعين كيلو مترا اتهمه زيبورى بالكذب .

وفى اجتماع لمجلس الوزراء فى الحادى عشر من سبتمبر عام ١٩٨٣ نقـــل زيبورى من وقائع آخر اجتماع سبق الحرب ما يكذب مزاعم رئيس الاركان . وقال انه فى ليل يوم السبت اطلع ايتان الوزراء على حدود الاربعين كيلو مترا على خريطة وانه طلب الموافقة على عملية محدودة قائلا انها لن تستغرق سوى يومين لاتمامها . وقال زيبورى ان كلا من شارون وبيجين قد قالا نفس هـــذا الكـــلام .

كان شارون عندئذ وزيرا بدون وزاره وكان حاضرا اجتماع سبتمبر عام ١٩٨٣ ، ولم يجادل فى ما قاله زيبورى . واكد سكرتير مجلس الوزراء دان ميريدور

ما قاله زيبوري وقال : « لقد قدم وزير الدفاع ورئيس الاركان خطة للقتال وطرد الارهابيين بعيدا الى خط اربعين كيلو مترا (وهو مدى المدفعية) من حدودنا الشمالية .

وهذه هى الخطة وهذا هو المدى الذى وافق عليه مجلس الوزراء فى اجتماع ليلة السبت .

وفى مقابلة فى تليفزيون اسرائيل وقبل وفاته بسبب هبوط فى القلب فى يونيو عام ١٩٨٣ قال سمحا ارليش : « لقد كانت هناك تفسيرات لقرارات مجلس الوزراء تمتد من القرار الذى اتخذه مجلس الوزراء والتنفيذ الفعلى فى الجبهة وفى بعض الاحيان كان هناك خروج مقبول ومحتمل ولكن كانت هناك ايضا اخطاء غير مقبولة وغير محتملة . واتهم شارون بانه كان دائما يريد الخروج على قرار الاربعين كيلو مترا .

واستغل شارون نقص الخبرة العسكرية عند زملائه وكانت من الوسائل المحببة لديه محاولة الحصول على موافقة زملائه على تقدم صغير وتكتيكى ثم يعود بعد ذلك وبعد ان يكون قد حقق هذا التقدم ليشرح لزملائه أن هناك حاجة لمزيد من التقدم لبضعة كيلو مترات لتأمين ما قد تم احرازه بالفعل ولتحسين الاوضاع والمواقع . وفى احدى المرات سأله اسحق برمان وهو من أشد ناقدى وزير الدفاع : « ماهى المنطقة التى سوف يطالب منا بعد غد الموافقة عليها من أجل حماية الوحدة التى وضعتها فى الموقع الذى سوف تستولى عليه غدا والذى تمت الموافقة عليه ؟ وأجاب شارون وهو يكشر غاضبا » ياسيد برمان أن لك حاسة عجيبة للدعاية والفكاهة « وكان برمان يشكو من أن العمليات الصغيرة لا تتم ابدا بدون موافقة مسبقة ولكن لا ينطبق ذلك على العمليات الكبيرة فدائما ما يخيم الضباب على العمليات الكبيرة وعلى سبيل المثال منطقة شرق بيروت المسيحية فلقد علمنا فجأة أن هناك قوات اسرائيلية فى شرق بيروت وكأن ذلك معلومة بديهية .

وفى الحقيقة ليست كذلك فلم يكن هناك ابدا قرار حكومى بالنسبة لدخول شرق بيروت .

أن اختراق شرق بيروت والتغلغل فيه والذى كان أمرا واضحا لكل من زار العاصمة اللبنانية ، يعتبر من الحالات الصارخة . ففى الثالث عشر من يونيو ، وفى نهاية الاسبوع الاول من الحرب الاسرائيلية فى شرق بيروت ، وفى المطار الدولى وحول بعبدا وهى الحى الذى يضم القصر الجمهورى ، ومسكن وزير الدفاع ، وتلقى الوزراء اجابتين : ان القوات الاسرائيلية ليست

فى بيروت . وان بعبدا والمطار يقعان خارج حدود المدينة وان هذه القوات عندما دخلت بيروت نفسها فانها فعلت ذلك ردا على خرق الفلسطينيين لوقف اطلاق النيران وكان على جيش الدفاع الاسرائيلى أن يسكت مصادر الخطر التى تهدد القوات الاسرائيلية وقالت صحيفة معاريف :

« سوف يتلقى الوزراء مكالمات تليفونية وهم فى منازلهم من الجنود والضباط بما فيهم كبار الضباط يخبرونهم عن قصص مختلفة لانتهاكات وخرق وقف اطلاق النار من جانب العدو وفتح الجيش الاسرائيلى النيران وكذلك القول بأن الجانب الاخر هو الذى بدأ بفتح النيران كما يقول راديو اسرائيل . وكذلك هنا شكوى من الاوضاع فى الميدان وهى اوضاع تختلف تماما عما تذكره الاذاعة ومن خلال سكرتيره ـ العسكرى الكولونيل أزريل كان بيجين يسمع التقارير عن خرق الاسرائيليين لوقف اطلاق النار وعن استفزازات جيش الدفاع الاسرائيلى » .

وعندما كان رئيس الوزراء وغيره من الوزراء يسألون عن تفسير ذلك كانوا يخبرونهم بأن جيش الدفاع الاسرائيلى لم يكن يرد دائما فى المكان الذى تعرض فيه لاطلاق النيران ففى بعض الاحيان ولعدة أسباب فانه كان يرد فى قطاع آخر مختلف . والجندى الذى تصدر اليه الأوامر باطلاق النار قد لايكون مدركا ان العدو هو الذى بدأ بفتح النيران فى مكان آخر وبينما لم يقبل معظم الوزراء هذا الايضاح الا انهم كانوا يقفون عاجزين امام الزعم بأن العدو هو الذى بدأ بخرق وقف اطلاق النار .

ان حجم المكالمات التليفونية التى كان يتلقاها السياسيون والصحفيون الاسرائيليون والتى غالبا ما تكون من غرباء لم يسبق لها مثيل فى اثناء الحرب . انها تعكس قلق الامة فى خوض حرب من اختيارها ولقد عمقت هذه الحرب شعور الحكومة بأنها تساق رغم أنفها ! وكتب هيرشى جودمان الذى حارب فى قوات الصاعقة فى حربين كبيرتين يقول : « لاول مرة فى تاريخ اسرائيل الغنى بالصراع كان هناك تصدع كامل بين هؤلاء الذين يصدرون الاوامر وأولئك الذين يطلب منهم أن يضعوا أرواحهم وأرواح رجالهم على خط المواجهة .

وكانت بيروت مجرد مثال واحد . وجاء قطع طريق بيروت ـ دمشق مثالا آخر ولقد توجه بيجين الى واشنطن للتشاور مع ادارة ريجان وكان ايرليش يقوم بأعمال رئيس مجلس الوزراء . وفى الثانى والعشرين من يونيو بدا جيش الدفاع الاسرائيلى فى مهاجمة المواقع السورية والفلسطينية بالقرب من بحمدون شرق بيروت . وسمع ايرليش عن هذا الهجوم لاول مرة فى الراديو المثبت فى سيارته وهو فى طريقه من تل أبيب الى القدس . وما أن وصل الى الكنيست حيث كان الوزراء وزعماء المعارضة يطلبون المعلومات عن هذا الهجوم حتى بدأ فى الاتصال بشارون . وطلب منه ايرليش أن يخبره بما يجرى . وعلى طريق

بيروت ـــ ودمشق وأجاب ايتان ان التقارير التى اذاعها الراديو ليست دقيقة ، ان الجيش قد رد على نيران العدو فحسب .

وأضاف يقول انه ليست هناك تحركات للقوات الاسرائيلية . وبعد ذلك بيومين تم قطع الطريق وتم الحصول على موافقة على هذه العمليـــة وهى موافقـــة بأثر رجعى . وصدق ايرليش ما سمعه ونقل تأكيدات ايتان الى زملائه . ولم يمض وقت طويل ليدرك انه قـد غـرر بـه . وقال فى مقابـلة تليفزيونية فى يونيو عام ١٩٨٣ : « لقـــد قدمت لى معلومات ثبت بعــد ذلك أنها ليست دقيقة » .

وهكذا تم الالتفاف حول الوزراء بالنسبة لقرار الاشتباك مع السوريين والفلسطينيين فى شرق لبنان . وقد تجاهل شارون حتى رئيس أركان جيشه الذى اقلقـــه كثرة الاصابات التى فاقت مايكن لاسرائيـــــل ان تتوقعـــه . وأثار جيش الدفاع الاسرائيلى الخلافات والصدام وطلب وزير الدفاع من مجلس الوزراء أن يسمح لـه باقتـلاع صـــــــواريخ سام ـ ٦ التى لاتزال متمركزة فى البقاع . وألح قائلا انه لا يمكن ترك القـــوات الاسرائيلية دون غطاء جوى . وألح شارون على ضرورة اتخاذ قرار سريع حتى تســـتطيع القوات الجوية أن تضرب قبل حلول الظلام ولم يكن أمام مجلس الوزراء سوى الموافقة . وفى وجه انذار نهائى أمريكى بوقف اطلاق النار اصدر شـــارون أوامره بمزيد من التقدم برا .

وبالرغم من الشكوى المتكررة من شارون وايتان من انهما عوملا ككبش فداء من قبل مجلس الوزراء الذى ينبغى عليه أن يتحمل نصيبه من المسئولية عن كل ماحدث فى لبنان ، كان هناك دليل مناسب عن ابعـــاد الوزراء عن مباشرة الاشراف على سير الحرب ولكن ماذا عن رئيس مجلس الوزراء ؟ .

لقد قال بيجين نفســـه بمرارة : « اننى أعلم عن كل التحركات ولـــكن احيانا قبل أن يتم تنفيذها واحيـــانا أخرى بعد أن يكون قد تم تنفيـــذها . وكان يرحب بالأهداف ـــ المعظام لمشروع شارون ـــ ايتان .

وفى بعض الأحيان كان اكثر تصلبا من الحكومة . ففى نهاية شهر يوليو على ســـبيل المثال ـــ ايد رئيس الوزراء بشـــدة عملية لاقتطاع وفصـــل معسكرات الفلسطينيين ـــ وما جاورها عن جنوب غرب بيروت وحتى منطقة تضم ٦٠٠٠ مبنى وعشرات الآلاف من السكان بين مدنيين ومقاتلين .

واقترح رئيس الاركان قصفا مكثفا عن طريق المدفعية وعـــن طـــريق الطيران لاضعاف العدو والاقلال من الاصابات بين الاسرائيليين والتى قدرها ما بين عشرين وثمانين وكان الكولونيل ايلى جيفا قائد فيلق مدرع قد طلب اعفائه من منصـــبه لكى يتجنب مهاجمة بيروت الغربيـــة وقـــد قال لبيجـــين

انه يقدر الخسائر بـ ٢٥ قتيلا اسرائيليا . وشعر العديد من الوزراء بالانزعاج من احتمال القتال فى مناطق مزدحمة بالسكان وكذلك بالانزعاج من ردود الفعل الدولية لهذا القتال وتمت الموافقة باغلبية واحد فقط أى تسعة اصوات مقابل ثمانية لكن بيجين رفض اعطاء موافقته بسبب هذه الاغلبية الضئيلة .

وكانت هناك أوقات دافع فيها بيجين عن شارون أمام منتقديه وهذا يعنى أن رئيس الوزراء لم يكن رافضا كلية لخطوات وزير الدفاع . وقد قال مره لشارون : « من الافضل أن يمتطى الانسان جواد سباق تستطيع ان تسيطر عليه من أن تمتطى جوادا لا يستطيع الركوض » ولكن هناك بعض الحالات التى لم يكن يعرف بيجين ما يجرى فيها وفى خطاب فى الكنيست فى الثامن من يونيو وبعد يومين من بداية الحرب قال بيجين :

« اننا نريد شيئا واحدا فقط : وهو الا يلحق احد الضرر بمستوطناتنا فى الجليل بعد اليوم ولا أن يضطر مواطنونا فى مستوطنات الجليل الى الاختناق فى المخابىء ليل نهار . والا يعيشوا تحت تهديد الموت الفجائى من الصواريخ كتيوشا . هذا هو ما نريده . اننا لا نريد أى صراع مع الجيش السورى » .

واننا اذا ما وصلنا الى خط الكيلو الاربعين الى الشمال من حدودنا فان المهمه نكون قد انتهت وعندئذ يتوقف القتال .

وفى الواقع فان مجلس الوزراء كان قد اعطى شارون بالفعل موافقته على تنفيذ عملية تطويق القوات السورية من الشمال والشرق فى البقاع وهذا يعنى عبور خط الأربعين كيلو مترا . وأعطيت الموافقة للقوات المدرعة بتحسين مواقعها ، وهو الامر الذى يعنى المخاطرة بوقوع صدام .

وقد خضع شارون لاستجواب عسير عندما عرض وزير الدفاع الموضوع على لجنة العلاقات الخارجية والدفاع بالكنيست فى نفس اليوم فيما بعد .

وحتى لو لم يكن بيجين مدركا لما يحدث فى الميدان ، الا أن المعارضة العمالية والتى تضم ثلاثة من رؤساء الاركان السابقين وهم رابين وبارليف وجور كانت تدرك ذلك تماما وأكد بيجين لكل من بيريز ورابين اللذين كانا قد أرسلا اليه للتوسط فى الخلاف انه لم يتم اتخاذ أى قرار بالاشتباك مع السوريين فى معركة وفى نهاية الاسبوع فى يومى السادس والسابع من اغسطس وبينما كانت بيروت تحت الحصار وكانت الولايات المتحدة تحاول بلقسة التفاوض على اجلاء الفلسطينيين عن العاصمة أصدر شارون أوامره بالتعبئة على نطاق واسع للاحتياطى وبدون اخطار رئيس الوزراء وبدون أخذ تفويض بذلك من مجلس الوزراء وبدا من ذلك كأن وزير الدفاع قد خطط

لشن هجوم وقائى اجهاضى على غرب بيروت المسلحة وسمع بيجين عن هذه التعبئة من مكالمة تليفونية فى منتصف الليل من يوسف بورج وكان ابراهام ابن يوسف بورج ضابطا من ضباط الاحتياطى وهو من زعماء حملة معاداة الحرب. وقال بيجين مندهشا لوزير الداخلية يوسف بورج :

« اننى لم أوافق على استدعاء الاحتياطى » .

وعندما سئل شارون عن هذا الموضوع فى اليوم التالى قال انه طالما قد تم الاتفاق على شن عملية فى بيروت ليلا أصبح من الواضح لدى أن اعلن دعوة الاحتياطى .

ولم يكن من السهل تهدئة رئيس الوزراء الذى قال متسائلا : « ماذا يعنى بقوله انه أصبح من الواضح لدى ؟ انك لا تستطيع أن تتقدم على خطوة كهذه دون موافقتى - هكذا يعلم كثير من الاشخاص عن هذه التعبئة بينما لا يعلم رئيس الوزراء عنها شيئا ! وقبل شارون هذا التوبيخ وقدم اعتذاره .

وانتقد بيجين وزير دفاعه علانية فى اجتماع لمجلس الوزراء فى الثانى عشر من اغسطس وهو اليوم اللاحق لاعنف واقسى قصف اسرائيلى لبيروت .

فلقد هاجمت الامواج تلو الامواج من الطائرات المناطق السكانية لمدة احدى عشرة ساعة متصلة وبدون انقطاع . وزعم ضابط كبير فى القوات الجوية أن معظم التفجيرات كانت قنابل صوتية ولكن لم يكن هذا هو الوضع بالنسبة للسكان على البر أو مشاهدى التليفزيون فى العالم كله .

كان الرئيس ريجان من بين هؤلاء واتصل هاتفيا ببيجين مرتين وطلب أن توقف اسرائيل هذه المذبحة . ورد بيجين قائلا ان الرئيس ريجان لا يعرف معنى هذه الكلمة لكن شارون تعرض لنيران ثقيلة فى مجلس الوزراء من دافيد ليفى نائب رئيس حزب حيروت — ومن بورج الذى خشى أن يؤدى هذا القصف الى عرقلة للتوصل الى اتفاقية للجلاء فى اللحظة الاخيرة وأن يوجه اللوم فى ذلك الى اسرائيل . واتفق بيجين معهم على أن — القصف لم يعد يخدم أى هدف نافع مفيد وأن اسرائيل سوف تتلقى نقدا شديدا من الولايات المتحدة . وتساءل بيجين قائلا : « وكيف سيكون موقف اسرائيل أمام العالم اذا ما تم استدعاء فيليب حبيب من مهمته لوقف اطلاق النار وعندما حاول شارون الرد اكد رئيس الوزراء — غاضبا — سلطاته ووافق مجلس الوزراء على توصياته بألا تتخذ مبادرات بعد اليوم لحماية الجنود الاسرائيليين بدون موافقة مجلس الوزراء والا يحدث أى قصف من البر أو البحر أو الجو بدون علم رئيس الوزراء وموافقته .

وبالرغم من أن بعض الوزراء رأى فى ذلك تصويتا بسحب الثقة من شارون الا أن رئيس الوزراء لم يتخل عن وزير دفاعه . وفى الاجتماع التالى لمجلس الوزراء بعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ اقترح بيجين نسيان الماضى . وكان عليهم أن يتحدوا معا ويسيروا جنبا الى جنب فى مهمتهم . وقال رئيس الوزراء : « محظوظة تلك الدولة التى يعمل فيها شارون وزيرا للدفاع » .

وكان بيجين بعد ذلك تلقى التقارير بصورة منتظمة من شارون وكانت هذه التقارير تصل الى ٥ أو ٦ تقارير فى اليوم الواحد . ولكن لما كانت هذه الحملة التى قدر لها ثمان وأربعين ساعة قد امتدت طوال شهر يونيو ثم يوليو وأغسطس حتى سبتمبر بدأت الشكوك تثار حول قدرة بيجين على البقاء .

لقد قام بزيارة واحدة للقوات الاسرائيلية فى لبنان وذلك فى اليوم التالى عندما ذهب ليهنىء وحدة المشاة التى استطاعت الاستيلاء على قلعة بيفورت وحاول أن يأخذ يوم عطلة نهاية الاسبوع فى بلدة نهاريا على الشاطىء الشمالى الا أن هذا لم يتم نتيجة لزيارة بشير الجميل ووزير الدفاع الأمريكى كاسبار واينبرجر له .

وما هى المعلومات التى كان شارون وايتان يطلعانه عليها وما هى المعلومات التى كان يحجبانها عنه ؟ والى أى قدر كانا يحاولان الاتصال برئيس الوزراء أثناء فترات الازمات .

ان مصرع بشير الجميل وما تبع ذلك من مذبحة صبرا وشاتيلا يقدم الرد على هذا السؤال كانت مذبحة مخيمات الفلسطينيين فى صبرا وشاتيلا نقطة تحول فى كل العملية الاسرائيلية فى لبنان .

وكان بشير الجميل عندئذ الرئيس المنتخب للبنان قد قتل فى ليلة الرابع عشر من سبتمبر عندما دمرت قنبلة زمنية مكاتب الحزب فى شرق بيروت .

وتشاور بيجين تشاورا تاما وكاملا مع شارون وايتان اللذين اخبراه بالشائعات والشائعات المضادة حول مصير الجميل بينما كان رجال الانقاذ يحفرون وسط الانقاض وفى حوالى الساعة الحادية عشرة مقبلها عندما تأكد مصرع الرئيس جميل أشار بيجين على شارون بانه ينبغى على جيش الدفاع الاسرائيلى ان يسيطر على نقطة العبور بين شرق وغرب بيروت للحيلولة دون وقوع فوضى وأراقة للدماء وللفصل بين السكان والذين يناصبون بعضهم العداء . هذا هو على الاقل ما قاله رئيس الوزراء للجنة كاهان التى تشكلت للتحقيق فى مذبحة صبرا وشاتيلا ووضع الجيش فى مظهر مخالف بناء على هذا القرار الذى اتخذه بيجين وشارون فى هذه الحالة الطارئة . وفى

غمرة قلق لبنـــان أعلن المتحـــدث العسكرى فى اليوم التالى أنـــه سيكون موقفا لا اخلاقيا لو أن اسرائيل لم تساعد على المحافظة على السلام .

ان مصرع الرئيس المنتخب بشير الجميل هذا المأسوى يشير الى رغبة لدى عناصر معينة للعودة عن طريق العنف الى حالة الفوضى السابقة . وفى ظل مثل هذه الفوضى يتفشى الارهاب المعادى لاسرائيل ويزدهر وأن اسرائيل لن تسمح بأن يحـــدث هذا مرة أخـــرى . ان التحركات الحاليـــة للقـــوات الاسرائيلية تؤكـــد ان الهدوء سوف يسود وأنه ســـوف يتم انقضـــاء على الفوضى .

وأكد كل من بيجين ووزارة الخارجية أن اسرائيل قد تصرفت اثناء الليل للحفاظ على السلام . واستغل شـــارون وجيش الدفاع الاسرائيلى فرصـــة اغتيال الجميل لتمشيط الفدائيين الفلسطينيين وحلفائهم من اللبنانيين اليساريين الذين بقوا فى غرب بيروت بعـــد جلاء منظمة التحـــرير الفلسطينية فى نهـــاية أغسطس ودخلت حاملات الجنود المدرعة نقاط العبور الاستراتيجية فى الاراضى التى يسكنها المسلمون والفلسطينيون حيث واجهت مقاومة على نقاط صغيرة لكنها مقاومة نشطة وفى يوم الخميس الموافق السادس عشر من سبتمبر دخلت ميليشيات الكتائبيين معسكرى اللاجئين لمطـــاردة الفدائيين الفارين كما كان واضحا . وقد تم تنسيق دخولهم مع الجيش الاسرائيلى الذى ساعدهم عن طريق الاضواء الكاشفة وعن طريق التغطية بنيران المدفعية . وكان هذا كمـــا لو وضعت ثعلبا فى حظيرة للدواجن وكما يمكن أن يتنبأ اى فرد له معرفة — ولو بسيطة — بتاريخ لبنان الحديث الملطخ بالدماء ، فان الكتائبيين قد نسوا كل شىء عن الارهابيين واخذوا يقتلون كل فلسطينى يعثرون عليه سواء كان رجلا ام امراة أم طفلا . واعترف بيجين فى استجوابه من قبـــل لجنـــة كاهان انه لم يعلم أى شىء عن قرار نشر الكتائبيين حتى اخطر به اجتماع طارىء لمجلس الوزراء فى ليلة السادس عشر . انه لم يتم استشـــــارته او اخطاره .

ومرة اخرى استند شارون الى تفويض بأثر رجعى زاعمـــا أن نشر الكتائبيين قد تم بنـــاء على قرار اتخذ فى الخامس عشر من يونيو قبل ذلك بثلاثة اشهر . وأن الجيش اللبنانى والكتائبيين وليس جيش الدفاع الاسرائيلى هـــو الذى سوف يستولى على غـــرب بـــيروت وكان دافيد ليفى هو المعترض الوحيد وحتى هو لم يجد ما يبرر التصـــويت ضد ما حدث بالفعل .

وفى يوم الخميس دخل الكتائبيون المعسكرات ولكن لم يعـــلم العالم بما فعلوه حتى يوم السبت الموافق الثامن عشر من سبتمبر . وأثيرت الشكوك حول القـــادة الاسرائيليين المحليين يوم الجمعـــة . لقد اصدروا أوامرهم للكتائبيين بوقف عمليتهم ولكنهم لم يجبروهم على ترك المعسكرات قبـــل

صباح يوم السبت ولكن طبقا لشهادته هو ، لم يهتم أحد باخطار رئيس الوزراء . وكان يوم السبت هو يوم بداية السنة اليهودية الجديدة . ولكن كان فى الامكان ارسال مبعوث الى داخل المعبد بكل سهولة . وبدلا من ذلك علم بيجين بالمذبحة عن طريق الاذاعة البريطانية فى الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم السبت — أنه لم يخطر بعد الحادث ولم يشر عليه أحد بشىء عن المخاطر مسبقا وعندما سأله آهرون باراك عضو لجنة التحقيق وهو الآن قاض بالمحكمة العليا عما اذا كان ينبغى على أجهزة الامن أن تحذره أجاب بيجين : « ان ما ينبغى عليهم اخطارى به متروك اساسا لمبادرتهم الشخصية » .

كان سلوك بيجين وهو واقف فى المكان المخصص للشهود يتصف بعدم النظام وكان بيجين يبدو بخلاف اللجنة وكأنه لم يؤد واجبه المنزلى . ولقد دهش عندما واجهه كبير القضاة اسحق كاهان بنسخ من وثائق اجتماعات مجلس الوزراء وبالمحادثات التى جرت مع مبعوث ريجان الخاص موريس داريير وكان أعضاء مكتبه يعرفون أن اللجنة قد تلقت هذه الوثائق . ولم يكن فى استطاعته ان يتذكر أشياء هو وغيره قد قالوها بما فى ذلك بيان ادلى به جنرال ايتان جاء فيه أن الكتائبيين يسنون أسلحتهم من أجل الانتقام بعد مصرع بشير الجميل .

وبالرغم من أنه كان يدلى بشهادته بعد اقل من شهرين بعد المذبحة الا أنه لم يكن دائما يفهم ما وجه اليه من أسئلة . وكان الانطباع هو أن رئيس الوزراء قد فقد قبضته على الامور . وعلق أمنون دانكيز فى صحيفة هاآرتس قائلا : « لقد رسمت الصورة عن رئيس وزراء لا يهتم بالتفاصيل وانه فى بعض الاحيان يكون متباعدا ومعتمدا على وزير الدفاع رئيس الاركان دون أن يحثهم على اطلاعه على ما يجرى .

وكان الانهيار فى التنظيم كما كان فى الاتصال . لقد استقال العميد افرايم بوران كسكرتير عسكرى لبيجين فى عام ١٩٨١ وبناء على توصية من شارون تم تعيين ضابط صغير بدلا منه وهو أزريل نيفو . واستغنى شارون نفسه عن ضابط كبير يعمل مساعدا عسكريا له وذلك عندما أصبح وزيرا للدفاع شارحا ذلك بأنه ليس فى حاجة الى وسيط بينه وبين القيادة العامة وعلى نفس الشاكلة فانه يريد أن يكون حلقة الاتصال بين بيجين والجيش .

ولقد كان ازريل نيفو جنديا له مستقبل فى الجيش ولكنه لم يكن من العمر ولا من الرتبة العسكرية ما يمكنه من خدمة رئيس الوزراء وأن يصبح عينيه وأذنيه كما كان يفعل سابقه لقد كان بوران جنديا مخضرما من حرب التحرير سنة ١٩٤٨ وكان يعرف القادة كزملاء وأنداد له .

ولم يكن فى حاجة لان يستخدم القنوات التقليدية للحصول على المعلومات . وكان فى استطاعته أن يتوجه مباشرة الى الرجل المسئول فى موقعه . وهؤلاء الذين كانوا يعرفونه كانوا مقتنعين بانه وان كان لا يستطيع منع المذبحة من الوقوع كان فى استطاعته أن يخطر بها رئيس الوزراء بدلا من السماع عنها من الاذاعة البريطانية .

ان الصراخ الذى اثارته صبرا وشاتيلا جعل رئيس الوزراء يلجأ للدفاع عن نفسه . وفى مذبحة فندق الملك داوود ، ومذبحة دير ياسين ، ومذبحة المعسكرات فى بيروت لم يثر فقدان الارواح غير اليهودية اى شعور بالمرارة . وقال بيجين : « ان الجوييم » « غير اليهود » يقتلون غير اليهود ثم يلقون باللائمة على اليهود » . قال ذلك فى اجتماع طارىء لمجلس الوزراء يوم الاحد الموافق التاسع عشر من سبتمبر . واتهم بيان أصدره المجلس وقعه رئيس الوزراء العالم بتوجيه تهمة سفك الدماء للدولة اليهودية وللحكومة اليهودية ولقوات الدفاع الاسرائيلية .

وقال البيان ان القوات الاسرائيلية لم تكن متمركزة فى المعسكرات وقت وقوع المذبحة التى نفذتها وحدة لبنانية .

وقال ايضا ان القوات الاسرائيلية قد وضعت حدا للقتل واجبرت اللبنانيين على ترك المعسكر . وبدون تدخل جيش الدفاع الاسرائيلى لكان عدد القتلى قد زاد زيادة كبيرة .

ان جميع الاتهامات المباشرة والضمنية بان جيش الدفاع الاسرائيلى يتحمل اللوم عن هذه المأساة الانسانية لا اساس لها من الصحة تماما . وأن حكومة اسرائيل ترفض هذه الاتهامات بكل الاحتقار الذى تستحقه .

وبالرغم من الآثار الداخلية فاننا ندعو شعب اسرائيل الى الاتحاد حول حكومته المنتخبة انتخابا ديمقراطيا فى نضالها من اجل امن اسرائيل وسلامتها وأمن وسلام كل مواطن اسرائيلى . ولا يجوز لاحد أن يعلمنا الاخلاق واحترام حياة الانسان وهى قيم تعلمناها وشببنا عليها وسوف نستمر فى تلقينها للاجيال القادمة من المقاتلين الاسرائيليين .

وكما اوضح تقرير لجنة كاهان فان المسائل الاخلاقية لم تكن بهذه البساطة ، لقد كان بيان الحكومة بمثابة قضية دفاع اقيمت على اساس من معلومات محددة . لقد تضمن ابسط تعبير رمزى عن الاسف والحزن لموت مئات من الفسطينيين . ورفض بيجين أن يصدر اى بيان شخصى بالاسف تماما كما استبعد قلق ايلى جيفى من جراء وقوع اصابات بين المدنيين عندما وقفت دبابات العقيد جيفى فى مواجهة غرب بيروت . وبعد أن شرح العقيد جيفى لرئيس الوزراء انه راى الاطفال من خلال نظارته

المكبرة عندما اتجه ببصره الى المدينة أجاب بيجين : « هل تلقيت تعليمات بقتل الأطفال ؟ وأجاب جيفى بالنفى وعندئذ سأله بيجين : « وفيم شكواك اذن ؟ وقد اثار سكوت رئيس الوزراء على المذابح التى وقعت فى معسكرات اللاجئين غضب الرئيس اسحاق نافون الامر الذى دفعه الى الظهور على شاشة التليفزيون بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل ليقدم تعازيه ومواساته للأسر الثكلى مشيرا الى أن بعضهم هم من العرب الاسرائيليين أو الفلسطينيين الذين يعيشون فى ظل الحكم الاسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة .

وتحت الضغوط المتزايدة من جانب الصحافة الاسرائيلية ومن جانب الرأى العام الاسرائيلى اضطر بيجين الى تشكيل لجنة استقصاء مستقلة للتحقيق فى تورط اسرائيل فى المذبحة . وحاول أول الامر أن يحدد سلطاتها فى نطاق استدعاء الاشخاص وطلب المستندات لكن المؤسسة القانونية استطاعت أن تحبط محاولته هذه مدعمة من قبل مؤتمر شعبى ضم ٤٠٠ر٠٠٠ اسرائيلى انعقد فى ميدان تل ابيب احتجاجا على هذه الاعمال .

وقد منحت لجنة كاهان المكونة من قاضيين وجنرال متقاعد كافة السلطات القانونية ولقد تمخضت تحقيقاتها المتأنية عن تقرير محدد واضح عن كل ما جرى فى صبرا وشاتيلا وعن كل ما كان ينبغى الا يقع او يحدث .

وبالرغم من أنها برأت اسرائيل من المسئولية المباشرة الا أنها اعتبرت اسرائيل مسئولة مسئولية غير مباشرة .

« ان قرار دخول الكتائبيين معسكرات اللاجئين قد اتخذ بدون اعتبار للمخاطر التى كان منفذو القرار قد رأوها محتملة الوقوع وهى أن الكتائبيين سوف يرتكبون مذابح وعمليات اضطهاد ضد سكان المعسكرات ، كما اتخذ هذا القرار بدون دراسة لوسائل منع هذا الخطر .. وبصورة مماثلة فقد كان واضحا بين تتابع الاحداث أنه عندما بدأت الانباء ترد عن أعمال الكتائبيين فى المعسكرات لم يلتفت اليها التفاتا مناسبا ولم تستخلص النتائج الصحيحة من هذه الانباء ولم تتخذ أية أعمال نشطة ومباشرة لكبح جماح الكتائبيين ووضع حد لاعمالهم » .

وانحت اللجنة باللائمة على شارون لتجاهله اخطار المذبحة ولفشله فى اتخاذ الخطوات المؤدية الى منع وقوع المذبحة .

واوصت بلغة غير مباشرة — تسببت فى اثارة المتاعب لرئيس الوزراء — بأن يستقيل شارون من وزارة الدفاع أو أن يطرد من الوزارة .

ووجهت نقدا شديدا للجنرال ايتان والحت اللجنة بانه لو لم يكن رئيس الاركان على وشك الاحالة الى الاستيداع لكانت قد أوصت بعزله . وادين كل

من ماجور — جنرال يوشوا ساجوس مدير المخابرات العسكرية وكذلك القائد المحلى فى بيروت العميد أموس يارون لتقصيرهما .

وأوصت لجنة كاهان بعدم اتخاذ اى اجراء ضد بيجين ولكنها أنحت عليه باللائمة لتجاهله اخطار المذبحة عندما دخل الكتائبيون المعسكرات وفشله فى متابعة ما جرى بعـــد ذلك .

« فقد يفترض أن اظهار الاهتمام من قبل رئيس الوزراء فى هذا الموضوع بعد أن علم بدخول الكتائبيين كان فى الامكان أن يزيد من حـــالة تنبه وزير الدفاع ورئيس الاركان الى الحاجة الى اتخـــاذ الاجـــراءات المناســـبة لمواجهة هذا الخطر المرتقب بأن تصور رئيس الوزراء عن الاندماج والمشاركة فى المشكلة باكملها يلقى عليه قدرا معينا من المسئولية ؟

ووجه النقد لوزير الخارجية اسحق شامير لعدم قيامه بما يكفى بمراجعة تقرير تلقاه من زميله مردخاى زيبورى ويلفت انتباه وزير الدفاع الى الشائعات بأن الكتائبيين يقتلون المدنيين غير المحاربين .

وبشعور بالحس القانونى الاصيل كان بيجين يدرك منذ اللحظة الاولى التى شكل فيها لجنة كاهان أن عليه أن يقر توصياتها وينفذها مهمـــا كانت قاسية . فنتائجها سوف تكون ملزمة اخلاقيا حتى لو لم تكن ملزمة قانونيا . لكنه كان عازفا عزوفا تاما عن طرد شارون اذا مارفض وزير الدفاع أن يخرج فى هـــدوء .

وعلى اية حل فان ما يهم رئيس الوزراء هو ان اسرائيل قد برئت تماما من المسئولية المباشرة . فجنود اسرائيل لم يقتلوا اللاجئين فى صبرا وشاتيلا. وشارون يستحق مصير افضل من أن ينهى حياته العسكرية والسياسية نهاية مشينة لمجرد وقوع مذبحة قام بها المسيحيون اللبنانيون وعلاوة على ذلك فلم يكن يراود بيجين الشك فى أن أولئك الذين يريدون اسقاط شارون انما يريدون ايضا اسقاطه هو نفسه .

وعندما زار شارون بيجين فى صباح يوم نشر التقرير ساله رئيس الوزراء ماذا ينبغى عمله · واجاب شارون ان بيجين يمكن أن يقبل هذا التقرير أو يرفضه ان وزير الدفاع لن يستقيل ولكن بيجين يستطيع ان يفصله · واجاب رئيس الوزراء : « أننى لن أطلب منك أن تستقيل » .

وكان المضمون واضـــحا . « واذا ما استخلص شارون النتائج الشخصية » كما جاء فى كلمات التقرير . فان بيجين لن يقف فى طريقه . لكن شارون لم يكن على استعداد لان تسير الامور فى سهولة . فانه لن يقبل ان يوصم بمحض اختياره بوصمة « قابيل » وقال بيجين انه اذا ثبت شارون فى مكانه فالاختيار الوحيد امامه هو أن يذهب الى الرئيس ويقدم استقالتـــه

بالاصالة عن حكومته كلها ويطلب اجراء انتخابات فى وقت مبكر . وكان يؤمن بأن الشعب يقف معـــه .

فالغالبية رفضت تقرير كاهان لانه شديد القسوة . وبضربة واحـــدة يكون قد فعل الشىء المناسب وكسب تفويضا جديدا من الشعب ولكنه كان مستعدا لان يترك الحكومة بعض الوقت قبل أن ينفذ هذا المخطط .

واجتمعت الحكومة ثلاث مرات فى ثلاثة أيام . واخذت تناقش التقريـــر ونتائجه لمدة احدى عشرة ساعة متصلة . وفى الاجتماع الثالث والذى استمر خمس ساعات فى مساء العاشر من فبراير اصدرت الحكومة بيانا مقتضبا قالت فيه ان مجلس الوزراء قرر قبول توصيات اللجنة » .

وكانت نتيجة التصويت ١٦ صوتا مقابل صوت واحد . وكان شارون هو الوحيد الذى صوت ضد هذا القرار . وقال وزير العدل موشيه نســيم للصحفيين : » ينبغى تنفيذ كل فقرة . واذا لم تنفذ فقرة من الفقرات فـــان مجلس الوزراء سوف يجد الوسيلة لتنفيذه . وارتقى القرار الى مرتبة الانذار النهائى فاما أن يسارع شارون بالخروج أو يدفع بقوة .

واكد سكرتير مجلس الوزراء دان ميريدور أنه ليس هنك من أحد يلعب بالالفاظ وقال مسئول آخر كبير انه يأمل فى الا يتعين عليه ان يجلس مرة أخرى للاشتراك فى مناقشة صعبة كهذه .

وخرج شارون من مكتب رئيس الوزراء فى تحد ولكن دون أن يتصل بأحد وفى اليوم التالى انحنى للقرار الذى لا يمكن تجنبه واتصل بيجين هاتفيا وقدم استقالته وكتب يقول انه سوف يحترم قرار مجلس الوزراء بابعاده من منصبه كوزير للدفاع ولكنه لن يستقيل من الحكومة . وبعد أن قال المدعـــى العام اسحق زامير انه يكفى أن يخرج شارون من وزارة الدفاع وافق المجلس على الاكتفاء بذلك وابقاء شارون فى الحكومة كوزير بلا وزارة وبعد ذلك باسبوع اعيد تعيينه فى اللجنة الوزراية للدفاع ووجهت المعارضة نقد شديداً لبيجين لاحترامه كلمات والفاظ تقارير كاهان دون احترام روح التقرير وجوهره . لكن تقرير اللجنة كان غير دقيق فى توصيته بصورة متعمدة وكان من حـــق بيجين أن يقول انه نفذ التزاماته .

الفصل الثالث والعشرون

« لا استطيع الاستمرار »

ان ضعف الجسد والروح البطيء الذى كان يعانى منه مناحيم بيجين ، والذى وصل الى الذروة باستقالته فى شهر سبتمبر عام ١٩٨٣ ، كان قد بدأ قبل ذلك بعامين فى الاغلب يوم ٢٦ نوفمبر عام ١٩٨١ .

وكان رئيس الوزراء يقرأ فى ذلك اليوم الاوراق الرسمية التى كان قد تم ارسالها الى مقره فى ركن شارعى (بلفور) و (سموليتسلين) فى منطقة (طالبية) بالقدس . وبعد أن قرأ بيجين آخر برقية لديه ، ذهب ليغسل يديه قبل أن يلحق بزوجته وابنته (ليه) لتناول العشاء الا أن قدمه زلت بين الحوض وقضيب المنشفة وسقط بقوة على أرضية الحمام .

وسردت هذه الاحداث التى وقعت يوم الخميس هذا وفقا لتسلسلها الزمنى لحظة بلحظة فى خطاب مفتوح غير عادى أرسله بعد ذلك بأسبوع الى (يوئيل ماركوس) المحرر بجريدة هـا آرتس الذى كتب مقالا ينتقد فيه زعماء اسرائيل ومستشاريهم للشئون الطبية لاخفاء الحقيقة بشأن العلل التى يعانون منها من الجمهور . وكتب مناحيم بيجين يقول :

« لقد ظللت ملقيا على الارض أحاول النهوض وكنت اتنهد من الالم . وحاولت أن أنادى زوجتى لتأتى لمساعدتى ، لكنها لم تسمع نداءاتى لان صوت المذياع الذى كان معى كان مرتفعا .. لقد جاءت هى أيضا بمحض الصدفة لتغسل يديها ، عندما فتحت الباب ووجدتنى راقدا على الارض . وتساءلت قائلة : ما الذى حدث لك ؟ وأجبتها قائلا : « لقد وقعت » وقالت حينذاك .. « انهض » وقلت لها : « لا أستطيع » فقالت انتظر سأحضر « ليه » . وجاءت « ليه » وتساءلت ما الذى حدث لك يا أبى وأجبت « وقعت » ولا أستطيع النهوض ، دعينى راقدا برهة وسأحاول النهوض ، وتشاورت حينذاك زوجتى وابنتى معا واتفقا على أن يرفعونى من على الارض ويضعونى فوق الفراش المجاور . وسمعت الحديث الذى دار بينهما وقلت لهما « لا » ، لا تفعلا ذلك « فليست لديكما القوة وستضطران لتحريكى والحركة ستسبب لى آلاما رهيبة واعتقد انى كسرت فى شيئا ، احضرا الى اثنين من حراسى وسأذكر لهما ما يجب أن يفعلاه معى » .

وبعد برهة قصيرة جاء اثنان من شبابنا الرقيق ، وطلبت منهما أن يفعلا الآتى ضعا أيديكما تحتى ، دون أن تحركا (أعضائى) واحملانى فى ذلك الوضع

الى الفراش وضعونى عليه واقترب حارسا الامن منى وفعلا بالضبط ما طلبته منهما . شكرا لهما فقد رقدت على فراشى على جانبى الايمن وكان الالم شـــديدا لــكن محتمــل » .

وتم استدعاء اثنين من كبار الاطبـــاء من مستشفى (هاداساه) كان من بينهما (مرقين جوتسمان) ، الطبيب الشخصى لمناحيم بيجين ، وطلب ســيارة اسعاف لتحمله الى المستشفى فى منطقة (عين كريم)) على الطرف الغربى من المدينة ، حيث أثبتت أشعة اكس أنه يعانى من كسر فى فخذه اليسرى ، وكلما اسرعوا باجراء عملية جراحية له كان أفضل وفى حجرة العمليــات قيل لبيجين انه سيكون مستيقظا طوال الوقت حيث لم يتم اعطـــاؤه الا عقـــار! مخـــدرا موضعيا .

لقد كانت الالام شديدة ولكنها لم تتزايد ، وقـــد شـــهدت استعدادات الجراحين وكيف ارتدوا ملابسهم ، وكيف تمت مساعدتهم فى ربط أحزمة اروابهم وكان جميع الموجودين فى الحجرة يرتدون اقنعة على وجوههم ، وكان من بينهم (البروفيسور جوتسمان) وأحد رجال الامن وبدأ التخدير ، وحقننىالبروفيسور فلوريلا (ماجورا) عدة مرات بالقرب من عمودى الفقرى ، وبدأ التخـــــدير تدريجيا فى الجانب الايسر من جسدى .

وجاءت اللحظة التى شعرت فيها بأننى مجمد ثم اختفت الآلام وشعرت بتحسين كبير واصدر البروفيسور (مير) ماكين اوامره بوضــــع ســـتارة بين النصف الاعلى من جسدى وبين الجزء الذى ستجرى فيـــه العملية . وقيل ان ذلك مطلوب حتى لا تصـــل الجراثيم التى تنبعث مع تنفسى الى منطقة العملية .

وقبلت ذلك التفسير ، الا أننى اعتقدت انهم قد لا يريـــدون أن أرى كل ما يفعلوه وبالفعل لم أر شــيئا .

وبدأت العملية ، ولم اشعر بأنها بدأت . وتحـــدثت الى البروفيســـور (جوتسمان) الذى كان بجانبى وتحدث هو الى .

ولم اكن اشعر بأى ألم . وفجـــأة سمعت دق مطرقة على مســـمار وزاد الدق ولم أشعر بشىء ولم أحسب العدد ولكنى أعتقد أننى ميزت تســـع أو عشرة دقات متقطعة . وبعد برهة قيل لى أن العملية ستنتهى على التو وأن كل شىء سار على ما يرام . وبعد قليل ذكروا أنهــــــا انتهت . وأزاحوا الستار ورأيت قفاز البروفيسور (ماكين) وكان عليـــه بعض الدماء ، وأزالهـــا وجـــاء وقال لى : لقـــد تم كل شىء بصـــورة طبية وتم وضعى فى نقالة واعـــادتى الى جناح البروفيسور (جوتسمان) الخاص بالعناية المركزة .

وفى هذه الليلة لم تعاودنى الآلام ولكن فى يوم الجمعة وقد زال على الارجح أثر المخدر الموضعى ، بدأت الآلام . وكانت شديدة الا انها كانت محتملة لانهم سمحوا لى بالبقاء فى الفراش وعدم الحركة لمدة يومين » .

وتم شفاء عظمة الفخذ ، العظمة التى توصل الفخذ بالحوض ، وخرج بيجين من المستشفى بعد ذلك بثمانية عشر يوما . الا أنه ظل يعانى من الم شديد وعدم الشعور بالراحة لعدة شهور بعد ذلك وعندما قام الرئيس الفرنسى (فرانسوا ميتران) بزيارة رسمية لاسرائيل فى شهر مارس عام ١٩٨٢ ، القى بيجين خطابا فى الكنيست وهو جالس على مقعد متحرك وفى أواخر شهر مايو ، اعتذر عن القاء بيان أمام لجنة الشئون الخارجية والدفاع بالكنيست لان ساقه المكسور مازال يؤلمه وقال لهيئة مكتبه انه لم يتعرض لمثل هذا الالم فى حياته . وتخلى رئيس الوزراء عن مكتبه الذى وجده غير مريح ، وباشر عمله اليومى وهو جالس على أريكة وعلى مائدة لتناول القهوة وبعد ذلك بفترة طويلة واصل المشى مستعينا بالعصا .

لقد هز سقوطه ثقته بنفسه وذكره بانه أصبح مسنا . واعترف بانه يخشى من السقوط مرة اخرى .

وكوسيلة لتدعيم موقفه استغل بيجين اصابته كدعاية فكان يقول للجماهير اليهودية الامريكية الصاخبة عندما كانت ادارة ريجان تهدد بممارسة ضغط على اسرائيل لقد كسرت ساقى لكن لم تنثن ركبتى .

وعلى الرغم من ذلك فان هذه الاصابة جعلته يشعر بأنه مريض مثلما لم تفعل أبدا حالة قلبه . وسأل ذات مرة زميلا له فى مرض القلب « هل تشعر بأنك رجل مريض » ؟ وبالرغم من أن بيجين لم يسافر أبدا بدون طبيبه المخلص (جوتسمان) فانه لم يشعر بأنه عرضة للخطر على نحو خاص .

وخلال زيارته للقاهرة فى عام ١٩٧٩ كان يقفز حول الاهرامات وهو يرتدى حلة وربطة عنق فى درجة حرارة اكثر من ٤٠ درجة مئوية ومع ذلك بدأ يبدو ضعيفا بساقه المكسورة وكان يحتاج الى مساعدة .

وفى الاغلب ، كان بيجين قد بدأت تظهر عليه — منذ توليه منصب رئيس الوزراء — الاعراض التقليدية للمس والانقباض وقد انغمس فى الاكتئاب والكسل لعدة شهور ، فى المرة الواحدة ، وحدث ذلك فى عام ١٩٧٨ ثم حدث مرة اخرى فى عام ١٩٨٠ . وكان يعود الى النشاط فى كل مرة بسبب نشوب قتال أو تعرضه لاهانة أو استغلال فرصة لصنع التاريخ . وفى الاثنين وعشرين شهرا التى تلت سقوطه فى حمامه بالقدس ،

كان بيجين يتعرض لسعادة الحياة ولنحسها ، الا أن الدافع على العمل ضعف بالتدريج واصبحت الفترات الانقباضية أقل عدد أو أقل مدة .

وبدات تضعف المرونة التى اتصف بها فى (الجولاج) وفى الحركة السرية وكذلك ازدرائه للمعارضة الدائمة وتجارب الحكم . كان الاتجاه السائد هو الانحدار الشديد .

لم يكن شيء من ذلك واضحا عندما خرج بيجين من مستشفى الهداساه يوم ١٤ ديسمبر . لقد خرج بهمة ونشاط كبيرين كما لو كان يريد أن يظهر انه من السابق لاوانه القضاء عليه .

وانقضى يوم الاثنين الطويل ، الذى خرج فيه رئيس الوزراء محوطا بكل ما تتصف به عملية ينفذها رجال العصابات : المفاجأة والسرية وسرعة التنفيذ .

وقد بدا ذلك اليوم فى الساعة السابعة والربع صباحا عندما كان بيجين مازال يرتدى ملابس المستشفى . واتصل تليفونيا باريل شارون وسأله عن خططه بالنسبة لذلك اليوم واجاب وزير الدفاع الذى غضب بعض الشيء للاتصال فى هذه الساعة بأنه سيذهب الى « ياميت » فى شمال سيناء . واقترح بيجين عليه ان يتخلى عن الذهاب الى ياميت ويحضر الى القدس . وتم أيضا استدعاء اسحاق شامير وزير الخارجية . وتساءلا ما هى المسألة ؟ وأجاب بيجين « سأبلغكم عندما تحضرون » وكان هذان الوزيران وهما أقدم رفيقين له فى حزب حيروت أول من يحاطان علما لكن حتى هما لم يخمنا أن رئيس الوزراء كان يعتزم الاحتفال بخروجه من المستشفى بضم مرتفعات الجولان ، التى تم الاستيلاء عليها من سوريا فى حرب ١٩٦٧ ، ودعى مجلس الوزراء الى عقد جلسة طارئة فى وقت الظهيرة فى شارع بلفور . وكان بيجين فى بيته مشغولا .

كانت الصحف تعلم أن هناك شيئا فى الافق لكن ما هو ؟ وانفض اجتماع مجلس الوزراء قبل الغداء ، واعلن أنه سيصدر بيان فى الكنيست بعد الظهر وبدات التساؤلات : هل بيجين مريض أكثر مما كنا نتصور ؟ . هل سيقدم استقالته ؟ هل هى عملية عسكرية ، ضربة ربما يتم توجيهها الى الصواريخ السورية نصف المنسية فى شرق لبنان ، لقد أظهر الامر كله سطوة بيجين وميله للتآمر .

كان رئيس الوزراء قد اتخذ قراره وعلى وشك اعلانه وأيا كانت هواجس مجلس الوزراء فقد جرفه التيار وأجبر الكنيست على صياغة مشروع قانون بتطبيق القانون الاسرائيلى والتشريع الاسرائيلى والادارة

الاسرائيلية على المرتفعات بثلاث قراءات وعرضه على لجنة قبل منتصف النيل وقد يجادل المحامون العالميون بشأن المصطلحات الفنية الصحيحة، الا انه بالنسبة للعالم أجمع كان قد ضم الـ ١٦٧٥ر١ كيلو متر مربع بما فيها من سكان دروز يبلغ عددهم ١٣٠٠٠ نسمة وسكان يهود يبلغ عددهم ٦٦٠٠ر٦ فى اربع قرى واقعة فوق التلال و ٣١ مستوطنة على التوالى . وذيل رئيس الوزراء المبادرة بنهاية درامية بالذهاب الى الكنيست فى مقعده المتحرك ، وتقديم التشريع من مكانه المخصص لرئيس الوزراء ، والدخول فى معركة حامية مع الاعضاء البرلمانيين المعارضين .

وكان قد تم الايذان بالضم فى الخطوط الارشادية التى وضعها الائتلاف للكنيست فى دورته العاشرة لكن لماذا اختار بيجين ذلك اليوم للاعلان عنه وهذه الوسيلة ؟

يقول مساعدوه ان أولويته الاولى كانت اسكات مدافع (جويلا كوهين) وحزب (تحيا) الجديد الذى فاز بثلاثة مقاعد فى انتخابات عام ١٩٨١ والذى كان يتربص الدوائر لكتلة ليكود من اليمين . لقد حاولت مرة مسز كوهين التى انشقت عن حزب حيروت بعد كامب ديفيد دفع الخطى نحو الجولان وهددت بأن تفعل ذلك مرة أخرى بينما صمم بيجين الذى كان بطيئا فى العفو عن المنشقين على حرمانها من ارضائها فلا يهز الكلب الذيل .

وكان هناك أيضا شعوره المسرحى باستغلال الفرصة والرغبة الملحة فى السيطرة على اضواء المسرح . الا أن الظروف قد اجتمعت لجعل هذا الوقت مثاليا للضم . وكان العالم مشغولا بأزمة بولندا . وكانت سوريا تعمل لصالح اسرائيل بالادلاء بتصريحات متعنتة بصورة متزايدة حول«خيانة»ارتكبت لتحقيق السلام مع اسرائيل . وكان الرئيس السورى حافظ الاسد قد صرح فى اليوم السابق مباشرة بأنه لن يعترف ابدا بالدولة اليهودية . حتى اذا قبل الفلسطينيون أن يفعلوا ذلك .

وقام (ديفيد كيمنش) مدير عام وزارة الخارجية الاسرائيلية بتبرير تلك الضربة التى قام بها بيجين لاجهزة الصحافة العالمية بأنها اجراء وقائى لحماية النفس . وقال اذا لم نستطع تحييد مرتفعات الجولان بمعاهدة للسلام فذلك هو السبيل الذى يتعين علينا أن نحققه .

ووبخ بيجين المعارضة البرلمانية متهما اياها بعقلية الجيتو وقال ان الظاهرة التى تتكرر فى التاريخ اليهودى من جيل لاخر هى اتهام الذات، فلابد أن يقع اللوم على اليهودى ، واذا تعرض اليهودى لمذبحة فان اللوم يقع عليه واذا سفكوا الدماء فاليهودى ايضا هو الملوم . ويقول اعضاء الكنيست الان : لن نتفاوض سوريا معكم واللوم يقع فى ذلك على الحكومة اليهودية. وكان رئيس الوزراء يؤكد

أن السوريين وبالتالى أتباعهم الفلسطينيين قد ظلوا فى معسكر الرفض ، الذى منه لن يشكلوا أى خطر على الحكم الاسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة . لقد أقدم بيجين على هذه الضربة ايضا قبل الموعد النهائى لانسحاب اسرائيل من سيناء فى شهر ابريل حتى يقلل من رد الفعل المصرى .

وقال ان القاهرة لن تفعل شيئا من شأنه أن يعرض للخطر استعادة أراضيها السليبة ، وبحلول شهر ابريل ستكون قضية الجولان قد ماتت .

وكان بيجين على صواب فيما يتعلق بالمصريين ، الا أنه قلل من قوة رد الفعل الامريكى ، فلم تشعر واشنطن بالغضب فقط لان اسرائيل ضمت أراضى سورية محتلة ولكن أيضا لانها فعلت ذلك بدون اشعار سابق ، وناهيك عن التشاور فهذه ليست الطريقة التى يجب أن يتصرف بها الحليف ، ردت ادارة ريجان على ذلك بارجاء العمل بمذكرة التفاهم الاستراتيجى التى كان شارون قد تفاوض بشأنها مؤخرا بمنع المكاسب المالية التى كان قد تم التعهد بها لاسرائيل وكانت هناك شكوك فى الولايات المتحدة وفى اسرائيل حول القيمة العملية للمذكرة الا أن بيجين وشارون قد حققا الكثير منها . وكان ارجاء العمل بها ضربة لمكانتهما وكان رد رئيس الوزراء على ذلك شفويا اذ لم يكن لدى اسرائيل شىء ذو اهمية يمكن أن تحرم الولايات المتحدة منه ، الا انه فى نطاق هذه الحدود أخذ بيجين يهدد بالكلمات كما لو كانت اسرائيل هى الدولة العظمى وأمريكا هى التابع المحاصر . ووجه ذلك الارجاء طعنة لمبدئه الخاص بالتحالف المتوازن ولكبريائه فى الاستقلال اليهودى . وكان بيجين يعامل الكلمات على الدوام كالاسلحة ولابد أن تأتى الخطبة المملة التى القاها على السفير الامريكى سيىء الحظ « صموئيل لويس » فى مصاف أكثر الهجمات قسوة يوجهها شريك صغير الى راع ثرى وقوى .

لقد استدعى رئيس الوزراء (لويس) الى شارع بلفور ووجده السفير ما زال يعانى من ساقه المكسور ويلتزم بالصرامة فيما اتضح انه مناجاة للنفس استغرقت خمسا وخمسين دقيقة وكما لو كان يريد أن يظهر أن غضبه ليس موجها الى لويس ، خرج بيجين عن سبيله لتبادل المجاملة بشأن صحتهما وعائلاتهما قبل الدخول فى الموضوع وبعد ذلك كما لوكان يضىء نورا ، قال بيجين : والان يا سيادة السفير عندى تصريح أريد الادلاء به وقال انه رسالة شخصية يريد نقلها على الفور الى الرئيس ووزير الخارجية ولاحظ لويس وجود حزمة من الاوراق الى جانب بيجين الا أن رئيس الوزراء لم يشر اليها .

واشار بيجين الى أن هذه هى المرة الثالثة خلال ستة أشهر « تعاقب » الادارة الامريكية فيها اسرائيل . وكانت المرة الاولى بعد تدمير اسرائيل للمفاعل العراقى ، أما المرة الثانية فكانت عندما قصفت اسرائيل بيروت فى صيف عام ١٩٨١ .

منذ أسبوع أقر الكنيست قانون الجولان ، ومرة اخرى تعلنون انكم تعاقبون اسرائيل ، ما هذا الحديث « تعاقبون اسرائيل هل نحن دولة تابعة ، هل نحن جمهورية تافهة ، هل نحن صبية فى الرابعة عشر من العمر بحيث اذا لم يلتزموا فى تصرفهم يتم تهشيم مفاصل أيديهم وأرجلهم • اننى سأتحدث اليكم عمن تتألف منهم هذه الحكومة . انهسا تتألف من رجال قاتلوا وخاطروا بأرواحهم وعانوا انكم لا تستطيعون أن تخيفونا ولن تخيفونا بالعقوبات والتهديدات • لقد عاش شعب اسرائيل طيلة ٣٧٠٠ سنة بدون مذكرة للتفاهم مع أمريكا وسيستمر فى العيش بدونها لمدة ٣٧٠٠ سنة أخرى .

واتهم بيجين الادارة الامريكية بأنها اخلفت وعد الرئيس بفرض «عقوبات مالية عليها » ما الذى يريدون أن يفعلوه ؟ هل يريدون ضرب اسرائيل فى جيبها (اقتصاديا) ؟ .

فى عام ١٩٤٦ كان يقيم فى نفس ذلك المنزل جنرال بريطانى اسمه (باركر) وهكذا فاننى أعيش اليوم فى ذلك المنزل • وعندما ناضلنا وصفتمونا بأننا ارهابيون وواصلنا النضال . وبعد أن نسفنا مقر قيادته فى الجزء المنعزل من فندق الملك داوود قال (باركر) انكم لا تستطيعون معاقبة ذلك الجنس الا بضربة فى جيبه » .

وأصدر أمرا الى جنوده البريطانيون بحظر دخول كافة المقاهى اليهودية وكانت فلسفة (باركر) هى ضربنا فى جيوبنا .

ودافع رئيس الوزراء عن حق اليهود الامريكيين واصدقائهم فى الكونجرس فى الحديث بوضوح من اجل اسرائيل دون أن تخيفهم الدعاية المناهضة للسامية أو اتهامهم بتفضيل بيجين على ريجان على نحو لا يتسم بالوطنية .

لن يخيف احد الجالية اليهودية الحرة فى الولايات المتحدة وستقف هذه الجالية الى جانبنا فهذه ارض أجدادهم . ومن حقهم ومن واجبهم مساندتها . وهناك أولئك الذين يقولون أنه يجب الغاء القانون الذى اقره الكنيست . وكلمة الغاء هى مجرد مفهوم انتقل الينا من عهد محاكم التفتيش . وفضل أجدادنا الموت على الغاء عقيدتهم أما نحن فلن نموت . وأننى اشكر الله ، اذ لدينا قوة تكفى للدفاع عن استقلالنا والدفاع عن حقوقنا ومن فضلك قل لوزير الخارجية ان قانون الجولان سيظل سارى المفعول ، وليست هناك قوة فى العالم يمكن أن تلغيه .

وفيما يتعلق بالاتهام الخاص باحراج الولايات المتحدة ، اصر بيجين على أن اسرائيل تصرفت بسرية على وجه التحديد حتى لا تحرج الرئيس وقال .. اننا لا نريد أن تقولوا لا ثم نطبق نحن القانون على مرتفعات الجولان » .

ولم يخفف ذلك عن صموئيل لويس ، الذى ادهشه ان يرى الحكومة بأكملها مجتمعة فى حجرة الانتظار ، ومستعدة لسماع نفس مناجاة الذات مرة اخرى باللغة العبرية . بل شعر السفير بدهشة أكبر عندما سمع تقريراً شفويا فى مذياع السيارة قبل أن يكون لديه الوقت للذهاب الى تل أبيب وارسال .. رسالة للبيت الأبيض وشعر بان ذلك انتهاك كبير للياقة الدبلوماسية بين بلدين صديقين ، لقد قال بيجين الكثير عندما أتيحت له الفرصة ولم يشعر رئيس الوزراء بأى ندم حتى عندما أشارت الصحف الاسرائيلية الى أن الجنرال باركر كان يعيش بالفعل فى المنزل المجاور .

وسببت المواجهة التى حدثت حول ضم الجولان انخفاضا فى مؤشر العلاقات الاسرائيلية الامريكية ، واعتقد الاسرائيليون فى واشنطن أن (جيمس ريستون) كان يعكس تفكير الرئيس عندما كتب فى عموده فى صحيفة نيويورك تايمز أن كبار المسئولين الاسرائيليين يشعرون بأن بيجين كارثة مؤكدة على اسرائيل وبقية العالم وأشار الى انهم ينتظرون لان يفعل الشعب الاسرائيلى شيئا تجاه ذلك .

ولم تظهر تفهما للقضية الاسرائيلية سوى صحيفتين فقط من بين أحدى وأربعين صحيفة امريكية رئيسية علقت على موضوع الجولان .

واثناء عودة (كاسبار واينبرجر) وزير الدفاع الامريكى الى وطنه بعد جولة فى الشرق الاوسط فى شهر فبراير عام ١٩٨٢ سئل عما اذا كان هنـــاك جهد منسق لتتباعد الولايات المتحدة عن اسرائيـــل وتتقارب من العـــرب . فأجاب قائلا : أجل لن تصبح الولايات المتحدة رهينة لاسرائيل فى السياسة العسكرية » .

وافصح واينبرجر الــذى كان ينظر اليه بيجين على انه مسيحى مضطر للتعايش مع اسمه اليهودى للمراسلين بأن الادارة تعتزم كسب تأييد فى الكونجرس لبيع صواريخ هوك متحركة للدفاع الجوى وطائرات مقاتلة متقـــدمة طـــراز (اف ـ ١٦) الى الاردن وعلى الفور قامت اسرائيل بتعبئة اصدقائها للتصدى للصفقة الاردنية ، التى دفعت بانها ستعمل على تغيير التوازن الاستراتيجى ، الا ان واشنطن لم تعمل على تصعيد الازمة بصورة كبيرة ، وكان ريجان لايريد ان يعطى ذريعة لاسرائيل للتراجع عن الجلاء عن سيناء ، الذى كان من المقرر أن ينتهى يوم ٢٥ ابريل . وفى سلسلة من الخطابات والتصريحات أكــد الرئيس من جديد التزامه بالحفاظ على المزية النوعية التى تتفوق بها اسرائيل على الجيوش العربية ورفضه الحديث مع منظمة التحرير الفلسطينية مالم تعترف بحق اسرائيل فى الموجود فى حدود آمنة ومعترف بها .

ويبدو انه قد ثبت ـــ مرة اخرى ـــ صحة اقتناع بيجين بأن الامريكيين سوف يعودون مرة اخرى فى النهاية الا ان التوتر قد أخذ حقه مساهما بنصيبه فى الانهاك

ايضا الانسحاب من سيناء الذى قبله بارتباك شديد والذى تعارض مع قدراته كلها . وكان اليهود قد استقروا فى شبه جزيرة سيناء لان الحكومات المتلاحقة ذكرت ان اسرائيل تحتاجهم هناك وبعد ثلاثة شهور من تولى السلطة حصل بيجين على عضوية شرفية فى مستوطنة (نيوت سيناء) وهى مستوطنة تقع بين العريش وياميت انشأها اعضاء تنظيم شباب حيروت ، وتعهد بأن يعتزل هناك فى الوقت المناسب ويكتب مذكراته ووافق على أن يدفع للمستوطنين البالغ عددهم ٣٠٠٠ شخص تعويضا كبيرا مقابل جلائهم طواعية بدلا من أن يثير « حرب اليهود » واصدر تعليمات لتجنب حدوث معركة فاصلة عنيفة مع عدة مئات قليلة من المتعصبين ، الذين لم يعش معظمهم أبدا فى سيناء والذين يرابطون هناك فى الوقت الذى اقترب فيه الموعد النهائى . وفى النهاية تم اجلاء المستوطنات الثمانية عشر كلها بعد وقوع اشتباكات رمزية الا أن ذلك خلق سابقة وكان بيجين يعرفها . وبالتالى فلن يفكر حاكم عربى بعد ذلك فى السلام بدون ان يطالب بمستوطنات .

وبعد مرور ستة أسابيع على الانسحاب من سيناء ، كانت اسرائيل فى حرب فى لبنان . وكان بيجين يؤمن بأهدافها ، لكنه كان يريدها ان تنتهى بسرعة وبثمن زهيد وفى الوقت الذى كان يزداد فيه سلاح الدفاع الاسرائيلى غرقا فى المستنقع اللبنانى ويزداد فيه عدد الخسائر فى الارواح اسبوعا بعد اسبوع لاكثر من اثنى عشر شهرا كان رئيس الوزراء يزداد حزنا . وبدت كل خسارة فى الارواح اتهاما شخصيا ، وعندما كان (أزريل نيفو) يحمل اليه انباء حدوث ضحية اخرى، كان العاملون معه من هيئة مكتبه يرون الضيق على وجهه . وقال (بيهيل كاديشاى ان هذه الانباء تجعل الحزن يتراكم على وجهه وقال (يونا كليمو فيتزكى) سكرتيره الخاص ، بعد أن قدم استقالته ، انه شعر بالخيانة من جانب بعض الاشخاص الذين كان يثق فيهم لقد حمل على الاعتقاد بأننا سندخل لبنان ثم نخرج منها على وجه السرعة .

ومن المعتقد أن بعض الاشخاص الذين اشار اليهم هم وزير الدفاع ورئيس الاركان ولاحظ الاسرائيليون أن بيجين لم يحضر أية جنازة عسكرية ولم يزر ابدا المصابين فى المستشفى . ويبدو أن ذلك كان محنة كبيرة بالنسبة له . وفى يوم ١٥ سبتمبر وهو اليوم الذى أرسل فيه خطاب الاستقالة الى الرئيس (حاييم هيرتزوج) كان سلاح الدفاع الاسرائيلى قد دفن ضحيته رقم ٥١٨ من الجنود الذين راحت أرواحهم ضحية للحرب اللبنانية ، كان جنديا برتبة عريف يبلغ من العمر ٤٩ عاما اصابته قذيفة بازوكا فى كمين بالقرب من صور .

وازداد العبء الذى يقع على كاهله نتيجة للمذبحة التى حدثت فى مخيمات اللاجئين فى بيروت وأثرت فيه المظاهرات الضخمة والحملات الصحفية والاتهامات بالقتل التى وجهت اليه وكان بيجين ووزراؤه وجنرالاته تحت المحاكمة طيلة

ستة شهور تقريبا وابتداء من شهر نوفمبر كانت هناك تسع شخصيات عامة ، من بينهم بيجين وشارون وشامير تحت اشعار بأنهم قد يضطرون للمشاركة فى تحمل اللوم .

ولفتت لجنة كاهان نظرهم الى أنهم فى خطر وأعطتهم فرصة للدفاع عن أنفسهم ولم ينسب تقريرها الذى تم نشره فى شهر فبراير الا قدرا محدودا من المسئولية لرئيس الوزراء ، وهى اخطاء تتعلق بالاهمال وليست اخطاء ارتكبها . الا أن بيجين بعقليته القانونية وشعوره بالكرامة لم يكن بمقدوره أن يغفل هذه الوصمة . واضطرته الازمة التى نشبت حول استقالة شارون الى تأكيد سلطته ، لكنه فعل ذلك بقلب منقبض وفى الوقت نفسه فى خريف عام ١٩٨٢ كان يتصدى لمشروع ريجان الذى استهدف جر الاردن الى عملية السلام . ورفض بيجين المشروع باعتباره خطرا آخر على وحدة أرض اسرائيل وكان يجب الا ينزعج ، لان الملك حسين لن يتصرف بدون موافقة منظمة التحرير الفلسطينية وقد مارس الفلسطينيون مرة أخرى مع ذلك حقهم فى الفيتو .

وحدث ذلك كله فى ظل تدهور صحة (اليزا بيجين) ثم وفاتها يوم ١٣ نوفمبر عام ١٩٨٢ . وقد عانت زوجة رئيس الوزراء من ربو مزمن لعدة سنوات . وفى شهورها الأخيرة كانت تتنفس بصعوبة كبيرة وطبقا لما ذكره احد اصدقاء العائلة ، فان ٣٠٪ فقط من كمية الأوكسيجين الطبيعى هى التى كانت تصل الى رئتيها . ولم يكن بوسع الاطباء أن يفعلوا شيئا سوى الابقاء على حياتها بمساعدة الأجهزة الطبية .

كان بيجين يزورها كل يوم فى مستشفى الهاداساه بل وأحيانا مرتين فى اليوم ويتصل بها تليفونيا عندما يتسنى له ذلك . وقبل وفاتها باسابيع قليلة أرسل (أرماند هامر) قطب شركة البترول اليهودية الامريكية وهاوى الفن الذى استخدم صلاته بالكريملين لمساعدة بيجين فى الحملة من أجل اليهود السوفييت ، اثنين من المتخصصين لفحص حالتها ، وقد أوصيا بعلاج جعل تنفسها أكثر سهولة لبعض الوقت . وشعرت انها فى حالة طبية تمكنها من أن تحث رئيس الوزراء على أن يقبل دعوة لزيارة واشنطن لعقد اول اجتماع له مع الرئيس ريجان منذ خمسة شهور . وفى الطريق الى واشنطن كان من المقرر أن يدلى بخطاب فى حفل عشاء لجمع التبرعات فى لوس انجلوس . وقام ابنه (بنيامين) بنقل أنباء وفاة (اليزا) الى جناح بيجين فى الفندق هناك . وتلقى الرسالة (ييهيل كاد يشاى) الا أنه أراد أن يكون الدكتور جوتسمان موجودا عندما يبلغ رئيس الوزراء بالنبأ . وكان ذلك بعد ظهر يوم السبت فى كاليفورنيا وكان الطبيب قد ذهب الى احد المعابد اليهودية ، واتصل به السكرتير السياسى لمناحم بيجين بطريق المذياع . وفى الوقت الذى كان فيه (جوتسمان) فى طريقه عائدا الى الفندق ، كان بيجين قد ارتدى ملابس السهر ورباط عنق اسود لتناول العشاء . وكان حاضرا أيضا (هارت

هاستين) وهو يهودى أمريكى مخضرم من حزب حيروت وزوجته بالاضافة الى (ليه) ابنة بيجين والمضيفة الأرضية التى اصطحبتهما فى الرحلة وأنفجرت (ليه) فى البكاء عندما نقل النبأ لها ولوالدها وتم اعداد الترتيبات لعودتهما الى الوطن على متن طائرة بوينج ٧٠٧ من السلاح الجوى الاسرائيلى مخصصة لرئيس الوزراء وقال (كاديشى) ان عدم وجوده الى جانب زوجته فى الساعات الأخيرة من حياتها قد سبب له ألما كبيرا .

ولم يخرج بيجين من كابينة نومه الصغيرة المزودة بالستائر خلال الرحلة التى استغرقت ست عشرة ساعة من لوس انجلوس الى تل أبيب وظل على متن الطائرة عندما توقفوا لاعادة تزويدها بالوقود فى نيويورك . وكان يتجرع حزنه وحده معظم الوقت .

وعندما عاد بيجين الى شارع بلفور ، اقام حدادا على « عروس شبابه » لمدة سبعة أيام حسب التقاليد وظل بدون حلاقة لاكثر من شهر واقتنع اصدقاؤه العاملون من هيئة مكتبه بأن وفاة (اليزا) بعد زواج دام ٤٣ عاما هو القشة الاخيرة التى قصمت رغبته فى الحكم . وقال احدهم ان بيجين مر بأوقات قبل اتخاذه قرارات حياة أو موت ولكنه لم يشعر باليأس أبدا ولم يفقد قدرته على الزعامة .

لقد أصبح شخصا وحيدا ، بعد وفاة (اليزا) وهو ليس رجلا ثرثارا ، حتى لو كان يستطيع أن يكون خطيبا ساحرا بكلماته . وهو يتحدث الى الناس وليس معهم وباعتباره شخصية مهيمنة فهو لم ينقل المسئولية أبدا الى الآخرين . وكانت زوجته هى الشخصية الوحيدة التى يستطيع التحدث معها واشراكها فى مسئولياته ومشاكله وكانا قريبين للغاية من بعضهما . وبعد أن توفيت كان يعود الى بيته ولا يجد أحدا يتحدث اليه . لقد كان فى حرب وكان الناس يموتون ولم يكن معه احد ليشاركه فيها .

وحاول بنيامين ابن بيجين أن يملأ الفراغ وكان قريبا جدا من رئيس الوزراء ــ شخصيا وسياسيا ، وكان يتواجد فى المكتب فى معظم الأحيان عندما يتم اتخاذ قرارات حاسمة ــ الا ان (بنيامين) لم يستطع أبدا أن يملأ مكانة أمه ، فقد كانت له زوجة وستة أطفال بالاضافة الى وظيفته كجيولوجى وكان يكره خروجه على الملأ ويقول أحد اصدقائه ان بنيامين فعل ما فى وسعه لكن الأمر كان مختلفا ومنذ نهاية عام ١٩٨٢ وبعد مرور شهر بالكاد على وفاة (اليزا) بدأ بيجين يفقد وزنه وقوته . ولم يكن يتناول طعامه بصورة طيبة ، وعلى مائدته المفضلة فى صالة تناول العشاء فى الكنيست لم يكن يتناول سوى طبق صغير من الخضروات . وقد توقف عن طلب طبق الدجاج والشوربة ، الذى كان يمثل طعامه الرئيسى . وأصبح وجهه ورقبته غائرين وهزيلين وعندما ألح عليه أحد مستشاريه ليتناول الطعام ، رد قائلا : لم تعد عندى شهية.

وعلى الرغم من تدهوره الواضح أصر كبار المسئولين فى العلانية وفى السر على أنه لا يتلقى اى علاج خاص سواء كان طبيا أو نفسيا . الا أن حالة الاكتئاب كانت تزداد سوءا وقال أحد مستشاريه المقربين « لقد كان يتعامل مع الاشياء الكبيرة أكثر من تعامله مع الاشياء الصغيره ولم يكن يقرأ الصحف بنهم كعادته . وقلت اجتماعاته وأصبح هرما . وشعر دبلوماسى أمريكى يعرف بيجين جيدا أنه لم يعد يستمتع بكونه رئيس وزراء اسرائيل ، فقد أصبح ذلك بالنسبة له عملا روتينيا بل عملا شاقا وكان يشترك فى المفاوضات ويفهم ما يجرى مناقشته الا أنه ترك جانبا كبيرا من التمثيل الاسرائيلى لرفاقه وولت هيمنته وسيطرته . وفقدت مشاركته شرارتها الخلاقة ولم يعد يتطلع الى صيغ جديدة وطرق للالتفاف حول المشاكل وقلت المناسبات التى يتأمل فيها ورابطت حركة (السلام الان) أربعة شهور خارج مقر رئيس الوزراء ومعها لوحة بالقتلى يطاردونه بها عند خروجه أوعودته . ورد (مائير كوهين) العضو البرلمانى بكتلة ليكود على ذلك بالاضراب عن الطعام وظهر بيجين ليطلب منه الاقلاع عن اضرابه . الا أنه سار كانسان آلى فى اتجاه خاطىء . فأخذه احد رجال الامن من كتفه وقاده الى الطريق السليم وعندما استقبل مجموعة من أصدقاء أسرائيل من الشباب الامريكى المسيحى ، سأله زعيمهم عما اذا كان رئيس الوزراء لديه اية رسالة لهم ليحملوها عند عودتهم الى الوطن ، رد عليه بيجين بالنصيحة التى اعتاد أن يقدمها ليهود الشتات وهى « تعلموا العبرية واقدموا وعيشوا فى اسرائيل » .

وعلى الرغم من أن المتحدثين المخلصين له زعموا حتى آخر لحظة أن بيجين مازال يدير دولاب العمل الا أن قبضته على ناصية الامور قد ضعفت وقد شعر بالحرج من دعوة له بزيارة الرئيس ريجان فى نهاية شهر يوليو ، بالرغم من انه كان يلح عليها بشدة فى وقت مبكر من العام . ومنذ اللحظة التى سلم صموئيل لويس فيها رسالة الرئيس كان بيجين يبحث عن مخرج . وقال لموظفيه اننى لست قادرا على الوقوف أمام الجمهور وطلب السفير ردا عاجلا لان البيت الابيض يريد الاعلان عن الزيارة فى اليوم التالى يوم الجمعة ، لكن بيجين طلب بعض الوقت وقال له : ومن فضلك أن تبلغ الرئيس بأننى سأرد عليه فى بداية الاسبوع القادم .

وبمساعدة يهودا افنر الذى يتولى مراسلاته المكتوبة باللغة الانجليزية قبل بيجين الدعوة فى الاسبوع التالى الا انه دس عبارة كمخرج له . وقال انه سيكون سعيدا لان يزور واشنطن . ويتوقف ذلك على قدرتى على مغادرة البلاد فى ذلك اليوم وكانت هناك ثلاثة أسابيع لا تزال أمام الزيارة ، وحققت له الرسالة فترة سماح مدتها أسبوعين الا أن ذلك لم

يحقق شيئا ، فمازال بيجين غير قادر على مواجهة العـالم وتمت صـياغة عدد مختلف من الخطابات الدبلوماسية ، الا أن رئيس الوزراء قرر أن السبيل الوحيد هو الاتصال تليفونيا بالرئيس ريجان ويطرح أسبابه الشخصية للتأجيل ومما بعث الراحة فى نفوس الاسرائيليين أن البيت الابيض أصدر اعلانا لبقا استخدم فيه تلك الكلمات لاسباب شخصية بدون أى تفسير أكثر من ذلك . وأمسك به مكتب رئيس الوزراء كما لو كان بيانا مشتركا متفقا عليه . وكانت الاسباب الشخصية مناسبة للقدس مثلما كانت مناسبة لواشـنطن .

وفى اسرائيل لم يظهر بيجين على منصة الخطابة أو على شاشة التليفزيون ولم يعط أية أحاديث وكان الاقتصاد فى حالة فوضى وكان الوزراء يتجادلون بحدة حول اجراء خفض فى الميزانية ، وأصاب الخدمات الطبية شلل بطىء نتيجة لاضراب الاطباء الذى استمر ١١٧ يوما ولم يكن هناك من سبيل للخروج من لبنان وانزوى بيجين بعيدا معظم الوقت ومع ذلك لم يتول أحد سلطته . وتوفى (سيمحا أرليـك) نائب رئيس الوزراء المسن فى شهر يوليو ، وبدا الرئيس بدون هدف أكثر من أى وقت مضى وتم ترك الامر الى (أهرون بوزان) الذى ينتمى الى حزب (تامى) الصغير الثائر ليكسر مؤامرة الصمت . وقال (أوزان) وزير الدعاية الاجتماعية وهو فلاح من تونس أن (الحكومة تشبه سفينة بدون قائد) وعلى سبيل المثال فان مناقشة الميزانية قد جرت فى جو من الفوضى لا يمكن تصديقه .

(كانوا يقضون ثلاث ساعات من الساعات التسع يفكرون كيف يتخذون القرار بدلا من اتخاذ القرار وفى النهاية لا يعرفون ما تقرر وكان جميع الوزراء يصطفون فى سكرتيرية الحكومة للنظر فى المحاضر ليعرفوا ماتقرر) .

وبالتأمل فى الاحداث الماضية كانت هناك حتمية حول تقاعد بيجين ، وليس من الممكن اخفاء الحقيقة الى الابد ، وكان يزداد احساسا بعدم قدرته . وقد قال مرارا أنه سيتقاعد فى السبعين من عمره ، ومع ذلك فان اعلانه فى نهاية اجتماع روتينى للوزارة يوم ٢٨ اغسطس عام ١٩٨٣ بأنه يعتزم الاستقالة قد أدهش الجميع ، اللهم الا حفنة من المقربين اليه . بل حتى هم لم يكونوا لديهم علم بخططه حتى قبل اجتماع الوزارة مباشرة .

وكما كان يحدث فى معظم الاحيان فى السر وفى الحكومة ، لم يشاور بيجين سوى نفسه واتخذ قراره الخاص وحينذاك ابلغ به ابنه بنيامين وسكرتيره السياسى (ييهيل كاديشاى) وسكرتير الحكومة (دان مريدور) ورفيقه القديم فى جماعة (ارجون) (يعقوب ميريدور) وكان الاعلان عن هذا القرار أمام الحكومة تمهيدا دستوريا ضروريا قبل الذهاب الى الرئيس .

وقال بيجين لزملائه الذين جاءوا الى حجرته بعد ان انفض اجتماع الوزارة .. « اننى أشعر بأنه ليس بمقدورى تحمل مسئولياتى تجاه الامور كما هى عليه ، وبالطريقة التى أودها والطريقة الواجبة » .

ومع ذلك ، وافق على الاستماع الى ممثلين من جميع احزاب الائتلاف الذين كانوا يخشون من النتائج الانتخابية ويأملون فى اقناعه باعادة النظر فى الموضوع وناشدوه لمدة يومين باسم الله وجابوتينسكى ، فى الوقت الذى اصطف فيه مئات من الناخبين فى كتلة ليكود خارج منزله ينشدون قائلين : « بيجين ، ملك اسرائيل » . لكن كان ذلك كله بدون جدوى .

ولم يكن ذلك هو بيجين عام ١٩٦٦ الذى كان يثير الفزع فى نفوس اتباعه — ويضطرهم الى الوقوف فى صف واحد مهددا بالاستقالة . وابلغ (ميريدور) بصورة قاطعة اسكتت المتضرعين اليه « لا أستطيع الاستمرار » .

وكخدمة أخيرة لحزبه ، وافق بيجين على الانتظار الى حين أن يتم اختيار خليفة له . وكان متأكدا من الفوز بالتأييد البرلمانى قبل أن يبلغ الرئيس هيرتزوج وكانت المناورة السياسية هى التى انتقصت من كرامة رحيله ، ولاسيما عندما بقى أكثر من اللازم ، الا أن تصرفه هذا يتسم بالولاء كان من الممكن أن يفهمه بن جوريون أو جولدا مائير . وكان التوازن بين كتلة ليكود وحزب العمل دقيقا للغاية لدرجة أن ادنى خطأ فى التقدير قد يجلب المعارضة .

وتم اسدال الستارة النهائية فى دراما الحياة العامة لمناحيم بيجين على مسرح خاو . وانكمش رئيس الوزراء فى قوقعته وبات لا يأكل الا قليلا ولم يعد يحلق ولا يرى سوى عائلته ومستشاريه المقربين .

وظل بعيدا عن اجتماعات الوزراة ولم يحضر صلوات العام اليهودى الجديد ولمتكن لديه رسالة وداع الى البلد ولم يلعب دورا فى اختيار اللجنة المركزية لحزب حيروت لاسحق شامير كزعيم جديد لها ولم يرسل أية تهانى .

وفى ظهر يوم الخميس الموافق ١٥ سبتمبر ، أرسل بيجين (دان ميريدور) الى منزل الرئيس باستقالته الرسمية .

وقال متحدث انه لا يريد الظهور على الملأ لانه يعانى من طفح جلدى يمنعه من الحلاقة . وتم الاعتراف فيما بعد بأنه كان يستخدم مرهما لحالته طيلة ٣٥ عاما ومرة اخرى لم يستطع بيجين ببساطة أن يواجه العالم وبعد ذلك بسبعة أسابيع اقيمت صلوات تذكارية فى مدفن جبل الزيتون فى الذكرى الاولى لوفاة (اليزا) ولم يحضرها بيجين ، الذى مازال يعيش كما لو كان يعتزل العالم فى مقر رئيس الوزراء .

الفصل الرابع والعشرون

البيت الذى شـــــيده مناحـــــيم

لقد حكم مناحيم بيجين اسرائيل لمدة ست سنوات وثلاثة شهور ، مما جعله رئيس الوزراء الذى يحتل المرتبة الثانية طول مدة الخدمة فى ذلك المنصب بعد (ديفيد بن جوريون) الاب المؤسس للدولة . وقد كشف عن نفسه كرجل معقد ولكنه ليس غامضا . ورجل متناقض فى صفاته الظاهرية وان كان غير لغز . وهو ارهابى لم يسبق له مثيل فاز بجائزة نوبل للسلام ثم شن حربا اخرى .

وهو ديمقراطى ولكنه مستبد . كما أنه زعيم ليس للدهاء وسيد بولندى وبطل شرقى يحظى بالاعجاب . وهو رجل حسن السمعة يجد من الحكمة قراءة الحروف الصغيرة وهو متآمر يجد من العسير الحفاظ على سر .

ووصفه الاسرائيليون بأنه أول رئيس وزراء له آيدلوجية ومن المؤكد أنه أكثر الرجال عزما فى اسرائيل . وكانت الاولوية الكبيرة بالنسبة له هى ضمان الوطن القديم كله فى غرب الاردن للشعب اليهودى . وفى الوقت الذى تقاعد فيه اعترف حتى معارضوه أنفسهم بأن ذلك التقاعد سيأخذ معه زعيما ليس أقـل تفانيا وليس اقل قوة لعودة خطوط التقسيم . وفى شهر مايو عام ١٩٧٧ ، عندما وعد بيجين « الكثيرين فى الون موريه » كانت هناك ٢٣ مستوطنة يهوديـــــة فى الضفة الغربية وواحدة فى قطاع غزة وفى شهر ستمبر عام ١٩٨٣ كانت هناك ١١٢ مستوطنة فى الضفة الغربية وخمس مستوطنات فى غزة . كمـــا ان عدد السكان اليهود الذين يعيشون خلف « الخط الاخضر » القديم قد زاد من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠ نسمة (بما فى ذلك مدينتا « معاليه أوديم » و « أمانوبـــــل » الجـــــديدتين) .

وذلك علاوة على أن نمط الاستيطان قد تغير . وفى ظل حكومة حزب العمل كان التركيز ينصب على نهر الاردن وعلى استيطان الحدود الاستراتيجية . وتم عمدا الابقاء على المستوطنات بعيدا عن منطقتى يهودا والسامرا الواقعتين على التلال حيث يتمركز معظم السكان العرب . ويريد حزب العمل الابقاء على خيار التسوية الاقليمية أما مناحيم بيجين فقد قلب الاتجاه الذى تسير فيه الامور وسحب الموارد بعيدا عن الهوامش الشرقية وجعل المستوطنات متناثرة بين المـــــدن والقرى العربيـــــة .

وفى أول الامر لم يتطوع سوى الذين لديهم ايدويولوجية للاقامة فى تلك المواقع المتقدمة ، لكن بالتدريج تجرعت العائلات العادية الطعم الذى نصبته لهم الحكومة

وانتقلت الى الضفة الغربية لان الاسكان هناك اكثر رخصـــا واصـــبحت المستوطنات على مقربة من القدس وتل ابيب لتكون بمثابة صوامع يمكن الانتقال منها بين المدينة والضاحية .

وبعد سنوات من العداء المستمر اعترفت حتى الولايات المتحدة نفسها بأن المستوطنين يوجدون هناك ليبقوا · وفى اليوم الثانى من اغسطس عام ١٩٨٣ ، صرح (شارلز ليتشتنيستين) نائب مندوب الولايات المتحدة فى الامم المتحـدة لمجلس الامـــن بمـــا يلى :

« اننا لا نعتقد انه امر عملى أو حتى مناسب المطالبة بازالة المستوطنات القائمة . ان مستقبل المستوطنات يعد من القضايا الرئيسية التى تحتـاج الى معالجة فى المفاوضات . وليس بوسعنا أن نقبل استمرار الدفع الذى يتساءل عما اذا كانت المستوطنات غير شرعية » وهو دفع سيطر — لســوء الحظ — على المناقشات التى جـرت فى الامم المتحـدة حول هذه المســألة مما لم يكن فى صالح القضية الاساسية ، الا وهى كيف يمكن تحقيق حـل عادل وسلمى للنزاع القائم حول الاراضى المحتلة » .

وبكلمة أخرى ، تم خلق حقائق وكانت ادارة ريجـــان واقعيـة للغاية بحيث لا يمكنها أن ترغب فى ازالتهـــا . وفى الوقـــت نفســـه فان الحـكم الذاتى الفلسطينى كما هو متصـــور فى كامب ديفيد كان بمثابة خطـــاب ميت . وبعد مرور خمسة اعوام على اتفاق بيجين — والسادات ، لم يكن هنـــاك مجلس للحكم الذاتى فقط بل لم تكن هناك مفاوضات أيضا وبدأ الفلسطينيون الذين يرزحـــون تحت وطأة الاحتلال يفقدون حقوقهم بالتدريج كما أن وضـــع المستوطنين قد تدعم واكتسبت صفة الشرعية مع كل شهر يمر .

ومع ذلك لم تلغ مصر معاهدة السلام لقـــد كان ســــلاما فاترا على كلا الجانبين ، الا انه سمح لبيجين أن يشن حربا فى لبنان بدون أن ينزعج بلا داع حول جناحه الجنـــوبى .وسمح له بالمضى قدما فى كسب معركته من أجـــل ارض اسرائيل .

وفى عيد الميلاد السبعين لرئيس الوزراء ، كتبت صحيفة « التايمـــز » الصــــادرة فى لندن والتى لم تعتبر ابدا من بين معجبيه تقول ما يلى :

« على أية حال فان بيجين لديه الان وهو فى السبعين من عمـــره مبرر للشعور بالارتياح ان السياسات التى انتهجتها تشكل ضغوطا على المجتمـــع الاسرائيلى وعلى اقتصـــاده .

الا انه يمسك الان فى يده بزمام المبـــادرة الاستراتيجية ضـــد جيرانه ، وهم يعرفون ذلك . وذلك موقف غير عادى بالنســـبة لاسرائيـــل ولا يحظى

بترحيب بالنسبة للعرب ، وهو ايضا موقف غير مريح بالنسبة لجميع الاطراف المتفرجة التى تريد اقحـام نفسها فى الامـر » .

ويعترف العالم بأنه فى ظل حكومة ليكود محت القوات المسلحة الاسرائيلية وصمة العـار التى ترتبت على حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ وسـواء كان ذلك امرا طيبا أم سيئا فان موقف اسرائيل قد تأثر كقـوة اقليمية عظمى . وأدى قصف المفاعل العراقى واخضاع منظمة التحـرير الفلسـطينية فى بـيروت والسوريين فى شرق لبنـان الى استعادة الردع الاسرائيلى . ومع ذلك ، ففى غضون أيام من المقال الافتتاحى الذى أوردته صحيفة التايمز ، كان هناك تساؤل مرة أخرى حول مزاعم الصقور بأن بيجين .. « قام بالقصاص وأكد من جـديد ثقة الاسرائيليين فى انفسهم واقتناعهم بأنهم يستطيعون ، جزئيا على الاقل تقرير الظروف التاريخية » . وكان تجـدد الحرب الاهلية فى لبنان بعد ان انسحبت القـوات الاسرائيلية من جبال الشـوف آخر مسمار فى نعش المخطط الكبير الذى وضعه أرييل شـارون . وانهار المحور الاسرائيلى المارونى وكانت سـوريا لا تزال الشقيق الاكبر للبنـان ، كما بدأ يتسـلل رجال المقاومة الفلسطينية وكانت الديبلوماسية العربية هى أمل الرئيس أمين الجميل الاخير . وفى الصيف الماضى ، طالبت الكتائب اسرائيل بالكثير ، وكانوا يتوقون لذبح الفلسطينيين وليس لمحـاربة منظمة التحـرير الفلسطينية ومع ذلك ، كان هناك حـد للتضحية التى يمكن أن تفكر اسرائيل فى تقديمهـا لصالحهم والتضحية فى الارواح وفى السمعة . ونتيجة لذلك لـم يتم طـرد السوريين والفلسطينيين من شرق وشمال لبنان ولـم يكن أمين الجمـل ، الذى حل محل (بشير) الذى قتل لديه نفس ميل شقيقه للرابطة الصهيونية . لقـد عقد اتفاق يرقى الى معاهدة سـلام بين القدس وبيروت فى بدايـة عام ١٩٨٣ ، الا أن اللبنانيين لم يصدقوا عليـه ابـدا وسرعان مازال . وكان هناك حفيف من النقمة فى زيارة قام بها شارون الى حلفـائه المسيحيين القدامى فى شهر اغسطس وقد ذكر عند عودته الى تل أبيب ما يلى :

(لقد اجتمعت مع شخصيات رئيسية وقلت لهم عدة مرات انه على الرغم من أن اسرائيل لم تخض حربا لتخلق موقفا جـديدا فى لبنان ، أو لتمكنهم من الحكم فى لبنان فمازالت لديهم فرصـة أعتقد أنها لن تحين مرة أخـرى لتكون لهم دولة مستقلة خاصة بهم وهذه الفرصة تختفى تدريجيـا . وأعتقد أن أيامها معدودة . وقد فقدت لبنان بيديهـا فرصـة فى الوجود كدولة مستقلة) .

ولـم يعد اللبنانيون يعطون آذانا صاغية ، وفى اسرائيل كان يقـوم بصنع السياسة رجال آخرون أكثر مللا . وكان الاهتمـام الاول لموشى أرينز حليف شارون هو الحد من خسائر اسرائيل ، فى الوقت الذى ينقذ فيهـا الاهداف الاصلية المتواضعة لعملية السلام من أجل الجليل . وعندما قـدم

(بيجين) استقالته ، بدا كما لو كان السبيل الوحيد الذى تستطيع اسرائيل أن تضمن به عدم سقوط صواريخ كاتيوشا أخرى على كريات شمونة هو الابقاء على حامية دائمة على طول نهر الاولى .

خلال الاعوام الستة التى قضاها مناحيم بيجين فى السلطة أعاد رسم خريطة فلسطين ، الا انه لم يحل مشكلة الفلسطينيين وكانت ارض اسرائيل التى ورثها لاسحق شامير هى دولة ثنائية القومية قيد الاعداد وارض تضم ثلاثة ملايين ونصف المليون يهودى ومليونين من العرب . وكان الفلسطينيون يوجدون فى الوطن الموسع ولكنهم ليسوا منه . ولم تكن الاطماع الصهيونية لاسرائيل هى اطماعهم . ولم تكن كذلك فى معظم الاحيان ، ديمقراطيتهم أو جيش مواطنيهم أو مؤسساتهم ، التى عرضتهم للخطر نتيجة لعادة الاحتلال . لقد خضع العرب للسور الحديدى الخاص بجابوتينسكى الا انهم لم يذعنوا للهيمنة الاسرائيلية . ان هناك اعداد كبيرة منهم للغاية — فى الاراضى المحتلة وفى اسرائيل الحقيقية لدرجة لا يمكن ان يتم معها استيعابهم كاقلية سلالية كما أن معدل مواليدهم المرتفع جعل الجانب السكانى فى صالحهم . وكان مشروع بيجين للحكم الذاتى اعترافا ضمنيا بالمشكلة الا انه لم يبذل جهدا اكيدا لوضعه موضع التنفيذ ولم تنجح الحرب اللبنانية فى تدمير منظمة التحرير الفلسطينية كعامل سياسى فى المعادلة مثلما فشلت ايضا فى تغذية زعامة محلية مستقلة مستعدة لتحقيق سلام بشروط اسرائيل .

واصبحت الاراضى المحتلة ساحة للمواجهة بين نقيضين : الارهاب العربى مقابل الارهاب اليهودى ، فى الوقت الذى تعتبر فيه الاحتمالات مشحونة بقوة ضد العرب . ان الرجال والنساء الذين تحدوا الحكومات المتعاقبة لحزب العمل وكتلة ليكود يجلسون الآن فى الوزارة وعلى مقاعد الائتلاف . واصبح الشاذ هو القاعدة وفرض أعضاء لجان الامن الاهلية المسلحون بأسلحة قوات الدفاع الاسرائيلى رؤيتهم الخاصة بالانتقام العين بالعين . وعلى سبيل المثال ، عندما تم قتل احد اليهود فى الخليل فانهم خرجوا فى هياج واحرقوا السوق العربية وشكت قوات الامن من التدخل السياسى عندما حاولوا محاسبتهم . وكان قاطعو الطرق « صبية يهود طيبين » يقومون بالاعمال القذرة وكان يوجد على الدوام عضو برلمانى أو حاخام ليذكر الشرطة . وفى ظل الجنرال (ايتان) اصبح الجيش فى الضفة الغربية أداة لحركة (جوش ايمونيم) واصبح تماسكها فى خطر . وقدم الجيش للمستوطنين المزيد من المساعدة والمساندة .

وكتب (يورام بيرى) فى مقال بعنوان « بين المعارك والاقتراع » دراسة للعسكرية فى السياسة . قال فيها :

لم يتم اعفاء المستوطنين الشرعيين من الدعاوى القضائية فقط ، بل كان يصل الامر فى بعض الحالات الى حـــد ايوائهم فى معسكرات قوات الدفاع الاسرائيلى وتجاهل الجيش أعمال الاستفزاز والتخريب التى يقوم بهـــا المستوطنون ضد السكان العرب فى هذه الأراضى • ومن ناحية أخرى ساعدت قوات الدفاع الاسرائيلى المستوطنين على انشـــاء وحداتهم الخاصة بالدفاع عن النفس وتـم تزويدهـم بالاسلحة والسماح لهـم بضبط امنهـم الخاص فى الأراضى •

ومنذ اللحظة التى انحاز فيها رئيس الأركان الى جانب واحـــد فى المناقشة العامة مورطا معه قوات الدفاع الاسرائيلى ـ فقد الجيش ميزة التقدير الكبيرة فى نظر المجتمع برمته • ولم يعد يعكس المجتمع كله ، بالرغم من انه أصبح يحظى باعجاب معسكر سياسى واحد ، نظر اليه الجانب الآخر على أنه خصم سياسى • وبذلك أصبحت المرحلة التالية حتمية ـ وهى المرحلة التى تبتعد فيها جماعات معينة تماما عن الجيش •

وعجل بالعملية « خيار الحرب » الذى انتهجه بيجين فى لبنان • فقـد طالب قائد لواء أن يتم اعفاؤه من منصبه وفضلت قوات الاحتياط الذهاب الى السجن عن العمل شمال الحدود • وقام الآباء بمظاهرات ضد استغلال أبنائهم الجنود ، وازدادت شدة الانقسام الثقافى وأدين المنشقون بأنهم متواطئون مع منظمة التحرير الفلسطينية وبذلك هيأوا الجو لعمليات العنف بل والقتل •

وكان بيجين مثله فى ذلك مثل جميع رؤساء وزراء اسرائيل السابقين مشغولا بالامن وبالشئون الخارجية • الا ان عهده عانى من اسلوبه المستبد فى الزعامة • وقد عهد (بن جوريون) بالشئون المالية والداخلية الى ليفى أشكول (أما جولدا مائير) فكان لديها بنحاس سابير وكتابه الاسود الصغير • ولم يعين (بيجين) أى سيد أعلى محلى • وكان يفوض المسئولية دون السلطة • وهو لا يستطيع أن يتسامح مع أى محور منافس للسلطة ومع ذلك لم يكن لديه الميل أو الوقت لتوجيه الجبهة الداخلية بنفسه •

وعلى سبيل المثـــال ، فان تجديد المشروعات ، وهو مشروع خيالى لاصلاح الاحياء الفقيرة ومدن التنمية من خلال مشاركة الشتات الاسرائيلى انما هو مشروع من بنات افكار رئيس الوزراء • الا انه بمجرد أن أطلق شرارته فى حمية النصر الانتخابى الخاص بعام ١٩٧٧ تركه لمستقبل غامض فى ايدى مرءوسيه • وفى كل مكان آخر فانه وقع رهينة للسياســات الاقتصـــادية المغامرة الخاطئة (ليورام أريدور) •

وفى الوقت الذى تقاعد فيه (بيجين) كان التضخم قد وصل الى حوالى ١٣٠٪ فى العام وكانت قيمة الشيكل تنخفض بمعدل ١٪ كل يومـين أمام الدولار الامريكى وكـان الركود يخيم على الانتـاج الصـناعى وكـان

الفلاحون يواجهون الافلاس وزادت الواردات على الصـــــادرات بدرجة مخيفة وانفجر فوران البورصة . وزاد الدين الخارجى الاسرائيلى ٥٠٠ مليون دولار حتى أصبح اجماله ٢١٫٥ بليون فى النصف الاول من عام ١٩٨٣ . وحــذر المسئولون بالبنك المركزى الحكومة من نشوب ازمة اذا استمر ذلك الاتجـاه . وعلى الرغم من تحدى (بيجين) لاثنين من الرؤسـاء ، كانت اسرائيل مدينة بالفعل بصورة أكبر للولايات المتحـدة وبالتالى أكثـر عرضة للضغط من اى وقت مضى من جانب الولايات المتحدة التى تحسن اليها .

واسرائيل التى خلقها مناحيم بيجين فى تصوره اكثر يهودية على وجه التحديد واكثر عداء واكثر عزلة . وأصبحت التوترات الاجتماعية والدينية اكثر قربا من السطح ألا أنه كما أوضحت لجنة (كاهان) فان الحكومة كانت ولا تزال مسئولة امام الشعب وكانت الديمقراطية وحكم القانون لا يزالان سائدين ونشيطين . ولم تسكت الصحافة النداءات الى الوطنية . وفى خريف عام ١٩٨٣ ، أظهر التحرر من مشاكل لبنان أن الاسرائيليين يدركون حدودهم وجوانب قوتهم ولم يكن ذلك هو التراث الذى قصد رئيس الوزراء السادس أن يتركه لشعبه ، الا أنه تراث يستحق الاعزاز .